مغامرات سبوتنيك

مكتبة
٥٣٩

رواية

من أفضل 100 كتاب في العالم

تيري فافرو
Terri Favro

ملهمون
للنشر والتوزيع

مكتبة | 539

مغامرات سبوتنيك
t.me/t_pdf

الكتاب: **مغامرات سبوتنيك**

المؤلف: **تيري فافرو**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار ملهمون للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى: **نوفمبر** 2018

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-1773-05-006-5

إذن الطباعة: MC-10-01-6473874

الطباعة : مطابع Ömür Matbaa –تركيا +902124227600

التصنيف العمري: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

ترجمة : **مجموعة فور كورنرز**

FOUR فور

للتواصل مع الدار: 0097143460891

موقع الدار: www.darmolhimon.com

ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON

٢٠١٩ ١٢٩

مكتبة
t.me/t_pdf

info.darmolhimon@gmail.com darmolhimon @darmolhimon @DarMolhimon

مكتبة | 539

تيري فافرو

مغامرات سبوتنيك

إهداء إلى
رون وجيكوب وجوي
وإحياء لذكرى
روزا سكروتشي و نونا جيجي

"هـل أنقـذت الكون، أم أننـي اسـتيقظت مـن حلـم؟ هـل يمكـن محـو المسـتقبل الـذي كان إلـى الأبـد؟ وهـل الكـون هـو الكون أم جمـرة وامضـة مـن الخيـال، تتبـدد عند الرغبة؟ عندما يقال ويُفعَل كل شـيء؛ يبقـى السـؤال مـن هـو الحالـم وما هـو الحلم؟"

المتزلج الفضي (ستان لي): عَوالَمٌ بلا نهاية، ١٩٦٩.

انضم إلى مكتبة .. .. اضغط اللينك

t.me/t_pdf

"افترض أنـك قابلـت إمـرأة ترقـد فـي الشـارع، وفيـلاً قابعًـا فوق صدرها، ولاحظت أنها تعاني من ضيقًا في التنفس، فهذا الضيق قـد يكون عَرَضًـا لمشـاكل فـي القلب، ولكن في حالتها؛ سيكون السـبب الأكثـر احتمـالاً هـو الفيل القابـع فـوق صـدرها".

سالي رايد: أول إمرأة أمريكية في الفضاء.

فندق وكازينو فالزفيو

مايو ٢٠١١، بالتوقيت الأرضي القياسي

احتشد صفٌ من الجمهور الذين يرتدون ملابس المتحولين والأشرار والأبطال الخارقين على طول مدخل غرفة المؤتمرات "ب" حيث الطريق المؤدي إلى ماكينات المقامرة، وقد كانوا يتثائبون وهم يتجرعون الريد بول ويخرجون الريح، ويتجشأون بلطفٍ وهم يسيرون ويتخبطون في النوافذ والجدران، حيث بدا على معظمهم أنهم أمضوا الليل بأكمله يحتفلون على الطريقة الأمريكيّة؛ حتى عبروا جسر "قوس قزح" عند بزوغ الفجر لتناول الإفطار المتنوع الذي يُقدّم بالمجان في المعرض الخاص بمهرجان محبي القصص المصورة.

لم يلحظني أحد في البداية؛ ولكن حينما قدّم لي مندوب مجلة جراي ويزارد للقصص المصورة الشاي اللاتيه الهندي قليل الدسم؛ قبل أن يصطحبني إلى الجناح الخاص بتوقيع الكتاب، دوت عندئذٍ أصوات الصفير من الجمهور، ويكأنهم جاؤوا إلى هنا خصيصًا من أجلي.

وكان بحق أفضل حضور للجمهور أكثر مما كنت أتوقع؛ إذ عُجَّ المكان بشبابٍ في سن المراهقة والعشرينيات؛ يرتدون ثيابًا أعادتني إلى الماضي لتذكرني بشخصياتٍ قد انمحت من ذاكرتي منذ خمسةٍ وعشرين عامًا، وقد كان لديهم إيمانًا كاملًا بالرواية؛ فلقد شعر كل فرد منهم بأنه في أمس الحاجة إلى روايتي؛ لتنتشلهم من حياتهم البائسة وتحولهم إلى منقذين أقوياء للكوكب.

شكّل المعجبون بشخصية "سبوتنيك تشيك" طابورًا وقد كان عبارة عن مزيج من جميع الألوان والأحجام والأجناس، ويفضل أن نطلق على هؤلاء المعجبين لقب "المعجبين"، وقد ارتدى العديد منهم الملابس الضيقة السوداء ذات العلامة التجارية، وملابس عارية الصدر مع تسريحات شعر متمايلة تذكرك ببطلة رواية "فتاة بلا ماضي"، وقد اختلط بهذا الجمع نماذج تشبه "ماركو"؛ بملامحه اللاتينية الوسيمة، والذي تبدو عليه كل سمات الانحراف، والذي كان يتجمل بمستحضرات تجميل من ماركة ماك، وهناك معجبون يتكلمون مع بعضهم البعض ويرتدون ملابس كالمغني "جوني كاي" في الرواية؛ وهو الشاب الأسمر الطويل الحائز على شعبية كبيرة صاحب الحُلّة الرطبة المضادة للإشعاع واللوح الإلكتروني المغناطيسي الحراري، و"باراكودا" الأشقر الذي يعلو بنفسه على الجميع؛ بشعره الأبيض الشبيه بشعر "آندي واهرول"، والدرع الأسود المصطنع الذي يغطي عضلاته البارزة كرذاذ تسمير البشرة.

هذا وقد ظهرت حفنة من "المعجبين" وهم المتحولون جراء الأسلحة النووية، والذين يحيون حياة قصيرة مأساوية، داخل جسد برئة واحدة فقط تعمل تحت درعٍ نابض، وقد بدا شكلهم مثل شكل المخبوزات الطرية.

وكنت قد نشرت تغريدة تفيد أن من المرجح أن تكون الطفرات عبارة عن بكتيريا أو جراثيم أو خميرة كاللحم والدم، إلا أنني بدأت في وصف الأفراد الاستثنائيين على أنهم مثل العجين اللزج؛ بعدما ألهمني صديقي "بام بام" بالفكرة التي تقوم على خَبْز دُفعة من فطائر العجين المخمر الممزوج باللحم المفروم، ثم نسيان غمره في صودا الخبز.

وفي الطابور؛ وقفت أمامي- حسبما أظن- فتاة مرتدية ملابس مغلفة بغراء البودج لإكسابها بريقًا هلاميًا، وقد بدت كالأميبا العملاقة الرطبة، وقد لقبت هذه المعجبة -في قرارة نفسي- بـ"جوي اللزجة"، وقد كانت أطراف أصابعها بارزة بما يكفي لوضع قصة "سبوتنيك تشيك" أمامي لتوقيعها.

وقالت لي "جوي" بصوتها الخافت الذي يبدو وكأنه يخرج من منخر حوت ما: "أنتِ أسطورةٌ غريبة"، فأجبتها قائلة: "الآن؛ لا تناديني بالأسطورة" ثم وقعت اسمي على الغلاف الأمامي من نسختها بالمجلد الخامس والعشرين بالفصل التاسع؛ مستخدمةً قلم تحديد أسود سميك؛ وتابعت قائلة: "لأنها تشعرني بالكبر".

سألتني صديقتها بينما كانت تتدلى كسرات خبز متعفنة من خيوط صيد قد حيكت في ملابسها، ولُطّخَت بشيء بدا وكأنه مستنبت في طبق من الجراثيم:" لماذا لم تكتبي قصص حقيقية أبدًا؟"، لذا أطلقت عليها لقب "كروستي ذات القشور"، وقالت جوي: "ظهرت شخصية سبوتنيك تشيك من مكانٍ مجهول في مدينة نيويورك عام ١٩٧٩؛ فمن أين أتت؟ حتى ولو طُمِس ماضيها، فمن المؤكد أنه لا يزال لديها واحدًا، أليس كذلك؟".

ثم أومأت جوي برأسها بقوة؛ فشممت عبر منخر الحوت لديها رائحة التبغ، ورقائق بنكهتي الملح والخل، ثم تابَعَت قائلة: "ألن يحالفها الحظ في مقابلة "جوني كاي"؟ فلماذا بحق السماء كُتِبَ عليها أن تعيش وحيدة؟"، ثم استطردت "كروستي" في الكلام ثانية: "وأنتِ لم تذكرين أبدًا اسمها الحقيقي، فلا بد أن لها اسمًا، أقصد هل يناديها والديها بسبوتنيك تشيك؟"

قلت لها بصوتٍ منخفض؛ للسيطرة على الرعشة التي تجتاحني دومًا كلما حدثني أحد عن أصل سبوتنيك تشيك: "بالطبع لا؛ اسمها الحقيقي ديبي"، فهزت جوي رأسها، ثم أردفت قائلة:" أأسميتها سبوتنيك تشيك تيمنًا بكِ؟"

عندئذٍ قبضت على قلمي بكلتا يداي لإخفاء الرعشات التي انتابتني؛ إذ بدأت كل من "جوي وكروستي" في إثارة أعصابي، وتساءلت في قرارة نفسي لماذا يهوى العديد من شباب المعجبين معرفة أدق التفاصيل؟

فرددت عليهما قائلة: "أعتقد أنه بإمكاني تسمية سبوتنيك تشيك أي اسم أريده"، غير أن هذه المرة، استحال إخفاء الرجفة التي بدت في صوتي؛ فنظرت كلتا الفتاتان إلى بعضهما البعض بفتحة أعينهما، واستطردت جوي بهدوء: "إنه لشيءٍ غريبٍ"، وقد تناولت القصة من على الطاولة آملة ألا تلحظ الفتاتان الرجفة في توقيعاتي، وتابَعت قائلة: "أما عن كيفية وصول سبوتنيك تشيك إلى مدينة نيويورك من زمانٍ ومكانٍ آخرين؛ فدعونا نكتفي بقول إنني أكتب عن قصتها الحقيقية الآن"، فعندئذ انتحبت كل من جوي وكروستي وقفزتا لأعلى وأسفل، حتى انتفخت أزيائهما الغريبة مثل انتفاخ عجين الخبز، وصاحت جوي قائلة: "رائع"، ثم سألتني كروستي:" هل ترغبين في أي شيء آخر كالتحدث عن أحد مثلاً؟".

"ليس تمامًا بعد"، وقد أجبتها بهدوء لتجنب التحديق في الأبواغ الزرقاء الكريهة القابعة فوق شريحة قديمة من خبز الجودار المتدلي من ملابس كروستي، والتي قالت: "تعرفين كيف يبدو الأمر

إذا تحدثتي عما يجول برأسكِ، ولا يمكنكِ تدوينه على الورق"، وبعدها أعربت الفتاتان جوي وكروستي عن شكرهما ثم انصرفتا.

وكانت المعجبة التالية ترتدي ملابس نسائية جريئة تبلغ ستة أقدام كملابس سبوتنيك تشيك، وتمسك بنسخة قديمة غير معاد طبعها من المجلد الخامس؛ وتفتح الفصل الثاني "جرح الحب"، وقد كانت من أكبر المعجبين بها على الإطلاق، لذا تعاملت مع القصة بحرصٍ؛ فتجميع الأشياء هذه الأيام، يكلف المعجب مصاريف شهر كامل، وهي القضية التي انفصلت بسببها سبوتنيك تشيك عن جوني كاي نهائيًا بعدما اشتبكت مع باراكودا الشرير، والذي سمى نفسه "أمير الظلام في البحار" والذي قد يكون شخصية سيكوباتية سادية، إلا أن سبوتنيك تشيك وجدت نفسها منجذبة إليه بلا مقاومة.

وقد أمسكت المعجبة بيدي وأخبرتني أنها تتفهم تفاعلات المشاعر المعقدة التي دفعت سبوتنيك تشيك إلى الخيانة غير المبررة لجوني، حيث قالت بتنهيدة: "من التي لا تود مضاجعة باراكودا؟ أتفهم موقفها بالكامل"، ثم طلبت مني التوقيع على مشهد الحب والقتال الفاضحين، والذي جعلت فيه سبوتنيك تشيك باراكودا يجثو على ركبتيه، مع توجيه ركلة صوبت بجدارة نحو ذقنه -وعلى طريقة بوسي جالور- رمته رمية الجودو من فوق الكتف؛ إلى أن رَدّ عليها باراكودا بالقبض على كاحلها وجرها من قدميها ثم بدءا في ممارسة الحب.

وقد استغرق هذا المشهد ست صفحات، وأعتقد أن ما تسبب في إيقاف رواية "جرح الحب" بواسطة الرقابة في عام ١٩٨٩م هو الوصف المتجرد لفروج الأبطال، وفي الوقت ذاته تحولت رواية "فتاة بلا ماضي" إلى قصة يثار حولها ضجة تجارية بعد أن كانت من طائفة القصص المصورة التي تُنشَر سرًا؛ وقد حصدْتُ منها الكثير من الأموال؛ حتى أنني استقلت من عملي الصباحي في الإدارة الفنية لمجلة "سايكيكس أوف فورتشيون" في الحديقة الصناعية في فورت لي بمدينة نيو جيرسي.

وبعد مشهد العلاقة الحميمة لسبوتنيك تشيك وعدوها اللدود، وتقاسم سجائر ما بعد ممارسة الحب بينهما، قمت بالتوقيع على الصفحة بتباهي.

وكان المعجب التالي مثل جوني كاي من جنوب آسيا، والذي ارتدى ما يبدو كأنها حُلّة حيكت خصيصًا لتكون ضد الإشعاع، وتتراوح ألوانها ما بين اللون الفضي والأخضر، ومن خلال الطريقة التي يلوح بها بقصته المطوية؛ يمكن القول بأنه يعاني من مشكلة معي، فقد تقدم نحوي وهو يهز قصته مثل المضرب قائلاً: "مشاهد القتال سيئة"، واستطرد: " وشخصياتك تلقي لكمات مثل راقصات الباليه".

وظلت عيناي على القصة التي سأوقّعها له وقلت لنفسي فيها: "لا تشتبكي معه"، وأخبرته وأنا أناوله القصة: "شكرًا على النصيحة، وبالمناسبة أعجبتني حلتك المضادة للإشعاع، تبدو رائعة"، فابتسم لي فجأة ثم قال: "أشكركِ؛ أمي قد حاكتها لي".

ثم تلاه العشرات من المعجبين الذين يرتدون ملابس المتحولين والأشرار الخارقين حتى انتهيت من كل التوقيعات، فكان حشدًا كبيرًا، ولكن ليس كالجمع الذي رأيته منذ عشر سنوات؛ فالحرب الباردة وجنون الشك لا يحققان أرباحًا كما كانا من قبل، وحتى فيلم سبوتنيك تشيك قد تأجل عرضه في فترة من الفترات إلى أن أتيت بالقصة الأصلية المثيرة بما يكفي لإعادة إشعال النيران في عقول المعجبين اللذين انجرفوا إلى عالم مليء بالروايات المصورة، لدرجة أن أصابوني بالملل؛ ثم تسائلت ما الخطأ في أبطال القصص المصورة الخارقون؟ إنهم يلبّون حاجتنا الجماعية لوجود الآلهة، والوحوش، والأبطال، والمسوخ، والشياطين، والمتصوفين، وغيرها من القوى الأسطورية التي تحافظ على ارتباط عالمنا ببعضه، إلا أن ذلك لا يعني أن سبوتنيك تشيك أسطورة.

وبينما كنت في دورة مياه السيدات؛ أُفرغ كوب الشاي الهندي قليل الدسم الصباحي في المرحاض، إذا بي أسمع وقع أقدام في دورة المياه، وسمعت صوتًا مألوفًا يقول: "إنها رائعة جدًا" - لقد كانت جوي- فأجابتها صديقتها كروستي: "ورغم ذلك أكبر مما توقعت؛ إنها عادية".

تجمدت في جلستي على المرحاض، وتسائلت ماذا توقعت كروستي؛ هل سأبدو مثل سبوتنيك تشيك؟ من حيث المظهر المبلل، والملابس السوداء الضيقة جدًا، والجسد الممشوق القوام، والحذاء ذو الكعب العالي؟

"أتمنـى ألا تكـن القصـة الأصليـة بهـذا السـوء"، وتابعـت كروسـتي: "هـل شـعرتِ بأنهـا ملّـت مـن الأمـر برمتـه؟"

ردت جوي: "نعم لاحظت ذلك أيضًا".

التقطت حينها قـارورة مـن حقيبتـي تناولـت منهـا قرصًـا مـن اللورازيبام ووضعته تحت لسـاني، وعندما لم تتوقف الرعشـة، تناولت قرصًا آخر؛ إذ أحتاج مزيدًا من الجرعات هذه الأيام لتساعدني على الاحتفـاظ بهدوئـي، وبعدمـا تأكدت مـن رحيـل جـوي وكروسـتي؛ تركت دورة الميـاه ثم توجهت إلـى الكازينـو. تبسـمت إليّ النـادلة ذات الشـعر الأشـقر المصفـف علـى الطريقـة الفرنسـية والتـي كانـت تجلس عنـد طاولة القمار ، وكانت الشـارة المعلقة على ملابسها تحمل اسم إيميلي أندولينـي، وعندمـا سـألتها عما إذا كانت ابنـة روكو أندوليني، أجابتني قائلة:"حفيدته"، ثم سـألتني: "أأنت من هنا؟"، فأجبت ليس من بعيد، فقد نشـأت فـي منطقـة شـيبمان كورنـرز، ولكـن تنقلت إلـى العديـد من الأمـاكـن، فأنـا دائمًـا مـا انتقـل، فقـالـت النـادلـة ضـاحكـة: "رائـع، مـن الممتـع أن تقضـي حياتـك فـي السـفر"، قلت لهـا:" ولكنـكِ سـرعان مـا ستكبرين".

ألقيت نظـرة حـول الكازينـو؛ ثمة عدد قليل مـن المقامرين عند طاولـة القمـار ينظـرون إليّ بفضولٍ، وقـد كان أحدهم يترنح في مقعده تـارة، والآخـر ينكس رأسـه ويغمض عينيه ويفتحها فـي محاولة جاهدة ليبقـى مستيقظًا تـارة أخـرى، وبـدا عليهـم أنهـم ظلوا هنـا طـوال الليل، بينمـا نـاولتنـي إيميلـي النـرد، فقلت: "سـأكون أنـا الراميـة"، واسـتطردت وأنـا أهـز النـرد فـي قبضتـي: "بوكـس كارز"، "حصلـت علـى سـتتين؛

لقد فزت"؛ قد أفقد معجبين، ولكني على الأقل ما زال لدي طاقتي التنبؤية؛ ثم لعبت بضع مرات أخرى، بعدها توجهت إلى الحانة مع مكاسبي لتحصين نفسي قبل الرجوع إلى غرفة الفندق للعمل على قصتي الأصلية، ورشفت مشروب الفودكا بالمارتيني المثلج بنكهة الزيتون والفول السوداني، وطبق مكون من الوجبات الخفيفة المجانية في البار، ولأنني كنت أتضور جوعًا كعادتي؛ وجدتني أحسب الوقت الذي سأستغرقه فوق جهاز المشاية في الفندق لأحرق السعرات الحرارية، كي أتجنب حدوث خلل في البعد الزمني المكاني؛ إذ تحتم عليّ الحفاظ على حجم وكتلة جسدي بالتساوي، مثلما فعلت سبوتنيك تشيك في اليوم الذي قفزت فيه من بعد زمني متصل إلى آخر؛ حيث قطعت حوالي مائة وخمسة وعشرين تقريبًا من الأونصات قابلة للزيادة أو النقصان، وإلا سوف أستيقظ بدون طرف أو عضو حيوي، حيث يعادل الزمن من المساحة الإضافية التي ملأتها، وقد اكتشفت هذه الحقيقة عندما استيقظت ذات يوم بدون إصبع قدمي اليمنى الصغير بعد مضي أسبوع من الإفطار في البوفيهات المفتوحة في نيو جيرسي في فندق رمادا في الثمانينيات، ومن يومها وأنا أضع رسائل تذكير في ذهني لأزن نفسي فيما بعد.

كان نادل الحانة المتضجر يقلّب في القنوات التلفزيونية، إلى أن ظهر فجأة صاروخٌ فضائي، وبدا مثل الأنف في السماء، ذو الضباب الأبيض المتصاعد من العوادم؛ مشيرًا إلى أنه أوشك على الإطلاق، وفي شريط الأخبار أسفل الشاشة، وجدت خبرًا قصيرًا يقول: كان يومًا جميلاً في المرفأ. لذا؛ تركت للنادل في الحانة عشرين دولارًا من أموالي لإلغاء كتم الصوت.

وأفادت التقارير الصادرة بصوت أمريكي ناعم مثل زبدة الفول السوداني من إنتاج شركة سكيبي؛ أن جميع الأنظمة مستعدة للرحلة النهائية للمركبة الفضائية إنديفور، فبعد هذه المهمة؛ ستودع المركبة إنديفور في إحدى المتاحف الفضائية في الساحل الغربي.

سألت نادل الحانة: "هل تعرف ماذا يعني هذا؟"؛ فهز رأسه بالنفي، رشفت بعدها جرعة من مشروب المارتيني استعداداً لفكرة طرأت على بالي، ثم واصلت حديثي معه قائلة:" إنهم يُخَرِّدون برنامج المركبة، ومن الآن فصاعدًا، سيضطر رواد فضاء ناسا إلى مشاركة الروس في الكبسولة سويوز، وهكذا؛ من سيكون الجانب الفائز في الحرب الباردة، على أي حال؟"، حدق بي رجل الحانة ثم قال لي بعدم يقين:"جانبنا"، فتمتمت بيني وبين نفسي: " شيء لا يصدق".

شاهدت المركبة إنديفور تنطلق ببراعة من منصة الإطلاق، وقد كان زئير الدفاعات يهز رفوف الأكواب المعلقة في البار، فتسائلت بيني وبين نفسي عما إذا كان بام بام يشاهد ذلك؟ وهل أختي ليندا بالخارج في جزيرة السيدة المجنونة؟ ففي ذات مرة، رقدنا أنا وأختي أمام ويستنغهاوس للإقلاع، وقد محا العد التنازلي الطويل أي شيء آخر في يوم البرمجة، وحتى مسلسلات أوبرا الصابون العظيمة التي كانت تعرض نهارًا انحنت أمام أبولو، هذا وقد شاهدنا مع بقية العالم الحر صاروخ كروكوتد كاوبويز يشق طريقه إلى عنان السماء بمحركاته المنهكة وهي تطهر نفسها على حافة الغلاف الجوي للأرض، وها أنا ذا الآن ألمح عمليات إطلاق تذاع في أخبار المشاهير وتقارير سوق الأسهم.

وهكذا ستدخل إنديفور في دقائق معدودة منطقة الضغط الديناميكي الأعظمي، التي تقع على بعد ١٣،٠٠٠ كيلومترًا فوق الأرض، فإذا مرت المركبة بسلام، عندئذٍ ستنجو من مصير شقيقتها المنكوبة تشالنجر؛ حيث شاهدنا أنا وبام بام هذه الكارثة معًا في مطعم رخيص يفتح أبوابه طوال الأربع وعشرين ساعة في منطقة بليكر على مقربة من برودواي، ونحن نعاني من صداع الثمالة من جراء ليلة قضيناها في الأندية الليلية، حيث تصاعدت رائحة دخان السجائر ودهن لحم الخنزير المقدد وعطر بويزن الرقيق مثل ركلة الفخذ، والذي كان عطري المفضل آنذاك، وقد شاهدنا في التلفاز على رائحة الشواء في المطعم، انقسام الدخان الأبيض إلى قرون الشيطان في الهواء الطلق عندما صدر الصوت المهتز من غرفة التحكم قائلاً: "هناك عطلاً كبيرًا"، وقد وجد هنالك سبعة رواد فضاء على قيد الحياة معلقون داخل مقصورة طاقم المركبة، ومن المرجح أنهم كانوا واعين حينما اصطدموا بالمحيط الأطلسي بقوة ثلاثمائة ميل في الساعة، وفي أثناء مشاهدة هذا الخبر الكارثي، شبك بام بام أصابعه الشبيهة باليوسفي مع أصابعي القرمزية وزفر طويلاً وقال: "هذا الجحيم المروع".

بعد سقوط مركبة تشالنجر من السماء؛ رسمت الرسمة الأولى لسبوتنيك تشيك وهي رواية "فتاة بلا ماضي" ولهذا السبب تشبهني كثيرًا في هذا اليوم المروع عام ١٩٨٦، من حيث قصة الشعر غير المتناسقة، وأحمر الشفاه الأرجواني، والحواجب غير المزججة،

وبطانات الكتف الممتدة حتى الظهر، وزخات المطر الأسود المنهمرة على وجنتيها، وقد كانت امرأة وحيدة مقاتلة، طافت شوارع المدينة التي لن ترى أبدًا رعب المتحولين فجرًا، واستبدلت ماضيها بواقع بديل لم يتضمن الكوكب الذي قُصف نوويًا حتى الفناء عام ١٩٧٩، ليس ماضيها فحسب، بل هويتها أيضًا، اللعنة؛ لم يكن لها اسمًا حقيقيًا مطلقًا.

وعلى اللوحة النهائية للمجلد الأول في الفصل الأول، والذي يحمل عنوان "الكارثة"؛ حدثها عقلها قائلاً: "لم تكن تشالنجر حادثة! فقد هرعت لملء الفراغ في التسلسل الزمني المكاني، وهذا خطأي الفادح".

وإذا تقدمنا خمسة وعشرين سنةً إلى الأمام لوجدنا سبوتنيك تشيك لا تزال المرأة ذات التاسعة والعشرين عامًا الغاضبة، والمثارة، والمجهولة؛ التي تجول شوارع مدينة نيويورك ليلاً لقتل المتحولين ومضاجعتهم في بعض الأحيان، لم تكبر، بعكس مؤلفتها.

***

عند ولوج إنديفور بسلام إلى طبقة الميزوسفير، كنت على وشك دفع الحساب ثم الصعود إلى الطابق العلوي، إلى أن ظهر جون كندال بعيونه العسليتان كالشوكولاتة، وعظام وجنتيه البارزتان على شاشة التلفاز في الحانة، وقد عرّفه شريط الأخبار أسفل الشاشة بأنه "ديفيد جون كندال الصغير" أو "أوباما كندا"، وأثار وجهه ألمًا قديمًا مألوفًا، مثل الصداع النصفي قبل هبوب العاصفة الرعدية.

لن يتعرف عليّ حبي الوحيد كندال إذا صادفته في الشارع؛ فقد فكرت في ملاحقته، غير أن بام بام نصحني بأن هذا الأمر ما هو إلا تدميرًا ذاتيًا بلا جدوى، حتى بمعاييري، إلى جانب إن رؤية كندال في وسائل الإعلام دائمًا ما تشعرني وكأن سيجارة أطفئت في قلبي، وكي أطيل الألم، طلبت من نادل الحانة الإبقاء على قناة CNN لبضع دقائق أخرى، حتى عقد ذراعيه بلطف وجلس ليشاهد معي القناة، وقال لي نادل الحانة:"يقولون أن كندال المتأنق هذا يمكنه إدارة البلاد يومًا ما"، ثم تابع بنبرة يسودها الفخر: "إنه فتى شعبي".

ظلت عيوني مثبتة على الشاشة، حيث انتابني الفزع الداخلي جراء استخدام النادل لكلمة "فتى"، وعند منتصف السؤال الذي طرحه المضيف الدال على معرفة كندال السابقة بتجربة المهاجرين، حك كندال أنفه منزعجًا، فبعيدًا عن كونه وافدًا جديدًا؛ ينحدر كندال من عائلة فرّت من العبودية للعيش في شيبمان كورنرز قبل نصف قرن من نزوح أجدادي إلى أمريكا؛ حينما بهت وجه كندال الجميل على إعلان تجاري لعلاج ضعف الانتصاب؛ تناولت رشفة من مشروب المارتيني وأنا أفكر في السؤال الرئيسي لسبوتنيك تشيك في رواية "فتاة بلا ماضي" تلك المرأة التي جعلتني أصمم قصتها الأصلية ثم أخربها وأرمي أوراقها من غير قصد مرارً وتكرارً، مثلما قالت جوي: " كيف بحق الجحيم؛ انتهى الأمر بسبوتنيك تشيك إلى الوحدة؟

"حسنًا آنستي، أيمكنني تغيير القناة؟"؛ أعادني سؤال نادل الحانة إلى الواقع مرة أخرى، فقلت له: "تفضل"، سألته بعدها حينما غير القناة على برنامجًا يقدم بطولات القتال النهائية؛ ما إذا كان لديه أي شيء لأرسم عليه؛ إذ عصفت بي أفضل الأفكار فوق مقاعد الحانة، وبعدما فتش تحت البار، ناولني كومة من مجموعة مناديل، طُبِعَ على جانب منها شعار شركة سورينج ستارلنج للنبيذ باللون الأرجواني والذهبي، وهي الماضي البعيد لسباركلنج سبارو- النبيذ الشهير في أيام شبابي- أما الجانب الآخر للمنديل فقد كان فارغًا مثل كراسة الرسم.

وأخرجت قلمي وبدأت في رسم القصة المصورة، وملء مربعًا تلو الآخر بالرسومات، وكنت في البداية أقاتل كالنينجا شخصيات سبوتنيك تشيك الصغيرة...طراخ! حيث أستطيع أن أرسم مشاهد قتالها في نومي.

وتلاشى عني وقتها صوت وقع النرد وتذمر لاعبي القمار، حتى صوت موسيقى الروك الخفيفة لم أعد انتبه له بعد الآن، فأنا غارقة في رسم عالم الكواكب والنجوم رسمًا عشوائيًا؛ مثل رسم الإله ساتورن بخواتمه الأيقونية الشهيرة أو قطعة جبن من القمر؛ إلى أن وجدتني أرسم كائنًا سماويًا من صنع الإنسان؛ يجمع شكله بين النجم والقنفذ، وحجمه يقترب من حجم كرة السلة، ويهيم في فراغ أسود، وأرسم قمرًا ميتًا؛ حيث تقف سبوتنيك، في المقدمة تليها تلستار، ولا يزالون جميعًا يسبحون في الفضاء السحيق، بينما رسمت على المنديل التالي شكلاً ثلاثيًا لشراع شمسي، مصدر الطاقة للجيل الأول من المحطات الفضائية سكاي لاب الأولى والثانية، وعودة للماضي في أوائل السبعينيات.

هنا حقًا تبدأ قصتي؛ ليس في عالمٍ مجهولٍ مثل القصص الأصلية الأخرى، وليس على الكريبتون أو في العالم الأمازوني الخفي لامرأةٍ خارقة، أو في معملٍ كرتوني عرضة للزلازل متخمًا بالعناكب المشعة القادرة على منح قوى عظمى بلدغة واحدة.

لم يكن المكان المجهول هو من جعل سبوتنيك تشيك على ما كانت عليه -مؤمنة حقيقية- بل هو الزمن المجهول؛ بيد أن سبوتنيك تشيك كانت هي الشخصية نفسها من قبل، ولكن باسم "ديبي".

مكتبة
t.me/t_pdf

القصة الأصلية التي لم تُحكى من رواية
فتاة بلا ماضي

الجزء الأول

الهروب من أراضي زي

أداء

المتسلل

الفصل الأول
قصة زمنين

كانت سبوتنيك تشيك ابنة العصر الذري المغاير للماضي الذي تظن أنك تعرفه، ولمعلوماتك؛ أنت تعيش في التوقيت القياسي الأرضي، والذي تعتبره "الوقت الحقيقي".

وحتى في منتصف القرن العشرين، كان الزمن مجرد زمن؛ أي سهمٌ واحد يطير عبر اضطرابات، وحمامات دم، وعصور نهضة، وثورات، وكل التفاصيل المملة بينهم.

ثم في عام ١٩٤٥؛ ظهر روبرت أوبنهايمر والذي يصف نفسه بمدمر العوالم بتقسيم الذرة- طاخ، بوووم، طراااخ- وابتكر انشقاقات جزيئات الذرات، فتحطم سهم الزمن وتحول إلى جعبة من الوقائع البديلة، وقد تشعب العصر الذري من خلال تجربة اختبار ترينيتي النووية في نيو مكسيكو- العالم الموازي الأول- ولكن بعيدًا عن هذا العصر الأخير، منذ ذلك الحين خلق كل تفجير جدولاً زمنيًا جديدًا، يختلف عن الزمن الذي قبله مثل إطار سيارة السباق المحترق في خط البداية.

ووُجِدَ العصر الذري والتوقيت القياسي الأرضي جنبًا إلى جنب في هذا الطيف الشاسع من التاريخ ، وهي عوالم مقترنة اقترانًا ضعيفًا ، مثلما يصورهم علماء الفيزياء الكمية؛ مفصولين بأرق غشاء يمكن تخيله من المادة المظلمة، وكيف أعرف هذا؟ صبرًا أيها المؤمن؛ كل ذلك سينكشف في الوقت المناسب.

رغم الاختلافات الغريبة عن التوقيت القياسي الأرضي؛ منها على سبيل المثال الفيروسات المحتالة التي لن تتمكن منها أبدًا، وأطوال الفساتين العجيبة، وطعم التفاح الحامض في كوكا النيوترون، ومن الجدير بالذكر؛ أنك إن سقطت في العصر الذري لن تشعر بالغربة بالمرة؛ بل قد تشعر فيه بلذة الحنين، وقد نُقلت جميع الحكايات الثقافية لعصر ما قبل الذري البدائي -دون صعوبات- إلى العصر الذري، مثل سوبرمان الرجل الخارق، وبوستر كيتون، وبلوندي وداجوود، وموسيقى الجاز، وفيلم كازابلانكا، وميكي ماوس، وروايات فيرجينيا وولف، والساحر أوز، وكتاب الأغاني الأمريكية العظيمة. وحتى بعد الانقسام؛ انبثقت العديد من المعالم الثقافية نفسها في كلا الزمنين، مثل سلسلة المتزلج الفضي، وزعانف ذيل السيارات، وموسيقى الديسكو، وكتب بيتل بيلي، وأزرار الوجه المبتسم التي تتمنى لك قضاء يومًا سعيدًا! والفنان الكبير شون كونري الذي جسّد شخصية جيمس بوند، حتى سُجِنَ بتهمة الإطاحة بالبرلمان الاسكتلندي.

أما عن جميع البشر على وجه الأرض، أو بالأحري أي شخص تقريبًا يعيش في أي من العالمين؛ فبعضهم يحيا حياة مغايرة تمامً، بينما سار البعض الآخر دون وعي على الإيقاع المتناغم عينه بوصفه قرينًا في وقتٍ لاحق؛ ففي لحظات الضيق أو النشوة مثلاً؛ قد تشعر بعض النفوس الحساسة، مثل صديقي بام بأفعال أنفسهم في الزمن البديل، وبكل سذاجة يعيدون تدوين هذا الإحساس الغريب مرة أخرى، ومع ذلك ثمة عدد قليل يدركون تمامًا وجودهم في عوالم

متوازية، وأبرز مثال على ذلك ديفيد باوي الذي كان استثنائيًا، وليس هذا النوع الاستثنائي ذو الحالة المزرية مثل كروستي وجوي؛ المعروفين باسم الملتويين، بل مسخًا متحولاً موهوبًا قادرًا على استكشاف مجموعة كاملة من الاحتمالات المتنوعة، وإلا فكيف يمكنه أن يكون كل من الدوق الأبيض النحيف وزيجي ستارداست؟

يكفي قول أننا لدينا في العصر الذري العديد من البرامج التلفزيونية والأفلام والكتب المصورة الشهيرة نفسها التي نحبها ومعظم الأحداث في فترة ما بعد الحرب والتي كنت تنام منها في حصة التاريخ، عدا واحدًا مهمًا وهو أنه في العصر الذري لم تنتهي الحرب العظيمة الثانية في القرن العشرين قط؛ حتى بعد التوقيع على الاستسلام؛ فقد نقلت نظم المعلومات الجغرافية من ساحات المعارك إلى المصانع، وكانت مهمتها التصنيع المستمر للأسلحة النووية، كما لو كانت الحرب الباردة من الزمن القياسي الأرضي مثل أصابع السمك المجمد الذي استغرق ثلاثين عامًا حتى يذوب الجليد.

لم يشهد العصر الذري أي حركة سلام في الستينيات من القرن الماضي، اللهم فيما عدا الحركة الخبيثة العاثرة التي مهدت طريقًا عميقًا تحت الأرض وبقيت هنالك؛ إذ قُبِضَ على عددٍ قليلٍ من الراديكاليين الشباب ممن حاولوا تنظيم مظاهرة حظر القنابل في العاصمة واشنطن عام ١٩٦٥ بتهمة إثارة الفوضى ثم نفوا سريعًا، بيد أن من غير المسموح لأحد التصدي لطريق مسيرة عالمنا المربحة نحو التدمير الذاتي.

ولحسن الحظ؛ إذا فجّرت القوى العظمى الأرض؛ فإننا على استعداد لاستعمار القمر، وبحلول عام ١٩٦٩، أرسلت صواريخ ذاتية التشغيل القباب الجيوديسية، وأنظمة دعم الحياة القمرية إلى بقعة معينة من القمر استعداداً لاستقبال أول دفعة من لاجئين الأرض.

أحببت فكرة الانتقال إلى القمر، حتى لو كان يعني ذلك أن كوكبي الأصلي يجب أن يُقصَف بالنووي أولاً، ولطالما كنت أتوق لكسر رتابة الطفولة حيث كان أكبر تحدياتي هو تحديد أي نكهة من الشطائر ستسخن في الفرن؛ لذا عزمت على الفرار من الكثافة السكانية في شيمان كورنرز البالغة ١٢٦٠٠٠ نسمة، سواء أكان على صحن طائر أو التزلج بين المجرات؛ حيث كانت الأنشطة الاقتصادية هي التهريب عبر الحدود، وزراعة العنب المحلي للنبيذ الحلو، والشمبانيا المعروفة بالنبيذ الردئ "بلونك"، وتصنيع القنابل الذرية، وفي بعض الأحيان كانت تلقى براميل صدئة من مخلفات مشعة في أراضي فضاء ومواقع بناء دون سابق تفكير؛ حتى لاحظ شخص ما أمورًا غريبة، كأن يولد أطفالاً بثلاثة آذان وبأطقم أسنان إضافية.

كانت مهمة أبي في ذلك الوقت التأكد من عدم بناء أي شخص مدرسة أو ملعب أو جزء في هذه البقع الخطرة قبل إزالة تلك البراميل المشعة وإلقاؤها بعيدًا في مياه خليج هدسون، فصارت المشكلة هو عدم قدرتنا على منع الأطفال من اللعب في الأرض الملوثة، لذا وضع أبي أسوارًا من الأسلاك الشائكة، ولكن مثلما أشار؛ ثمة الكثير مما يجب القيام به.

كان والدي يصحبنا معه أنا وليندا كل عام وقت العودة إلى المدارس؛ في مهمة كنسه لمكب النفايات وهو المطهر المعروف بأراضي زيوريخ "أراضي زي"، وذلك قبل نزهة يوم العمل السنوي للشركة، وقد شجع المدير أبي على اصطحابنا معه، معللاً ذلك بأن العلاقات العامة الجيدة لبرنامج تنظيف مجتمع الشركة، سيجعل الناس يرتاحون حينما يعلمون أن أبي لم يخش اصطحاب أطفاله معه إلى مقالب نووية سابقة.

بات تنظيف أراضي زي إحدى نجاحات أبي الكبيرة، وقبل عام ترقى والدي إلى رتبة مشرف أول على إزالة التلوث، وهي وظيفة مهمة حقًا، حتى إن صحيفة محلية التقطت صورة لأبي معي أنا وليندا، نظهر فيها مبتسمين ونحمل باقات من الزهور البرية المتحولة. كان عنوان المقال الصحفي:"وعد رئيس تطهير مؤسسة شيبكو بأنه عما قريب ستصبح أراضي زي آمنة بما يكفي لاستقبال الأطفال المحرومين من اللعب فيها"، وقد أخبرنا والدنا بعد ذلك أنه لم يعد بشيءٍ من هذا القبيل، غير أن الشركة وضعت إطارًا للقصة وألصقته في بهو خارج مكتب أبي، حيث أخبره رئيسه بالسبب في أنه يأمل أن يرتاح الجميع الآن ويكفون عن كتابة رسائل إلى الشخصيات المهمة في كوين بارك، والذين حقًا لم يتمكنوا من القيام بأي شيء تجاه المقالب على أي حال، لذا كنا مسؤولين أمام سلطة عليا وهي "شركة شيبكو": الهيئة الإدارية للولاية القضائية الاتحادية في أمريكا الشمالية المشهرة رسميًا باسم الأمة الصناعية في كانوسا، وهي شبه جزيرة مثمرة معلقة كالسن الخشن بين اثنين من البحيرات العظمى الذي يصب من أطرافها أقوى شلال في العالم.

إذ كانت كانوسا منطقة رمادية مظلمة اندمجت فيها المصالح الإقليمية مع التجارية، وقد طُبِّقت القوانين الكندية عليها، طالما أن شيبكو لم تمانع.

عندما فُتِحت جبهة حربية جديدة في كوريا، وسرعان ما تلاها فيتنام وتايلاند وكمبوديا وغينيا الجديدة ونيوزيلندا - وهي سلسلة من الصراعات المترابطة المعروفة باسم حروب الدومينو- لقى الهاربين من الخدمة العسكرية الأمريكية ترحيبًا في كانوسا مثلما كانوا في كندا؛ فقد اعتبرتهم شيبكو نافعين، فبالرغم من أنهم لم يقاتلوا؛ فبإمكانهم صنع القنابل.

في صيف عام ١٩٦٩ كنت قد تعديت عيد ميلادي الثالث عشر بشهرين، بينما كانت ليندا تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، حيث دلفنا إلى أراضي زي وقت شروق الشمس، وقد أدارت زهور الأقحوان رؤوسها الوحشية نحو السماء البنية مثل لون العسل، وتدلت ربطة عنق أبي كحبل المشنقة حينما أدار عداد جيجر وسط كتل النفايات، بينما كانت ليندا تحوم بجانبه أبي جيئة وذهابًا بتنورتها وحذائها الرياضي وهي تحيطه بذراعيها اللتان أصبحتا قويتان من لعب الكرة الطائرة.

بينما كان أبي وليندا يتابعان قفز المؤشر الأحمر؛ تجولت بين مزارع الجزر البري وزهور السوزان ذات العيون السوداء والأشجار؛ حتى وصلت إلى مربط حبل سفينة حديدية تتحرك عشوائيًا بجانب القناة المهجورة، حيث لم أكن بحاجة إلى مربط حبال ليحذرني من انخفاضٍ على ارتفاع ثلاثين قدمًا؛ إذ كانت

تنبعث رائحة الكيماويات الصناعية النتنة من قاع القناة التي رقدت فيها السيارات المحطمة نصف مغمورة في بركة الكبريتات المتزبدة ذو اللون الشبيه بلون ماء غسل الصحون العطن.

وبالرغم من وجود حاجزًا تعلوه الأسلاك الشائكة ولافتة تحذيرية كُتِبَ عليها "ممنوع الدخول"؛ وُجدت بعض الحطام الجديدة التي اندفعت من فوق حافة السور منذ زيارتنا الأخيرة وهما؛ حافلة مدرسية صفراء وشاحنة صغيرة.

حدث -أيضًا- شيء آخر لم أره من قبل؛ وهو شخص متسلل يجلس القرفصاء فوق الحافلة تحت وهج الشمس المشرقة، فظننت في البداية أنني أتخيل شيئًا، كالأطفال في لاورديس، إلى أن لاح جسد الرجل في ملمح البصر كالصورة التلفزيونية عندما تظهر تدريجيًا، وكان رجلٌ ذا شعرٍ أبيض يصل إلى كتفه، وبدا عليه كأنه انحدر من شيء عالٍ واضعًا يديه فوق ركبتيه، واعتدل الرجل في وضعيته ببطء، فبدا لي هذا المشهد مؤلمًا، فلم يكن يستطع التقاط أنفاسه، كما لو كان يركض طويلاً جدًا، وسمعت عن بعد عداد جيجر يرن، الأمر الذي يعني بلا شك أنه التقط إشعاعًا طبيعيًا.

وقد نظر المتسلل إلى وجهي بصدرٍ يتنهد، وقد كان طويل القامة، نحيفًا كفرع الشجرة، ذو وجه وردي مع تقشير شديد جراء تعرضه لشيء مثل حروق الشمس، ويرتدي قميصًا فضيًا وبنطالاً ضيقًا مخروطي الشكل من الأسفل كراقصة الفلامنكو.

سألني قائلاً: "ديبي؟" كما لو كان يعرفني.

أجبته:" ليس من المفترض أن أتحدث مع غرباء".

فقال: "أنا لست غريبًا، كلانا يعرف بعضنا جيدًا".

وجدتني أصدقه بغرابة، رغم أنني لم أقابل أي شخص قط من خارج شيبمان كورنرز، والأغرب؛ أنني لاحظت أن ثمة أجزاء من جسده بدأت تبرق وتتلألأ مثل الألوان المائية، ثم سقطت كتل صغيرة وردية اللون من اللحم من نهاية ذراعه في البركة المتزبدة في قاع القناة.

قلت له:"يا إلهي إنك تذوب".

نظر إلى نفسه، وفغر فمه عند رؤية ذوبان جسده ثم رفع يده المتبقية، وأشار إليّ قائلاً:" إنكِ هي ديبي، لا تنسي ذلك".

لم أكن أعرف ماذا عساي أن أقول، فقد تجمد لساني، حيث أجابني بأن عقد إصبعيه اللذان يقطّران وقد اتخذا شكل حرف ال V المنكفيء لأن إصبعه الأوسط كان ينتهي عند مفصل الإصبع.

ارتدّت الشمس فوق سطح الحافلة الصفراء فعميت عيوني للحظة، وعندما نظرت مرة أخرى، كان الرجل قد اختفى وتزامن ذلك مع رائحة من الحساء الكيميائي واستطعت أن أشم نفحةً من رائحة شيء حار، كما لو كان الرجل المتسلل تحول إلى قرفة بعد ذوبانه.

قبل أن أقرر ما إذا كان ذلك عبارة عن "فطيرة تين نسجها خيالي" كما أسماها والدي أم لا؛ أصيب عداد جيجر بالجنون، وأخذت عداته تتسارع بدرجة كبيرة كألعاب ويند أب تيث؛ عندئذٍ علا صوت والدي واحتد مصحوبًا بنبرة من الخوف، ونادانا على الفور وأمرنا بسرعة مغادرة المكان، فسمعت ليندا تقول له:"ولكننا

يا أبي قد حصلنا على..."، إلا أن والدي حينها قد خطا خطى واسعة نحو البوابة، ملوحًا بذراعيه بضرورة المغادرة، أسرعت ليندا إليّ عبر حقل الزهور، ثم سحبتني من يدي، فلم أجد وقتًا لأخبرها عن المتسلل، وركضنا بسرعة خلف والدي.

تمزق عند البوابة جزءًا من الأسلاك الشائكة فتدلت من فوق السور كالوشاح المنسدل حتى اشتبكت بشعري، وقد خدشتني الأطراف في رأسي، وكنت أصارع لأحرر نفسي إلى أن صرخت بألم مما جعل والدي يهرول إليّ مسرعًا لتخليصي.

قال لي:"اثبتي يا ديبي، إنكِ تجعلين الأمر يزداد سوءًا"، ثم قذف مفاتيح السيارة لأختي قائلاً لها:"ليندا أديري المحرك"، شعرت بأبي يتنفس بصعوبة من خلفي، وأصابعه تتحسس شعري، حتى أطلق بعض السباب حينما وخزت الأسلاك أصابعه، ثم قال لي:"لقد علقتِ كالسمكة، ولكني سأحاول إخراجك".

أمسك رأسي بيده، وقطّع شعري بمطواة كبيرة يحملها دائمًا في جيب بنطاله، ولا يزال ذيل حصاني في رباطه المطاطي، يخرج من الأسلاك الشائكة كذيل الثعلب، إلى أن شعرت بلحفة الهواء الدافئ خلف رقبتي ثم ركضنا بعدها أنا وأبي نحو السيارة.

في مقعد السائق، كانت ليندا تدندن مع الراديو، إلى أن دفعها أبي إلى مقعد الراكب عندما قفزت إلى الخلف، قالت ليندا محتجة:" لقد قلت أن بإمكاني القيادة حتى المنزل"، فقال والدي:"ليس الآن"، واندفع بالسيارة مسرعًا في الاتجاه المعاكس.

\عندما قطعنا الطريق الترابي كاسرين ضباب الغبار المحتمل أن يكون مشعًا، قالت ليندا:"أمي ستقتلك يا أبي، لقد صارت ديبي كالولد"، فقال والدي: "سينمو مرة أخرى"، ثم تدحرجت السيارة بأخدودٍ، فهويت على أرضية السيارة، وقال أبي:"لا يوجد هامش للأمان في هذا الطريق، حيث تهبط الأرض عامًا بعد عام أكثر مما كانت عليه منذ عام ١٩٥٥"، قالت ليندا:" هذا غير منطقي".

أجابها والدي:" لا بالتأكيد منطقي، أعذري لهجتي"، نهضت من فوق الأرض ولففت ذراعي حول المقعد الأمامي، وكانت ذقني فوق كوع ليندا، بينما يقطع والدي طريق أراضي زي مسرعًا، على نحوٍ لم أراه قط وهو يقود بهذه السرعة.

قلّدت في المرآة العاكسة علامة الحرف V التي رفعها الرجل المتسلل فضربتني ليندا على يدي وقالت:"لا تفعلي ذلك، إنها لوقاحة"، حدقت فيها من بين أصابعي وسألتها:"ماذا يعني ذلك؟"، أجابتني قائلة:" إنها الطريقة التي يلقي بها الفوضويون **Anarchists** التحية لبعضهم بعض".

فقطبت ملامح وجهي وقلت:" فوضويون ؟ مثل العناكب **Arachnids**؟"، فقالت: "إنكِ تعتقدين أنهم من فصيلة العناكب، لا أنهم مثل الثرثارون".

سقطت نقطة دم من طرف أنفي ونزلت على فرش السيارة البني الفاتح، فأخرجت ليندا منديلاً مجعدًا وبصقت فيه، ثم وضعته فوق بقعة الدماء، وضغطت به على جبهتي، حتى ظهر المنديل بعد ذلك ملطخًا بالدم.

ابتعدنا الآن عن البوابة بما يكفي، كانت السيارة تترنح على طول الطريق الترابي بسرعة عالية، وقد اصطدمنا بحفرة أخرى أكبر هذه المرة، وانغرست السيارة في جانب واحد، بحيث كانت سرعة المحرك تزداد والعجل يدور.

وأطلق أبي السباب مرة أخرى- مرتين في يوم واحد- ثم نزل من السيارة وأغلق الباب بعنف حتى اصطكت أسناني، وركل الجزء الخلفي من السيارة وتأوه، وعندما دس رأسه من النافذة بدا وجهه متدليًا وأبيضًا كسمك السلمون الميت، وقال: "انفجر الإطار بالأسفل على حافة الحفرة، عليكن العودة إلى المنزل لوحدكن، ديبي أخبري والدتك أن تجهز لكِ حمامًا مطهرًا فوريًا لإزالة التلوث، ليندا تنظفي نفسك في حمام جدك، واستخدمن أدوات الطوارئ الموجودة في القبو التي اشتريتها من متجر الإطارات الكندية في أثناء أزمة الصواريخ الأخيرة".

تأوهت ليندا وقالت: "رباه، أكره الحمام القديم النتن في قبو جدي، وقد رتبت شعري للتويا أبي"، فقال أبي: "افعلي ما أقوله لكِ يا ليندا لمرة واحدة، وتأكدي من رمي ملابسك في أكياس الحرق".

ليندا: "ولكن يا أبي، كيف تتسنى لنا العودة إلى المنزل؟ إنه على بعد خمسة أميال على الأقل؛ ديبي لن تستطيع أن تكمل".

أبي: "إحميلها على ظهركِ إذا اضطررتِ، اذهبا الآن".

خرجنا من السيارة وشرعنا في الركض على الأوساخ أولاً، ثم على الحصى، ومع الوقت وصلنا إلى البوابة الثانية ذات اللافتة المكتوب عليها: "ممنوع التخطي بأمرٍ من مؤسسة شيبكو"

تباطأت خطواتنا، وأصيبت ليندا بغرزة في جانبها بينما دلفت حصوة إلى حذائي فوقفت على قدم واحدة لإخراجها، نظرت عندئذ للخلف على طول الطريق، وتمكنت من رؤية السيارة، وبالكاد رأيت أبي الذي لم أره أبدًا بهذا الصغر من قبل.

بدأنا بالمشي نحو عامود الكهرباء في نهاية طريق الحصى، حيث ميزنا البداية بشارع زيوريخ، إذ يذكرني العمود بعمود الإنارة عند مدخل نارنيا، وربما بالسيد تامنس في فيلم "الأسد والساحرة" والخزانة وهي تميل نحوها، مستمتعة بالسيجارة بانتظار بدء لعبة القمار.

فركت آثار قطع الأسلاك في شعري بأصابعي الدنسة لنقل الجراثيم إلى باقي بشرتي كي تبدأ معركتها، حتى أبعدت ليندا يدي، وقالت:"كفي عن ذلك، وإلا ستصابين بالعدوى"، فأجبتها قائلة:" أنا محصنة كسوبرمان"، فقالت: "من قال ذلك؟"، قلت: "أخبرني الطبيب ذلك، بعدما أعطاني اللقاح الشامل، وقال لأمي: "يجب أن يعيش جيل هذه السيدة الصغيرة إلى الأبد، إذا لم يلق الروس القنابل علينا"، تذمرت ليندا وقالت:" إنه يمزح يا ديبي، أنه مجرد لقاح ضد شلل الأطفال مضافٌ إليه بعض التحصينات لأشياء أخرى، وهذا لا يعني أنكِ محصنة"، رددت عليها قائلة:" إنكِ تشعرين بالغيرة يا ليندا لأنك كبيرة جدًا على هذا اللقاح"، أجابتني:"فلنغير الموضوع، بل الأفضل ألَا نتحدث مطلقًا، وننقذ أنفسنا لنعثر على مساعدة لأبي".

لأول مرة، أشعر أن ليندا قلقة على أبي؛ إذ يجب علينا إيجاد شخصًا ينقذ أبي لأنه في ورطة وكذلك نحن، لم يسبق أن شعرنا أنا أو ليندا بالخوف عليه؛ بيد أننا لم نتعرض يومًا للخطر.

ووصلنا إلى الرصيف المتصدع في شارع زيوريخ، أو شارع زي، كما نحب أن نسميه؛ حيث يربط بين طرق السكك الحديدية والقناة، وهو حي يتألف من منازل بحجم الأكواخ الصغيرة، تكتظ بكراجات بحفر الفحص، والجزارون اللذين يعلقون ذبائح الراكونات المنسلخة على النوافذ، وبائعو الخضراوات اللذين تبدو عليهم إمارات الحزن لخلو أرفف متاجرهم، كان المكان مقفرًا بلا أشجار، ولا حدائق، أو حدائق منازل أمامية، وقد سقطت المنازل بعنف فوق الرصيف، ومن ثم يمكن لأي شخص يمر بجوار تلك المنازل رؤية ما بداخلها إن لم تغلق الستائر.

أخبرني أبي ذات يوم أن المنازل الصغيرة قد ألقيت على أرض مستنقعات لتكن ملجأ مؤقتًا لعمال مؤسسة شيبكو خلال فترة الخمسينيات، وبعدما انتقلوا إلى منازل أكبر في الضواحي؛ انتقلت الأسر الفقيرة إلى تلك المنازل، وكسوا الحوائط بالورق المقوى ونشارة الخشب، وإذا توفر لديهم المال؛ غطوا إطارات الخشب الخارجية بكساء ألومنيوم رخيص.

لم يُبنَى أي شيء لوضع قانونًا في شارع زي، وإذا ما أرادت المدينة إرسال مفتشًا للحريق فإن معظم منازل الحي ستُدان، ولكن لحسن حظ قاطني شارع زي؛ أن المدينة لم تنزعج، حتى بعد انتشار شائعات تفيد بأن بعض نفايات شركة شيبكو دُفِنَت في أعماق أقبية بعض المنازل.

قبضنا ليندا وأنا على أنوفنا كي لا نشتم رائحة البول ونحن نمضي بجوار المخلفات من الليلة الماضية، حيث وجدت زجاجات بيرة مكسورة، وأعقاب سجائر، وحمالات صدر، وبضعة أكمام بلاستيكية مجعدة بدت كالعلقات الشفافة، وكان ذلك بعد شروق الشمس.

من على بعد، شكلت الواجهة البيضاء المفخمة لكنيسة قديمة جزءًا من شارع زي، حيث عاشت أقدم عائلات شيبمان كورنرز في هذا الفصل مثل عائلة ساندرسون، وكندال، وسميث وبيل، وجميعهم ينحدرون من العبيد الفارين من الولايات المتحدة عبر السكك الحديدية تحت الأرض، تسترشدهم هارييت توبمان نفسها، لذا تفتخر شيبمان كورنرز بالتفضل على استقبال هؤلاء اللاجئين من الأميركيين مالكي العبيد، ثم تلقيهم على الفور في أطراف البلدة.

شاهدنا هنا في نهاية المطاف علامات حياة ذكية، فقد رأينا صبيًا يجلس على ناصية كوخ بباب أخضر بني في المساحة الضيقة بين الكنيسة البيضاء الكبيرة وحطام المنزل الصغير، وكانت السلالم الأمامية محفورة كما لو داس عليها وحشًا عملاقًا.

وكان الصبي يقرأ كتابًا وهو يضع رأسه في يده، وعندما مررنا بجانب الرصيف، نظر إلينا الصبي، حتى تعرفتُ عليه؛ إنه جون كندال؛ إذ جاءنا مرة ذات أسبوع مع والدته حينما زارتنا لتبيع لأمي منتجات تنظيف وحساء مصنوعين من الدجاج، وكانت السيدة كندال امرأة سوداء رفيعة طويلة القامة ترتدي فستانًا رماديًا بسيطًا مع شارة صغيرة شبكت على كتفها وقبعة مطابقة بدت وكأنها قبعة فيدورا، ودائمًا ما تأتي بحقيبة ثقيلة محملة بالسلع يجرها الفتى جون ذو الرابعة عشر، وقد خالجني الإحساس بأن جون كندال قد لاحظ كل شيء، على الرغم من أن السيدة كندال كانت تتلقى طلبات أمي على كوب من الشاي، في حين يجلس جون بهدوء على طاولة المطبخ يتصفح الكُتب التي تشبه إلى حد مريب باب القصص المصورة التي تنشر يوم الأحد في الصحف.

وقال لنا: "لقد استيقظتما مبكرًا يا فتيات".

وتوقفت ليندا أمام الناصية لرفع شعرها الرطب من على جبينها، والآن أشرقت الشمس كليةً، وبدأ البخار يملأ اليوم.

فقلت: "هل يمكن لوالدتك أن تعطينا رافعة يا كندال؟ فقد انفجر إطار سيارة أبي في الطريق الخلفي"، هز كندال رأسه قائلاً: "لقد تركتنا في الخامسة صباح هذا اليوم لتوصيل طلباتها، يمكنني أن أركب دراجتي لأساعد والدك، لقد سبق وغيرت إطارات السيارات عدة مرات في سيارة أمي".

رأيت ليندا تتصارع فيما ستقوله، فهي لا تريد التفوه بما كنا نقوم به وأين؛ إذ كانت هذه قوانين والدي بألا يجب أبدًا أن نُحدّث أي شخص بما يجري في وظيفته فيما عدا العائلة، فقالت ليندا: "هذا لطف منك، ولكن والدي يمكنه التعامل مع الإطارات بنفسه؛ إنه يريدني أنا وديبي فقط كي يعود إلى المنزل بسلام، فهل تمانع أن استخدم هاتفك للاتصال بوالدتنا؟"، هز كتفيه وقال: "فلتأخذن راحتكما".

عندما أدخل ليندا إلى المنزل؛ التقطت الكتاب الذي يقرأوه؛ كان كتاب "تانتين والنيزك"، قلبت صفحاته ذات الألوان المشرقة التي تتنوع ما بين الأحمر، والأصفر، والأخضر، فرأيت في إحدى الصفحات صبيًا يرتدي سروالاً قصيرًا يرقص مع كلبه الأبيض ويغنون: "مرحى مرحى، تأجلت نهاية العالم".

كان جون كندال في نظر أي شخص وُلِدَ في شيبمان كورنرز وترترع فيها؛ صبيًا مختلفًا من عدة جهات، أولاً وقبل كل شيء؛ أنه أسود، وخلافًا لمعظم الأولاد، يحب القراءة، وثالثًا، معظم الناس ينادونه باسمه الأخير- كندال، وليس جون، وربما الأهم من ذلك كله، أن والده ميتًا؛ وقد عرفت هذه الحقيقة الأخيرة عندما استُدعِيَ أبي ذات يوم إلى المصنع ليلة أن نام السيد كندال في أثناء تأدية عمله، فسحبته الماكينة من كم قميصه، ونزف حتى الموت قبل أن يتمكن الجميع من إنقاذه.

تحدث أبي عن تلك الحادثة بعد ذلك على مائدة العشاء، وهز رأسه قائلاً إن من العار أن آليات السلامة ستبطئ الإنتاج، مشيرًا إلى أن الرجال كالسيد كندال ممن كانوا على استعداد للعمل في نوبات إضافية، غالبًا ما يصيبهم النعاس والإهمال، إلى أن ينتهي بهم الأمر بحادثة، فمنهم من كان بلا ذراع أو يد، ولكن السيد كيندال كان ذكيًا؛ بل ربما ذكيا جدًا لحشده الصالحين من بين الرجال الآخرين، فقد جمع حشدًا مكونًا إتحادًا لعمل نقابة. ولكن كان يجب أن يكون أكثر دراية! ومنذ ذلك الحين، جائتنا السيدة كندال إلى منزلنا ذات أسبوع لبيع المبيضات والمنظفات والمساحيق المصنوعة من الدجاج بعد أن تتخلص من كل المياه في أجسادها.

بينما كانت ليندا تتحدث مع أمي، جلسنا أنا وكندال على الناصية، سألني قائلاً: "أين كنتما مع والدكما عند مطلع الفجر؟"، كنت كاتمة سيئة للأسرار، فأجبته: "في أرض زي"، وأنا أقلب صفحات كتاب تانتين، واستطردت: "هل سبق لك الذهاب إلى هناك؟"

رد علـيّ قائلاً:"بالتأكيـد، أتـردد إليهـا طـوال الوقـت"، وأضـاف:"أنها من الأماكن القليلة هنا التي تتمتع بمساحة كافية للعب كرة القدم، ففي الأسبوع الماضي ذهب بام بام هناك وسقط تقريبًا فـي القناة".

فسألته:"هل تسللت إليها؟"

هـز كتفيه وواصل حديثه معي:" ليس بالصعب الدخول إليها، فالأرض هنـاك كالرمـال، لـذا حفرنـا نفقًـا ودلفنـا مـن تحت السـور"، قلت له:"رأيت متسللاً في القناة واقفًا فوق حافلة، قبل أن ينفجر عداد جيجر الخاص بأبي، لا بد أنه دخل عبر الفتحة".

قطبت ملامح كنـدال وقال:"انفجـر عـداد جيجـر، هـل هـذا يعنـي أن الأرض مازالـت مشـعة؟ لقـد ظننـت أنهـا طُهـرَت"، هـززت رأسـي موافقـة وبهذا أكون قد اخترقت قوانين أبي مرة أخرى، وقلت له:"نعم، فوجئ أبي كذلك، هذا هو السبب في أننا تركناه في عجالة مـن أمرنـا، حيـث كان يقود مسـرعًا، فانفجـرت الإطارات".

أجابنـي كنـدال: "أراهـن أن المتسـلل علـى صلـة بهـذا الأمـر؛ ففـي الكتب الخياليـة دائمًـا مـا يسـبب الـزوار مـن البعد الآخر أشـعة جاما وتوهجـات شمسـية وطفـرات وأشـياء، وربمـا تمزق المتسـلل في حفرة في التسلسل الزماني المكاني وتُرِكَ في نفخة من الغبار المشع؛ هـل قـال شيئًا؟"، قلت له: "أخبرني أننـي هـي؛ مثل لعبة المطاردات".

فكـر كنـدال كثيـرًا ثم أردف:"ربمـا التقطـتِ شيئًا، وهـو مكلّف بمهمـة لـك، أتسـائل إن كنتمـا قـد تلتقيـان ثانيـةً عمـا قريـب"، هـززت رأسـي نفيًـا وقلت لـه:" كلا، لقـد رأيتـه بـأم عينـي يـذوب كالسـاحرة الشـريرة فـي الغـرب".

ردّ عليّ قائلاً: "أتظنين ذلك؟"، وضعت رأسي بين يدي وقلت له:" ما كان ينبغي أن أخبرك بعداد جيجر، ولم يكن من المفترض أن أتحدث عن أسرار أبي"، اقترب كندال مني وقال:"لا بأس أنتِ مازلتِ صغيرة، وما يجب على الكبار أن يودعوا أسرارهم معكِ".

عادت ليندا تهز رأسها قائلة:"أمي لم تجب، ربما ذهبت إلى حديقة البلوتونيوم للمساعدة على تجهيز نزهة الشركة"، نظرت إلى كندال وسألته:"هل ستذهب إلى النزهة؟"، أجابني:"بالطبع، فمدير شركة شيبكو يدعوني أنا وأمي كل عام لهذه النزهة، ويقَدّم لنا فيها شطائر السجق الساخنة وكل شيء بالمجان"، ردت عليه ليندا:"رائع يا كندال، خاصة بعد ما حدث لوالدك".

تلاشت ابتسامة كندال ثم قال:"أتمنى أن يحشروا هذه الشطائر في مؤخراتهم السمينة ويعيدون إليّ والدي"، إحمرّ وجه ليندا خجلاً، فالتقط كندال كتابه متظاهرًا بعدم ملاحظة خجلها، إلى أن أردف قائلاً:"والآن لم لا تركبان خلفي على الدراجة وأوصلكما إلى البيت؟"، أومأنا برأسنا أنا وليندا بالموافقة، وشكرنا الله أننا ارتدينا ملابس مناسبة هذا الصباح، هذا وقد طلب منا كندال الانتظار بالخارج حتى يحضر بعض المياه معنا، وقبل أن يدلف إلى الداخل حوّل عينيه إليّ وسألني:"هل تريدين شيئًا لمداواة الجروح التي برأسك يا ديبي؟ ربما صبغة يود؟"، هززت رأسي نفيًا وقلت:" أخذت مصلاً واقيًا؛ أنا محصنة"، وقالت ليندا: "متوهمة أكثر مما توقعت".

قال كندال:" احترسي من الكربتونيت الأحمر، فإنه لن يقتلك، ولكن بالتأكيد سيزعجكِ". قالت ليندا وهي تدير إصبعها حول أذنها:" لقد تعرضت بالفعل".

أخرج كندال دراجة صدئة من صنع شركة سي سي إم الكندية من ممشى صغير بين منزله والكنيسة، وقد جلست ليندا على مقعد الدراجة بينما جلست أنا فوق المقود، أما كندال فقد وقف على الدواسات، واتجهنا نحو منزل بجوار منزل كندال ببابٍ محطم خرج منه صبي، عرفته على الفور؛ إذ كان واحدًا من فاقدي الأمل الذين نُقِلوا إلى مدرستي بدافعٍ من الشعور بالواجب الكاثوليكي، وهو باسكوالي بيشي، ابن وكيل المراهنات، المعروف باسم بام بام، لأنه عندما كان طفلاً صغيرًا، كانت أمه تسحبه معها من منزل إلى منزل، لاستخدام جسده النحيف الصغير في إثارة الشفقة لدى الجيران، ومن ثم التعطف عليهما وتقديم العون بالمال والطعام لهما، وحتى عندما بلغ الرابعة عشر من العمر ظل محتفظًا بوجهه الطفولي المخادع، وانتشرت سمعة عنه بأنه الطفل الذي يقضي الكثير من الوقت في الشارع وله رائحة جسم مستمرة لشخص يعيش في منزل دون حوض استحمام، أما السيد بيشى فقد خسر كل شيء في القمار عدا جدران منزله الأربعة، وفي هذا الصباح جاءنا بام بام حافي القدمين على الناصية مع ما خمنت أنه إفطاره الذي تكوّن من شريحة خبز، وعلبة كولا النيوترون، وعقب سيجارة.

حك بام بام إبطه عندما مررنا أمامه، وحدّق فينا ثم قال:"هل تريدونني اصطحاب واحدة من الفتيات على دراجتي؟"،

فأجابه كندال: " نحن بخير يا بام بام وقد استطعت أن أزن نفسي على الدراجة".

فقال بام بام: "ربما عليّ أن أسابقك"، وافق كندال قائلا: "عُلِمْ بام بام".

أدرت رأسي لأرى بام بام يلقي عقب سيجارته في جدول وجرى مسرعًا لإخراج دراجة صغيرة ذات سرعة واحدة من خلف مكانٍ يكتظ بالقمامة بجانب ما يمكن أن نسميه منزله، وسرعان ما لحق بنا، صارت ركبتاه تدوران بسرعة جنونية فوق الدراجة، وكان يرتدي قميصًا وسروالاً ورديًا فاقع اللون بسوستة جانبية.

كان باقي شارع زي مستيقظًا أيضًا، وأزيحت الستائر جانبًا، وقد حدقت فينا الوجوه البيضاء من النوافذ والنواصي، إلى أن وجدنا زجاجة فارغة تحلق فوق رؤوسنا حتى تهشمت على الطريق أمامنا، عندئذٍ قالت ليندا: " احترس يا كندال، ثمة شخصٌ ما يحاول ضربك"، فقال كندال: " ليس أنا، بل شخص آخر" مشيرًا إلى بام بام الذي وقف على دواساته وأطلق وابلاً من السباب أمامنا، وانفجرت زجاجات أخرى حولنا، فوضعت يدي فوق رأسي، وبدأت أفقد توازني، حتى سحب كندال يدي بقوة وأعادها إلى المقود.

تمتم كندال: " ألا تكفون عن الحقد يا أولاد الكلاب"، فقال بام بام: " من المحتمل أنه القصف الكاسح للقوات الخاصة اللعينة من المتقاعدين لتخويف الفتاتين"، ونظر وراؤه ثم تابع قائلاً: " أو ربما واحد من الملتوين الأوساخ، من اليوم لن أصادق من الخصم مرة أخرى"، قالت له ليندا باحتشام: " انتبه لألفاظك من فضلك يا

سيدي"، وتابعت مع كندال:" هل يمكنك الإسراع أكثر يا كندال؟"، فتنهد كندال وبدّل بأسرع ما يمكن حتى سبق بام بام. قال بام بام وهو يتجاوز كندال:"اركب الهواء"، حتى كاد أن يتحول الأمر إلى سباق.

وركضنا عبر زاوية على طريق تسلا، في نهاية شارع زيوريخ، حتى مررنا بلوحة إعلانية نثرت عليها رسومات جرافيتي مع ظل إعلان عن حبوب لم تكن موجودة منذ الخمسينيات، وقد ظهرت جملة باهتة تقول "شيبكو تقتل" تحت طبقة رقيقة من اللون الأبيض.

مررنا أيضًا على بستان وقفت فيه امرأة ورجل على سلالم، يعّبئان السلال بالخوخ، وقد بدا الزوجان متجمدان وملتويان كفروع الشجر حولهم، ذوي قبعات وشعر وملابس رمادية، ربما يكونون رجل وامرأة أو أخ وأخت، أو حتى أم وابنها، وقد قالت المرأة شيئًا للرجل بلغة لم أفهمها، فأومأ الرجل برأسه وبصق على الأرض؛ إذ لم نكن ننتمي أنا وليندا إلى هناك.

كانت بلدة شيبمان كورنرز إمبراطورية الموالين المتحدين وهم المستوطنين الإنجليز الجدد الذين ظلوا موالين للملك المجنون جورج ممن شقوا طريقهم إلى أمريكا الشمالية البريطانية بعد الثورة الأمريكية، ولقد كنا فيما يعرف بالحي العرقي والذي ضم؛ الأسبان، والإيطاليين، والبولنديين، والليتوانيين، واليوغسلافيين، والأوكرانيين، والنازحين، وكل من وردوا إلى شيبمان كورنرز بعد الحرب، بحثًا عن العمل، حتى انتهى بهم الأمر إلى العيش في أطراف البلدة.

يميل الناس إلى العيش مع الآخرين ممن وردوا من المكان نفسه؛ حيث استقر الإيطاليون مثل أجدادي، على طريق فيرمي، بينما عاش الأوكرانيون والبولنديون وغيرهم من سكان أوروبا الشرقية في تسلا، أما شارع زي فقد سكن فيه أي شخص لم يستطع التأقلم في أي مكان آخر.

شيءٌ واحدٌ فقط هو الذي وحّد الجيران؛ وهو أننا كنا جميعًا غرباء، منعزلين عن الجانب البعيد من قناة النقل البحري وسط شيبمان كورنرز، وتوفر مؤسسة شيبكو نظامٌ معينًا للبلدات التابعة لها، وقد كنا أمثلة حية على كيفية سير تجاربهم.

وبعيدًا عن بستان البرقوق؛ مررنا بكوخ بونجالو متسخ ومجصص باللون البني الفاتح ذو بقايا من ساحة أمامية مغطاة بجذور شجرة الخوخ العملاقة، وفي ظلال الفروع؛ على طاولة لعب الورق الممتلئة بزجاجات من مختلف الألوان والأحجام؛ جلس رجل ذو شعر أسود مصفف للخلف، عريض الوجه، مرتديًا قميصًا داخليًا أبيض اللون يحتسي سائل ما من زجاجة مياه وهو السيد هولوب، المشار إليه باسم السيد كابيتاليسمو "الرأسمالي" لطرقه السريعة في بلوغ الثراء التي كان آخرها ملجأً متحركًا للقنابل والصورايخ يشبه إلى حد كبير بدلة الغوص في أعماق البحار ذات الطراز القديم مرفق بها عداد جيجر، وقد عرفه أبي من شيبكو، وقال عنه أنه شاب لطيف بما يكفي لكنه مجنون قليلاً.

وبينما توقفنا في محطة، مشى السيد هولوب في الشارع، حاملاً زجاجته، فشممت رائحة غريبة من أنفاسه، وهي رائحة البصل

المختلطة برائحة الكحول، قال لنا بصوت بدا عليه النضج: "ماذا تفعلن يافتيات، لماذا تخرجن مبكرًا هكذا في الصباح؟"، نزلت ليندا من دراجة كندال وروتْ له قصتنا في عجالة؛ على الأقل جزءًا من انفجار إطارات سيارة أبي في أراضي زي، ولم تذكر له ما كنا نقوم به بالضبط أو عداد جيجر ومغادراتنا المفاجئة.

وقفت بجوار كندال والذي أمسك دراجته في شك، بينما قام بام بام بحركات بدراجته على الطريق، لتضييع الوقت، في حين وقفنا نحن نرتب الأمور، ومع تولي السيد هولوب المسؤولية، انتابني القلق حيال كندال الذي قد يشعر أنه بات منسيًا، حتى أدركت أنه كان يحدق في الباب الأمامي لمنزل هولوب، حيث وقفت فتاة تحمل مكنسة تنظر إلينا عبر باب زجاجي، ذات شعر أسود طويل كثيف مغطى بوشاح، كنت أعرفها من المدرسة، اسمها ساندي هولوب؛ ابنة كابيتاليسمو الوحيدة، على الرغم من أنها تكبرني بعام، إلا أنها نُقِلَت إلى فصلنا بسبب لهجتها، وقد كان اسمها الحقيقي أولكساندرا، لكنها غيرته إلى ساندي لأن شخصٌ ما ضحك على اسمها وشبهه بقطة تلعب بكرة شعر.

تعرفنا أنا وساندي على بعضنا حينما انحنينا سويًا في رواق أثناء سماع دوى صفارات الإنذار للتدريب على غارة جوية، وعندما واجهت الجدار وذراعيّ ملتفتان حول رأسي، شممت رائحة بول وأدركت أن ساندي قد بالت على نفسها، حاولت طمئنتها وهمست لها: "لا تقلقي إنه غير حقيقي".

وعندما استدارت للنظر إلى وجهي، أحزنني الخوف في عيونها الزرقاء الشاحبة كسكين، وفجأة توقفت صفارة الإنذار، مثلما بدأت فجأة، تاركة صدىً شبحيًا، ثم نادى معلمنا: "المكان آمن"، دوى بعدها أصوات الصفير والضحك من الأطفال كما لو كتب لهم عمرًا جديدًا، فقلت لها: " أرأيتي؟"

صرنا أصدقاء بالفعل بعد ذلك، ولكن الأمر لم يصل إلى حد الزيارات المنزلية، إلا أننا كنا نبقى معًا في الاستراحة، ونخرج سويًا للعب القفز على الحبل.

***

عندما رأيت كندال يحملق في ساندي، وساندي تحملق فيه بدورها، أدركت أنه ليس كندال الشخص المنسيّ، بل أنا، وقد كسر السيد هولوب تلك اللحظة حينما مد يده إلى كندال ليصافحه قائلاً: " شكرًا على مساعدتك ياولد، سآخذ الفتيات إلى المنزل من هنا"، ثم رأيت ملامح النفور تظهر على ملامح كندال لدى سماعه كلمة ولد.

قال لي كندال: "أراكي في النزهة"، ثم نظر إلى ساندي مرة أخرى قبل أن يشير إلى بام بام أن الوقت قد حان للعودة إلى شارع زي، شاهدتهما الاثنان يقودان دراجتهما بجوار البستان الرمادي، ككلاب تتطارد، في حين أخرج السيد هولوب سيارته من مكان وقوف السيارات وراء المنزل، وقال إنه سيوصلنا إلى المنزل، ثم يعود مرة أخرى إلى أراضي زي لمساعدة أبي، وهنا أستطيع قول أن ليندا شعرت بالارتياح بأنه سيكون كل شيء على ما يرام، لكنني أصبت بخيبة أمل لأنني لن أعود إلى المنزل على مقود دراجة كندال.

ظلت ساندي هولوب نصف مختبئة خلف الباب الزجاجي، وحينما ابتعدت السيارة عن الرصيف، لوّحت بيدها إليّ ثم استدارت واختفت في الظلام مع مكنستها.

الفصل الثاني
توهج في الظلام
جهاز اختبار بات بوون لكشف الكذب

وقفت عارية في الحمام، بينما ألقيت ملابسي في حقيبة بلاستيكية وأغلقت عليها بإحكام تمهيدًا لحرقها، وامتلأ الحوض بالماء الساخن مع القليل من فقاعات حمام الأشعة فوق البنفسجية للأطفال من دكتور فون براون، في حين قصّت أمي النهاية الممزقة من شعري.

قالت أمي وهي تتنهد: "أنا متأكدة أن كلوديا ستفعل شيء تجاه هذه الفوضى"، قلت لها: "أحب شعري هكذا"، قالت: "لكن عندما يبدأ الأطفال في إطلاق الفكاهات على شعرك، ستكرهين شكله يا كارا".

قفزت إلى الحمام الأرجواني العميق وحبست أنفاسي وغرقت تحت سطحه تاركة الفقاعات تمسح كل جزيئات ألفا وبيتا المقرفة مع "رائحة الفاكهة والحب المنعشة للأطفال"، وفقًا للافتة الملتصقة بها. ظللت غارقة لمدة خمس عشرة دقيقة كاملة، إلى أن توقف التنميل في جلدي، طبقًا لما كتب على الزجاجة، ثم استخدمت منشفة التقشير من ماركة شيبكيدس، ومسحت أمي أيضًا الغبار من عليّ بالبودرة المضادة للإشعاعات الذرية للفتيات ضمانً للسلامة.

بعدما ارتديت طقم نادي شيبكو للأطفال، والمكوّن من تنورة صفراء، وقميصًا أزرقًا متلألأً، وجوارب حمراء؛ أرسلتني أمي إلى جارتنا السيدة دوناتو لتصفيف شعري؛ حيث كانت السيدة دوناتو وأمي قد آتيا إلى كندا في الوقت نفسه وهن فتيات صغيرات عبرن المحيط إلى مدينة نيويورك، حيث عاشت جدتي لأمي فترة، على متن سفينة لو أميريكا، وقد تكونت صداقتهما، إن أسميناها هكذا، عندما تعلقن بالدرابزين للتقيؤ في الأمواج، ثم توطدت بعد ذلك عندما صدمن بنقلهن مع أمهاتن إلى بيتًا ريفيًا في جزيرة إليس تحت علم أمريكي عملاق؛ إذ قيل لهم أنهم لا يستطيعون البقاء لأن أمريكا لديها ما يكفي من الإيطاليين، ولكن هناك بلد بارد في الشمال؛ تديرها الملكة التي قد توافق على أخذهم، لذا، لم يكن لدى أمي وكلوديا دوناتو، بعد كل تلك الدراما خيارًا سوى أن يصيرا أصدقاء مدى الحياة.

كانت السيدة دوناتو تقلد أمي في كل شيء تفعله، وقد حملت أمي أولاً في ليندا، ولكن عندما حملت فيّ أيضًا، حملت السيدة دوناتو في توأم، وعندما اسمتني أمي على اسم نجمتها السينمائية المفضلة، ديبي رينولدز؛ قامت السيدة دوناتو بتعميد بناتها وهما جودي جارلاند، وجاين مانسفيلد.

فوق صفوف لانهائية من الملابس المغسولة كالحفاضات، والملابس المنزلية، والمآزر، والأحزمة، وسراويل العمل الزيتية لأزواجهن، والمرايل المتربة؛ أخبرت السيدة دوناتو أمي بأن بناتها سيعملن قارعات طبول، فردت أمي عليها بأن ليندا ستتدرب على الموسيكى الكلاسيكية، وأنا سأكون راقصة نقرية كاسمي، ومثلما هو

متوقع، أنهيت ليندا دراسة الكمان، وأصبحت كل من جودي جارلاند وجاين مانسفيلد أفضل عازفي طبول في شيبمان كورنرز بقسم الطبول للمبتدئين، وفزن في مسابقة ملكة الطبول لعامين على التوالي، أما أنا، من ناحية أخرى، فقد تبين أنني موهوبة في الموسيقى كعمود السياج وفاشلة في الرقص النقري وأنا في عمر السادسة.

***

عندما وصلت إلى منزل دوناتو، كانت كل من جودي جارلاند وجاين مانسفيلد تسترخيان أمام التلفاز القديم لمشاهدة فيلم عالم الغد المدهش للدكتور فون براون؛ حيث ظهر أحد الأطفال مندفعًا من الحافة كالنفط، وكانت السيدة دوناتو تقف على طاولة الكي في قصاصتها السوداء والكعب العالي، تحدق في الشاشة بعيون حمراء ترتدي عدسات لاصقة ممسكة بسيجارة، وكان أحد علماء الآثار المشهورين يشرح كيف سنصل إلى القمر بعد تفجير الأرض بلهجته البروسية الخشنة: "والآن سيدخل جوفي وبلوتو إلى صاروخ عطارد، ولكن أنظروا أنهما بلا وزن".

تمتمت السيدة دوناتو من وراء سيجارتها: "عجوز ألماني ممل ورجل مبيعات مخادع لحوح أكثر من بطل فيلم فولر براش مان"، ثم أردفت: " حسنًا يا عزيزتي، لنرى كيف سنحول هذه الفوضى إلى تسريحة للشعر القصير، سنحول طلتك إلى طلة فنانة فرنسية راقية جدًا؛ كيف تقطّع شعرك؟". أخبرتها أنني كنت في أراضي زي، تبعًا لوظيفة أبي، فتعلق شعري في السور.

عندئذ أبعدت أصابعها على الفور عن فروة رأسي، وقالت:" لقد طهروكِ في المنزل يا كارا، أليس كذلك؟"، أجبتها: "بالطبع"، وواصلت حديثي معها قائلة:" استغرق الحمام خمس عشرة دقيقة بالضبط طبقًا للتعليمات الموضحة على الزجاجة"، تذمرت السيدة دوناتو وهي تعلن موافقتها، وأنزلت ذقني إلى صدري لتقليم ذيل حصاني المقطوع، ثم بعد ذلك، أعادت تسريح أعلى رأسي ونثرت شعري يمينًا ويسارًا حتى أصبح منفوشًا مكونًا شكل القبة، لا تختلف عن تسريحتها، ثم رشت شعري برذاذ الشعر حتى صار كالخوذة.

قالت السيدة دوناتو:"إنها ليست بالرائعة، لكني سأفعلها للنزهة"، ثم سحبت سيجارًا واستطردت:"أخبري والدك أن يترك لي قصاصات شعرك المرة القادمة"، نظرت إليها وسط غيمة الدخان، فكلانا يعرف أن والدي يقوم بأشياء سيئة في عمله أكثر من مجرد قص شعر.

ودعتني السيدة دوناتو بعد ذلك، ثم أخذت تمشط شعر ابنتيها وشكلت تسريحات شعر عالية لهن وعندما عبرت الحديقة الأمامية للمنزل، بمحاذاة نبات الكرمة، الذي صمم له جدي زينيو خيال مآتة لإبعاد العصافير عن عناقيد العنب الناضجة، وقد لاحظت شيئًا غريبًا، وهو وجود السيد هولوب هنا واقفًا عند المدخل يتحدث مع أمي وليندا، وسيارته واقفة أمام المنزل، ولم أرى أبي في أي مكان. فخفت أن يكون قد أصيب بإشعاع الموجاتَ الحرارية.

اقتربت وسمعت السيد هولوب يقول:"لم أجد كارلو ولا السيارة؛ إذ بعدما وصلت، وجدت البوابة تسد الطريق ومغلقة بإحكام"، فقالت أمي:" الأفضل أن نتصل بالمؤسسة".

على الرغم من أننا في صباح السبت أي في عطلة نهاية أسبوع طويلة؛ أجاب مدير أبي على مكالمتها فورًا، قائلاً: "لا تفزعي، سيجدونه، ولا داعي لكل هذا القلق"، وفي هذه الأثناء، كان من المهم جدًا أن نذهب أنا وليندا وأمي إلى نزهة الشركة، متظاهرين كأن أمرًا غريبًا لم يحدث، فلربما فُقِدَ أبي أو اضطرب وهذا كل ما في الأمر، أو ربما يكون إجهاد العمل؛ إذ يحتاج الرجل أحيانًا إلى وقت للتفكير مليًا في الأمور، وسيستدعون طبيب الشركة، فقط حال احتاج أبي إلى شيء لمساعدته على الاسترخاء عندما يظهر في النهاية، فربما عليه أن يلعب الجولف، أو يحجز عدد قليل من المقابلات الممتعة مع إحدى بائعات الهوى في شيبكو إذا لم تعترض السيدة بيوندي على ذلك؛ بيد أن معظم زوجات المديرين ذوي المناصب القيادية العليا يسررن بتفويض المختصين المهرة لتخفيف توتر أزواجهن، وترك الزوجات النشيطات يمارسن أنشطتهن في أندية لعب الورق والأعمال التطوعية، وقد سأل أمي سؤالاً قبل أن يغلق الخط: "هل هنالك أسباب لترك الزوج عائلته؟"، في هذه اللحظة عجزت أمي عن الكلام".

بعد أن أغلقت الهاتف، وقفت أمي تحدق من نافذة المطبخ لفترة طويلة، ثم غسلت صفًا من الأطباق كانت قد غسلتهم بالفعل، بينما جلسنا أنا وليندا على الطاولة، نشذّب أظافر بعضنا بعض، ونراقب أمي وهي تنتظر، وكي تخفف أمي التوتر، أعدت القهوة لثلاثتنا، ثم جلسنا جميعًا حول الطاولة، وأخبرتني أنا وليندا ما قاله المدير لها كلمة كلمة.

قالت ليندا بعيون دامعة:" لكن يا أمي لا يمكننا الذهاب إلى النزهة بدون أبي، سيسألنا الناس عنه"، تنهدت أمي بتعب وأمسكت يد ليندا وقالت:"أعرف يا كارا، ولكن إذا مدير أبي أمرنا بالذهاب، إذن يجب أن نذهب جميعنا، ستقودين أنتِ السيارة إلى موريس، فأنا متعبة جدًا ولن أتمكن من الإمساك بعجلة القيادة، ولا تتفوهن بأي كلمة للجدة بيبي أو الجد زين".

كان الحشد في نزهة حديقة بلوتونيوم على قدم وساقٍ، وقد ولجت أمي إلى الخيمة حيث وزعت النساء الكعك والأوعية المقاومة للحرارة وسلطات الفواكه بالجيلي، واشترت ليندا مجموعة من تذاكر ركوب الأحصنة الدوارة من على طاولة بطاقات نصبت أمام النصب التذكاري، وهو قنبلة سوداء ضخمة من الجرانيت مع جوانح خلفية لسيارة كاديلاك معلقة في المنتصف على أسلاك فولاذ غير مرئية تقريبًا، وقد نصب خلفها تمثالاً حجريًا قديمًا لجندي أغمي عليه بين ذراعي ملاك، حيث كُتِبَت على النقوش الباهتة تحت أحذية الجندي عبارة:"إلى أمواتنا العظماء"، تليها قائمة بأسماء رجال شيبمان كورنرز الذين ضحوا بحياتهم في الحربين العالميتين، هذا وقد حجبت القنبلة الحجرية الكبيرة الملاك والجندي، وكتب على اللوحة الآتي:

إلى موتانا ضحايا الإشعاع...
تكريمًا لمشغلي ماكينات شيبكو المعجبين...
(قسم كانوسا، وحدة شيبمان كورنرز)...
اللذين لبّوا نداء الواجب...
لبناء أسلحة نووية من أجل السلام...
نسأل الله العظيم أن يتغمدهم برحمته...

وقف صبي ضخم الجثة، عند لعبة الخيول الدوارة، يمزق التذاكر ويرفع الأطفال على الأحصنة، كان يرتدي قبعة البيسبول الخاصة بشيبكو فوق شعره القصير وقميصه المزرر حتى رقبته رغم حرارة الجو، وعندما أعطته ليندا تذاكرنا، هز رأسه وقال:"الدخول بالمجان يا عزيزاتي، فالشقيقات الصغيرات يلعبن بالمجان"، ظلت أعينه تتطلع إلى ليندا من فوق لأسفل، وتتخطفها كصنارات السمك، حتى ابتسم ابتسامة مغرية؛ فقد كان الفتى أشقر الشعر، ذو عينين سوداوين، كان مما تسميه أختي وصديقاتها "الشاب رائع الجمال"، عدا شيئًا واحدًا فقط؛ وهو أن هنالك ندبة قبيحة الشكل في نهاية أذنه اليسرى؛ إذ يعتبر القطع أمرًا مريبًا في بلدة صناعية كبلدتنا، التي يفقد معظم الناس فيها أطرافهم، وليس جزءًا من رؤوسهم، لم أستطع التوقف عن التحديق في الدودة الوردية من اللحم الملفوفة تحت القناة الأذنية.

أصدرت ليندا صوتًا خفيضًا كالهمهمة:"إن معاملتنا معاملة خاصة أمرًا غير عادلاً للزبائن الآخرين"، هز الفتى الأشقر كتفه قائلاً:"الحياة ليست عادلة، أليس كذلك؟ أنتن لسن كالآخرين، أنتن استثنائيتان، لذا فالدخول مجانٌ".

شعرت بتردد ليندا، إلى أن رفعني الصبي على سرج الحصان ذو المنخر المتوهج، ثم قال لي:"ها أنتِ ذا أختي الصغيرة، فوق أفضل مقعد في دوامة الخيل".

تركت ليندا الصبي يلف ذراعيه حول خصرها ويجلسها على السرج الجانبي بجواري، وهمستُ إلى ليندا:"إنه مجنونٌ بكِ"، فقالت لي:"إنه مجرد عامل ملاهي"، سألتها قائلة:"هل رأيتِ شحمةَ أذنه؟"، فردت: "ربما تكون عضة كلب".

بدأت الخيول ترتفع وتنخفض على صوت موسيقى الأرغن مخترقة الأعمدة، وهي تغني: "يا زهرة الأقحوان... اريحي قلبًا هام بكِ حبًا، وأعطه جوابًا شافيًا".

ركبتُ الحصان الأبيض ذا اللجام الذهبي، بينما امتطت ليندا الحصان الأسود ذا اللجام الفضي، وكانت الخيول تتقدم للأمام، ثم تعود للخلف في سباقٍ لا نهاية له، كالأخوات الصالحات والشريرات في قصص الخرافات، التي دائمًا ما تكون الأخت الصغرى هي الأطيب والأجمل، وتتزوج الأمير، ثم تعيش معه في القلعة تاركة أختها الأكبر الغيورة مع زوجة ابيها الشريرة، وقد أحببت أن أخبر ليندا بهذه القصة، التي أرى أنها تنطبق علينا، لأننا نشبه الأميرات، منذ أن أضحى والدنا مشرفًا على تطهير شيبمان كورنرز، إلى أن دوت صفارة الإنذار معلنة انتهاء الجولة، فأتى الفتى الأشقر لإنزالي، وقال: "أتريدان جولة أخرى؟"، وأجابت ليندا: "ربما وقتًا آخر".

فقال: "اسمي بيلي، وسينتهي عملي في خلال ساعة، هل أبتاع لكما صودا؟"، هزت ليندا كتفيها: "سنرى".

قال بيلي: "أراكِ لاحقًا آنستي"، ورفع أصعبيه على شكل حرف V، تحية الفوضويين.

همست إلى ليندا: "إن صديقك ثرثار"، فأجابتني: "اصمتي".

ابتعدنا عن الأحصنة الدوارة، وسرنا بمحاذاة مظلة حفظت لمجموعة من بائعات الهوى اللاتي ارتدين ملابس كرئيسات المشجعات، والخادمات الفرنسيات، ومهور شيتلاند التابعات لشركة شيبكو، هذا وقد التزمت الفتيات بعملهن في أثناء نزهات الأسرة، إن

رغب أي من المديرين التنفيذيين تخفيف التوتر، وقد حذرتنا أمي من عدم التحديق في بائعات الهوى، ولكني على أي حال نظرت إليهن، حيث كن يتسكعن حول طاولة، ويدخّن، ويلعبن الورق، وفي خيمة ليست ببعيدة، وضعت أمي مع الأمهات الأخريات أطباقً من شطائر السجق الساخنة في كعك كصفوف الأطفال المدثرين في بطانيات بيضاء منتفخة، وعبر اتفاقٍ غير معلن، تجاهلت فتيات تحاضن شيبكو زوجات مديري الشركة، والعكس صحيح، رغم تمركزهن الدائم جنبًا إلى جنب في نزهات الشركة.

وقفت ليندا خارج خيمة أمي، ثم ألقت نظرة طويلة على الأحصنة الدوارة، حيث وقف عامل الملاهي يرفع الأطفال على الأحصنـة.

وأشارت عليّ ليندا:"لما لا تتصرفين وتلعبين مع صديقاتك؟"

حاولت إغاظتها فقلت لها:" حتى تنفردين أنتِ وروميو الفوضوي معًا؟"

أبعدت يداي وقالت:" يالكِ من مزعجة".

رأيت أختي تختفي وسط الزحام- أحببت شعور أن أكون بمفردي- والآن أنا لا أبدو كالولد فقط، بل شعرت بحرية التصرف كالصبيَة أيضًا، فضغطت على قمة رأسي لتسطيح الخوذة المنتفخة في شعري، إلى أن مشيت إلى الملعب حيث توأم دوناتو اللتان تلعبان لعبة الملجأ النووي، حيث لوحت جودي جارلاند بمسدس ألومنيوم في الهواء.

واقترحت:"لنتظاهر بإطلاق النار على كل من يحاول دخول المأوى".

سألتها:"لما لا ندعهم يدخلون؟"

تذمرت وقالت:" أنتِ أيتها الغبية، لقد نفذ طعامك، عليكِ البحث عن شيء مميز".

خرجت تلك الكلمات مباشرة من فم والد التوائم، السيد دوناتو، إذ سمعته يومًا يقول الشيء عينه في حفل الشواء قبل أسبوع؛ إذ جادله أبي وقتذاك قائلاً له:"أتريد البقاء على قيد الحياة بينما يموت الجميع؟ أي نوع هذا من العالم؟".

أجاب السيد دوناتو باسمًا وقد قبض فجأة مؤخرة السيدة دوناتو عندما ناولته البيرة، فصفعت يده وابتسمت في الوقت ذاته، وقال:"أأنت تمزح؟ يتعين على أحد إعادة تشكيل العالم".

انحرج أبي وأشاح بوجهه بعيدًا.

تجادلت مع التوأم اللتان يتمركز دورهما على إطلاق النار على الجيران، إلى أن دخل رجل شرطة وممرضة، لن أستطيع أن أصف كيف كانا يبدوان، فلم أرى إلا أطقم.

سألتني الممرضة بابتسامة لامعة:"السيدة ديبي بيوندي؟"

كانت ترتدي ملابس بيضاء تتألف من حلة وجوارب وأحذية أكسفورد بيضاء، وقبعة بيضاء بأجنحة ميرينج صغيرة، رفعت يدي:"نعم أنا ذا".

قال الرجل ذو الجسم الطويل النحيف الذي يرتدي زيًا أزرق تتصاعد منه رائحة المذيبات بقوة كما لو نظفت بالبخار:"رجاءً آنستي تعالي معنا".

داهمتني فكرة جامحة بأن أخرج عن طور العاقلين وأشرع في الركض، تمامً مثلما طلب أبي منا عندما غادرنا أراضي زيوريخ، دارت تلك الفكرة في رأسي؛ فقد كنت فتاة صالحة بحلاقة صبي وأب مفقود، توجهنا صوب اثنين من رموز السلطة غير المعروفين. ترى ماذا سيحدث؟

سألت الشرطيّ حينما ابتعدنا عن الملعب:"هل عثروا على أبي؟"

قال الشرطيّ بصوتٍ خفيض:"جاري البحث".

سألتني الممرضة باسمة:"ما هي المثلجات المفضلة لديكِ؟"

نظرت إليها وقلت:"حلوى الزبدة".

"حسنًا يا عزيزتي، أنتِ محظوظة، سنذهب إلى حيث وجود حوض كامل من بوظة حلوى الزبدة منقوشًا عليه اسمك"، همهم الشرطيّ بصوته المميت:"ظروف كامنة".

أجابت الممرضة "نعم نعم، بالطبع، يا عزيزتي تبدين فتاة صغيرة معافاة، ولا تعانين مما نسميه متاعب"، انزلق حذائي المسطح من على النجيل، فأسرع إليّ الاثنان، وسمعت من على بعد صوت أغنية: يازهرة الأقحوان مرة أخرى، فتمنيت فجأة أن أمتطي الخيل الدوار، ترى ما هي المتاعب التي يقصدونها؟

"أواه، لا أعرف. هل تحتاجين إلى أخذ حقن السكر؟ أو هل تمرضين عندما يكون لديكِ أصدقاء؟"

تنهد الشرطيّ بنفاذ صبر واستطرد قائلاً:" أدخلي إلى صلب الموضوع، هل تنزف؟ هل أثر على ضغط الدم، أو الغدد العرقية، أو كل ذلك؟"

اختفت الابتسامة من صوت الممرضة وقالت له:"لا داعي للغلظة".

هززت رأسي وقلت:"أنا محصنة".

ضحكت الممرضة قليلاً، كما لو كانت قلقة بشأن شيء ما، وتنهد الشرطي قائلاً:"وماذا يعني ذلك؟"

قلت لهم:" أخذت مصلاً واقيًا، لذا لا يمكن لشيء أن يؤذيني الآن".

سألتني الممرضة بغموض:"أليس ذلك لطيفًا؟"، عندئذٍ قبض الشرطي على يدي.

وصلنا إلى المبنى الطوبي الذي يضم بار الوجبات الخفيفة الخاص بالحديقة، وقد أغلق بإحكام لهذا الموسم، وحينما فتح الشرطي الباب، حدقت في كوز من مثلجات الفراولة العملاق المثبت نحو الخارج. دلفنا إلى غرفة ذات جدران بيضاء متكسرة تؤدي إلى غرفة أخرى بباب معدني رمادي بلا نوافذ، تدلت الجرافات من السنانير على طول الجدار، وبمجرد إغلاق باب الغرفة الثانية، لم استطع سماع أي شيء من الخارج بعد الآن، ولا حتى موسيقى الأحصنة الدوارة، وكانت الأضواء في الغرفة كالشفق الخافت.

اجلستني الممرضة على أريكة خشبية بظهر مستقيم كتلك الأرائك التي نراها في مكتب المدير، بجانب طاولة عليها صندوق تتدلى منه أسلاك، كان لون الصندوق ورديًا ساطعًا مع نقاط بولكا زرقاء تتوهج قليلاً في الظلام. امتلأ الفصل العلوي من الصندوق بالأزرار والأقراص، كراديو الموجات القصيرة أو قمرة قيادة طائرة،

ورأيت صورًا في مجلات بعناوين مثل: الرجال والأفعال، التي تركها أبي مرصوصة في الحمام.

"ما هذا الشيء؟" لم أكن خائفة بعد، وربما كان الأجدر بي أن أخاف من وجهة نظرهم.

سألتني الممرضة:"هل سبق وأن سمعتي عن جهاز كشف الكذب، يا عزيزتي؟"، فهززت رأسي نفيًا.

قال لي الشرطي:"إنه جهاز كشف الكذب، إذ أحضرنا واحدًا خاصًا بالأطفال، كي نعرف هل أنتِ شقية أم صالحة"، ثم ضحك على مزحته، فرمقته الممرضة في غضبٍ.

شرحت لي الممرضة قائلة:"إنها ماكينة تبين لنا إن كنتِ تقولين الحقيقة أم لا".

نظرت إلى الماكينة في خوفٍ ثم قلت:" كيف تفعل ذلك؟"؛ بيد أن الأسلاك الكهربائية تذكرني بسور الأسلاك الشائكة.

فقالت: "إنها تلتقط إشارات من جسمك، حيث يظهر لنا إذا كنتِ متوترة أو خائفة، والطريقة التي يفعلها الناس عندما يكذبون، انظري إلى هذا الرسم البياني هناك؟ إنه يقفز عندما تكونين خائفة، وهكذا يعرف أنكِ تكذبين".

تذمر الشرطي وقال:"لا تخبريها كيف تتغلب عليه"، قالت الممرضة:" لم أفعل، أنا فقط أشرحه لها، وأستطيع القول من نبرة صوتها أن الجهاز لم يعجبها".

وضعوا ذراعي في كم، كالذي يوجد في مكتب الطبيب، حتى وصلوا إلى الإبط، ثم ضخت الممرضة كرة مطاطية صغيرة مرفقة به، حتى ضاق الكم على ذراعي، وبعد ذلك علقت الأسلاك على طرف أصابعي الاثنين، ثم لفّت حزامًا ضيقًا حول صدري، وقد قالت الممرضة:"إن لدى بات بوون جهازًا كاشفًا للكذب مثله بالضبط ليتعلم الأطفال الصدق؛ فكلما أخطأوا ويظن أنهم يكذبون، يضعهم على الجهاز، حتى يبين الأمر".

سألت الممرضة:" ومن هو بات بوون؟"

ردت الممرضة:"إنه مغني أوبرالي مشهور، عجبتُ من أطفال هذا الزمان"، ثم تنهدت، كما لو كان حدثٌ جانح وقع لبات بوون، وفي لحظة مجنونة، اعتقدت أنها هوية المتسلل السرية؛ إذ قلت لنفسي هكذا لتضييع الوقت، مثلما تفعل الأسيرات دائمًا في الكتب المصورة أثناء انتظار ظهور البطل الخارق.

قلت للممرضة:"الحزام حول صدري ضيقًا جدًا، إنه يؤلمني".

جلس الشرطي على الطاولة أمامي، يرخي ربطة عنقه وأدار مصباحًا معدنيًا معقوفًا، ثم أضاء مقياسًا كذلك المقياس الموجود في عداد جيجر الخاص بأبي، حاولت عدم التحديق في وجهه، فقد رأيت رجال الشرطة فقط في البرامج التلفزيونية؛ إذ لم يكن لدينا أي رجال شرطة في شيبمان كورنرز، فقد كانت تعتني شيبكو بكل مثيري الشغب.

قال الشرطي:" لنبدأ بالأساس أولاً، ما اسمك يا فتاة؟"

أجبت:"ديبي".

قال لي بصوت أعلى:"أخبرينا اسمك كاملاً"، أدركت أن الاختبار الحقيقي قد بدأ الآن.

مكتبة
t.me/t_pdf

"ديبي رينولدز بيوندي".

صفقت الممرضة، وهي تتابع مؤشر الجهاز أثناء حركته ثم قالت:" جيد جدًا، إنكِ تقولين الحقيقة، أرأيتي كم هو سهل؟"

سألني الشرطي:"من كان معكِ في أراضي زي؟"

أجبته:"أبي"، ثم تذكرت المتسلل، هل يمكن وضعه في الحسبان أيضًا؟

هزت الممرضة إصبعها نفيًا أمامي وأردفت:" أحد ما يكذب".

قال الشرطي:"سأعيد السؤال".

أجبت بسرعة دون أن أنتظره:" كان هناك رجلاً متسللاً في القناة، ولكني لا أعرف من هو".

ساد الصمت لحظات، إلى أن قالت الممرضة:" لا يبدو ذلك ذاكرة حقيقية".

قال الشرطي:"لكن الجهاز يقول إنها حقيقية، ماذا حدث بعد ذلك؟"

"أطلق عداد جيجر عدات كثيرة فحثنا أبي على ضرورة المغادرة، ثم تعلق شعري بعد ذلك على الأسلاك الشائكة حتى قطع أبي شعري بمطواة، وقادنا بعدها بسرعة كبيرة مبتعدًا عن المكان إلى أن انفجرت إطارات السيارة، عندئذٍ أخبرني أبي أنا وليندا بضرورة العودة إلى المنزل إلى أن يصلح السيارة".

"وماذا أخبركِ والدك بعد ذلك حينما دق عداد جيجر؟"

"لقد اندهش لأنه لم يدق بهذه العدات العالية منذ عام ١٩٥٥".

"وماذا تقصدين بالعدات العالية؟"

فكرت برهة في هذا السؤال ثم استطردت:" لا أعرف، ربما كشف عن أشياء مشعة".

"هل أنتِ أو أختكِ أو أنتما الاثنان معًا قد آذيتما والدكما؟"

"لا"

"لا. لا ماذا؟"

ظللت لحظة في حالة ارتباك، وأنا أسمع سؤاله الذي كأنه يقول؛ هل تعلمين.

قالت الممرضة:"أين أخلاقكِ يا عزيزتي؟ عندما تتحدثين إلى الضابط سميث، يجب أن تناديه بسيدي".

مال الشرطي عليّ، وكانت تتصاعد من وجهه رائحة رقاقات الخشب والملح، كأنه يستخدم معجون ما بعد الحلاقة الذي يستخدمه والدي، وسألني قائلاً:" هل أنتِ أو أختكِ أعضاء في حركة الشباب الفوضويين؟ المعروفة أيضًا باسم "الثرثارون؟"

"لا سيدي"

عندئذ قالت الممرضة:"انتبهي لنبرتك آنستي؟"

سألنيً الشرطي:"هل أخبرتِ أي شخص آخر عن هذا الأمر".

لم أكن مستعدة لهذا السؤال، وتذكًرت كندال وأنا عندما كنا على الناصية، حينما قال لي أنه لا يجب على الكبار أن يودعوا الأطفال أسرارهم.

قلت ثانية:"لا يا سيدي".

قال الشرطي:"أنتِ تكذبين يا ديبي".

"أنا لا أكذب".

"كذبتي مرة أخرى يا ديبي، إن الكذب مرتين في أقل من ثلاثين ثانية، ليس لطيفًا، فإذا أردتي العودة إلى المنزل، إذن من الأفضل أن تقولين الحقيقة، وإلا سأضعك في حفرة صغيرة لطيفة في الأرض يمكنك البقاء فيها في عتمة الظلام حتى تصيرين امرأة عجوز، أعرف حفرة ممتازة، سنرعاكي فيها ونقدم لكِ الطعام والشراب، وستبقين على قيد الحياة، ترافقك صحبة جميلة. هل تحبين اليرقانات والديدان؟"

شرعت في البكاء، فأنا أكره الديدان واليرقانات.

قالت لي الممرضة، وهي تناولني علبة من المناديل:"والآن الآن".

قلت باكية:"أخبرت صبيًا".

"ما اسمه؟ وأين يسكن؟"

شعرت بالغثيان، وأخبرتهم عن جون كندال، وفي الوقت نفسه، سحب الشرطي صورة أبيض في أسود لامعة من ظرف مغلق، ووضعها على الطاولة أمامي.

"والآن لنعد إلى المتسلل الذي رأيته في أراضي زي، هل هو هذا الشخص؟"

حدقت في صورة الشاب حسن المظهر في الزي العسكري الصناعي؛ كان جنديًا يعمل في تركيب الأنابيب ذو شعر قصير فاتح، وطبع على ياقته شعار المفك المتقاطع، لم يكن الرجل المتسلل، لكنه بالتأكيد بدا وجهه مألوفًا.

قلت:"لا".

"هل تعرفينه؟"

حدقت في الصورة، كانت رأس الشاب تميل على جانب واحد، ولكن لا يزال بإمكاني أن أتعرف على عقدة متكتلة من الأنسجة تتدلى من أذن واحدة، أجل إنه بيلي عامل الملاهي صديق ليندا، ترى هل إذا أخبرتهم الحقيقة، سيعاقبونها معه؟

قلت ببطء:"ربما".

"من أين؟"

"لست متأكدة"

طقطقت الممرضة بلسانها ثم قالت:" يالكِ من كاذبة".

وقبل أن يسألني الشرطي سؤالاً آخر، دلف رئيس أبي إلى الغرفة، وقد كان يرتدي ربطة عنق منقوشة، كالتي ارتداها أبي هذا الصباح، مع الشريط الأحمر الصغير المعلق على ربطة العنق، بما يوحي أنه من كبار الضباط. ابتسم لي ابتسامة زائفة.

سأل الشرطي:"كيف الحال؟"

كلمه الشرطي عن كندال قائلاً:"يجب أن نحضر الصبي في أسرع وقت".

رد مدير أبي وهو يسوي ربطة عنقه:"لن نتسرع"، ثم أضاف:"ثمة طرق أفضل، سنقدم الدعم لأم أرملة، هذا ما سنقوم به"، ثم تطلع إليّ ثانيةً بابتسامته الوهمية واستطرد قائلاً:"والدكِ بخير يا عزيزتي، وسيعود إلى منزلكم ثانيةً ليحملكِ إلى سريركِ الليلة، هل تصدقينني يا صغيرتي؟"

قلت بصوتٍ منخفض:"نعم يا سيدي".

عندئذٍ قفز مؤشر جهاز الكذب، ربما تعين عليّ أن أقول له أنه كاذب في وجهه مباشرة، إلا أنه ربت على كتفي، وقال:"حسنًا، يمكنكِ الذهاب الآن والاستمتاع بالنزهة".

قال الشرطي:"لم ينته الأمر بعد يا سيدي، لقد رأت الفتاة متسللاً، قد يكون فوضويًا معروفًا، لذا يجب أن تبقى معنا لنتعمق في ذاكرتها؛ حيث يمكن لدوتي هنا إعطائها حقنة خفيفة من مصل الحقيقة لنقل الأشياء مباشرةً، وما زلنا نحاول نتعقب شقيقة الطفلة للاستجواب".

قال مدير أبي:"راجع الكتيب، إنها قاصر، هناك حدودًا، أما عن الأخت؛ إنس أمرها، فقد حصلنا على ما نريده".

هز الشرطي كتفه ثم قال لمدير أبي:"على مسؤوليتك"، وتحول إليّ ثم قال:"لا تخبري أحدًا عن ذلك، نحن لا نريدكِ أن تعودي مرة أخرى أو نضعكِ في هذا المكان ثانيةً، أخبرناكِ بذلك من قبل"، فأومأت الممرضة برأسها وقالت:"سيكون ذلك عارًا بالتأكيد".

وهكذا، فكتني الممرضة من الجهاز ثم سارت بي سريعًا إلى خارج الباب، وكانت ركبتاي ثقيلتان في الحركة كالدمية السائرة المكسورة، وفي الغرفة الخارجية، طلبت مني الممرضة الانتظار، وفتحت باب خزانة، كان بداخلها مجمدًا صغيرًا، انحنت نحو المجمد وبحثت فيه ثم نظرت إليّ من فوق كتفها وقالت:"أنتِ فتاة استثنائية يا ديبي، لقد بكيتِ مرة واحدة فقط، لذا سأعطيكِ مغرفتين".

أستطيع الآن سماع الأحصنة الدوارة التي تقول:" يازهرة الأقحوان، أعطيني جوابًا شافيًا".

قالت الممرضة:"إليكِ مغرفتين بحلوى الزبدة مثلما وعدتكِ"، وناولتني كوز المثلجات ثم استطردت: "كل شيء أفضل الآن"، ثم فتحت الباب ودفعتني للخارج وأغلقت الباب بعنف من خلفي.

شعرت بالغثيان، حيث كان فكي متيبسًا، كما لو كنت سأتقيأ. مشيت بخطى واسعة إلى سلة المهملات ورميت كوز المثلجات، ثم ركضت سريعًا، لا أعرف أين أذهب، أريد أن أحكي عما جرى لي، ولكن من؟ إذا أخبرت ليندا سيلقونها في حفرة لبقية حياتها، وكذلك أمي، وربما ثلاثتنا جميعًا، الشخص الوحيد الذي كان يمكن إخباره هو كندال لتحذيره، لأنهم عرفوا أنه يعرف ما حدث في أراضي زي، ولكن إذا ألقوا به في الحفرة، سأتحمل ذنبه.

وعندما بدأ يحل الظلام، احتشد الجمهور عن بعد في الصالة الموسيقية أمامي مباشرة، كنت ارتجف رغم دفء المساء، تابعت المشي صوبهم بمحاذاة الخيول الدوارة وخيمة شطائر السجق الساخنة والملعب الذي كنت ألعب فيه لعبة إطلاق النار على الجِيران مع التوأم منذ مدة قصيرة.

تمكنت الآن من رؤية أمي مع كلوديا دوناتو، وكلتاهما تقفان مكتوفي الأيدي تنظران إلى الفرقة، وقد وقفت قوات من الضباط بزي شيبكو المكون من سترات رياضية، وقبعات، وربطات عنق منقوشة متيقظين خلف القائد، ومدير أبي الذي وقف عند الميكروفون حاملاً مظروفًا أبيضًا كبيرًا.

حاولت مناداة أمي ولكن لا شيء خرج من فمي، إلا أنها عندما رأتني جرت نحوي وعانقتني، حاولت أن أعانقها ولكن ذراعي آلموني حينما رفعتهما.

"ديبي يا حبيبتي يا كارا، لقد وجدوا أبيكِ؛ إذ أخذ السيارة إلى المصنع، ثم انغلق الباب وراؤه في مرفأ إزالة التلوث، إلى أن سمعه شخصًا يصرخ حتى أخرجه في النهاية، إنه في طريقه إلينا أخيرًا، أليس ذلك عظيمًا؟"

أومأت برأسي، ورأيت جون كندال يصعد إلى خشبة المسرح متجهًا صوب رئيس أبي، يهز يده ثم استلم المغلف الأبيض الكبير، ثم ألقت ضباط الشرطة على المسرح التحية على جون كندال، والتقط مصورًا صورة له.

همست وقلت:"ماذا يفعلون بجون كندال؟"

قالت أمي:"إن شيبكو تقدم له منحة دراسية"

يا إلهي، إنها ليست منحة دراسية.

سألت بضعف:"إلى أين؟"

"المدرسة الصناعية للبنين في بامبرغ"

كانت أسوأ أخبار سمعتها في حياتي؛ بيد أن بامبرغ بلدًا زراعيًا، على بعد ساعة من شيبمان كورنرز، علاوة على ذلك، أن من يحصل على منحة دراسية في بامبرغ، لم يعد حيًا مرة أخرى، أي أن الطفل الذي يحصل على منحة دراسية، يعني أنه سيكون هالكٌ لا محالة.

تنهدت أمي وقالت:"على الأقل ستُرعىَ أمه الفقيرة، أنا متأكدة أن حاله سيتحول للأفضل، ياله من فتى لطيف".

وقفت السيدة كندال فوق المسرح، واضعة يديها على فمها، وخفض كندال رأسه عندما استلم الورقة من مدير أبي، فلم أتمكن من رؤية تعبيرات وجهه.

سألت أمي:"إن كان للأفضل، فلماذا تبكي السيدة كندال؟"

أشعلت السيدو دوناتو سيجارًا من نهاية سيجارتها وغمغمت:" دموع الفرح".

تفحصت أمي الجمع وقالت:"أين ذهبت ليندا بحق السماء؟"

تبادرت صورة في ذهني، بأن ليندا مع بيلي داخل مشكال- لكن هذا ليس صحيحًا- أو قد يكونا داخل البقعة الشبيهة بالطبلة في منتصف الخيول الدوارة ذات المرايا العاكسة وأنابيب الأرغن، حيث يقبل بيلي ليندا بقوة فضغط ظهرها على المقبض وتحركت الخيول.

سمعت نغمة زهرة الأقحوان عن بعد، رغم أن لا أحد يركب فوق الخيول هذا المساء، وفجأة، بدأ العالم حولي يتحرك صعودًا وهبوطًا؛ الحشد، والفرقة، ووجه السيدة دوناتو الذي اكتست عليه ملامح الحيرة، وأمي التي تتفوه بكلمات لم أفهما، زاد دوران العالم من حولي يمينًا ويسارً، صعودًا وهبوطًا، حتى شعرت أنني أتهاوى على الأرض والعشب يشكني في رقبتي.

سمعت رجلاً يقول:"أعطوها بعض الهواء".

فتحت أعيني، فإذا بي أرى وجهًا يلوح فوقي، يرتدي نظارات سوداء ضخمة ذات إطارات عريضة، كان ذو شعر أحمر قصير،

وبوجهه أسوأ حروق شمس تراها في حياتك، ارتدى الرجل ربطة عنق منقوشة ولف سماعة حول رقبته. كانت أصابعه تضغط على باطن معصمي.

قال الرجل:"إنها تفيق الآن"، ابتسم الرجل ابتسامة عريضة لي ورفع إصبعيه على شكل حرف V، وكان إصبعه الأوسط ينتهي عند مفصل الإصبع تمامًا كالمتسلل.

سألني الرجل:" كم عدد الأصابع؟"

أجبته:" إصبع ونصف".

"جيد لا توجد صدمة".

همست له:"من أنت؟"

ابتسم قائلاً:"الدكتور دافي، ولكن أصدقائي ينادونني بداف، أنا طبيب الشركة، المختص بالعلوم البيولوجية الجينية، لكنني حقًا أتلقى تدريبًا طبيًا أساسيًا، وأنا هنا بصفتي نائبًا عن طبيب شيبكو المعتاد الدكتور والبي الذي التوى كاحله إبان المناورات، لذا أرسلوني هنا للمناوبة الليلة، لم أكن أعتقد أنني سأكسب رزقي، حتى أغمي عليكِ بسبب انخفاض نسبة السكر في الدم، متى كانت آخر مرة أكلتِ فيها، آنستي؟"

وقفت أمي ناظرة إلى وجهي ثم قالت:"حبيبتي يا كارا، لم تتناولين غدائكِ بعد كل ما جرى".

قال الطبيب:"انتهت القضية، سيدتي ابنتك تحتاج إلى تناول كوزًا من المثلجات"، فأصدر الطبيب أمرًا بإحضار كوزًا من المثلجات بغرفتين"، ثم قال لي :"أي نكهة تفضلين يا عزيزتي؟"

همست له قائلة:" بالموز، مثل لون الحافلة التي وقفت فوقها".

عبس وجه الطبيب، وانزلق من جيبه قلمًا مضيئًا، أصدر خيطًا من الضوء في إحدى عينيّ ثم انتقل إلى العين الأخرى.

قالت أمي وهي تحوم بجانبنا:"اعتقد أنك قلت أن ابنتي لا تعاني من صدمة يا دكتور".

همس الطبيب بلهجة الأطباء:"أمهليني لحظة يا سيدتي".

سمعت أمي كلام الطبيب وانصرفت متجهة صوب الأشجار، كتفت ذراعيها وتحدثت مع السيدة دوناتو. وبمجرد أن تأكد الطبيب أنه بعيدًا عن مرمى السمع، انحنى بالقرب من وجهي وقال:"أية حافلة؟"

همست مرة أخرى:"في أراضي زي، لكنك كنت عجوزًا ذو شعر طويل كالفتاة، وكنت تذوب".

"أذوب".

"كانت يداك تتساقط".

أخذ نفسًا قويًا ثم قال:"هل قلت شيئًا؟"

أومأت برأسي إيجابًا ثم قلت:"قلت لي أنني هي، ديبي".

رجع دكتور دافي إلى الوراء وقال:"أقلت أنكِ مطاردة الأيون؟ وليس أختكِ؟"

هززت رأسي وقلت في تردد:"لا أعلم، لقد قلت هي فحسب، وقد سألني عنك رجل شرطة، ربما يبحث عنك". أومأ دافي برأسه إيجابًا وأخرج قطعة من القطن الطبي من قميصه، ثم قال:"افتحيها على مصراعيها"، فركت قطعة القطن بباطن خدي بشدة، فقال

الطبيب بصوتٍ منخفضٍ بسرعة: "استمعي عن كثب، أنا من المستقبل، أساعد هوية شريكي مطارد الأيون، لقد بدا كما لو أن نسخة قديمة مني اعتقدت أنها أنتِ، مما يعني أنكِ ستضطرين إلى كسر الزمن والرحيل من عالم الأرض بأكمله إلى العالم الموازي المقرون بعالمنا اقترانًا ضعيفًا، وإلا ستهلك البشرية، مفهوم؟"

سقطت الدموع من عيني مرة أخرى، فبعد كل ما حدث لي في هذا اليوم، كان آخر شيء يمكن أن أسمعه هو أنني مسؤولة عن إنقاذ العالم.

قلت: "كيف تريدني أن أقوم بكل ذلك؟ أنا فقط في الثانية عشر؟"

تمتم قائلا: "ليس للعمر صلة، كل ما يهمنا هو الحمض النووي"، ثم وضع قطعة القطن في أنبوب بلاستيك ووضع نصف له في جيب قميصه والآخر أعطاه لي ثم قال: "إذا توقفت الأنسجة الطلائية الخاصة بكِ، سأعود".

"انتظر؟ ماذا يفترض بي أن أفعل؟ وماذا سيحدث لجون كندال؟"

نظر إليّ وقال: " انقذي جون كندال وإلا سيهلك العالم".

رأيته يبتعد وسط عتمة الظلام من وراء أضواء الحديقة.

فندق الملكة إليزابيث، مونتريال
مايو ٢٠١١ بالتوقيت القياسي الأرضي

أحب الفنادق بزجاجات الويسكي المصطفة كالصواريخ في الحانات الصغيرة، ووسائل الاستحمام المنعشة برائحة الروزماري والنعناع، وآلات الركض من مندوبي المبيعات لخسارة ما آكلَ في بوفيه الإفطار المجاني، والرجال المهندمون المتسكعون بدون أحذية في الرواق وهم يتصفحون صحيفة الإكونوميست، والأهم من ذلك كله؛ يخفون هويتهم.

ابتسم لي رجل الحانة ذو القميص الأحمر، الذي تذكرني من الليلة السابقة، فأنا أجلس على المقعد عينه، في البار البلوطي المظلم، أرسم أشكالاً سوداء صغيرة تلقي ضربات الجودو وركلات، كل ذلك على مجموعة المناديل في حانة الرواق، كان قلمي مع عطري المستخلص من قط الزباد، يجعلاني أشعر قليلاً بالثمل.

رفع حاجبيه وسألني قائلا:"شراب المارتيني يا سيدتي"، تلك هي طريقته المهذبة في اقتراح المشروب.

اختبرته بسؤالي:"بالتأكيد، المعتاد".

كانت الغمازات عميقة جدًا في وجه رجل الحانة، حتى أنه يمكنك أن تكتشف ممرًا فيهما، قال الرجل:"فودكا مارتيني ثقيلة، مع ستولي، رطبة جدا، بنكهة الزيتون، ومثلجة غير مقلّبة، أليس كذلك؟"

قلت: "لديك ذاكرة مدهشة".

قال: "كنتِ هنا الليلة الماضية ترسمين، لن أنساكِ بهذه السرعة".

انصرف الشاب وعاد بزجاجة خمر كبيرة مليئة بالثلج، مع صينية صغيرة من الوجبات الخفيفة في الحانة، وخلاط الكوكتيل المزين المصنوع من الستانلس ستيل تتصبب منه قطرات الكوكتيل في شكلٍ مغر.

خفق المشروب، ووجدتني أبدي إعجابً لا إراديًا على صوت الثلج وهو يُخفِق؛ إذ لا أحد يقدم المارتيني كحانة فندق الملكة إليزابيث في التوقيت القياسي الأرضي.

قال لي وهو يصب العصير: "أكان يومًا شاقً في المكتب".

أجبته: "التصقت في مكتبي".

ترك الخلاط أمامي، بينما كنت أرسم على المنديل سبوتنيك تشيك ترتدي حمالة صدر من ماركة ثاندير بولت، وتمر على شاب يرشف الكوكتيل.

سبوتنيك تشيك (تلتف فوق مقعد الحانة العالي كالمطواة): "من أنت على أية حال؟ شخص طبيعي أم ملتوي أم ماذا؟"

الشاب (رافعًا زجاجة الخمر): "سمسار في البورصة، تقريبًا طبيعي مثلما فهمتِ؛ هاه؟"

سبوتنيك تشيك (تسحب مسدسها وتطلق الرصاص على الشاب): "وهذا لإفساد صندوق معاشي أيها الحقير".

امتلك الكثير من المال في مخيلتي، رغم أنه يفترض أن اقتصد، إلا أنني حجزت جناحًا في الطابق الثامن والعشرين، أي في الدرجة الأولى، لكني كنت أقول لنفسي إنها نفقات عمل.

لم تظهر أية ردود أفعال في مكتب الاستقبال حينما تسلمت سعر الغرفة الصاعق من بين مئات الغرف، رغم أنه كان هنالك طفلاً ينزل المسبح واضعًا منشفة حول عنقه، حدق فيّ.

سألني بصوت ينم عن عدم الكياسة:"هل أنتِ السيدة المجرمة؟"

هززت رأسي بجدية وقلت:"فنانة الكتب المصوّرة".

قال الطفل:"ياللروعة، إنكِ لا تشبهين ستان لي".

قلت له وأنا أتابع الخادم وهو يحمل أمتعتي وحقيبتي إلى المصعد الخاص:"أنا متغيرة الشكل".

تتمتع الغرف في الطابق الثامن والعشرون بنسمات الهواء العالية؛ فإذا نمت في إحدى الغرف، يجب أن تكون شخصًا مهمًا، فهذا هو الفندق الذي أجرى فيه العالم المقابلات التلفزيونية مع جون ويوكو في السرير، وهو الفندق الذي كانت العائلة المالكة تقضي وقتها فيه في موجة الستينيات، وأيضًا نام باظ ألدرين هنا بعد أن مشى فوق سطح القمر.

تعد القدرة على تقديم طلبات شنيعة هي إحدى المزايا في هذا الفندق، مع مشروب فوف كليككوت البارد على جانب السرير الضخم، جعلاني أتمنى لو كان معي شخص أشاركه تلك اللحظات، فاستعادت ذاكرتي في تلك اللحظة رجل الحانة الوسيم، ولكن من الأفضل ألا تتعدى تلك العلاقة حدود المغازلة، كي لا أفسد صبه السخي للخمر.

عندما حجزت هذا الجناح، طلبت جهاز تمرين إليبتيكال، وهو ميزان رقمي لقياس وزني مرتين يوميًا وطاولة رسم، وهكذا كانت الطاولة تنتظرني أمام نافذة تطل على كاتدرائية ماري، ملكة الكاتدرائية العالمية في شارع مانسفيلد، وعندما صعدت على المقعد العالي، رأيت الآن قمة كاتدرائية القديس أنطون البدواني ذو الرأس الحجرية المكللة المغطاة بالجوانو.

أعرف ما تشعر به ياصديقي، إنك تظن نفسك أفضل واحد في العالم، ولكن دائمًا ما يحدث شيئًا غير سار يهدد بقائك في القمة.

لففت يداي على الورق لأسخنهما حتى أشرع في الرسم.

ناقش المعجبين أصول سبوتنيك تشيك على مواقع المعجبين؛ إذ تعتقد الأغلبية أن سبوتنيك تشيك فتاة يتيمة همجية أتت من المستقبل، ناجية (ومن ثم لم تتأذى) تعيش في مقلب نفايات ذرية مشعة وأكوام من السماد الحيوي.

ربما كان ذلك نوع من الحقيقة.

وقد كشف قلمي حتى الآن أنها تنحدر من أسرة يسودها الحب متقاربة مع بعضها حافظت على الحمض النووي الأصلي أثناء نشوب الحرب بالاختباء في ملجأ محصن داخل جبل أجوف يزرعون حاضنات الطماطم والعنب والكوسة والفلفل وغيرها من المنتجات الطازجة.

عمل والدها في النوراد وهي قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية، ليس فيزيائيًا أو أي شيء باهر من هذا القبيل، بل كان كهربائيًا يحافظ على مخبأ الحرب الباردة دافئًا ومريحًا للعلماء والجنرالات، حتى المنشآت فائقة السرية في جبال كولورادو بحاجة

إلى شخص يعرف كيفية الحفاظ على أن تبقى الإضاءات مشتعلة وأنظمة دعم الحياة قيد التشغيل، إنه لأمر مدهش! فكيف لهؤلاء الرجال ذوي مهارات تحويل أكوام من النفايات إلى معالجات مياه جارية؛ هم أولئك الذين صعدوا سريعًا بالسلسلة الغذائية عندما إضمحلت الحضارات.

إنها بداية القصة الأصلية، وهي كل ما لديّ حتى الآن، ولا تزال العديد من الأسئلة دون إجابة. فمثلاً إذا حمى والد سبوتنيك تشيك نفسه وعائلته بعد نهاية العالم، إذن لماذا انفصلت سبوتنيك عنهم؟ هل اختطفت؟ هل قُتِلَت بقية أسرتها؟ لماذا لم يقفز الزمن معها؟ هل ارتكبت شيئًا لم تسامحها عليه أسرتها، حتى من خلال معايير ما بعد انتهاء العالم؟

تلك هي مشكلة تأليف قصص تتبع من وحي الخيال، أنك لا تعرف أبدًا ما يفترض أن يحدث بعد ذلك، فالأمر أسهل كثيرًا في كتابة الحقيقة وأكثر إيلامًا في الوقت ذاته.

كتبت سبوتنيك تشيك من ذاكرتي في السنوات الأولى، حيث دونت ما حدث لي بدءًا من يوليو ١٩٧٩، بالتوقيت الذري، أي يمكن قول العلاج بالكتب المصورة.

عندما حققت سبوتنيك تشيك ضجة كبيرة، فجرت قضية في شهر، وفرت من التجارب المباشرة حتى بدأت في تنظيم الأمور، حيث لم أتمكن من وصف الأحداث التي كانت جزءًا من ماضيّ العميق قبل نهاية عالم التوقيت الذري، وقبل انهيار كل المواد إلى فضاء الثقب الدودي السحيق دون الذري، الذي قذفني إلى التوقيت القياسي الأرضي باعتباره محطة فضاء في السقوط الحر.

أرحت رأسي بين ذراعيّ وتركت قلمي يتدحرج من فوق طاولة الرسم، حتى مع بطن تمتلئ بالفودكا و واللوريزبام، ليس لديّ المعدة القادرة على الاستكشاف في تلك الحفرة المظلمة العميقة من الحقيقة بعد الآن.

في يومي الثالث الحافل بشراب المارتيني المثلج الرطب في مونتريال، زرت الكاتدرائية المجاورة للفندق؛ إذ كنت كاثوليكية متشددة لثلاثين عامًا، ولكن أنا في النقطة التي سأحاول فيها أي شيء، وضعت دولارًا في صندوق التبرع، وأشعلت شمعة ثم دعوت ماري، ملكة العالم لتمدني بالإلهام لبطلتي بذيئة اللسان، مدمنة الكحوليات، المولعة بالجنس، التي تركل المؤخرات، وبعد كل شيء، وجدت كل من سبوتنيك تشيك وماري ملكة العالم أنفسهن تضطرتان إلى تغيير مسار التاريخ دون مراجعة أي شخص.

مرة أخرى في مكتبي، ليس من الغريب ألا يلهمني شيء، لذلك، قررت الاتصال بجزيرة السيدة المجنونة، لست متأكدة إن كان السبب هو الشعور بالوحدة أو لإخراج مخيلاتي الواهنة، أو الرغبة في التحدث إلى بعض الناس لأتذكر ما قبل تاريخي، لكنني أريد أن أتحدث مع أختي ليندا.

اندهشت ليندا لسماع صوتي، وفي البداية، لم نتحدث عن أي شيء خاص؛ كالحديقة التي تحاول انتزاعها من جزيرة غابريولا المالحة، والحفلات الموسيقية التي تقدمها هنا، وعلى جزيرة فانكوفر هناك، كانت تتحمس جدًا للعزف في حانة نانايمو عندما اعتادت على تكوين جمهورًا مناسبًا في قرية غرينتش.

"كيف حال أبي؟"

ساد الصمت وقتًا طويلاً، ربما تناولت خلالها ليندا رشفة من الشاي، أو أنها تحاول التحكم في ضيقها، وربما الاثنين معًا، إلى أن واصلت حديثها: "هناك أيامًا سعيدة وأخرى غير ذلك؛ إذ أوصلتني دار الرعاية أمس إلى المنزل، وعندما دلفت إلى البيت ظن أبي أنني أمي، وهذا الصباح، كنت هناك لإعداد الإفطار، وقال لي أين كنتِ يا ليندا؟ لم أراكِ من أسبوعين؟"

قلت لها: "على الأقل يتذكرك"، فوجئت بضيق في صوتي، فقد كنت مصدرًا للحزن والغضب لأبي الذي محاني من ذاكرته، كما لو لم أكن موجودة مطلقًا.

ساد الصمت مرة أخرى ثم أردفت ليندا: "ربما سيتعرف عليكِ إن زُرتيه مرة".

"كلانا يعرف أن ذلك لن يجدي، سواء أكان أصيب والدي بالخرف أم لا، لقد نساني كما نساني الجميع".

تنهدنا طويلاً في التليفون حتى قالت ليندا: "ديبي حاولي السيطرة على نفسكِ، لقد بدأت أعتقد أنكِ لا تستطيعين التفريق بين عالمك الخيالي والواقع نهائيًا".

"هذا ليس عدلاً"، قلت ذلك وأنا أفتش في محفظتي عن قارورة اللوريزبام.

تابعت ليندا: "لقد كنتِ هكذا منذ الطفولة، حتى شعرتِ بالملل لذا اخترعتِ أشياء تشعرك بالمتعة، كان ذلك رائعًا عندما كنتِ ابنة الخامسة عشر، أما الآن فأصبحت غريبة".

"لماذا تبدين فظة معي يا ليندا؟"

"أنا لست فظة، أنتِ تحتاجين لسماع ذلك يا أختي الصغيرة، أنتِ لستِ سبوتنيك تشيك".

سارت بقية المحادثة كصوت المعلم في العروض التلفزيونية لتشارلي براون القديمة عن طبق اليوم، ...بلا بلا بلا....، إلى أن أخبرت ليندا أن لديّ موعدًا مجددًا لا بد أن أنهي المكالمة، وأخيرًا ارتحت حينما ضغطت على إنهاء المكالمة.

لا أعرف لماذا بديت دفاعية جدًا، ربما هو الشعور بالذنب؛ بيد أن ليندا هي الوحيدة التي تعتني بأبي، حتى لو اكتشف شخصًا مرضًا لعلاج الزهايمر؛ فإن الكثير من الخلايا الدماغية لدى أبي قد ماتت للأبد، كما أخبرني الطبيب.

التقطت قلمي، وألقيته مجددًا؛ إذ احتاج إلى أن آخذ قسطًا من الراحة، ولكن الوقت مبكرًا جدًا على المشروب، غير أنني قررت أن أطلب شرابًا مرة أخرى.

كانت الحانة خالية تقريبًا والوقت مبكرًا جدًا على ميعاد مناوبة رجل الحانة المفضل لديّ، ولكن هناك رجلاً وسيمًا أكبر سنًا يستطيع أن يقدم لي المارتيني، فتحت دفتر الرسم، ووجدت الصفحة البيضاء تنظر إليّ نظرة اتهام.

رأيت رجلاً يقرأ كتابًا ويشرب نصف لتر مما يبدو وكأنه شراب القيقب المزبد في الطرف البعيد من البار، افترضت أنه يقرأ موسوعة جينيس.

ألقيت عليه نظرة خاطفة وأنا امتص الماء المالح من الزيتون، وكان صديقي المسكر يصغرني بعشرة أعوام يرتدي حلة سوداء مع شارة فضية تلألأ على عضلة الصدر، ويبدو أشقر قليلاً مثل باراكودا، وملامحه غير متناسقة؛ إذ كان ذو عينين سوادوين وشعره أشقر لون القمح، قد تكون صبغة ولا أحد يعلم.

لمحني وأنا اختلس النظر إليه، فابتسم إليّ ورفع إليّ كأسه للتحية.

قال لي:"أتمنى ألا تكوني ترسمينني".

"أؤلف كتابًا مصورًا".

اتسعت ابتسامته ثم قال:"حقًا؟ أي كتاب؟"

"سبوتنيك تشيك: فتاة بلا ماضي".

وضع الموسوعة، ورفع كتابه على البار ليريني الغلاف.

كانت نسخة رواية سبوتنيك تشيك المصورة من الفصل السابع إلى الثاني عشر.

قلت له:" اللعنة؟"

وافقني قائلاً:"نعم إنها اللعنة بالفعل، اشتريتها للتو هذا الصباح، يالها من مصادفة".

اقتبست إحدى جمل سبوتنيك تشيك المفضلة واستطردت:" ليس هنالك مصادفات".

التقط زجاجة البيرة وجلس على مقعد بجانبي.

مد يده ليصافحني قائلاً:"اسمي دارين سكوفيلد".

صافحته وقلت:"ديبي بيوندي".

قرعنا الكؤوس ببعضها، وفي كنيسة اللص الصالح المجمعية بسانت ديسماس والمعهد الفني، لدينا كلمتين لوصف شباب كهؤلاء وهما؛ جميلاً ولطيفًا، وبمقتضاهما، لم نقصد شريفًا أو صادقًا، بل شخصًا قد تكون لطافته موضع شك.

وضع القصة المصورة تجاهي وأخرج قلمًا من جيب قميصه.

"هل تمانعين؟"

قال لي عندما وقّعت على الكتاب بما يلي: إلى دارين: كن طبيعيًا، ديبي بيوندي، فتاة بلا ماضي" كنت أتابع عملكِ لسنواتٍ، وقد ظننت أن أسلوبك يميل إلى هيرج تينتين أكثر من المنجا أو القصص المصورة الأمريكية الجمالية البديلة، هل درستِ بأوروبا؟"

كنت أحدق في وجهه باهتمام شديد، إنه واحدٍ من أكثر المعجبين جاذبية الذي قابلته في حياتي؛ تلك العينان شديدة السواد، والشعر الأشقر الفاقع، والابتسامة التي وصفتها إحدى الفتيات منذ مدة طويلة باللطيفة، حتى خطر ببالي في تلك اللحظة زجاجة الشمبانيا في غرفتي مع السرير الواسع الوثير.

قلت له:"دورات المراسلات في مدرسة الفنون الشهيرة نورمان روكويل، هل تذكر هذه الإعلانات على ظهر القصص المصورة؟"

اقتبس من القصة وقال ضاحكًا:"إننا نبحث عن أناس يحبون الرسم"، فقد اعتقد أنني أمزح.

سألته وأنا أشير إلى الشارة الفضية على جيبه:"هل هذا رمز شعبكم؟"

نظر إلى نفسه، وكأنه نسى ما يرتديه، ثم أشار بإصبعه نحو التطريز: "إنه شعار شركة مايتاج".

"إذن أنت رجل صيانة في شركة مايتاج؟"

عقد الرجل حاجبيه وقال: "لست رجل صيانة في مايتاج بمعنى الكلمة، بل أصلح جميع الماركات التجارية".

رفعت حاجبًا كالبطل سبوك في الفيلم عند سماع كلمة "بمعنى الكلمة"، فربما ليس لطيفًا التحدث عن أدوات المطبخ عندما تكن من طائفة مؤلفي الكتب المصورة، فهذا سيئًا حيال طبيعتنا الانفعالية.

قال رجل مايتاج: "شيئًا واحدًا أثار تساؤلاتي أحيانًا؛ أعرف أن سبوتنيك تشيك قد غيّرت التاريخ وتكره متحولي المستقبل نوعًا ما، ولكن لديّ فضول أن أعرف كيف كانت قبل انتهاء العالم في زمانها، وحتى الفتاة بلا ماضي من المؤكد أن لها طفولة".

شرحت له: "عندما قفزت من التوقيت الذري، فقدت كل أثر من ماضيها، تذكر أنها لم تحيا قط في التوقيت القياسي الأرضي، وليس لها قرين في كلا البعدين بخلاف أي شخص آخر".

التقط الرجل زجاجة البيرة وقال: " ولكن من المؤكد أن لها عائلة واسمًا حقيقيًا، أو أي شيء من هذا القبيل".

تمتمت: "بعبارة أخرى، أنك تريد قصة أصلية".

"نعم".

أغلقت دفتري وواصلت حديثي معه: "حسنًا، نعم، كان لدى سبوتنيك تشيك عائلة؛ آباء وأجداد، وأخت، والشيء المضحك أن العائلة كان يسودها الحب ولكن هذا الحب من النوع الذي قد يريحك أو يخنقك حتى الموت أو ربما الاثنين".

لـم ينبس داريـن ببنـت شـفة ونظـر إلـى التلفـاز، فقـد أحس أنـي سـرحت بعيـدًا، حتى شـعرت بالغبـاء حيـال قيامـي بذلك.

سألته بصوتٍ منخفض:"هل أخبرك سرًّا؟"

بدت عليه الدهشة لكنه وافق في أدبٍ قائلاً:"أكيد".

ملت عليـه بطريقـة تآمريـة وقلت له:"أنـا سـبوتنيك تشـيك، أو بالأحـرى، اعتـدت أن أكون هـي، رغـم أنهـا في التاسـعة والعشـرين وأنا أكبر من ذلك، أي أنك قد تؤلف بعض القصص، ولكن بشكل عام أنها قصـة حياتـي وغير مؤلفة".

تنـاول رشـفة بطيئـة مـن البيـرة ونظـر إليّ:"أأنـت حقًـا قطـة شـرودنجر المتأرجحـة؟"

أومـأت برأسـي:"نعم لقـد قفـزت مـن التوقيـت الـذري إلـى توقيتكـم".

رفـع حاجبـه وقـال لـي:"إذن ربمـا تعانين من مشـاكل في التعامل مع العـالم الحقيقي، أقصد بلا ماضـي أو أي شيء، لا بد أنه صعب جدًا معرفة من أنتِ بحق الجحيم".

أومـأت وتنفسـت الصعـداء بـأن هنـاك أحـدًا تفهـم أخيـرًا، ثـم قلت له:"هـذا صحيـح، ليـس لـديّ هويـة أتحـدث عنهـا، ليـس رسـميًا، وليـس لـي عنـوان ثابـت، ولا تاريـخ، ولا كـروت ائتمـان، ولا أطفـال، ولا حتـى حسـابٌ علـى الفيـس بوك، فأنـا أعيـش حياتـي علـى أسـاس نقـدي فقط، واسـتخدم العملة المشـفرة، حيث أتمنـى أن تسـتخدم الكثير من الحانـات عمـلات البيتكويـن".

رشف البيرة ونظر إليّ بنوع من التعبيرات كسير المروحة العاصف ثم قال:"لا عنوان ثابت، إذن أين تعيشين؟"

لوحت بيدي نحو البيئة المحيطة وقلت له: في الفنادق على الأغلب عندما أكون في تورونتو، حيث أمكث في مكان أصدقاء الطفولة"، هنا سألني:"إذن لديكِ أصدقاء طفولة؟" محاولاً إحداث ثقبًا في قصتي.

"نعم".

"كيف يتذكرك أصدقائك إن كنتِ لم تنشئين في الوقت الحقيقي؟"

أشرت إلى النادل بأن يجلب لي مشروب مارتيني آخر، ثم شرحت له:" كنت أصوم طوال اليوم، كي يتمكن جسدي من استقبال مائة وواحد وعشرون سعرًا حراريًا، أما صديقي فهو استثنائيٌّ".

حوّل انتباهه إلى لعبة البيسبول على التلفاز. أعرف ما يدور في خلده- إنها مجنونة.

عدت إلى دفتر الرسم؛ إذ تلاشت تطلعاتي نحو ممارسة الحب مع الشمبانيا في الفندق، هذا الشخص طبيعيًا وليس ممن يودون مضاجعة امرأة مجنونة، مثلما قال رجال الفضاء، لقد كان عندي إرادة وأخفقت بحق.

انتهى الرجل من شرب البيرة ووضع الزجاجة الفارغة فوق البار، ثم سحب بطاقة عمل من جيب قميصه ووضعها فوق البار أمامي، كُتِبَ عليها: "سكوفيلد لإصلاح الأجهزة"، ثم قال لي باسمًا: "جميع الماركات والموديلات، أجهزة كهربائية أو غاز، إن احتجتِ أنتِ أو أصدقائك إلى إصلاح شيء في تورونتو"، ثم قام من مقعده وخرج من الحانة وقصة حياتي تتأرجح في الفصل السابع حتى الثاني عشر في يديه.

الجزء الثاني

القصة الأصلية التي لم تُحكى من رواية
فتاة بلا ماضي
تأرجحات شرودنجر كبندول الساعة

أداء

فتاة الفضاء

الفصل الأول
القوة الخارقة، الأسرار، طلب السجق والجبنة
أكتوبر ١٩٦٩ - التوقيت الذري

التَوَتْ أصابع قدمي على حافة المزراب عندما فتحت ذراعي كلاعبي الجمباز، وكان المعصمان بالأصابع مغلقين على الكف بشدة لاستجماع الشجاعة للقفز من فوق السطح على ارتفاع ثلاثين قدمًا، وكنت أتخيل شجيرات الورد الخاصة بأمي تبتسم لي، ولا شك أنني تسائلت عما إذا كنت على وشك سحب ضفيرة رابونزيل وأعطهم شيئًا يتحدثون عنه طوال فصل الشتاء، وقد كنت أرتدي ملابس سباحة بمزيج من الأحمر والأبيض والأزرق من ماركة جاك بيني وندر تينز ولا شيء آخر، على الرغم أننا كنا في أكتوبر، لذلك وقف كل الشعر في جسمي من برودة الجو.

حاولت معرفة ما إذا كان الإشعاع في أراضي زي قد حولني من بشر أرضي إلى متحول يتحدى الجاذبية، كي أتمكن من إنقاذ كندال من مدرسة شيبكو الصناعية للبنين، فتعين عليّ أن أعرف ما إذا كنت أستطيع الطيران أم لا.

بدأنا أنا وبام بام في رسم خطة إنقاذ كندال في اليوم الدراسي الأول في مدرسة اللص الصالح القديس ديسماس الإعدادية، وابتعدت عن صديقاتي ومناقشاتهن التي تتمحور حول لون ملمع الشفاة، والكولونيا، وصوت قفز الحبل الذي تلعبه الفتيات الصغيرات، وتحولت إلى خندق يمتد على طول حدود صرح المدرسة،

حيث يوجد الملتوين- وهو اسم مخيف أطلقناه على بطيئي التعلم في فصول الاستثنائيين- حيث يجتمعون للتدخين وسب بعضهم بعضًا، وقد رأوني اقترب من بام بام، الذي جلس فوق العشب مرتديًا بذلة زرقاء مشرقة ربما ابتاعتها أمه من منافذ البيع الرخيصة.

سألته قائلة: "هل يمكنني التحدث معك دقيقة؟"

ضحك إحدى الأولاد الآخرين وقال ساخرًا: "يبدو أن ابن بام قد حاز على رغبة غير متوقعة من الفتيات الصغيرات".

فنهض بام بام ومسك عفويًا ذراع الولد ولواه وراء ظهره إلى أن اعتذر الولد، ثم مشينا أنا وبام بام مبتعدين عن المكان لنصير بمنأى عن مرمى السمع.

سألته وقلت: " أتعرف شيئًا عن كيندال؟"

"رأيت شاحنة المدرسة الصناعية قد أقلته صباح أمس، كانت أمه في حالة يرثى لها".

حافظت على هدوء أعصابي، كي أحوز على ثقة بام بام، لذا يجب أن أكون صادقة معه: "ما حدث لكندال كان خطأي، أتعتقد أن هناك طريقة لإنقاذه؟"

قال بام بام أن هناك دائمًا وسيلة، طالما أن لديّ سيارة للهروب، وأوضح أنه رغم صغر سنه على رخصة تعلم القيادة، إلا أنه سائقًا سريعًا شجاعًا يعرف كيف يشغّل أية مركبة، ولم يتمكن أي شرطي من قبل إلقاء القبض عليه، فقد كان بام بام مختصًا في جرائم اغتنام الفرص، ثم تابع حديثه: "عندما نجد السيارة المناسبة، فى الوقت المناسب، سنتحرك".

نظرت حولي للتأكد من عدم تنصت أي ملتوي، وقلت:"اخفض صوتك، أتريد أن تعطيك شيبكو منحة دراسية لك أيضًا؟"

قال بام بام ضاحكًا:"لن يحدث أبدًا أنا ملتوي؛ فنحن أغبياء جدًا على القيام بأي شيء سوى حفر الخنادق؛ إذ تهتم شيبكو بإرسال الأذكياء ككندال إلى المدرسة الصناعية يعلمونهم الطيران، وربما بعض الفيزياء الكمية، ثم يرسلونهم إلى ولاية فلوريدا".

هززت رأسي:"وماذا يوجد في فلوريدا؟"

أجاب بام بام:"محطة احتواء التخصيب الإلزامية في نيو سيدني؛ إذ يرسلونك هناك إذا كنتِ ذكية وفقيرة. هل تعرفين الصواريخ الاختبارية بدون طيار التي يطلقونها كل شهر أو ما شابه؟ إنها ليست بلا طيار، بل بداخلها فتيان المنحة الذين يجب أن يكونوا في حالة جيدة بما يكفي للنجاة من الإطلاق، وأذكياء كفاية لتعلم كيفية استخدام الصاروخ، إلى أن يحترق بهم عند العودة، هذا ويعرف كل سكان شارع زي نيو سيدني، بل إن منهم من يتطوع للذهاب إلى هناك".

سألته قائلة:"ولماذا يفعلون ذلك إذا كانوا يعلمون أنهم سيموتون؟"

"لأنهم أطفال فائضة من أسر محرومة ككندال، وآباؤهم وأمهاتهم جميعًا أرامل وملتوين، أو ما شابه".

أوضح بام بام ذلك لإنقاذ كندال؛ بيد أننا نحتاج إلى العثور على طريقة لاجتياز سورًا عاليًا محصنًا جيدًا.

قال لي بام بام: "سأتعهد بإحضارنا هنا والمساعدة، إذا تعهدتي بمساعدتنا على كيفية الدخول؟ هل تعرفين كيف تطيرين؟"

كان ذاك السؤال كفيلاً بأن يلغي خطتنا، ولكن ما حدث لي منذ يوم عيد العمال يمكن وصفه بأنه طبيعي.

أجبته: "سأرى ماذا سأفعل".

***

أجريت بحثي في متجر مقتنيات كريسويل للكتب المصورة المستعملة، وهو محل رهانات كائن في آخر الشارع الرئيسي في شيبمان كورنرز مثل الفكرة اللاحقة الحقيرة، وقد كانت البناية ذات الأساس الخشبي قد أقامت محل الخزف الذي كتب عليه عبارة "خزف عاجي إنجليزي" ببلاطات ملونة بألوان زاهية فوق الرصيف عند المدخل، وقد وَجَدتُ بعض الفناجين الإنجليزية القديمة التي لا تزال موجودة هناك موزعة فيما بين الكونسرتينة، وأجهزة الراديو المكسورة، وآلات تحميص الخبز منذ عصر الكساد، والماكينات الاهتزازية لتنحيف الأرداف، وآلات عمل فطائر اللحم من شركة كاي تيل، وقاعة استقبال الممتلكات القديمة شبه القيمة التي لم تستطع العائلات إلقاؤها في النفايات، فأخذوها بدلاً من ذلك إلى كريسويل وحصلوا على بضعة دولارات عن كل شيء في صندوق سيارتهم، أو ربما لا؛ إذ اعتقد أن بعض الخردة على الرفوف بلا قيمة، وربما وافق كريسي على وضعها هناك حتى يأتي شخص ما ويسرقها، إلا أن مخزونه الرئيسي في التجارة كان الكتب المصورة المستعملة.

عندما صعدت إلى المتجر رأى كريسي الكومة الضخمة من الكتب المصورة للأطفال في سلتي- وهي جميع مقتنياتي من الكتب المصورة على مدار حياتي مثل هنري الصغير وحقائب أموال ماكجورك- فارتفع حاجبه من وراء عوينات سميكة التصقت ببعضها بلاصق واقي فوق عظمة أنفه، فقد اشترى كريسي ذات مرة عام ١٩٣٩ قصة الرجل الخارق المصورة من طفل يبلغ من العمر تسع سنوات بخمسة دولارات والتي كانت ثروة آنذاك، إلى أن انتشر خبر يفيد أنه أقر بأن تلك القصة ملكًا للبائع جامع القصص ومن ثم باعها في الولايات بألف دولارٍ، ومن يومها أدرك كريسي أن الأطفال أسهل زبائن يمكن النصب عليهم، لذا ركز انتباهه على الأعداد القديمة من ليمورمان وبيتي وفيلما، وصنفهم فوق منضدة المحل على أنهم فئة التبادل السريع حسب النوع، كالأبطال الخارقين، والأطفال الصغار، والرومانسية، وقصص كلاسيكية، و كل شيء آخر، لم يكن أنيقًا؛ إذ بدا المتجر كما لو أنه لم ينفض لعقدٍ من الزمان، وكان هو نفسه يحمل رائحة بسيطة من الغسيل المتعفن، إلا أنه كان غاية في التنظيم ومهووسًا بالتصنيف والكتب المصورة التافهة.

قال متذمرًا: "دولاران للقطعة".

قلت له: "أريد استبدالهم بقصص البطل الخارق سوبرمان، أو الأشياء مع المتحولين الذين يطيرون".

دفع كريسي نظارته من فوق أنفه وقال: "هل يمكنكِ أن تحددي أكثر؟ هل تريدين أبطال رجال أم فتيات صغار؟ عالم الأساطير أم الذئب الوحيد؟ فوق أم تحت الأرض؟ يطيرون بقوتهم الخاصة أم بمساعدة أشياء سحرية؟"

تهت بين كل تلك الخيارات، لذلك قلت:"تبدو الفتيات الطائرات الأروع، لكني سأترك لك الأختيار يا كريسي، فأنت الخبير".

يحب كريسي التملق، فتنحنح، ووضع طاولة البيع أمام صندوق الدفع ثم شق طريقه في ممر ضيق من الصناديق المتخمة بالقصص المصورة السحرية المصنفة بكلمة خارق/ وطيران/ أو جميعها، وظل يسحب الأعداد سحبًا عشوائيًا.

"المرأة الخارقة، والبلايز (اللهيب)، والرجل الصقر، ونوتريس ناين، والمتزلج الفضي، وهيئة الانتقام التي لديها مقاتلة تركل بالمؤخرات تدعى تشيك واسمها الكونتيسينا، هل نختار سوبرمان؟"

"كلا أريد شيئًا آخر، ماذا عن ويبكرولير (الزاحف بخيوط العنكبوت)؟ أليس لديه دمًا مشعًا؟"

أجابني كريسي:" ولكنه لا يطير، بل يزحف على المباني بخيوط العنكبوت التيتانيوم، هناك فرق كبير".

اخترت إحدى أعداد قصة المرأةً الخارقة، التي تبدو على الغلاف معلقة في منتصف الجو وترتد الطلقات من أساورها.

أوضح كريسي: "لم تكن تطير حتى عام ١٩٦٠؛ إذ ظلوا يعبثون بقصتها الأصلية، ويمدونها بالقوى الخارقة، وينقلونها مرة أخرى حتى جعلوها امرأة محاربة ثم آلهة يونانية، حقًا لا أحد يمكنه أن يفكر من هي المرأة الخارقة الحقيقية، إنها قصة مثيرة للاهتمام: حيث بدأت باختراع أحد قاطعي الرؤوس ظهرت في سنوات الحرب من فتاة صغيرة كان يعاشرها في الخفاء، مثلما يعاشر زوجته أيضًا، وقد كان ثلاثتهم مع المرأة الخارقة في المنتصف، توحش، أليس كذلك؟

هناك أيضًا حقيقة مضحكة يا عزيزتي؛ وهو أن قاطع الرؤوس اخترع جهازًا، خمني ما هو؟"

هززت كتفي، إذ لم أبذل أي محاولة للتخمين، فبمجرد أن بدأ بالكتب المصورة التافهة، بدا لي أنني لن أنتهي من الحديث مع كريسي وسأقف معه طوال اليوم.

رد كريسي بانتصار: "جهاز كشف الكذب".

"ماذا؟"

"كما تعلمين، الرجل الذي اخترع المرأة الخارقة هو الرجل عينه الذي اخترع هذا الجهاز".

حدقت في كريسي، وقلت في نفسي، شيء لا يصدق، إن المصادفة كبيرة بما يكفي لعدم تجاهلها.

قلت له: "سآخذ عدد واحد من الرجل الصقر، وعدد واحد من هيئة الانتقام، وعدة أعداد من المرأة الخارقة داخل حيز مبلغ التبادل".

***

عدت إلى المنزل بدراجتي مع بضاعتي وقرأتها تحت سريري، حتى رأيت ما أشار إليه كريسي عن المرأة الخارقة؛ إذ أعيد تأليف قصتها الأصلية مرارًا وتكرارًا، ومن ثم أدركت أن زمن الكتب المصورة غير سلسًا، بل هو كالمطاط يتحرك ذهابًا وإيابًا، ومن أعلى إلى أسفل كالكرة المطاطة، وقد كانت عمليات إعادة المحاولة شائعة؛ إذ يمكنك أن تبدأ بالفعل بحياة البطل الخارق مرة أخرى في زمن أو مكان أو بُعدٍ مختلفين، مع إعادة تصميم الأزياء مثلما تعاد قصص الأبطال.

انتظرت حتى خرجت أمي لتقوم ببعض المهام، وارتديت زوجًا من قفازات التشجير وعصابتي لأتقمص دور البطل الخارق وأحجّم تعريشة الأزهار على جبهة المنزل، ثم غرست ركبتاي على ألواح الخشب حيث سحبت نفسي إلى السطح. شاهدت جدي زينيو من فوقه وهو يربط الكروم ببطء في الأسلاك ثم يربط الأسلاك بدعامات صفوف الكروم خلف منزلنا.

تساءلت: هل سيراني جدي وأنا أتحول إلى مذنب وأحترق في الغلاف الجوي كبطل رواية اللهيب؟ أم هل سيراني وأنا لديّ مجموعة عملاقة من أجنحة الملائكة مثل الرجل الصقر؟ وهل سيأتي المتسلل في شكل ملاك ويمسكني بذراعيه؟ كنت قد سمعت من جدتي عن أسطورة ألدا الجميلة، التي قفزت من برج للهروب من جندي روماني مسلوب العقل، وكانت المعجزة فقط أن تعلقت في منتصف الهواء بواسطة القديس ميخائيل الملاك الرئيسي، ولكن مع الأسف، أساءت ألدا الجميلة هذا المعروف السماوي؛ إذ تهورت وقفزت قفزة ثانية لإبهار القرويين الذين كانوا على استعداد لدفع الكثير من المال لرؤية المشهد، ولكنها هذه المرة سقطت عموديًا لتلقى حفتها.

مازلت أدرس هذه الاحتمالات عندما يجلجل طرف السلم أمام المزراب وتظهر حلية رأس جدتي بيبي الرمادية من الحافة.

صاحت جدتي: "ماذا دهاكِ بحق السماء؟ أتحاولين قتل نفسكِ؟"

فكرت في إخبار جدتي الحقيقة لكوني حفيدة صالحة ومطيعة، وهو أنني أحاول تجربة قدرات وقوى هؤلاء الأبطال الخارقين،

لكنني أعرف ما ستقوله؛ بأنني كبرتِ على الانسياق وراء خيالي، لذا لم أستطع أن أخبرها عما نخطط إليه أنا وبام بام، وإلا ستحبسني في القبو، ومن ثم اكتفيت بقول: "أريد أن أكون بمفردي فقط".

"بملابس السباحة في هذا الوقت من السنة؟ فوق السطح؟ انزلي الآن"، قالتها بلهجة آمرة مطعمة بلكنة شرق نيويورك، حتى بعد كل تلك السنوات في شيبمان كورنرز.

أستطيع وأنا أتبع جدتي بيبي على السلم سماع شجيرات الورد تعلن عن خيبة أملها كأنها تسألني لماذا لم أقفز، فالورد نبات متعطش للدماء خاصة في الخريف عندما تسقط الأوراق مخلّفة ورائها الشوك والحشرات الزاحفة، وقد سمحت لجدتي بأن تلف الشال حول كتفيّ وتدفعني إلى منزلها المجاور لمنزل عائلة دوناتو.

وفي المطبخ، امتد "بيبي" الكلب السابع على أرضية مشمعة، وهز ذيله ترحيبًا بي فشممت رائحة خميرية كريهة، هذا وقد سميت جدتي بيبي هكذا تمينًا بكلبها بيبي، أو بالأحرى كلابها الذين يحملون جميعهم اسم بيبي، نسبةً إلى قائد الفرقة الكوبي الذي سمعته ذات مرة في نادٍ للرقص في نيويورك؛ إذ عاشت هناك عشر سنوات قبل أن تعود إلى إيطاليا لتتزوج جدي زينيو، وبمجرد أن يموت كلب بيبي، تحزن عليه جدتي يومًا أو اثنين، ثم تذهب إلى الزريبة مباشرة وتحضر كلبًا آخر معللة في هذا الصدد: "الحياة قصيرة لتمضيها كلها في حزن، لا بد أن تقومي وتمارسي حياتك مرة أخرى"، تلك هي فلسفتها.

كانت كلابها صغيرة وسريعة الغضب من سلالات مختلطة تنبح كثيرًا وأغبياء جدًا على التدريب، فيما عدا بيبي السابع، أفضلهم؛ إذ كان كلب صيد لطيفًا مصابٌ بعدوى في أذنه جعلته كريه الرائحة كرائحة السمك المتعفن.

أجلستني جدتي أمام الطاولة وفتحت الثلاجة ثم قالت:"لديّ خبز الكالبري المقرمش، والجبن اللذيذ، والسجق الجنوي، ربما كعك الينسون".

قلت لها:"لست جائعة"، ولكنها وضعت بالفعل الطعام على المائدة أمامي، وأخذت كابيكولو وشطيرة جبن بينما سكبت جدتي النسكافيه في أكواب، ووضعت الإبريق على النار، وبينما كنا ننتظر غليان الماء، انحنت جدتي على الطاولة مكتوفة الأيدي عابسة في وجهي.

سألتني:"ماذا دهاكِ بحق الجحيم يا كارا؟ أنتِ لستِ على طبيعتك؟"

هززت كتفي وحكّيت أذن بيبي السابع إلى أن علقت بي رائحة رأسه.

"هيا يا صغيرتي، تحدثي معي، ما الذي يجعلك حزينة؟"

غمغمت أمام لقمة من الطعام:"الكثير من الأشياء".

"حسنًا الموضوع كبير كما يبدو، أنكِ تعانين من مشاكل، ما هي؟ إحصيها لي".

أجبتها:"ثلاثة".

تذمرت جدتي:"ثلاثة لا شيء، إنها ما نواجهه في اليوم الجيد، فجدك يواجه ثلاثة متاعب في الساعة الواحدة بفضل التهاب المفاصل اللعين والسرطان، ما هي أول مشكلة؟"

"أبي".

أومأت جدتي برأسها وربتت على ذراعي، فهي تعرف أبي بالفعل.

فمنذ واقعة أراضي زي، وهو منكمش كالإطارات الخلفية في الأرض، كان محتبسًا وفقًا للقصة نفسها التي روتها أمي؛ إذ تمكن من تغيير الإطار وقيادة السيارة إلى المصنع، حيث احتجز في كشك إزالة التلوث لست ساعات تقريبًا، لكننا لم نصدق تلك القصة، حتى ولو كنت طفلة في الثانية عشر من العمر راسبة في الرقص النقري في المدرسة، فلما لم نراه يقود السيارة أمامنا؟ ولماذا لم تجده شيبكو سريعًا؟ والأهم من ذلك كله، عندما كانت أمي تبتاع الخضار وليندا في اختبار فريق الكرة الطائرة، لماذا آتانا موظف شيبكو وسأل عن أبي، ثم انتظر منتبهًا حتى جمع أبي قلنسوة مديره في شيبكو وربطة عنقه المنقوشة وزيه الموحد وسلمه إلى الموظف؟ ومنذ ذاك الحين، صار أبي يرتاد العمل مرتديًا ربطة العنق الفراشة الزرقاء القاتمة الشبيهة بربطة عنق ضابط ذو رتبة متوسطة.

ردت عليّ جدتي:"إذن أنتِ قلقة على والدك، وأنا أيضًا وكذلك والدتك، ألا تعلمين أنها قلقة؟ وما هي المشكلة الثانية؟"

قلت لها:"ليندا".

تنهدت جدتي بيبي، وعبثت بإحدى كعكات اليانسون حتى تكسرت إلى فتات؛ إذ تغيرت ليندا أيضًا، وصارت باردة وفظة ومثيرة للاشمئزاز قليلاً، حيث كانت ترمي عن عمد الفوط الصحية كبيرة الحجم الملطخة بالدماء على أرضية الحمام كمناديل المائدة المتسخة بالصلصة في مطاعم A&W.

لم تسألني جدتي عن مشكلتي الثالثة، وعلى أي حال لم أكن لأخبرها؛ بيد أنني تعلمت أن إفشاء الأسرار قد يشكل خطرًا، ولم أكن أود شرح وضع كندال، وأيضًا لم نتفاجأ بتصرفات ليندا؛ ففي ذات الليالي، كنا أنا وليندا نشاهد برنامجًا على التلفاز إلى أن انقطع الإرسال فجأة وظهر بثًا طارئًا من البيت الأبيض، من الرئيس روبرت كينيدي الذي قال أننا نتحول إلى حالة مستوى الخطر الثانية بسبب أزمة صاروخية أخرى- وهي الأزمة الثالثة في سنوات عدة- عندئذٍ وقفت ليندا فجأة ثم دلفت إلى غرفتنا وأنا أتبعها.

جلست على سريري وأنا أشاهد ليندا تفتح نافذة غرفة النوم وتفرك طرف الستار بمبرد أظافر معدني، كانت نافذة غرفة نومنا مفتوحة كأنها تحاول الهروب من السجن؛ إذ ظلت توخز في الستار في نوع من الذعر اليائس الذي أصابني أيضًا.

انتحبت كالقطة المذعورة:"ليندا ماذا تفعلين، ماذا تفعلين، ماذا تفعلين؟"

"هل تعلمين ماذا تعني حالة مستوى الخطر الثانية؟"

هززت رأسي نفيًا.

التقطت نفسًا طويلاً ثم أردفت:"هذا يعني . . . لا شئ، لم يتبق شيء، بعض الناس تتحلل ولا يتبق إلا ظلهم، والبعض الآخر يعيش وهو يعتقد أنه بخير لكن مع الوقت تبدأ بشرتهم في التقشير، كغلي الطماطم لسلخها من جلدها، أفهمتِ؟"

وضعت ليندا يداها على قميصها وانتزعت قلادة سيدة لورد العذراء، ثم ألقت السلسال الذهبي الرفيع في راحة يدي وأغلقت عليه أصابعي.

"حافظي عليها من أجلي، وإذا لم أعد، فهي ملك لكِ".

نزعت الستار من النافذة وخبأته تحت سريرها، ثم أمسكت لحافًا وفرشته تحت الملائة وظلت تربت عليه وتشكله كلعبة الصلصال.

قفزت ببطنها من حافة النافذة، ثم أدارت جسدها وهي تقفز كلاعب الجمباز على لوح التوازن، كانت قفزة قصيرة إلى شريط العشب الضيق سمعت بها صوت اصطدام جسدها بالأرض.

بدت النافذة مكشوفة تمامًا دون الستار، فخطوت نحو حافة النافذة ونظرت إلى أسفل إلى أختي الغريبة، تقلبت معدتي كالفطيرة، إذ كانت ليندا تنظر إليّ بعيون كبيرة سوداء كعيوني.

"لن تشي بما حصل أليس كذلك؟ قد تكون هذه فرصتي الأخيرة".

"فرصة أخيرة لماذا؟"

لكنها ذهبت بالفعل، وسمعت جسدها يخترق ممرًا بين الشجيرات.

أغلقت النافذة قليلاً؛ إذ تركت مساحة تسع لحجم بيتر بان بحيث تتمكن ليندا من دخول الغرفة مرة أخرى، وأخيرًا أويت إلى فراشي وخلدت للنوم حتى غرقت في عالم الأحلام؛ فقد رأيت إثيل ميرتز ولوسي ريكاردو وهي تعمل عند سير متحرك طويل مغطى بقنابل على شكل رصاصات، كانوا يحملون المطارق ويضربون بها أنف بعضهم بعض حتى انفجر أنف أحدهم وتدفق الدم في كل مكان كعصير الطماطم الناضجة.

آآآآآه، تأوهت لوسي فسمعت صوت ضحكات الجمهور غير المرئي، تمامًا كما نرى في التلفاز.

فتحت عيني في صباح اليوم التالي لأرى ليندا منكمشة في نفسها بقوة تحت اللحاف، وحذاء التنس الخاص بها ملقى تحت النافذة، كانت رائحتها كرائحة القطط بعد عاصفة ممطرة، فسحبت نفسي من على جانب السرير، وارتديت نعلاً واتجهت إلى المطبخ، كان أبي يعد القهوة، وهو يستمع إلى بوبي كينيدي على الراديو الذي يتحدث كيف انتصرنا مرة أخرى، لقد تأخر أبي عن الذهاب إلى عمله ذاك الصباح، وظل يفكر وهو يعد القهوة ويدخن سيجارًا، وقد أقلع عن التدخين منذ أن كنت طفلة صغيرة، ولكنه عاد إليه مؤخرًا مرة أخرى. سكبت وعاء رقائق مجمدة وغمستها في الحليب، وتحول الراديو إلى موسيقى.

عندما عدت إلى غرفتنا، اختفت ليندا، فانتابني القلق لبرهة إلى أن سمعت جريان الماء في الحمام، توجهت صوب الباب وانحنيت على الأرض، ثم نظرت بعيني من فتحة الباب بالأسفل، وبالكاد رأيت أصابع قدم ليندا، وهي جالسة على المرحاض.

"ليندا".

سمعت تنهيدة عميقة من داخل الحمام ثم قالت:" ماذا؟ هل قال الرئيس كينيدي أننا لن نموت؟"

ساد الصمت طويلاً قبل أن تستطرد من خلف الباب:" قال لي بيلي ليس اليوم، ولكن قريبًا"، ثم سمعت صوت تدفق ماء المرحاض.

الفصل الثاني
هناك تنينًا

اجتمعنا أنا وبام بام خلف جدار نصف مبني لمنزلٍ بعيدٍ عن مرأى فناء المدرسة، حيث كانت استراحة الغداء أفضلَ وقتٍ لمناقشة خطط الاختراق، إلا أنني لاحظت أن المعلمين يراقبوننا؛ لربما يتساءلون عما تفعل فتاة لطيفة مثل ديبي مع فتى من شارع زي يأتي أحيانًا الفصل بملابس والدته؛ بيد أن الاستثنائيون والطبيعيون في مدرسة سانت ديسماس الإعدادية لا يختلطون ببعضهم.

كان بام بام ذاك اليوم يرتدي سروالاً فيروزيًا، وكنا لأول مرة في حياتي نتقاسم سيجارًا.

سعلت وشعرت بدوارٍ، ثم قلت:"أخبار سيئة، لم أجد طريقة للتحليق فوق الجدار".

التقط بام بام السيجار من يدي وسحب نفسًا عميقًا ثم أردف:" من ذكر الطيران؟"

"أنت".

"يا إلهي لقد كنت أمزح فحسب، كان قصدي التسلق، حيث يمكننا القيام بذلك بسلم يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدمًا".

تذكرت جدتي بيبًي وهي تبرز من حافة السطح، ثم قلت:"لدينا واحدًا، لكنني لست متأكدة كيف سنأخذه ونضعه في السيارة بكل سهولة".

"دعي الأمر لي".

"ولكن ألن يرانا الحرس ونحن نتسلق الجدار".

نفث بام بام الدخان في الهواء، محاولاً إبعاد الدخان عن وجهي، وقال:"لقد بدأ يحل الظلام باكرًا، سنقوم بذلك في جنح الليل".

"ولكن يا بام بام".

عانق كتفيّ وقال:"اهدئي، أحيانًا يتعين عليكِ اختلاق كلمات لتستمرين، ما هي الكلمة التي تعبر عن ذلك؟"

قلت له:"ارتجال".

"نعم شيء من هذا القبيل، فقط استعدي وسأقابلكِ عندما يحين الوقت".

تركنا موقع البناء، ومشينا في طرق منفصلة إلى فناء المدرسة.

***

كنت مشتتة للغاية وأنا انتظر إشارة من بام بام، لدرجة أنني لم أعبأ بيوم مولدي الثالث عشر في أوائل أكتوبر ولم أقم له حفلاً كبيرًا، واكتفيت بشراء قالب حلوى بيضاء من المتجر مع إحضار نبيذًا من منزل جدتي بيبي وجدو زينيو، حتى الهالوين تسلل إليّ كالذئب عندما يتعقب صيادًا على حين غفلة في فيلم قصير من إنتاج ديزني، حيث قررنا أنا وساندي وفتيات عائلة دوناتّو أننا لم نكبر على لعبة خدعة أم حلوى **Trick or Treat**، وبعد ذلك، يمكننا حضور حفل في متجر الحلوى على حدود تسلا وفيرمي أقامها فريق المبتدئين في الكرة الطائرة في سانت ديسماس، حيث كانت ليندا نجمة الفريق.

لم أجهد نفسي بالتفكير فيما سأرتديه؛ فقد أخذني أبي إلى متجر رخيص الثمن في المركز التجاري لأختيار ملابس الهالوين المستعملة المصنوعة من البلاستيك، وقد التقطت توأم دوناتو آخر قطع ملابس الأميرات الخرافية، بينما ارتدى الأولاد بالطبع أزياء الجنود والمشردين والعصابات والقراصنة ورسموا ندوبًا على وجوههم ولصقوا ذقن خفيفة بالفلين المحترق، واستعانوا بقلم رسم الحواجب، وكأنهم متنكرين لأنفسهم في المستقبل، أما أنا فقد اخترت مهرج سيرك بقناع الوجه الأبيض الرقيق والأنف الحمراء والشعر البرتقالي وحلة مصنوعة من فرشٍ كبيرٍ يكفي لسحب معطف شتاء، في حين قررت ليندا أختيار ملابس الساحرة- التي تناسبها- وتظهر مزاجها الشرير.

جلست ليندا على مكتبها ذات ليلة، بينما رقدت على السرير؛ كانت تمضغ نهاية القلم الرصاص وتفكر في حل أسئلة رياضية، كنت على يقين بأنها تخفي شيئًا.

ففي المشهد الأول: عندما تظاهرت بالنوم، وجدت ليندا تزيح ستار النافذة مرتين وتقفز من حافة الشباك مثل أليس عندما تسقط في حفرة الأرنب، وعندما وضع والدي النوافذ المضادة للعواصف، انتهت مغامرات منتصف الليل وصار مزاج ليندا أشد سوءًا.

أما المشهد الثاني: فقد وجدت أشياءً غريبة مخبأة تحت السراويل البيضاء، وجوارب الركبة البحرية في درج ملابسها الداخلية، إلى جانب التجسس أحيانًا كثيرة في المدرسة،

هـذا وقـد فحصـت حمـالات الصـدر المذهلـة السـوداء المصنوعـة مـن الدانتيل مع بطاقات الأسعار المرفقـة بها، وزجاجات عطور من محـلات رخيصـة، وملابس داخلية بكيني طُبـع عليها صور شياطين كرتونيـة تتهجـى أيـام الأسـبوع بعصـا مشـتعلة.

أما عن المشهد الثالث: فقد وجدت كتيب مدبّس مطبوع من ورق رخيص يسمى بيان حركة الفوضويين الشبابية (خلية كانوسا)، وفيه اطلعت على أن الجيل الأكبر سنًا (وخاصة المجمع الصناعي العسكري، الـذي يمكنـك أن تراهـن عليـه أنـه وسـيلة أخـرى لقـول شيبكو) استخدم ما أسموه "الشباب الفائض" لتجارب برامج الفضاء وتقدمها؛ فبعد الحرب الأخيرة، أنجب الناس الكثير من الأطفال لدعم البلاد، حيث كانت هذه طريقة شيبكو لاستغلال الفقراء منهم في الاستخدام العملي، وبالإشارة إلى الكلبة الذي أرسلها السوفييت في مركبة سبوتنيك ٢، رأيت في الكتيب هذا البيان: "نحن الجيل البشري من الكلبة لايكا، ولدنا لاختبار تكنولوجيا الفضاء في القرن العشرين"، وهـذا مـا جعلنـي سعيدة نوعًا ما لكوني فتاة، أي لا أصلح للرحلات الفضائية وفقًا لبيان الحركة الشبابية الذي ذكر أن دورى الوحيد فى عالم الغد هو تربية جيل لايكا المستقبليين.

***

انخفضت درجة الحرارة في ليلة الهالوين، فضربت الأمطار المتجمدة شيبمان كورنرز حتى اكتست النوافذ بطبقات الجليد الرقيقة.

ارتديت قناع المهرج وسحبت معطفي الشتوي وقبعتي وانكمشت في غلاف المهرج البلاستيكي حتى بدوت كقطعة السجق البرتقالية البيضاء عندما تنسلخ عن جلدها.

أما ليندا التي تأنقت بقميص ضيق أسود ذو ياقة طويلة تلتف حول الرقبة مع سروالاً وقبعة الساحرة المصنوعة من ورق البريستول مخروطة الشكل، وانتظرت عند الباب، حيث كانت عيونها المتكحلة بالأسود تتفحص الشارع وهي تقضم إبهامها، إلى أن أطلقت صيحة كالبوق: "إنها تريسيا" ثم انزلقت إلى واجهة رصيف سيارة كورفاير أخضر في أبيض، وقفت عند الباب بقناع البوزو إلى أن شاهدت السيارة وهي تبتلعها.

جاءت توأم دوناتو في فساتين الأميرة الوردية مع التيجان البلاستيكية وأحذية ماجوريت لأخذي، أما السيدة دوناتو فارتدت سترة بيضاء رفيعة فوق ملابسها حتى لا تخفي المعاطف الشتوية بهجة الهالويين، ثم أتت ساندي في زي الرقص الشعبي الذي يتألف من تنورة حمراء في بيضاء، وأحذية حمراء مع سروالاً ضيقًا صوفيًا ثقيلاً وتاجًا من الزهور خيط فوق القبعة.

سألت جودي جارلاند ساندي: "ماذا يفترض أن تكوني؟"

أجابت ساندي: "أوكرانية".

تحركنا نحن الأربعة من منزل إلى منزل، واختبأنا أنا وساندي تحت مظلة والدتي، أما الأختان دوناتو فقد كانتا تتصارعان مع مظلاتهن المكسورة التي سرعان ما مزقتها الرياح، وفي طريقنا، رأينا القرع المبتسم معلقًا كل ثلاث أو أربعة منازل، وقد بدت لنا في هذا الظلام الحالك مجموعات واسعة من البنايات التي يتردد

قاطنيها المضطربين في فتح أبواب منازلهم عند طرقها في الليل، حيث كان المطر ينهمر بغزارة آنذاك، فأسرعنا صوب متجر الحلوى الذي تتوهج نوافذه مثل آخر قاعدة للحضارة؛ وهو عبارة عن كشك خشبي مانع للحريق، يبيع مصاصات ومثلجات موجودة بمجمد معطل، ومجلات متسخة من صندوق منظفات مخبأ تحت المنضدة الأمامية، ومختارات مطوية من أعداد سوبرمان وأرتي كوميكس القديمة، ونظرًا لأنه لم يكن يبيع كثيرًا، تحول إلى مكان لتجمع المراهقين على هامش العالم المعروف، إلى أن انتهت نقطة تجمع أضواء الشارع مع رصيف شارع فيرمي.

شققنا طريقنا نحو عتبات مدخل المحل ونحن نجر أغطية وسادات مشبعة بالماء تمتلئ بالحلوى الرخيصة، وقد انزلقت جاين مانسفيلد على الجليد مطلقة صرخة وهي تقع، فرفعناها ثلاثتنا بقدر ما استطعنا؛ إذ كانت أذرعنا متيبسة تحت طبقات الملابس الشتوية والأزياء البلاستيكية. تغلغلنا بملابسنا التنكرية التي بدونا فيها كأفلام الكرتون للكبار وسط الظلام الدامس المخيف خلف المحل، لدرجة أننا تخيلنا وجود تنانين.

عندما فتحنا الباب، استقبلنا لاعبي الكرة الطائرة المبتدئين، وقد كان الجو دافئًا في الداخل، رأينا الفتيات في ملابس على شكل قطط، وأزياء الساحرات، وتظاهر الأولاد بأنهم حاملي أسلحة مرتدين قبعات إخوتهم الأصغر سنًا وحملوا حافظات المسدسات اللعبة، إلا فتاة واحدة هي من ارتدت زي ملكة جمال المسابقة مع وشاحٍ كُتب عليه: "ملكة جمال القنبلة الذرية"، وقد لف حول جسدها شبك الدجاج ولباد أسود.

أما بيوتر، ابن مالك محل الحلوى، فقد ارتدى زي رائد فضاء مصنوعٍ من صندوقٍ من الورق المقوى مغطى بورق الألومنيوم الفضي، وقد خرجت مجموعة من خراطيم التجفيف من صدره كسمكة الوحل مقطوعة الرأس. جلسنا على المقاعد بجانبه عندما كان يغير التسجيلات في المسجل وهو يشاهد أحد حاملي الأسلحة وهو يؤدي رقصة الواتوسي مع ملكة جمال القنبلة الذرية.

بجانب بيوتر، جلس شابًا نحيفًا ذو شعر أشعث أسود يحمل معه كومة من أعداد ٤٥، وقد ارتدى زي الجندي، والأحذية العسكرية، والقلادات العسكرية، ولكن ثمة أزرار مفقودة من سترته وقميصًا ملطخًا بشيء مقرف كأنه دمًا قديمًا مع سماعة طبيب تتدلى من حول عنقه.

عندما لمحني بجانبه قال لي باسمًا:" مرحبًا بكِ يا صغيرتي، ما المفترض أن تكوني؟"

تمتمت وأنا أتناول لقمة من التفاح المكرمل:" المهرج بوزو، وماذا عنك؟"

قال لي:"هوكاي بيرس".

قطبت ملامح وجهي وقلت:"من؟"

"شخصية برامج تلفزيونية، نوع من المهرجين أيضًا".

قلت له:"لم أسمع عنه من قبل".

هز كتفيه وقال:"ذلك لأن برنامجه لا يذاع في هذه المنطقة الزمنية، فأنا أتابعه لأني طالب تبادلي".

بدا صوته مألوفًا لي: "أشعر أنني رأيتك من قبل في مكان ما".

هـز كتفيه واستطرد: "ربما ديجا فو"، ثم سحب عدد ٤٥، حيث اعتقدت أنه كان يقرأ من التسجيلات؛ فلم أسمع هذه الكلمة من قبل.

"ما هي الديجا فو؟"

"إنها كلمة فرنسية تعني (شوهد بالفعل)، حيث يشعر الناس أنهم عاصروا شيئًا ما من قبل، هل سبق وانتابك هذا الإحساس يا بوزو؟"

أومأت برأسي موافقة، فأخيرًا وجدت كلمة تصف إحساسًا أعرفه جيدًا، رغم أنني لا أعرف أبدًا متى سيظهر الديجا فو، فقد برز فجأة ككعك الزبدة على صينية ساخنة.

انتزع هوكاي بيرس عدد ٤٥ من كمه، فرأيت نصف إصبعه الأسود في يده اليمنى مفقودًا.

"عرفت الآن من أنت، إنك الشاب القادم من المستقبل".

ارتفع أحد حاجبيه بدهشة وقال: "كيف عرفتِ ذلك؟"

"لقد تقابلنا مرتين، مرة في أراضي زي الربيع الماضي، فقد كنت تتسلل إلى إحدى الممتلكات الخاصة، ومن هنا أطلقت عليك لقب المتسلل في رأسي".

اتسعت ابتسامة هوكاي وقال: "المتسلل، يناسبني هذا الاسم، والمرة الثانية؟"

"فركت خلايا وجنتي في نزهة شركة شيبكو، وأخبرتني أنك الدكتور دافي من المستقبل".

عبس هوكاي ثم قال:"إنكِ محقة في اسمي، لذا أعتقد أنني أتطلع إلى تجميع خلاياكِ الطلائية في أقرب وقت ممكن".

أجبته:"لا لقد قمت بذلك بالفعل في الماضي".

أجابني:"هذا من وجهة نظرك".

قبل أن أذكر له المهمة المسندة لي لإنقاذ البشرية، انفتح الباب بعنف ودلفت ليندا وبيلي متشابكي الأيدي، حيث ارتدى بيلي قميصًا أزرق وسروالاً ريفيًا وسترة رياضية قطنية بالية، وقد نما شعره الأشقر حتى وصل إلى عينه حتى أصبح يخفي الندبة التي تتدلى من أذنه، مع شاربٍ خفيفٍ جدًا تحت أنفه. لم يبد مظهره متأثرًا بالهالويين كثيرًا.

أومأ بيلي برأسه إلى المتسلل وقال:"وإذا لم تكن هوكاي؟"، أجاب المتسلل:" "ميت هيد" على ما أظن؟ يبدو أنك تأخذ بث النطاق الترددي المنخفض على محمل الجد قليلاً".

عبس بيلي وقال:"إن تأثير الترفيه الهدام يلاحظ بوضوح لدي الشباب أكثر في التوقيت القياسي الأرضي. لماذا لا يحدث ذلك هنا؟"

لوّح المتسلل بيديه رافضًا:"لا توجد أدلة تجريبية تبث بالتلفزيون الترفيهي في العالم الموازي ما يشير إلى التحول المحتمل لثقافة الشباب في عالمنا".

قال بيلي بإصرار:"هذا شيء بديهي".

سأل المتسلل:"هل أنت عالمٌ أم اختصاصي اجتماعي؟ وللعلم إن "ميت هيد" هذا مهرجًا، أي شيئًا مثيرًا للتهكم والسخرية".

تصلب بيلي:"بل كانٍ مقاتلاً من أجل الحرية، قائلاً للحقيقة وقويًا".

"تقول على هذا الصهر السمين قويًا؟ سيعرض تحليلاً دقيقًا إن آرشي بانكر كان رجلاً مثيرًا للشفقة أكثر من كونه مخيفًا".

توقف الحاضرون عن الرقص لمشاهدة الجدال بين بيلي والمتسلل.

سأل إحدى حاملي الأسلحة الأول:"من الغريب؟"

لم يجب بيلي وانتزع عدد ٤٥ من يد المتسلل وقرأ الآتي:"تلستار -قمر صناعي- بواسطة تورنيدوز، تمجيدًا كبيرًا لتقنية القمر الصناعي التجسسي، أتحب هذه الحماقة بالفعل؟"

قال المتسلل:"إنها جذابة".

تدخل بيوتر وقال:" لنأخذ راحة من الدعاية يا بيلي، من المفترض أننا في حفلة"، ووضع ورقة التلستار على المسجل.

فهقهت ملكة القنبلة الذرية وقالت:"ألا تمرح أبدًا يا بيلي؟"

رفع بيلي إصبعه إلى ملكة القنبلة الذرية كأنه يصوب مسدسه نحوها، ثم استطرد:"إنهم يفجرون جهازً نوويًا حراريًا في الغلاف المغناطيسي بينما نحن نتكلم، هل هذا يبدو مضحكًا لكِ؟"

وضع المتسلل يده على كتف بيلي كأنه يبعده عن المكان، إلا أن بيلي قد أبعد يده وخطا إلى منتصف الغرفة، وهتف:"اسمعوا جميعًا، إذا أخبرنا رؤساء شركة شيبكو بحظر القنابل، سيضطرون للاستجابة لنا، فنحن نفوقهم عددًا".

شهق الحضور جميعًا؛ إذ يعتبر هذا النوع من الحديث في التوقيت الذري ضربًا خطرًا من الجنون.

سأل حامل الأسلحة رقم واحد:"وماذا تتوقع منا أن نفعل في حياتنا بحق الجحيم عندما نكبر؟ إن شيبمان كورنرز هي مدينة قنابل أيها الأحمق؟"

رد عليه بيلي ردًا جامحًا:"وإذا لم نفعل شيئًا حيال ذلك، ستتحول شيبمان كورنرز إلى حفرة مشعة حارقة".

قالت ملكة القنبلة الذرية بعصبية:" تبدو مثل الثرثارين، من الأفضل أن تصمت وإلا سيرسلونا جميعًا إلى نيو سيدني فقط بتهمة الاستماع إليك".

خطت ليندا أمام ملكة القنبلة الذرية وقالت:" يالكِ من طفلة".

قال بيلي:"شاهدت بثًا تلفزيونيًا من عالم بديلٍ ينظم فيه الشباب مظاهرات احتجاجية"، وتابع حديثه:" لقد احتلوا المباني وطالبوا بالتغيير، حتى نجحوا في هذا الأمر إلى حد أنهم تمكنوا من وضع حدودًا لحروب الدومينو مع كوريا وفيتنام".

تذمر حامل الأسلحة الثاني وقال:"تلفزيونًا من بعدًا آخر، كيف أدرت تلك الخدعة؟"

تبادل بيلي والمتسلل النظرات.

قال بيلي:" أنا عالم".

قال حامل الأسلحة الأول:"حقًا.. وأنا عم القرد".

رد بيلي:"في حكم كحكم بلدك غير المتطورة، أتوقع ذلك كثيرًا".

عندئذٍ أقحم المتسلل نفسه بين بيلي وحامل الأسلحة الأول الذي رفع إليه قبضة يده وأرخاها ثانية، وقد بدا الجنان على بعض الأطفال، والخوف على البعض الآخر، وبدأ حامل الأسلحة الثاني بتوجيه لكمات إلى راحة يده ببطء.

قال المتسلل برفق إلى بيلي:"آن وقت التراجع".

قال بيلي:"إنه دائمًا وقت التراجع وفقًا لك، أنت مشكلة كبيرة مثلهم أيها المتكبر المعارض للمتحولين، عد إلى المعمل وأتركني أؤدي عملي، لنتركهم يا حبيبتي"، ثم قبض يد ليندا وأطلق النار على الحضور بقوله:"آمل بالتأكيد أن يعجبكم طعم السترونتيوم ٩٠ في حليب الشوكولاتة يا أولاد، وهناك على بعد بضعة أميال من هنا ما يكفي من الراديوم المشع في الأرض ليجعلكم جميعًا تتوهجون في الظلام".

أوه لا، لقد أخبرته ليندا عن أراضي زي.

رفع بيوتر إبهامه أمام المتسلل وقال له:"الأفضل أن تذهب مع أصدقائك، فآخر شيء أردته هو أن تتحول الحفلة إلى شجار".

اندفع كل من بيلي وليندا والمتسلل إلى الباب الأمامي، تمامًا كرعاة البقر عندما ينطلقون بخفة مبللين، إلى أن أتى بام بام، وكانت يداه متخفيتان تحت أكمام قميص يبدو أنه قميص والده الحطاب، ولم يكن يرتدي قبعة، بل منديلاً حقيرًا أحمرًا ملتفًا حول عنقه وأغطية علب معدنية عالقة خلف حذائه للإشارة إلى زي الهالويين.

صاح حامل الأسلحة الثاني في غضبٍ:"في البداية آتانا إحدى الثرثارون وأفسدوا علينا الحفل، الآن دعا شخص ما ملتوي من شارع زي".

رد بيوتر: "المتجر مفتوحًا للجميع ممن لا يتحدثون في السياسة"، ثم قدم تفاحة الكراميل إلى بام بام الذي غرس أسنانه الأمامية في جلد التفاحة البني اللامع ومضغها كأنه لم يأكل منذ أسبوع، ثم ألقى قلب التفاحة في سلة المهملات وأومأ برأسه ناحيتي، مشيرًا إلى الباب، كان غرضه واضحًا: قابلني في الخارج، لابد أنه وجد سيارة، الآن حان الوقت لخطف سلم أبي والتحرك.

قلت لأصدقائي:"هذه الحفلة مقرفة، لنخرج من هنا".

رفعنا أنا وساندي وجودي جارلاند وجين مانسفيلد أكياس وسادتنا وعدنا مرة أخرى إلى المطر محصنين بالحلوى وعصير التفاح الساخن، لا أضواء في الشارع أمام متجر الحلوى، تفحصت الظلام بحثًا عن المتسلل إلى أن وجدت كبريتًا اشتعل لبرهة في سيارة توقفت بعيدًا عن الضوء الأصفر المميز لقمة شارع فيرمي.

قلت لصديقاتي:"انتظروني"، وسلمت مظلة أمي الكبيرة إلى ساندي، فسقطت قطرات المطر المتجمدة على قناع المهرج البلاستيكي مثل حبات مطر بام بام عندما توجهت إلى السيارة، وكان حذائي يفيض بالماء.

كانت نوافذ السيارة الكورفاير متجمدة، فأدخلت قبضة يدي في كم معطفي، ولففت ذراعي على الزجاج وفركته لعمل فتحة أنظر من خلالها إلى ما بداخل السيارة. كان راديو السيارة يشغل أغاني فريق Surfer Rock.

اختلست النظر من الفتحة وتوقعت رؤية بام بام يدخن خلف عجلة القيادة، ولكني رأيت بدلاً من ذلك ليندا مرتدية إحدى حمالات الصدر وشعرها الطويل منثورًا في كل مكان بالمقعد، ورأس بيلي الشقراء منحنية فوقها وشفاته تضغط على صدرها كأنه يحاول مص سم من لدغة الأفعى، كنت قد رأيت هذه الحركة في الغرب. ابتعدت عن السيارة وعدت إلى ساندي والتوأم.

سألتني جودي جارلاند:"هل هذه شقيقتك وصديقها الثرثار؟"

قالت جين مانسفيلد:"لنرى"، ثم توجهت صوب السيارة.

أمسكتها بقوة من خلف معطفها الرقيق ودفعتها إلى بركة من الطين، حتى تكسرت آخر الأضلاع المتبقية الممزقة في مظلتها الباراسول، سحبت جودي جارلاند اختها التوأم التي إنهالت في البكاء وساعدتها على النهوض.

صرخت فيّ:" سنخبرهم"، ثم ابتعدن كلاتهما متشابكتان الأيدي.

قالت ساندي في تعاسة:"سأعود إلى المنزل"، ثم علقت غطاء وسادتها فوق كتفها واتجهت صوب طريق تسلا ، وأصبحت لوحدي تمامًا.

رفعت غطاء وسادتي المتدلي، عبرت الجانب الآخر من الشارع وأنا أتسائل عما حدث لبام بام. وعلى رصيف منزلاً مظلمًا، ارتطمت ببركة جليدية، وطارت قدمي من تحت فسقطت أرضًا كشخصية لوني تون وهو ينزلق من على قشرة الموز، حيث اصطدمت

رأسي من الخلف بشيء صلب أصابني بالدوار، فوجدتني أحلق في السماء المظلمة وحبيبات الثلج تضرب وجهي.

وضعت يديّ على عيني لحمايتهما من المطر المتجمد، لذا لم أعرف على الفور من كان يتحدث فوقي ويقول لي: "ألغيت الخطة".

رفعت يدي من على عيني لأرى راعي البقر المضحك يحدق في وجهي، إنه بام بام، حيث أمسك يدي وأوقفني على قدماي.

"ألغيت الخطة؟ لماذا؟"

"وصلتني رسالة من كندال يقول فيها أن أحد ما صوّب إليه موقد لحام حتى أصيبت إحدى يديه وهي في حالة مزرية".

"ماذا؟ وكيف أرسل إليك الرسالة؟"

قال بام بام: "كان أحد الملتوين يلتقط القمامة من الشارع، حيث تركزت مهمته في مساعدتنا على إيصال الرسائل المكتوبة في عصير الليمون المحفوظ داخل قشر الطماطم".

"ولكن أنا..."

هز بام بام رأسه، وقاطعني قائلاً: " لا يمكن لكندال تسلق السلم بيد واحدة، وقال أنهم سيطلقون سراحه على أي حال لأنه لم يعد صالحًا بعد الآن؛ فمن غير المحبذ وجود بضاعة معطوبة في اختبار الطيارين، لذا عودي إلى المنزل يا ديبي".

وأنا أنفض المطر المتجمد من على وجهي، رأيت بام بام يبتعد في الظلام، تمنيت أن يستدير ويخبرني أنه كان يختبر شجاعتي، وأننا لازلنا نخطط لإنقاذ كندال، ولكن عندما تلاشى صوت جلجلة علبته المعدنية، أدركت أنه لن يعود، فتساقطت العبرات، ومشيت متثاقلة نحو المنزل.

عندما وصلت إلى المنزل، كان الظلام الدامس يعم المنطقة بأكملها، حيث ألقت عائلة دوناتو فوانيس جاك في الشجيرات وأطفأوا المصابيح، ولا شك أن التوأم الأميرتان في قمصانهما الوردية يتناولن الحلوى أمام مسلسل **Suburban Cavemen**.

وقفت على الحصيرة في منزلنا لأمسح المطر من على ملابسي لبضعة دقائق، ثم شققت طريقي إلى غرفتي، ومررت بتمثال السيدة ملكة العالم ذات الثعابين التي تتلوى تحت قدميها العاريتان، وقد وضِعَت في زاوية على مقربة من الهاتف، كانت عيونها المتواضعة المكتئبة تتبعني طول الرواق، وكأنها ترسل لي رسالة خاطفة تقول: ألا تجرئين على الوشاية بأختك؟

صعدت لآخذ حمامًا ساخنًا، في حين ألقى أبي غطاء وسادتي على الطاولة وتفحص كل قطع الحلوى خاصة قطعة حلوى التفاح بحثًا عن وخزات؛ إذ سمع في الأخبار أن الغرباء سمّوا حلوى الهالوين كالساحرة الشريرة في سنووايت والأقزام السبعة.

لم أستطع النوم تحت اللحاف، واستمعت إلى قعقعة الصقيع على السطح، حاولت أن لا أفكر في كندال و مواقد اللحام، أو بيلي الفوضوي، أو المتسلل، الذي ظل متنكرًا كطبيبٍ مختلف، فالحياة لم يعد لها معنى كبير بعد الآن، وفي النهاية، انفتح الباب الأمامي وانغلق بعنف، يليها صوت أمي يصيح متهمًا: "وقت حظر التجول"، لكني لم أسمع الباقي بسبب صوت الرياح الصاخب خارج النافذة، ولم أتمكن من سماع إجابة ليندا، لكنها انتهت بـ: "... .. بحق الله، إنها ليلة هالوين".

الآن ليندا في المنزل، يمكنني الخلود إلى النوم، على الأقل شخصًا واحدًا ممن اهتم بهم في أمان. أغلقت عيني، في محاولة لتجاهل وجعًا مؤلمًا، كما لو كانت الأشياء المثيرة في كرتون الشيطان تحاول بشوكتها الصغيرة وخز خلف حنجرتي.

الفصل الثالث
يوم الموتى

شعرت بشيئًا ما يضغط على صدري، شيئًا لينًا، وثقيلاً مكسو بالريش ذو رائحة نفس كريهة، فتحت عيني على عالم محموم يصاحبه دوارٌ في الرأس، وكان حلقي ممتلئًا بالزجاج المسّنن.

لم أستطع التحدث، ولكن ليندا شعرت بألمي فأسرعت إلى غرفة نوم والداي لإيقاظ أمي، التي مشت متثاقلة في الغرفة وهي تتثائب وتهز مقياس الحرارة، وعندما قرأت درجة حرارتي، اتسعت عيناها وقالت: "مائة وأربع فاصلة خمسة؟"

حدقت في وجهها؛ إذ كدت أموت في اليوم الذي تلى الهالويين، إنه يوم الموتى، رغم المصل الواقي، وهذا ليس منطقيًا، فقد نشرت مجلة الحياة على طاولة القهوة صورة مقربة لإبرة تحت الجلد تعطى في جلد كتف الأطفال الرقيق، مع كتابات تسأل: "هل هي نهاية الموت؟"؛ إذ كانت القصة تدور حول طريقة تحويل اللقاح الشامل للمرض إلى ساحرة في فيلم كرتوني بالصور الملونة المصحوبة بجميع العظام الممزقة، والألبسة السوداء والأرجوانية؛ فإذا أكلت تفاحها المسمم، سيأتي لكِ أميرًا وسيمًا بسماعة طبيب يوقظك بقبلة من الأجسام المضادة.

زارنا الطبيب ذاك الصباح وشخّص المرض على الفور بالتهاب اللوزتين، ثم قال أنني سأحتاج إلى عملية استئصال اللوزتين والإقامة في المستشفى لمدة قصيرة.

طمأن الطبيب أمي مربتًا على كتفها قائلاً: "إن الموت من عدوى فيروسية مستحيل ظاهريًا، فالتطعيم الوقائي قد أباد شلل الأطفال وجميع سلالات الأنفلونزا، وربما التهبت اللوزتين قبل أن تأخذ التطعيم".

رقدت على المقعد الخلفي في سيارتنا، وأنا أشعر بالحمى واتكأتُ على الوسائد وقد التحفتُ ببطانية ومعي قصص المرأة الخارقة، ثم ذهبنا إلى جناح الأطفال بالمستشفى، فأدخلوني غرفة تعج بالأطفال على الأسرّة التي بدت كسرائر أطفال عملاقة.

سارت إحدى الفتيات نحوي ناظرة إليّ عبر قضبان سريري كأنني حيوانٌ أتى حديثًا إلى حديقة الحيوان، وكانت مع خادمها الأشقر مرتدية ملابس الاستحمام الوردية المصنوعة من قماش الشينيل فبدت كأنها النسخة القزمة من دوريس داي.

قالت لي: "أنا سيندي، من أنتِ بحق الجحيم؟"

هززت رأسي وقلت: "التحدث يؤلمني كثيرًا".

تنهدت سيندي تنهيدًا استعراضيًا ثم أردفت: " يا إلهي، شخصًا آخر أصم وأبكم، مم تشتكين؟"

همست: "اللوَزْ".

"أوووه، أمرًا ليس مهمًا يا صديقتي، هل تعلمين كم مريضًا دخل إلى هنا لاستئصال لوزتيه؟ الملايين، لا تكوني طفلة سيئة؛ ففي مثل هذا الوقت غدًا ستجلسين كالأميرة النائمة مع وعاءً كبيرًا من المثلجات، كم أنتِ محظوظة، والآن انهضي من فراشك، فنحن نلعب فيلم المعلم الأصم الأبكم".

قلت في قرارة نفسي؛ أنكِ لست مديرتي، ولكن عندما أنزلت

سيندي قضبان سريري، نهضت ومشيت حافية القدمين وأنا أتشنج من برودة الأرض.

كانت إحدى زميلاتي في الغرفة عمياء وصماء حقًا، اسمها سوزي، تبلغ الثامنة من العمر، ذات شعر أشقر طويل وعينان زرقاوين كبيرتان كالدمية، كنا ثلاثة، مثل آني سوليفانز معلمة هيلين كيلر التي ترشدها في الغرفة، وتساعدها على لمس الأشياء، إلى أن تعلمت الأسماء.

ظلت سيندي تضع أصابع سوزي على فمها وهي تتكلم، ثم قالت:" لنلعب لعبة الملجأ النووي"، وهي تدفع سوزي تحت سريري، وبرغم من إني والفتاة الأخرى إيفون قد كبرنا كثيرًا على جملة "لنتظاهر"، إلا أننا تابعنا سيندي، ووقفت حيوانات سوزي المحنطة كالحيوانات الأليفة المنزلية التي أرغمناها أخيرًا على تناول الطعام.

ألقت سيندي محادثة كالكبار بينما انتظرنا نحن الجملة الشهيرة: المكان آمن، حتى قالت سيندي:"كل شيء سيذهب إلى الجحيم بكل سهولة، فاليهود والكاثوليكيون يخربون هذا البلد".

سألتها إيفون:" إذا لم تكوني كاثوليكية، لماذا أنتِ هنا في مستشفى الجروح المقدسة؟"

ألقت سيندي نظرة سريعة يمينًا ويسارًا كأنها على وشك إفشاء سرًا، ثم قالت بصوتٍ منخفض:"أودعتني الحكومة هنا، باعتباري جزءًا من خطة سرية لوقف الشيوعيين من امتلاك خير النماذج النسائية لتتكاثر مع الرجال الروس بعد توليهم، فأنا في حقيقة الأمر طبيعية مئة بالمئة، لست مثلكن أيها الأطفال المريضات الملتوين، ثم نكزت إيفون وقالت:"هيا أرينا ما تحت شعرك".

هـزت إيفـون رأسـها وابتعـدت عـن سـيندي، التـي سـرعان مـا أمسـكت بخصلة من شعرها ولفتها لفوق لتكشف عن قطعة من اللحم المتكتلة كالصدف تحت أذنها، حيث بدا الأمر لإيفون فاحشًا قليلاً، كما لو كانت سيندي قد سحبت سراويل إيفون لأسفل لفضح أجزاء جسدها الخاصة.

"انظري إلى هذا؟ إنها أذنها الثالثة، سيصلحونها"، قالتها سيندي بصوتٍ عالٍ، كما لو كانت الجملة تعني أنهم سيصلحون شيئًا قذرًا، كإصلاحِ قطةٍ مثلاً، جذبت إيفون خصلة شعرها بعنف، وتمتمت بكلمات فرنسية تبدو أنها كلمات بذيئة.

أضافت سيندي:"إنها ليست الملتوية الوحيدة، ثمة مجموعة كاملة من الفتيات أودعوا في جناح الأولاد، وهم المخنثين كالديدان، يااااع، هناك زوج من الوحوش أسفل الردهة".

هززت رأسي ولم أقل إلا كلمة واحدة:"كاذبة".

وضعت سيندي يدها على شفاهها وقالت:"لست بكاذبة، تعالي معي لأريكي إياهم".

قالت إيفون:"الأفضل لا، وإلا ستسلخك الراهبة حية، إذا ضبطتكِ ثانيةً".

قالت سيندي:"لا يهم، سآخذ الطفلة الجديدة معي حينما يطفئون الأنوار، هذا إن لم تخف".

وبعد أن أطفئت الممرضة الأنوار واختفى صوت خطواتها، سمعت قضبان سريري تنزلق، همست سيندي على مقربة مني:"علينا أن نتحرك سريعًا فالممرضة في جولاتها بين المرضى".

توجهنـا إلـى البـاب وتلفتنـا حولنـا فـي الـرواق، فـي أقصـى نهايـة الـرواق، ورأينـا قبعـات الممرضـات البيضـاء التـي بـدت عـن بعـد كصدف البحـر، حيث سـمعنا أحذيتهم القماشية المركبة وهي تغرس فـي المشـمع الشـمعي، وعنـدمـا خـلا الـرواق، قالـت سـيندي: "إنهن الآن فـي جنـاح الأولاد، لنذهـب"، ثـم أخذتنـي مـن يـدي وهـرعنـا إلـى نهايـة الممـر، حتـى وصلنـا إلـى بـاب عليـه علامـة كتـب عليهـا بحـروف سـوداء كبيرة: "أجهـزة تنفس صنـاعيـة سـالبة الضغـط"، ثـم دفعـت سـيندي البـاب.

كانـت الغرفـة حالكـة الظـلام باسـتثناء بقعـة مـن الضـوء فـي الطـرف البعيـد للمكـان، فتمكنـت مـن رؤيـة شـيئين علـى شـكل قنبلتـان موضوعتـان جنبًـا إلـى جنـب يصـدران أزيـزًا إيقـاعيًـا وصوتًـا كشـهيق وزفيـر العمالقـة.

وعنـدمـا اعتـادت عينـاي علـى الضـوء الخـافـت، رأيـت رؤوس تخـرج مـن الشيئـان، وكانـا فتـاة علـى جانـب وشـاب علـى جانـب آخـر.

همسـت سـيندي: "إنهما هنـا منـذ سـنوات، لـذا فهـم يعرفـان بعضهمـا منـذ أن كانـا أطفـالاً، لـذا وضعوهمـا سـويًـا ليكوّنـا صحبـة، وقد بلغـا الآن سن الرشـد، وبالتـأكيد أضحـى لدى الشـاب الآن رغبـاتٍ كبـاقي الشـبـاب، إلا أنـه لا يسـتطيع لمس الفتـاة، لأنهمـا مشـلولان".

"مـن هنـاك؟" نـادى الشـاب بصـوتٍ ضعيـفٍ، ثـم تـابـع: " تعالـوا إلـى هنـا، كيف سـنراكم؟"

قالـت سـيندي بصـوتٍ رقيق: "إنـه أنـا وصديقتـي، لقـد قالـت الممرضـة أن آتـي وأتفحصكمـا إن كنتمـا لازلتمـا تتنفسـان".

أمسكتني سيندي من ذراعي واقتربنا من الوحوش، فرأيت ربطة شعر وردية في شعر رأس الفتاة البني، المستريحة على الوسادة.

قالت الفتاة:"لا تلمسونا"، بدا صوتها كأنها خائفة علينا كأنني واحدة منهما.

تركت يد سيندي وتراجعت للوراء حينما صدمت شيئًا دافئًا وناعمًا إلى أن قبضت على كتفي بقوة.

قالت امرأة:"يا إلهي، لا تفعليها مجددًا يا سنتيا".

استدرت فوجدت راهبة ترتدي ملابس بيضاء من الرأس حتى القدم، كالشبح؛ إذ ارتدت حجابًا أبيضًا، ورداءً أبيضًا، وخرزات بيضاء حول خصرها، وخمارًا أبيضًا التف من تحت ذقنها البارزة.

بكت سيندي وقالت:"إنها هي التي أجبرتني على ذلك، إذ قالت لي أن بإمكاني قراءة قصصها المصورة إذا أريتها الوحوش"، تذمرت الراهبة وقبضت على كتفي وأشارت إليّ بالخروج، وكانت سيندي تتبعني.

في غرفتنا مجددًا، صعدت سيندي سريرها وهي تتذمر، بينما طوت الراهبة غطاء السرير الرقيق حولي، وأغلقت قضبانه، ثم قالت:"إذا قمتي من سريرك ثانيةً سيبتليكِ الله بشلل الأطفال، وقد لا تأخذي تطعيمًا، وستستيقظين برئة حديدية مثل ماثيو وآن ماري، أفهمتِ؟"

رقدت تحت الملائة الرقيقة وأنا أرتجف بردًا، بحلق كالفرن، ومعدة خاوية، كنت أحدق في الظلام؛ إذ خفت أن أنام فأستيقظ بلا جسد، محتجزة في نعشٍ معدنيٍ يشبه القنبلة، ورأسي بارز في عالم أراه ولا ألمسه.

أول شيء في الصباح، عندما تناول الآخرين إفطارهم في صينية، دلفت ممرضة قاسية الوجه بقبعة بيضاء كمنديل المطعم إلى غرفتنا، اعتقدت للحظات مرعبة أنها ممرضة البات بوون، إلا أن شعرها أغمق وجسدها أسمن، ووعدتني قائلة: "ستكون هناك المثلجات بعد ذلك"، ثم غرست حقنة في ذراعي.

قالت سيندي، وهي تقضم الخبز المحمص ومربى الفراولة من الحزم البلاستيكية الغريبة، بصوتها المعروف للجميع، "انظري؟ قلت لكِ ذلك، دعيني أقرأ كتبكِ المصورة عندما تذهبين".

أمسكت الممرضة كتبي المصورة وألقتها في سرير سيندي، قبل أن أبدي موافقتي أو أعتراضي، ثم نقلتني بكرسي متحرك إلى غرفة كبيرة مشرقة بجدران مزينة بالبلاط الأزرق تبدو كحمام الفتيات في المدرسة.

ابتسمت العيون إليّ من فوق الأقنعة البيضاء.

قال الطبيب: "أراكِ قريبًا يا حبيبتي"، قبل أن يعطيني الحقنة التي ألقتني إلى أسفل قاع العالم خارج حدود الجانب الآخر.

لم أنتقل إلى الحياة الآخرة، أو ما تفكر فيه أثناء النوم، ولكن نصف حياة مخدرة يستسلم فيها الجسد لجراح يمكنه التشريح والتقطيع دون أن يحدث المريض جلبة، فهم يجعلونك تتنفس، لهذا السبب أسموه "السقوط إلى أسفل"، كما لو كنت تسقط في الماء، وبدا هذا الأمر لمعظم الناس، أنه هبوطًا قصيرًا إلى أي مكان ثم يخرجون منه سريعًا، ولكن أنا لست كالأغلبية.

وأول دليل على وقوع مشكلة أنني لم أفيق، كأنني انجرفت في محيط حالم من المسكنات، وركلات داخلية وخارجية من اليقظة، وأصواتٍ غرفة الانعاش التي تحفني، وصرير سبورة الأسرّة العجلية على المشمع، وأزيز جهاز التنفس، وصرخات الأطفال الذاهبون إلى غرف العمليات يريدون أمهاتهم.

كان هناك صوت امرأة بدا مريحًا كالعسل على الخبز المحمص قالت:"لماذا لم تفتح عيناها".

أجاب صوت رجل:"لو كنت أعرف، لما كنت أفرّغ أوعية البول".

تنهدت المرأة وقالت:"ربما ستنام للحرب العالمية الثالثة".

قال الرجل:"يرجى المعذرة، ثمة فوضى يجب أن أنظفها؛ استيقظ أحد الأطفال وتقيأ".

فتحت عيني، وبدلاً من أن أجد نفسي في غرفة الإنعاش، وجدتني في شارع واسع خالي من الناس من مدينة أبيض في أسود، ليست شيبمان كورنرز، بل فيلم كرتون عن أرض كوابيس نيمو الصغير؛ حيث ناطحات السحاب التي تتمايل كشرائح المعكرونة، والكشافات التي تمسح السماء، وعلى بعد رأيت بقعة، تجري أقرب وأقرب، كنت أنا الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة، وفي السماء، رأيت أسماك قرش حديدية، وفكوك معدنية تقعقع، عندما تنقض للهجوم، حاولت أن أرفع يداي لأبعدهم، لكنني لم أتحرك، كنت مستيقظة ولكن مشلولة مثل وحوش سيندي، مثلما حذرتني الممرضة؛ فالرب يعاقبني بشلل الأطفال، وهأنذا قد احتجزت بعيدًا برئة حديدية للأبد، وفي لحظة يأس، وددت أن أموت.

ظهر صوتًا خفيضًا ذكوريًا يقول لي في الحلم: لن تموتين.

لا يمكن أن تموتي الآن.

إنكِ في مهمة لإنقاذ العالم.

حان وقت الاستيقاظ.

شممت رائحة شيئًا حارًا، خبز القرفة، ففتحت أعيني قليلاً على وجهًا ضبابيًا، لم أميز إن كان رجلاً أم امرأة، لكنه كان ذو بشرة وردية متقشرة مرتديًا قبعة الممرضات، إنه المتسلل أو الطبيب دافي أو الاثنان.

"مرحبًا بكِ يا جميلتي النائمة".

جلس بجوار السرير وانحنى قريبًا من القضبان.

"لديّ أخبار جديدة لكِ، صديقك بام بام حصل على حرية الارتجال بعدما ترككِ يوم الهالووين، حيث عثر على سيارة مفتوحة أثناء عودته إلى المنزل فحاول إنقاذ كندال بنفسه، لكن الأمور لم تسير على ما يرام؛ إذ قبضت عليه الشرطة بالسيارة المسروقة وكان معه سُلّمًا ملكًا لشخصٍ ما، ولكن لا تقلقي، لن يحصل على منحة، فقط سيسندون إليه مهمة في مزرعة المدرسة الإصلاحية".

دمعت عيناي، فربت المتسلل على يدي ثم قال: "هوني عليكِ، لا تتصرفي بهذا الشكل، ربما يكون ذلك الأفضل لبام بام، حيث الهواء النقي، وأشعة الشمس، وأصدقاء جدد، وفرصة ثانية".

نهض وشغل نفسه بأنبوب متصل بقطعة معدنية موصولة بذراعي قبل أن يختفي، حاولت أن أدير رأسي لأراه ثانية لكن العالم حول سريري بدا ضبابيًا.

لا أتذكر إن فُصِلَ عني جهاز التنفس، جل ما أتذكره أنني تقيأت على الوسادة، فقد كان الألم في حلقي لا يطاق، ولم يتحقق وعد المثلجات قط.

قال الطبيب لوالداي على جانب السرير: "إنه إما كولين إستريز الكاذب، أو فرط الحرارة الخبيث، وكلاهما نادرًا جدًا، لذا يجب اختبارها قبل أن تجري أي عملية أخرى، وتأكدوا أن تحذروا طبيب الأسنان أيضًا".

مكثت يومان تحت تأثير المخدر في سريري، بينما ظلت سيندي تقرأ قصص المرأة الخارقة الخاصة بي بصوت عالٍ، فهي لم تُعِدهم لي رغم احتجاجاتي الضعيفة للراهبة، التي أَخبرتني أن سيندي هنا قبل أن آتي بفترة طويلة، وستمكث هنا طويلاً بعدما أنصرف، لذا يجب أن أكون كريمة وصالحة وأتركها تقرأ قصصي، ثم تابعت الراهبة: "فكل آلهة القمر في هذا العالم يخدمن غرضًا أسمى".

الفصل الرابع
ألعاب المتاعب

قالت ساندي:"دورك الآن"، واضعة ذقنها على معصمها، كانت متعبة من خسارتها المتكررة أمامي.

فرقعت الفقاعة البلاستيكية في منتصف اللوح، هذا ما كنت أحتاجه لأكسب في دوري العاشر على التوالي. وعندما ألقيت المسمار في اللوح، حققت نصرًا آخر. فهزت ساندي رأسها.

"إنكِ تغشين أو شيء من هذا القبيل، كيف تكسبين دائمًا؟"

هززت كتفي وقلت:"أنا محظوظة فقط".

منذ أن خرجت من مستشفى الجروح المقدسة، وأنا أشعر بأي لعبة من ألعاب المتاعب التي ألعبها، وكأنني لعبتها من قبل (إنه الديجافو)، مثلما أسماه الدكتور دافي، وليست قوة مثيرة كالطيران، ولكنها في متناول الأيدي.

كنت قد قضيت أسبوعين مملين أتعافى في المنزل، وقد مرت الساعات ببطء حينذاك، وكان صوت أمي على الهاتف وصوت إذاعة الراديو المحلي هما من يكسران الصمت في المنزل، هذا وقد أحضرت ساندي اللعبة على الغداء، وعندما عادت إلى المدرسة بعد الظهر، غطيت اللعبة ثم عدت إلى هوايتي الجديدة، ألا وهي الرسم؛ إذ بدأت هذه الهواية منذ أن أرسلت أمي أبي إلى محل الأدوات المكتبية لإيجاد أنشطة تعليمية مفيدة لشغل وقتي.

وقد عثر أبي وسط فوضى من مجموعات قصاصات ورقية متربة، ومنظفات الغليون، وألوان الباستيل الزيتية، على كتابٍ لتعليم الرسم لوالتر فوستر عن كيفية رسم الخيول، وقد طمأنني أبي أن الأمر لا يحتاج إلى موهبة.

فقد ابتكر والتر فوستر نظامًا يحول الصورة إلى خدعة بحيث يمكن تكوينها في مجموعات؛ فإذا رسمت مستطيلات ومثلثات ودوائر، فستحصل على رسمة حصان بمنتهى السهولة مثل كتابة الأرقام.

هذا وقد امتلأت المجموعات المطبوعة في أوراق مانيلا البيج برسومات الأحصنة البرية والأفراس، ومع إدخال بعض التغييرات الفسيولوجية الطفيفة؛ يمكنني تحويل اللبنات الأساسية لحصان فوستر إلى أي مخلوق يسير على أربعة أقدام مثل مخلوقات وحشية برؤوس ديناصورات وأرجل مثل بيت الدجاج بابا ياجا.

وأخيرًا، هدأ الألم في حلقي وصرت قادرة على العودة إلى المدرسة، وقد جلست على سريري في الليلة التي تسبق أول يوم عودة، أشاهد ليندا تطوي ستراتها وملابسها الداخلية في حقيبة، وقد انتفخ وجهها وظهرت على خدودها حبوب طفح جلدي وردية؛ في الواقع، ليس وجهها فحسب، بل جسمها كله بات منتفخًا كأن أحدٌ ما قد نفخها بمضخة دراجة، وهكذا جلست بجانب الحقيبة ولحافي الناعم خلف أرجلي.

"إلى أين أنتِ ذاهبة؟"

حكت أنفها وقالت: "إلى مدرسة خاصة بالفتيات في تورونتو".

"وكيف حدث ذلك؟"

"أبي وأمي لا يريداني هنا لفترة".

"والسبب؟".

صمتت لبرهة ثم أجابت: "أنا في ورطة".

"وما نوع هذه الورطة؟"

"الفتيان اللطفاء يدخلونك في مشاكل".

سألتها: "بيلي؟"

أومأت برأسها إيجابًا.

"لماذا لا يهرب معكِ أو يتزوجك أو أي شيء آخر؟"

حملت ليندا حقيبتها دون أن تنظر إليّ، ثم قالت: "حصل بيلي على منحة من المكان عينه الذي أرسلوا إليه كندال والذي منه سيرسلونه إلى نيو سيدني ومنه إلى....."، ولم تكمل ليندا، لكنني أدركت مصيره؛ إلى رحلة اللاعودة.

إذن فتى آخر فُقِدَ، يبدو أن البكاء صار غير مجديًا؛ فقد كانت السيدة كندال قلقة جدًا على جون حتى أنها توقفت عن زيارة منزلنا لبيع المنظفات، لدرجة أنني شككت في أنها ربما اكتشفت بطريقة ما أنني المسؤولة عن مصير كندال.

سألتها: "ماذا سيحدث لحبيبك؟"

"لا جديد فالعالم كما هو عليه".

أدخلت يدي في أعلى الجراب وحكيت جلدي بعصبية قائلة: "هل أنتِ خائفة؟"

هزت رأسها وقالت: "أمي ستأتي معي لبضعة أسابيع".

كانت تلك أخبار جديدة، فأمي لم تذهب إلى أي مكان من قبل. نظرت إليّ ليندا بعينيها الدامعتين الواسعتين ووجهها ذو الطفح الجلدي وقالت: "ديبي هل أخبرك سرًّا؟"

سألتها بحذر: "ماذا؟ أنا أَعلم أن لعائلتي عدة أسرار".

جلست ليندا بجانبي على طرف السرير وارتخت كما لو سقطت عليها صخرة.

"إنكِ لن تكبرين أبدًا، ولن تقعي في الحب، ولن تتخرجي من المدرسة، وا أسفاه".

تجمدت وسرت قشعريرة بجسدي وأنا أقول: "كيف؟"

"لأنكِ ستموتين عندما يلقون القنبلة، مع ثلاثة أرباع سكان العالم"، ثم رفعت يداها المضمومتين ورسمت في الهواء سحابة على شكل عش الغراب، ثم تابعت: "فجأة كل شيء سينتهي، تذكري؟ ونحن أول من سيموت؛ فقد أخبرني بيلي بما سيحدث من دمار متبادل مؤكد، لذا لن تكوني طفلة متملقة تفعل كل ما يقوله لها والديها؛ فالكبار هم المسؤولون في المقام الأول على إحداث هذه الفوضى يا ديبي نتيجة الحرب النووية الرادعة اللعينة، لقد حاول بيلي طلب المساعدة منا نحن الأطفال لنساعده على وقف هذه الحرب، والآن لن أراه أبدًا مرة أخرى"، تنهدت والتقطت سترتها الوردية من صوف الأنجورا وفركت خدودها، ثم استطردت: "على الأقل وقعت في الحب".

سألتها: "ما شعور الوقوع بالحب؟"

فكرت قليلاً ثم قالت: "كأن حيوانات برية أكلتك حية، لكنكَ لا تمانعين"، ثم أغلقت حقيبتها سريعًا ومسحت دموعها بسترتها الوردية، ثم لفت ذراعيها حولي على سبيل العناق فتصورت أن إحدانا ستعدم على الكرسي الكهربائي.

***

أوصلنا أنا وأبي، ليندا وأمي إلى محطة القطار بسيارتنا العائلية حيث شغلت حقائبهن ثلاثة صفوف من المقاعد، في حين جلست أنا في الصف الثاني، بينما جلست ليندا أمامي مع والدي، كنت أحدق في رأسها من الخلف فرأيت شعرها مربوطًا بقوة برباط شعر مطاطي حتى تحول لون جلد رقبتها إلى الوردي من شدة ربطة ذيل حصانها، أما أمي فقد جلست بجانبي، وقد بدا وجهها كغطاء الطاولة الأبيض المطول. عندما وصلت السيارة إلى محطة القطار، لم تقل لي إلا شيئًا واحدًا: "كوني صالحة".

بدأ القطار يعلن بدء رحلته مطلقًا هسيسًا كصوت خروج الهواء من البالون، فصعدت أمي وليندا القطار، ثم استدارت ليندا ولوحت بيدها إليّ أنا وأبي تلويحة حزينة كملكة الجمال حين تُرسَل إلى المنفى. وقفنا أنا ووالدي على رصيف المحطة ولم ننبس ببنت شفة إلى أن مشينا ببطء عائدين إلى السيارة.

رأينا في طريق العودة إلى المنزل، هيكلاً علويًا لسفينة لاحت من على بعد، وعندما وصلنا إلى الجسر، أوقف أبي محرك السيارة وخرجنا منها وجلسنا على مربط الحبال نشاهد السفينة وهي تقلع رويدًا رويدًا في بضع ثوان، وقد ظلت سفينة جون فوستر دولس بلا حراك إلى أن تحركت كل السفن في المرفأ من حولها.

مـرت السـفينة مـن أمامنـا مباشـرة، كانـت كالجـدار الصلـب الصـدئ الضخـم بالمسـامير العائمـة علـى قفـل المصعـد. وقـد بـدا المنظـر كأنـك بجانـب مطـارٍ حينمـا تقلـع منـه الطائـرات وتطيـر ببطء بحيث يمكنـك التحدث مع الركاب حينما تمر من فوقك موجهًا أسئلة مثل: "مـن أيـن أتيـت؟ أيـن تذهـب؟هـل يمكننـي الذهـاب أيضًـا؟"

رأينـا نحـن الاثنيـن السـفينة تغـادر فـي طقـس نوفمبـر البـارد، وقد تكون سفينـة جون فوستـر دولس آخر سفينـة تبحر في هذا الموسم، حيث يتعيـن علينـا الانتظـار إلـى ربيـع العقـد الجديـد عـام ١٩٧٠ لنـرى سـفينة أخرى.

أشـعل أبـي سـيجارًا، فانتابنـي الشـعور نفسـه حينمـا كنـت ألعـب لعبـة المتاعـب وكأننـي عشـت هـذه اللحظـة معـه بالفعـل آنـذاك، وقـد شـعرت أنـه يـود أن يقـول شيئًـا مهمًـا، قبـل أن تطـرأ أمـورًا جديـدة فـلا يصبـح كل شـيء علـى مـا هـو عليـه.

تنحنـح أبـي ثـم قال: "ديبـي يجـب أن أخبـركِ بشـيء قبـل أن تسمعيه مـن أي شـخص آخـر، أنـا لم أعـد أعمل في شيبكو نهائيًـا"، لم أقـل شـيئًا، ولسـت حتـى متأكـدة أننـي أود سـماع الباقـي.

أخـذ نفسًـا عميقًـا وتابـع حديثـه: "ذاك اليـوم فـي أراضـي زي، عـدت إلـى المصنـع وفحصـت عـداد جيجـر، فظننـت أنـه معطلاً، إلا أنـه لـم يكـن كذلـك، بـل العـدادات التـي اسـتخدمتها فـي الماضـي هـي التـي كانت معطلة، حيث تم العبث فيها، حتى عندما كان النشاط الإشعاعي قائمًـا، ممـا يعنـي أن أراضـي زي لا تـزال ملوثـة تلوثًـا خطيـرًا".

هـزت رأسـي وقلـت: "ولمـاذا عبثـوا بعـدادات جيجـر؟"

ألقى سيجارته في القناة وقال:"لأن الشركة لا تريد إهدار الكثير من المال لإصلاح المشكلة".

سألته في هدوء:"وهل هذا هو سبب سكن الكثير من الملتوين في شارع زي؟"

فرك أبي وجهه بيديه وقال:"أظن ذلك".

نظرت إليه وقلت:"إذن ماذا سيحدث الآن؟"

هز أبي كتفه ثم قال:"سأبحث عن وظيفة أخرى، وأبدأ عملي، سنرى"، ثم سكت لبرهة وواصل حديثه:"من الآن ليكن ذلك سرًا بيني وبينك يا ديبي".

سألته قائلة:" وما رأي أمي؟"

"لم أخبرها، فلديها ما يكفي من القلق حيال أختك".

شاهدنا السفينة جون فوستر دولس وهي تغادر بعيدًا إلى أماكن أفضل من شيبمان كورنرز، ثم عدنا إلى المنزل جميعًا: أنا وأبي والأسرار التي بيننا.

جلس والدي في تلك الليلة في غرفة المعيشة يشاهد التلفاز، بينما رقدت أنا على سريري بجانب سرير ليندا الوثير المهجور، والقصص المصورة منثورة حولي في كل مكان، بات إحساسًا غريبًا عليّ أن أبقى وحيدة طوال الليل، وكان آخر شيء سمعته قبل النوم هو صوتًا عميقًا مهمومًا لمذيع من قناة بافالو للأخبار المسائية يقول فيها:"إنها الحادية عشرة، هل تعلمون أين أولادكم؟"

الفصل الخامس
غرفة تعذيب ملك الزواحف

مرت أيام الدراسة ببطء مثل حمولة البضائع الزائدة، وبعد غياب أسبوعين، تعثرت في واجباتي المدرسية التي تطبعها معلمتنا الآنسة "دي بيترو" من ماكينة الطباعة في المكتب؛ والتي نسمع صوتها كل صباح مع صوت دقات الماكينة وهي تطبع ثلاثين نسخة من المسائل الحسابية المملة.

ولم يمض وقتًا طويلاً على سفر ليندا وأمي إلى تورونتو، حيث كنت جالسة على مكتبي عندما رأيت جودي جارلاند تمرر ورقة إلى كاثي التي مررتها بدورها إلى لوسي ومن ثم إلى ويندي، وأخيرًا بمساعدة جين مانسفيلد، حاولت ويندي إلقاء الورقة على مكتبي بضحكة مكتومة، فسقطت الورقة على مقربة مني، فوق مكتب ساندي، ففتحت الورقة؛ ورفعت أنا رقبتي لأنظر من فوق كتفها، ولكن كل ما رأيته هو بشرة رقبة ساندي وهي تزداد إحمرارًا، وكنت أتتبع الآنسة دي بيترو التي انشغلت بالمرور بين الصفوف بينما نحن نحل الواجبات، واختطفت ويندي الورقة من ساندي وطوتها ورمتها على مكتبي.

بدت الورقة المطوية بإحكام أمامي كالقنبلة الموقوتة؛ وقد قال لي شئ ما إنها ستنفجر إذا فتحتها، ولكن عليّ أن أعرف ما بداخل الورقة؛ التي قامت بعدة جولات داخل الفصل.

كان رسمًا بالحبر لامرأة عارية بثديان متضخمان كالبالون، وحلمات وردية كالرصاصات، وأرجلها مرفوعتان لأعلى، وأعينها كالقطة ولكن فمها وأنفها مفقودين، مع خربشات بالحبر فوق الأماكن الخاصة، وقد كتب أسفل الصورة كلمة بحروف كبيرة وهي: عاهرة.

قبضتُ على الورقة بقوة غير مصدقة، وقد أعيتني الكراهية فيها، كأن هذا سمًا قد سُكِبَ للأطفال في وجبة الإفطار، أو نُقِلَ إلى المدرسة في علب الغداء، أو تسرب من محادثات تليفونية بين الأمهات مثل: "هل سمعتِ عن فتاة البيوندي الكبيرة التي تركت مدرستها في نصف العام وسافرت معها أمها، لماذا هي قبيحة كأنفك، ماذا يجري؟ من يفكر أنها تتحول إلى عاهرة؟".

أصابتني كلمة عاهرة بالانزعاج، فتمنيت أن يظهر سوبرمان ويعود بي بالزمن إلى الوراء ويطير عكس دوران الأرض حتى إن وقعت الورقة على مكتبي؛ سيكون لديّ فرصة ثانية لآخذها إلى حمام الفتيات وألقها في المرحاض دون النظر إليها... لقد تأخرت كثيرًا الآن على إخراج المرأة العاهرة من رأسي، والتي ستظل معلقة في رأسي للأبد.

سقط ظل على مكتبي، مصحوبًا برائحة حلوى النعناع ورائحة متجر الأدوية، وشدت أظافر وردية حادة الورقة من يداي، لقد كانت الآنسة دي بيترو التي أصدرت صوتًا متذمرًا دون أن تصرخ أو تطلب مدير المدرسة، أو تهدد بإعطائنا جميعًا فصلاً حتى نخبرها بمن فعل ذلك، ولم تضع الورقة حتى في درج مكتبها مثلما تفعل مع الأشياء الأخرى ككرات اليويو، والقصص المصورة، والعلكة، فقط طوتها وألقتها في سلة المهملات، مما يعني أن الحارس قد يعثر عليها في نهاية اليوم.

عندما اصطففنا تمهيدًا للطرد، تظاهرت بأني أنحني لأربط حذائي كي التقط الورقة من سلة المهملات، ثم التقطها بالفعل وخبأتها في جرابي.

وفي الخارج، مررت بمجموعة من الأطفال المتهامسين، وهم يلعبون لعبة قفز الحبل، أمام الخرسانة المتصدعة في الملعب والترنيمات التي ساعدت الأطفال على الحفاظ على الوقت.

طبيب طبيب

اطلبوا الطبيب

ثمة إمرأة ستضع طفلاً

لفوه بالملائة

أنزلوه في المصعد

فلتأت فتاة ثانية وتقفز معي

***

كان والدي ينتظرني في السيارة ليصطحبني إلى طبيب الأسنان، فقد ازدادت المسؤولية على أبي بعد رحيل أمي، عندما دلفت إلى السيارة، نظر إليّ بتمعن وقال:"هل كل شيء على ما يرام؟"

أجبته:" نعم".

سرنا في وسط البلد للذهاب إلى عيادة الطبيب في صمت. صفّ على الرصيف وأطفأ المحرك.

"هل تريديني أن أدخل معك؟ أم أنتظرك؟"

خرجت من السيارة وقلت له:"أنا في الثالثة عشرة، أي لم أعد طفلة يا أبتاه".

قال لي عندما أغلقت باب السيارة خلفي:"أراكِ لاحقًا".

أدركت منذ صغري، أن طبيب الأسنان هو نوع من العقاب بالتعذيب، ولحسن الحظ؛ بسبب مشكلتي مع التخدير؛ اتخذ الطبيب إجراءات الأمان واستعمل معي الاستنشاق بالغاز بدلاً من غرز إبرة في فمي، مما يعني أنني نسيت كل شيء عندما جلست على المقعد، هذا وقد احتفظ الدكتور فرانكين بمخزون من القصص المصورة منذ قرن من الزمان في غرفة الانتظار لصرف انتباه الأطفال عن الرعب المروع من صراخ الأطفال والحفر في الأسنان بيديه المشعرتين من منتصف الفم حتى حلقهم.

حاولت أن أشغل عقلي عن التفكير فيما سيحدث، فوجدتني أقلّب في صفحات القصص المصورة نفسها التي دائمًا ما أقرؤها عنده كل فحص منذ سنوات، ووجدت في هذا اليوم قصة لم أقرأؤها من قبل، بدت كأنها رسمت عندما كانت الديناصورات تجوب الأرض؛ وجدت مغامرات مذهلة في الفضاء تقوم بها فتاة الفضاء، كانت شخصيات القصة ترتدي ملابس الأمراء والسيدات في الأزمنة القديمة، رغم أنهم كانوا يطيرون في سفن صواريخ، ويدمرون الواحدة تلو الأخرى بمسدس إشعاعي.

رأيت في لوحة واحدة، فتاة فضاء شعرها مجعد، لدرجة أن والدتي لو رأتها لخجلت منها، وكانت الفتاة تطمئن فتاة من الرفيق تشبه ليندا بدرجة كبيرة من حيث الشعر الأسود الطويل، والذقن الحادة، والصدر الكبير المحتجز في حمالة صدر يشبه الرصاصات المدببة.

بكت الفتاة المملوكة وقالت:"أرجوكِ ساعديني يا فتاة الفضاء! كان حتى بكاؤها كبكاء ليندا، وكانت الدموع كالسكاكر الملونة تسقط من عيناها الغامقتين الزرقاوتين.

سألتها فتاة الفضاء:"ما نوع المشكلة؟"، وضعت الفتاة يداها على أردافها لتشير إلى عملها.

"التقطني جنس فضائي، يسمى مولوجنز **Mulluxions** عشية حفل زفافي لعضو من العائلة المالكة الأندورية"، ثم واصلت حديثها:"في الواقع أنا أميرة ولست مملوكة، والآن يجبرني المولوجنز على الزواج من ابن قائدهم لكنه...لكنه... حرباء ذات تكوين بشري"، فشهقت فتاة الفضاء:"هذا فظيع".

لم تكن تمزح، فبعد بضعة صفحات نرى الفتاة المملوكة ترتدي فستان الفرح بجانب إيجوانا عملاقة يرتدي زي أمير القلب الشجاع.

وقال لها:"قريبًا ستكونين ملكي يا حبيبتي"، ولسانه الأحمر يشير إليها بين فكيه الخضر، فوضعت الفتاة قبضة يدها في فمها من الرعب في لفتة القصص الكلاسيكية المصورة، وقبل أن أرى كيف انتهى بها الأمر، نادت عليّ الممرضة.

"أنتِ الفتاة التي تعاني من مشكلة النوفوكاين، لنبدأ بالغاز".

جلست على المقعد الجلديّ العالي، حيث يمكنني من الغرفة المجاورة سماع صوت صفير صدر الطبيب، وتحرك الدكتور فرانكين بتثاقل، فاستطعت شم رائحة النعناع مع شيء حامض ومخمور، ثم التقط إحدى أدوات التعذيب اللامعة من صينية معدنية ووضعها نصب أعيننا حتى نتوقع ما سيلحق بنا باسم النظافة الفموية.

علقت الممرضة قناعً على وجهي فبدأت الغرفة تطوف كسطح القناة في يوم عاصف، وقد لمحت من الستائر المعدنية على النافذة الكبيرة أمام الكرسي، فتاة الرقيق الأندورية معلقة من معصميها، وتكتب في رعب، بينما كان ملك الزواحف، في قبعته الريش ومعطف طبيب الأسنان الأبيض، يفرك مخالبه الخضراء الصغيرة في فرحة شريرة، تساءلت في ضعفٍ، ماذا سيفعل الرجل السحلية بالفتاة، وبعد دقيقة، كانت الإجابة: انتزعت السحلية الفتاة من الستائر المعدنية، وفتح فكوكه الضخمة على مصراعيها ثم ابتلع الفتاة في فمه بادئًا بالرأس. سمعت تأوهات رعب الفتاة داخل غرغرة جهاز ملك الزواحف الهضمي، وبعد قليل لم يظهر من الفتاة إلا بصمات شبحية من يداها تضغط على أحشاء السحلية، وأقدامها تنزلق من فمه الفاغر.

سمعت صوتًا متهمًا يقول: "ستة تسوسات، هناك أحد ما قد أكل الكثير من الحلوى"، فتحت عيني بصعوبة تحت تأثير الغاز، خرج لسانًا مشقوقًا طويلاً من فكوك الدكتور فرانكين يتدلى نحوي للحظة قبل أن يعود مرة أخرى.

كان هذا آخر شيء أتذكره قبل أن أشعر بطعنة ألم خفيفة مثل فريد فلينتستون وهو يضرب زوجته ويلما بعصا رجل الكهف، وحينما نقلني الغاز إلى أرض الأحلام، تخيلت مدى الرعب الذي يجتاحك عندما يأكلك رجل وأنت على قيد الحياة، لست متأكدة إن كنت سأحب ذاك الشعور حينما لا يتبقى مني سوى صرخاتي.

ناداني صوت ما: "ديبي".

"ششششش".

"ديبي، أفيقي".

فتحت عيني بصعوبة، فوجدت المتسلل يقف أمامي مرتديًا معطف المعمل الأبيض حاملاً مثقابًا يطن.

وقال: "أصيب دكتور فرانكين بنوبة إغماء، فكان عليّ تولي المسؤولية".

حاولت أن أقول له ألا يؤذيني لكن فمي كان ممتلئًا بالقطن والأدوات.

هز المتسلل رأسه وقال:"بدأت أشعر أن الأمور تخرج عن السيطرة".

أومأت برأسي بصعوبة؛ بيد أننا فشلنا أنا وبام بام في إنقاذ كندال، وخسر والدي وظيفته وأمي لم تعلم بعد، وأصيب كندال، وبيلي سيموت في الصاروخ، وأختي ليندا ستنجب طفلاً من الفوضويين، والجميع يلقبونها بالعاهرة، وسأتحول أنا إلى منبوذة بسببها، وكان كل خطأي أنني حاولت أن أتكلم، لكن المتسلل هز رأسه بحزم.

"افتحي فمك أكثر رجاءً، أي شيء حدث في الشهر الماضي كان سببه خلل خوارزمي؛ فطالبي المتخرج الغبي غير المحترم لم يولي مزيدًا من التحقيق لبياناته، وهو ما يحدث عندما تعملين مع شخص استثنائي، أعني لا أريد أن أبدو كارهًا للبشر من الناحية الجينية، ولكن درجات اختبار القبول لبيلي منخفضة جدًا، سيقبله فقط برنامج الدكتوراه للإجراءات التصحيحية مثل برنامجنا".

حدقت في وجهه محاولة التحدث من القطن:"ليندا... بيلي؟"

أومأ برأسه:" نعم، ليندا بيلي، طالبي المتخرج من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، أو هكذا سيكون في غضون خمسين عامًا، وفقًا لرسالته الجامعية؛ إذ أجرى بحثًا في الماضي عن إيجاد طريقة لإصلاح مشكلات جيلك المهمل الذي يعني نهاية البشرية مثلما نعرف، لكنه كان مؤمنًا جدًا بتبني استراتيجيات رآها في تلفزيون ذو نطاق ترددي منخفض منذ فترة زمنية ترتبط بضعف بزمننا، وهي التوقيت القياسي الأرضي، مما دفعه للاعتقاد بإمكانية تغيير التاريخ بتكوين حركة معارضة سلمية فيما بين الشباب؛ وهم الثرثارون، والتي تحظر استخدام القنابل -غبي- ناهيك عن أختياره للأخت الخطأ؛ فليندا هي ليست الآيون المطارد، بل أنتِ يا ديبي"، ثم سكت المتسلل لبرهة واستطرد:"تحتاجين إلى الشطف والبصق".

هززت رأسي، فالتقط المتسلل أنبوب شفط وأوصله بطرف شفتاي، كانت تفوح من فمه رائحة غسول بنكهة القرفة.

"ما حدث حدث، انتهى الأمر ببيلي إلى رحلة للقمر بلا عودة، لذا فالأمر متروكًا لي لترتيب هذه الفوضى، لا وقت لدينا لنضيعه، ستتحولين إلى قطة شرودنجر".

رأيته يرفع حقنة، ويخبط الزجاج بإصبعه الأوسط المبتور للتأكد من الفقاعات، "ماذا... شرو.."، حاولت الاعتراض ولكنه سرعان ما غرز الحقنة في ذراعي.

"قطة شرودنجر، إنها قطة في صندوق بمواد مشعة، حيث أنها حية في عالم، وميتة في عالم آخر، وهي تجربة ذهنية لصديق

أينشتاين - ابحثي عنها. خلاصة الأمر: ليس باستطاعتي انتظارك حتى تكبرين وإلا سأفقد المزيد من أصابع يداي وقدماي، والمزيد من الأجزاء مع الزمن، وبخيط الإنزيمات في مجرى دمك، ستقفزين تسع سنوات للأمام إلى يوم ١٥ نوفمبر ١٩٧٨، ومن ثم ستتولين مهمة إنقاذ العالم بحكمة، وبالنظر إلى الجانب المشرق، ستمرين بمرحلة البلوغ سريعًا".

بدأ مكتب الطبيب يعوم كاستعادة الذكريات على التلفاز، وظل المتسلل ينظر إليّ بانتباه ويراقبني عن كثب، وبقيت الحقنة فارغة في يده.

غمغمت في محاولة لقول: "كيف سأنقذ العالم؟"

تنحنح المتسلل وقال: "ستوقفين زخم الزمن، وتهدمين البعد الذي نعيش فيه في ثقب أسود من عدم الوجود، وستقفزين إلى عالم بديلٍ آمنٍ وتسحبين أي أحد معك من خلال فراغ الفضاء، الذي مازالً في الفيزياء الأساسية معقدًا، ورغم أنها لم تجرب من قبل، إلا أن بحثي يشير إلى أنها قابلة للتنفيذ، سأشرح أكثر عندما نقفز إلى عام ١٩٧٨؛ فبمجرد أن نصل هناك، سيكون أمامنا حوالي ستة أشهر لمعرفة الخطوات التالية قبل أن يلقوا القنبلة الكبيرة عام ١٩٧٩، فقط لا تندهشين كثيرًا عندما يتلاشى غاز أكسيد النيتروز، حيث ستكونين في مكانين في وقت واحد لنانو ثانية (جزء من الثانية) أو اثنين، لا تقلقي، سأكون معك دائمًا".

فندق هوليداي إن إكسبريس، سكاربورو
يونيو ٢٠١١ بالتوقيت القياسي الأرضي

فتحت أعيني في ألم، وقد شعرت أن رأسي كالجرافة التي حرثت النفايات السامة المجمعة داخل قشرتي المخية، إلى أن شعرت أن شخص ما يصدر شخيرًا.

أدرت رأسي، فوجدت رجلاً ممددًا بجانبي، في مواجهة الاتجاه الآخر، ذو شعر أشقر ناعم كلون القمح تتخلله بعض الشعرات البيضاء مع أكتاف وردية منحنية منقطة بشامات ووحمات.

يا إلهي، لقد تذكرت كل شيء الآن، أنا في السرير مع رجل صيانة مايتاج.

نهضت وأنا ارتعش حتى أخمص قدماي، وكنت عارية ولزجة، وقد انتبهت لغلافين ممزقين من الواقي الذكري على الطاولة.

كانت البيئة المجهولة المعقمة لغرفة الفندق تصرخ قائلة: "توجد سلسلة فنادق على حافة ضواحي العاصمة الأمريكية الكبيرة في الشمال"، وعندما رفعت ستائر النافذة الممتدة من الأرض إلى السقف، رأيت اثنا عشر طريقًا مكتظًا بالمرور يصدر منه أصوات عالية تتدفق أمام مركز قوى أقامته محلات لوبلاوس، ومحل الإطارات الكندية، ومحل أعمال مارك للمناسبات، وغيمت سحابة رمادية برتقالية فوق المناظر الطبيعية عديمة الروح.

أوه الحمد لله، الحمد لله، لازلت في تورونتو.

ساعدني التأمل في هذا الصباح الضبابي في الضاحية على نسج قصاصاتي المتناثرة من ذاكرتي معًا؛ حيث بدأت بحدوث عطلٍ في غسالة أطباق شقة بام بام؛ إذ وضعت بنفسي في منتهى السهولة بضعة حلول سريعة بمساعدة موقع YouFixIt.com ومحلاً كبيرًا للأشياء الصغيرة في سكاربورو، في ضواحي تورونتو الشرقية، حيث يمكنك شراء قطع غيار للأجهزة المنزلية من كل صناعة وموديل، ولكن هزمني مزلاج مايتاج المعيب، فهو صغير مقارنة بمضخة أو غسالة دوارة بحجم الذراع، وقد بدلت كليهما، ومع ذلك لم أجد طريقة لوقف المزلاج عن الفتح، وإراقة الماء في أرضية المطبخ الخشبيّ التي تتسرب إلى إحدى الوحدات السكنية الغالية بالأسفل. بحثت في شنطتي، فوجدت بطاقة لمحل سكوفيلد لإصلاح الأجهزة المنزلية، وبعد ساعتين، وقف عند الباب، مرتديًا الملابس السوداء نفسها في مونتريال.

بعدما فحص المزلاج المعطل، هز رأسه قائلاً: "اعتدتي على الحفاظ على غسالة أطباق مايتاج لخمسين أو عشرين سنة؟ ها هي قد تعطلت في خمس دقائق، لذا ستضطرين إلى شراء واحدة جديدة".

أشرت بيدي: "أو إصلاحها، فهذا سيفيدك في عملك".

هز رأسه قائلاً: "أنتِ حرة، ولكنكِ ستتفاجئين من عدد الناس الذين يلقون بأجهزتهم عندما يسمعون أنها ستكلفهم مئات الدولارات لإصلاحها، أشعر أحيانًا أنني مثل ديكر في رواية "هل تحلم الروبوتات بالخراف الكهربائية؟" كغسالات الأطباق المتقاعدة عندما تصل إلى عمرها الافتراضي المحدد سلفًا".

قلت له:"يبدو أنك معجبًا بفيليب ديك".

"إن فيلم **Blade Runner** (عدّاء النصل) هو أحد أفلامي المفضلة، لكني قرأت الكتاب قبل أن أشاهد الفيلم بسنوات".

قلت ببطء:"بما أنك هنا، ثمة مشكلة صغيرة في مجفف الغسالة، إذا كان لديك وقت، يمكنك فحص ذلك أيضًا".

ابتسم لي عندما كان يفرغ أدواته على أرضية المطبخ، وقال:"بكل سرور".

اصطحبته إلى غرفة الغسيل حيث نزع برفق قفل مجفف الغسالة، حيث كان هناك شيئًا ناعمًا تقريبًا في الطريقة التي نزع بها القفل.

"أحب هذه الماركة، إنها مصممة جيدًا".

أشعرتني مشاهدة استخدام دارين الحسي للماكينة، بخجل غريب من نوعه؛ حيث جمعت القمصان التي تفوح منها رائحة العرق والجوارب التي تركتها على أرضية غرفة الغسيل، وقلت:"هناك فألاً سيئًا يصيب الناس الذين ينثرون غسيلهم القذر هنا وهناك"، وأنا أضع الملابس في سلة كبيرة.

نظر دارين إليّ وقال:" الغسيل فأل سئ؟ لسنا في زمن دانتي؟ إنهم أقل حساسية عما أظنك".

تبين أن دارين حاصلاً على ماجستير في الأدب الإنجليزي في الترجمة في عصر النهضة الإيطالية، وقد كتب أطروحته عن ديكاميرون، حيث كان رجل صيانة يمكنه ترجمة بوكاتشيو.

شرح لي قائلاً: "لم تكن هناك وظائف في الأوساط الأكاديمية حينما تخرجت من كلية الدراسات العليا، لذا بدأت عملي الخاص؛ إذ كانت يداي دائمًا تعمل بمهارة في التصليح".

فكيف انتقلنا من شقة بام بام إلى فندق هوليداي إن إكسبريس في الحافة الخارجية لتورونتو؟ إحتاج رجل الصيانة إلى قطعة غيار لغسالة ميلي الذي بطبيعة الحال، لم يأتِ من أجل الإصلاح فقط، فذكرت متجر قطع الغيار الكبير في سكاربورو إلى أن أعرب عن دهشته بشك متعجرف لوجود هذا المحل، فإذا كان عظيمًا جدًا، كيف لم يسمع عنه؟ فهي قصة قصيرة طويلة. ركبنا بعد ذلك الشاحنة وأرشدته إلى هناك، وبمجرد أن وصلنا إلى الباب، اتفقنا أن الوقت قد تأخر، لذا يجب علينا تناول الطعام. أجابني: "أعرف مكانً رائعًا لا يبعد عن هنا".

أكلنا بعد وقت قصير سمبوسك، وشربنا كينج فيشر، وطلبت زجاجة بيرة أخرى، وكذلك هو، حتى لم نستطع نحن الاثنان القيادة، فأشار دارين إلى فندق هوليداي إن.

لاحت لافتة الفندق في الأفق؛ فتوقعنا أن نجد موقف سيارات أجرة عندهم، مشينا هناك متشابكي الأيدي تحت المطر فوجدنا الموقف خاليًا، وعندما قبلني تذكرت نكهة السبموسك الحارة في لسانه وشفاهه؛ قبل أن أدخل بركة النسيان المغمورة بالعنبر.

جلس صانع القهوة على طاولة مغطاة بفتاتٍ من رقائق الناتشوز وزجاجات الفودكا والكولوا الفارغة (أكان بعضهم يصنع مشروب الكوكتيل الروسي الليلة الماضية؟ وهل شربنا الحليب أم

الكريمة؟ وكم عدد السعرات الحرارية التي استهلكتها؟) وروى لي كل ماقمت به، وهو إلقاء حبوب القهوة البلاستيكية التي تنمو في الغابات المطيرة الكولومبية في قوالب كالكندارم مع إضافة الماء.

وبينما كانت القهوة تشق طريقها إلى القدح، جمعت جواربي الطويلة وقميصي وحمالة الصدر المنثورين في كل أنحاء الغرفة، فيما عدا التنورة. أين ذهبت؟ هي في عداد المفقودين، شددت الملاءة بلطفٍ شديدٍ من فوق دارين. لم يرتديها، إلى أن وجدتها مؤخرًا في الخزانة.

امتدت يد دارين اليسرى على غطاء السرير فبدت واضحة أمام عيناي؛ لا خاتم، ولا علامات كخط أسمر، إلا أن ذلك لا يهم كثيرًا؛ بيد أن جدي وأبي لم يكونا يرتديان خواتم الزفاف؛ حيث أن الناس التي تعمل مع الآلات لا يرتدون خواتم في كثير من الأحيان، أو ربطة عنق، أو ساعة، أو وشاح، أو أقراط، أو يربطون شعرهم لأنها تتأثر بسرعة بالأجزاء المتحركة أو شديدة السخونة من المحركات والأسلاك، أي أن عدم ارتداء مجوهرات يعني ببساطة أنه يتوخى الحذر من الفرص التي تقدمها له حياته المهنية، وربما الشخصية أيضًا.

جلست على كرسي أشاهد وجهه وهو نائم؛ كان ذو أنفًا مستقيمًا، وجبهة عالية، وحواجب باهتة، وعظام وجنتين بارزتين، يبدو أنه من الشمال، علاوة على ذلك؛ كان وجهه ينم عن أنه شخصية حساسة يشبه القساوسة اللوثريين المغامرين؛ بكل تلك الاستقامة الجافة والاضطراب الجنسي اللذان يجاهدان كي تبقى النفس تحت السيطرة.

غمغم دارين، فوضعت الفنجان على الطاولة، وفتح عينيه البنيتان تحت الرموش الشقراء، يالها من تركيبة غريبة.

تبسم وقال لي:"مرحبًا".

أجبته:" مرحبًا".

نهض وقال:"هل أنتِ بخير؟"

فركت رأسي وقلت:"أشعر بصداع الثمالة قليلاً، وماذا عنك؟"

فرك رأسه كذلك، ولكن دون الإقرار بصداع الثمالة الحقيقي وقال:"ليس سيئًا. حسنًا... ياللهول، اعتقد أننا تمادينا الليلة الماضية، أليس كذلك؟"

"اعتقد ذلك في الواقع"، ثم صمت لبرهة في محاولة لتقرير ما إذا كنت سأقول ذلك بصوت مرتفع أم لا، لأنه أمر شنيع، ثم استطردت:"أعاني من صعوبة تذكر ما حدث الليلة الماضية، بعد الرواق".

أومأ برأسه ووضع رجله على الأرض ثم سحب الملائة ولفها باحتشام حول جسده.

"هل تتذكرين جدالنا عن تشيخوف؟"

هززت رأسي:"الكاتب؟"

"لا، الربّان، في فيلم حرب النجوم، السلسلة الأصلية".

قلت له:"أوه، نعم"، وأنا أتذكر بالفعل، حيث تذكرت دهشتنا من تقاعد مكوك الفضاء، وكم الخطأ الذي سيلحق برواد فضاء ناسا عند الإقلاع من روسيا في المستقبل، ومع ذلك كيف كان ذلك مناسبًا؛

فقد أثبت فيلم حرب النجوم أنه على حق، بأن الاتحاد يمكن أن يوحد الناس أجمعين لاستكشاف الفضاء.

أضاف دارين:" أوه وقد ناقشنا قصتك الأصلية باستفاضة"، اندهشت للحظة، حتى أنني لم التقط أنفاسي.

"قصتي الأصلية؟ أتقصد سبوتنيك تشيك؟"، اتسعت ابتسامة دارين وهز كتفه:" إنهما سيان أليس كذلك؟ مثلما قلتِ لي في مونتريال؛ إذ أنكِ تنحتين حياتك الشخصية في عملك؛ الطفولة، والكبر، والعائلة المهاجرة، إلخ، ولكن مثلما قلتِ في الليلة الماضية، إنكِ تتعجبين من تجاوزك صدمة شخصية واستكشفتِ موضوعات ذات أنماط نموذجية".

حدقت في وجهه بدهشة، فأنا لم أتحدث عن كتاباتي قط لأي أحد، ولا أناقش أفكار أو أتقاسم عمل قيد الإنجاز، ولم أطلب مطلقًا رأي أحد أو معاونة أي شخص كان، يا إلهي، أنا لم أستمع حتى إلى محرر مجلة جراي ويزارد، فأنا امرأة مقاتلة وحيدة، تمامًا كسبوتنيك تشيك.

قلت في حذر:"يبدو أنك تحاول إصلاح قصتي الأصلية".

قال لي:"آسف لقد تجاوزت حدودي، إنني لكاتبٍ محبط؛ فبالرغم من الفكاهة غريبة الأطوار والعنف الكرتوني، إلا أنني شعرت دومًا أن فتاة بلا ماضي رواية مأساوية درامية في قلبها، ثمة ظلمة في جوهرها، وهذا ما جعلها رواية ممتعة ومثيرة".

ارتديت تنورتي وأنا أقول:"الانتقام يعني نوعًا من الخيانة، برأيك من خان من؟"

هز كتفه وقال: "أنتِ الكاتبة".

ودعنا بعضنا عند موقف سيارات الأجرة، وقد ظللت أتتبعه وأنا أركب السيارة حتى سألني في محاولة لكي أقضي ليلة أخرى مع المعجبين وقال: "هل يمكنني زيارتكِ مساء غد؟ عليّ أن ألحق المواعيد التي فاتتني أمس. وإلا سأعتني بكِ اليوم".

حدقت في وجهه وقلت: "تعتني بي؟"

"أعني غسالة ميلي، لكني لا أمانع من الاعتناء بكِ أيضًا، إذا لم تمانعين".

لن أمانع في الواقع سواء طلب مني موعدًا غراميًا أو عملاً.

عندما تحركت سيارة الأجرة غربًا، شممت رائحة شيئًا يحترق في الهواء، نظرت إلى السائق في مرآة السيارة فوجدته يلاحظ عبوسي.

"هل أنتِ بخير يا سيدتي؟"

"شممت رائحة سجائر، أظن أنه إحدى ركابك".

هز رأسه بقوة وأشار إلى يافتة ممنوع التدخين المعلقة على لوحة القيادة.

إذن يبدو أنها هلوسة شمية، لذا استغرقت بضع ثواني حتى أقرر: إنه ليس دخان سجائر، بل خبز محمص بالسكر والقرفة، أو رائحة الحزن والمأساة، أو أخوات الانتقام الكبرى، بحثت بعدها في حقيبتي عن قارورة لورازيبام.

للتخفيف عني فقط.

القصة الأصلية التي لم تُحكى من رواية
فتاة بلا ماضي

الجزء الثالث
"نبحث عن أناسٍ يحبون الرسم"

أداء

كونتيسينا

الفصل الأول
النبيذ
شيبمان كورنرز
التوقيت الذري

عندما انقشع الغاز الضاحك، فهمت الآن لماذا حذرني المتسلل بألا أندهش؛ فبدلاً من أن أفيق على كرسي الطبيب، وجدتني في الهواء الطلق أمام أبي الذي غرق حذائه حتى كاحليه في روث حصان أصفر وهو يرش غصون العنب من وعاء معلقًا على ظهره كتبت عليه حروف مادة الـ DDT ، ورأيت نفسي أقف بجانبه، وأقصد "بنفسي" ليس "أنا"، بل "أنا في المستقبل"؛ إذ بدوت أطول وأثقل ومثقفة ترتدي عوينات بإطار سلكي، ذات شعر يصل إلى كتفيّ، مغطى بمنديلٍ أحمر، معقودً عند مؤخرة عنقي، وقد ارتديت مثل أبي، حذاءً مطاطيًا يعلو الركبة، ومفاجأة المفاجآت!! ...بنطالاً من الجينز الأزرق، هذا وقد وجدتني أشب على قدماي والتقط برفق حفنة من غصون العنب غير الناضجة المتدلية من الغصن لأختبر صلابتها.

كنت ارتجف من شدة البرد كأنني أقف في قلب الجليد رغم أنني في ذروة شمس النهار التي تضربني على جلدي العاري، حيث قفزت إلى بعدًا آخر بطريقة ما، وأصبحت مثل قطة شرودنجر -مثلما سأعرف فيما بعد- فشعرت أنني أتجمد في حينها، إلى أن انتقلت إلى البعد الذي سأعيش فيه في المستقبل وقد وجدت نفسي أقف بعيدًا أنظر إلى ذاتي حتى اندمجت ذاتي الحالية مع المستقبلية.

لوحت بيدي صعودًا وهبوطًا لوجه ديبي المستقبلية، فلم أجد رد فعل، كنت غير مرئية لها ولوالدي.

ثم شعرتُ بالغثيان، حيث كنت أتحرك تجاهها وتجاهي، كان التسارع مثل آخر سقطة لقطار الملاهي، عندما تتأكد أنك تركت بعض أعضائك الداخلية وراءك. التالي؛ كنت أداعب العنب وأفكر في مدى حاجتي على وجه السرعة إلى إفراغ مثانتي، لقد اندمجت مع ذاتي المستقبلية فقط، وليس جسدي.

هذا وقد كبر والدي في السن، وأصاب شعره الشيب بالتأكيد، لكنه بات أنحف، وأكثر عافية، وتشرب جلده سمرة شخص يقضي معظم وقته خارج المنزل، لم يرتدي قط جينز وقميص قطني من قبل، وقد كان وسيمًا حتى مع خزان المبيدات المعلق على ظهره.

بدا القلق على وجهه، لا بد أنني بدوت مرتبكة مثلما شعرت.

"أأنت بخير يا ديبي؟ هل أصابتكِ الحرارة؟"

قلت على الفور:"أشعر بالدوار قليلاً، وأود أن أتبول".

رد أبي:"لقد انتهينا اليوم، لما لا تستخدمين الحمام المتنقل؟ هل تشعرين بالاشمئزاز منه؟"

"يمكنني التعامل معه"، ثم مشيت بإحراج إلى المرحاض الأخضر البلاستيكي على طرف الحقل، كانت رأسي مثقلة حتى أحسست إني سأهوى على وجهي.

حاولت أن أفكر أين نحن بالضبط؛ إذ كان حقل العنب أكبر كثيرًا من حقلنا في الماضي، وكرومه تتدلى في خطوط مستقيمة تجاه أفق أزرق بعيد يشير أننا على مقربة من مساحة شاسعة من المياه،

هـذا وقـد بـدت كروم العنب كالتواءات رجال محترقة صُلِبَتْ على ألواح تحكمها حـزم العنـب، ولا يزال هناك أشهر على وقت الحصاد.

غريبـة، قـال لـي المتسـلل أنـه سيرسـلني تسـع سـنوات للأمـام حينمـا كنـت أجلس فـوق كرسـي طبيـب الأسـنان في منتصـف نوفمبـر، لكن الجو بدا وكأنـه أوائل الصيف.

بعدمـا فتحـت بـاب المرحـاض الخارجـي، ظننـت لبرهـة أننـي سـأجد المتسـلل فـي الداخل بانتظاري، ولكن كلِ مـا رأيتـه هـو حفـرة كريهـة الرائحـة يغطيهـا مرحاض بدائـي. عندما جلست على المقعد، نظرت إلى نفسـي، كنت أرتدي قميصًـا أصفرًا فاتحًا بوجهِ كبيرٍ سـعيدٍ فـوق ثدييـن بارزيـن في حجـم أطبـاق الكعك الصغيـرة. انتابني الرعب لرؤيـة شـكلي الأنثـوي الـذي صـرت عليـه الآن، وقـد قـال المتسـلل أنـه يفترض أن أنقـذ العالـم، ولكن كيـف سـأقوم بـأي عمـل بطولـي وأنـا في جسـد يشـعرني أننـي أسـبح فـي أسـمنت رطب؟

لـم أرى سـيارتنا القديمـة فـي منطقـة وقـوف السـيارات المرصوفـة بالحصـى خلف قبو بلا نوافذ فـي المبنـى، لذلـك خطوْت ببـطء لمعرفـة السـيارة التـي سـيديرها أبـي، حتـى فوجئـت أنـه يلقـي معداتـه فـي قاعـدة الشـاحنة الفـورد ذات اللـون الأصفـر الكنـاري التـي تتحمـل وزن حتـى نصـف طـن، وقـد كُتِـبَ عليهـا شـعار ماركـة النبيـذ المفضل في شيبمان كورنرز "خمور وعصـائر سـباركلنج سبـارو - يومًا سـعيدًا مع خمـر العنـب والليمون"، وقد علق ورق مزيل الروائح الكريهة المعطـر علـى شـكل وجهًـا سـعيدًا فـي مـرآة السـيارة.

عندما جلست في مقعد الركاب، قاد أبي السيارة وربطت نفسي بجهاز لم استخدمه قط من قبل ألا وهو حزام الأمان طبقًا لطلب والدي، قبل أن نخرج من موقف السيارات؛ أستطيع الآن رؤية واجهة القبو الرمادية، المواجهة للطريق وقد كُتِبَ عليها بألوان الأصفر والأرجواني المبهجة جملة: "عصائر وخمور سباركلنج سبارو- شعبة أدوية شيبكو المحدودة (كانوسا): عالمك سيكون أجمل مع كؤوس العنب"، وفي طريق مختصر من خلال القناة، عرفت اتجاهاتي الآن؛ كنا في بلدة على أطراف شيبمان كورنرز على امتداد طريق لايكشور Lakeshore.

***

أدار أبي الراديو، بدت الموسيقى على الفور عذبة وجديدة وممتعة، قال والدي شاكيًا وهو يعبث بالمحطة: "لا أعرف ماذا أصاب الموسيقى هذه الأيام بحق الجحيم، أريد سماع الأخبار اللعينة".

انشغلت بسماع صوت رئيس الوزراء الروتيني ستانفيلد ـ ذاك الأبله الذي لا يزال في السلطة مع هذا الفاشل بيير ترودو الذي لا يزال زعيم حزب المعارضة، تعجبت أن الحكومة لم تتغير منذ تسع سنوات.

قال المذيع في نهاية النشرة: "كانت هذه أخبار مؤسسة كانوسا للإذاعة في الساعة الخامسة يوم ٣٠ يونيو ١٩٧١". اعتدلت في جلستي وقلت: "هل سمعت المذيع جيدًا؟!"

"في أي وقت نحن؟"، فالصوت الذي في أذني لا يبدو صوتي كليةً.

"السبت".

"لا أقصد تاريخ اليوم".

أجاب أبي:"٣٠ يونيو".

"أي سنة؟"

قطبت ملامح أبي وقال:"١٩٧١، هل أنتِ متأكدة أنكِ بخير؟"

"نعم نعم، نسيت الزمن فحسب".

كان دوار الارتباك يتحول إلى دقات قلب مذعورة، فبدلاً من أن أقفز تسع سنوات إلى اليوم الذي وعدني به المتسلل، قفزت سنتان وستة أشهر، وربما أسبوع زيادة أو أقل، لذا قد يشرح الخلل غياب المتسلل الذي لن يظهر لسنوات.

وضع والدي يده على جبهتي وقال:"لديكِ ضربة شمس يا عزيزتي".

أرحت رأسي على المقعد ثم أغلقت عيني؛ حيث أن مشكلتي ليست بعض خلايا مخية محمومة، بل وضعي داخل جسد غريب، وقذفي إلى صيف شيبمان كورنرز بلا دليل عما أنوي القيام به منذ عام ١٩٦٩، فإذا كنت قد تغيرت تغييرًا جذريًا في عام ونصف، إذن من المخيف التفكير في مدى التغيير الذي طرأ عليّ عبر تسع سنوات. والآن عليّ التفكير في الخطوات التالية لنفسي، وهي إنقاذ العالم بحكمة.

الفصل الثاني
المكان غير المكان

استيقظت عندما أوقف والدي السيارة عند الممر، ثم قال في بهجة: "عدنا إلى المنزل مجددًا"، نزلت من السيارة متثائبة ثم دلفت إلى المنزل على أمل ألا أجد الأسوأ.

وقد أدهشني امتلاكنا لمنزل، على اعتبار أن والدي ترك وظيفته في شيبكو، إلا أننا نعمل أنا وهو في الأيدي العاملة، وهي من أدنى المهن وأقلها دخلاً لكسب لقمة العيش في شيبمان كورنرز؛ نظرًا لاحتياجنا المادي. ومع ذلك، اكتسى المطبخ بطلاءٍ جديدٍ باللون الذهبي، ومجموعة جديدة من أدوات المطبخ الخضراء اللون، كان التأثير مبهجًا ومثيرًا للاشمئزاز في آنٍ واحد، وقد تعجبت من رؤية أمي تشغّل غسالة أطباق ماركة مايتاج، وهو تبذير لم نره قط في زمني.

تحولت ضفائر أمي السوداء إلى اللون الرمادي، وصار وجهها أنحف وكأنه شحذ ببطء، ومثل أبي، ارتدت ملابس ليفي، وقميص الوجه الضاحك الأصفر الذي أرتديه، مما دفعني إلى التساؤل في قرارة نفسي قائلة: منذ متى أصبحت ملابس مزارع أجير يتعاطى المهدئات مقبولة لدى الأمهات ممن هن في الأربعينيات من عمرهن؟ ماذا حدث لفساتين أمي المنزلية المحاكة من عند الخصر، وأطقم المعاطف المحتشمة؟

قالت أمي:"اتصلت ليندا، لقد وصلت للتو إلى محطة الحافلات".

قال أبي:"ماذا؟ كان يجب أن تكون هنا منذ ساعات".

هزت أمي رأسها وقالت:"ترك بعض الحمقى أوراق هويتهم في تورونتو، لذا كان هناك تأخير في عبور نقطة تفتيش هاميلتون، لذلك قلت لها أن تستقل سيارة أجرة". أخبرتنا ذلك حينما سكبت ماء المعكرونة ليغلي. ومن زجاجات نبيذ سباركلنج سبارو على منتصف الطاولة، أدركت أن وجباتنا لم تتغير، لكن ماذا تفعل ليندا في تورونتو؟ هل مازالت محظورة من العيش معنا في المنزل بعد كل هذا الزمن؟ ومنذ متى إحدى أفراد عائلتي المدبرة تركب سيارة أجرة؟ كان الجميع يتصرفون كعائلة ماجورك الثرية في القصص المصورة. وهكذا ظللت أتابع أمي وهي تدندن أمام الموقد، تختالها السعادة بغرابة وهي تغلي صلصة الطماطم على نار هادئة. ثمة خطبٌ ما.

ذهبت إلى غرفتي، وقد فُرِشَت أغطية السرير الشانيل على كلا السريرين، وكان هناك دبًا يرتدي قميص الوجه الضاحك من شركة سباركلنج سبارو جالسًا على وسادتي، ووجدت أيضًا وعاءً من المجففات برائحة القرفة والتفاح مما جعل رائحة الجو كرائحة الريف الإنجليزي في الخريف، وهي وسيلة جيدة لتغطية ضباب اليوم الصيفي في شيبمان كورنرز، وقد نُصب تلسكوبًا باللون الأسود والفضي على حامل ثلاثي في زاوية واحدة حيث وجهت العدسات نحو النافذة، هذا ووضعت لوحة صغيرة منقوشة دلت على صاحب هذا

التلسكوب وهي: ديبي بيوندي، حيث حصل هذا التلسكوب على المرتبة الأولى في معرض العلوم في مجلس كانوسا الإقليمي لعام ١٩٧١، وعلى مكتبي اصطفت دفاتر الرسم الخاصة بي وأقلام الرصاص وكتب والتر فوستر المصورة التدريبية. التقطت الكتاب في أعلى الصف، كان عن طريقة رسم الزهور، والثاني عن كيفية رسم الجسم البشري، قلبت صفحات هذا الكتاب، تضمن صور نساء عاريات بشعرٍ مرفوع مرتديات أرواب من الفراء ونعال ذات كعب عالٍ، كانت أجسامهن العارية مقدمة تقديمًا رائعًا؛ إذ ظهرت فقط أول المؤخرة أو انحدار الثدي دون عرض الحلمات.

ألقيت نظرة على نفسي في المرآة، لأرى كيف يبدو جسدي أسفل هذا القميص الغبي؟ سحبته حتى رأسي، فرأيت حمالة صدر باللون البني الفاتح من النايلون مع ربطة وردية صغيرة حيث تتلاقى أقفال الحمالة. فككت الحمالة، ورأيت المقاس: ٣٦، صدمت فقد كنت قبل عامين ٣٢. ذهلني انعكاس جسدي في المرآة الشبيه بالبقرة، وكرات الحلمات البنية الغامقة التي لا يمكن رسمها، مع الدهون القليلة التي تراكمت حول خصري، والترهل في كتفاي. السؤال هو: إذا كنت في مهمة لإنقاذ العالم، لما لا أبدو في جسد البطلة الخارقة؟ ثم ربطت حمالة الصدر وأنزلت القميص.

بدا كل شيء في غرفة النوم هادئًا ومستكينًا، كالطيف الذي يخرج في إعلانات معطرات الجو، وأنا من ناحية أخرى كبرت وأصبحت مثل صورة "قبل" في إعلان خسس نفسك؛ وهو الإعلان الذي قطعوا فيه رأس امرأة سمينة وركبوه على جسد امرأة نحيفة في لقطة "بعد".

ولجت إلى غرفة المعيشة، كالمستكشف في بيتي، فسمعت راديو أخبار كانوسا في الساعة السادسة من المطبخ؛ كانَ خبرٌ عن الرئيس نكسون وهو يقود مظاهرة ضد العدوان السوفيتي- كيف قفز نيكسون من نائب الرئيس إلى الرئيس؟ وماذا حدث لبوبي كينيدي، الذي أعيد انتخابه حديثًا للرئاسة قبل عامين فقط؟- كانت بضعة أيام قبل أن أتسلل إلى المكتبة لفحص الأعداد المتعلقة بمجلة "شيبمان كورنر"، حيث كانت الفضيحة مغطاة بالتفاصيل البذيئة: غرق امرأة شابة في بركة البيت الأبيض واكتشاف جسدها العاري بعدما تلقت "الأوامر" الليلية المتأخرة في المكتب الرئاسي، ولا عجب في فرار كينيدي إلى أيرلندا.

زلقت يدي داخل حزام الجينز، إذ لم أعتدِ على ارتداء هذا النوع من السراويل؛ فهي خشنة وضيقة حول الخصر، وحدقت في نفسي في المرآة التي وضعتها أمي في غرفة المعيشة، وهي جديدة أيضًا؛ كيف كبرت إلى هذا الحد؟

عندما حاولت ألا أبدو كالنقانق الزرقاء الكبيرة، دلفت ليندا من الباب حاملة الحقيبة نفسها التي حزمتها في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها.

قالت ليندا على سبيل المجاملة:"ديبي، تبدين رائعة، هل خسرتِ وزنك؟"، ثم لفت ذراعيها حول خصري وعانقت جسدها النحيل بحذر حتى لا أهشمها إلى نصفين.

كانت أختي، الوحيدة التي بدت رائعة مرتدية ملابس غريبة؛ إذ تطورت الموضة بسرعة كبيرة في عامين عما كانت عليه في العقد

الماضي، مثل كل أفراد عائلتي في المنزل، ربما في العالم الحر؛ إذ ارتدت ليندا جينز أزرق مع حذاء ثقيل مرتفع من عند أصابع القدمين، وبلوزة بوليستر بكرمشة كطيات الكلاب البوليسية، وشعرها الأسود الكثيف المجعد بتجعيدات كثيرة، كأن رأسها قد تعرض لماسٍ كهربي. عندما رأيت ليندا آخر مرة، بدت شاحبة منتفخة مثل كيس الشاي عندما يترك فترة طويلة في مسخن الماء، والآن هاقد عادت في شكل نجم الكرة الطائرة السليمة كأمي التي بدى عليها السعادة الغامرة.

قالت أمي في جدية:"اجلسي يا ليندا، فالجدة بيبي قادمة إلينا على العشاء، أريد أن أعقد اجتماعً عائليًا صغيرًا قبل أن تأتي إلى هنا".

سألت أمي:"ألن يأتي معها جدي زين؟"

نظر إليّ ثلاثتهم في دهشة كبيرة.

قال أبي:"يبدو أن الشمس أصابتك يا ديبي بالتأكيد".

فهمت من المحادثة التالية؛ أن جدو زينيو مات، ومع الوقت، جمعّت تدريجيًا باقي القصة التي أعادت عائلتي سرد مأساتها لضيوف العشاء: لم يمض وقتًا طويلاً بعد ذهاب أمي وليندا إلى تورونتو، حتى وجد أبي جدو زينيو في قبر النبيذ، وقد فتك به السرطان وبدا جسده كحفنة من الملابس على الأرض، ومنذ ذلك الحين، عاشت جدتي بيبي وحيدة في المنزل المجاور، وأصرت على تجهيز مكان لجدي زين في كل وجبة، حتى إنها تصب الطعام في طبقه، وأحيانًا نسمعها تحادثه، فيما عدا بيبي العجوز، الكلب السابع، الذي ترافقه قليلاً. يجب أن نفعل شيئًا.

أشار أبي أن قبو النبيذ في منزل جدتي لم يعد يخدم أغراضً نافعة، فلما لا يُفَرَّغ من البراميل ونحوّله إلى طابقٍ سفلي؟ بالتأكيد سترحب جدتي بدخل إضافي، والساكن الجديد سيرافقها ويحميها، لربما يكون طالبًا جامعيًا؟ جلست منحنية الرأس أستمع إلى الخطة، وفي الوقت نفسه انتابني الحزن على جدي زين المسكين.

انتظرنا جدتي فترة طويلة، ولكنها لم تأتي، حتى قامت أمي وأحضرت وعاء المعكرونة ووضعته على المنضدة.

"أرايتِ؟ إنها تعرف أننا سنحاول إقحامها في شيء، بل ربما هي هناك الآن تجري محادثات تخيلية مع جدي".

ظلوا يتجادلون عن جدتي حتى اهتز ستار الباب الأمامي جراء الطرق على الباب. ظننت أن المتسلل قد أوشك على إظهار نفسه، فأسرعت من الطاولة لأفتح الباب. لم يكن المتسلل هو الذي وقف على عتبة الباب، بل كان جون كندال البالغ من العمر ستة عشر عامًا، وقد بدا نحيلاً نامي العضلات، وكان يحمل حقيبة من القماش الكتاني معلقة على كتف واحد ملآنة بصحف شيبمان كورنرز، وهو يمسك حزام الحقيبة بيد واحدة، واليد الأخرى تتدلى بجانبه، كانت يده بثلاثة أصابع ومخالب مشوهة، مغطاة بندبة متكتلة باللون الوردي، شعرت بالدوار والاتياح في الوقت ذاته: بالضبط مثلما قال بام بام، يجب أن يكون جرح كندال البشع بطاقة لإطلاق سراحه من سجن مدرسة المنحة.

تبسم إليّ:"مرحبًا ديب، مجلات وصحف".

لم أصدق نفسي، جون كندال بائع مجلات الآن.

"انتظـر"، أسـرعت إلـى المطبـخ لجلب المـال، وارتحت عندمـا رأيت أبـي وأمـي قد تركا بعض المال علـى عتبة النافذة.

عندمـا رد كنـدال الباقـي، مـال علـيّ قليـلاً وقـال فـي صـوتٍ منخفض:"انتهـى موضـوع أنجـي أخيـرًا".

قلت له:"حقًا؟ رائع!"

عقـدتُ ذراعـيّ أمـام صـدري حيـث كنـت أشـعر بالحـرج مـن ثديـيّ، وتسـائلت مـاذا عسـاي أن أقـول بعد ذلـك، فأنجـي الوحيدة التي أعرفها هـي أنجـي بيترون، فتاة شـارع زي الأكبر سنًا مـن ليندا، والتي انقطعت عن مدرسة سانت ديسماس في الصف التاسع؛ إذ اعتدت أن أراهـا بمئزرهـا المطاطي وغطـاء رأسها، وهـي تدخـن السيجارة عند انتظارهـا فـي موقـف الحافلات للذهاب إلى عملها في مصنع التعليب، قطبت ملامحِ كندال وقال:"لقد ظننت أنكِ ستفرحين يا ديبي". أخيرًا وجدت دليلاً يتمثل فـي سعادة الانفصال عـن أنجي بيترون (تسـائلت مـاذا حـدث بيـن كنـدال، وأنجي، وبيني منـذ عام ونصف).

ضحكـت ضحكـة صغيـرة غيـر مقنعـة ثـم قلت:"أنـا فـي غايـة السعادة من أجلك يا كندال، لما لا أكون سعيدة، فأنجي هي الإنسـانة الخطـأ لـك". لملم كندال حقيبته القماشية في حرجٍ وقال:"حيث أنني رجل حـر الآن، لمـا لا تقابلينـي عند كريسـويل؟"

أومـأت برأسـي موافقـة مندهشـة مـن هـذا التحـول المفاجـئ فـي الأحـداث، إلـى أن قـال كندال:"عظيم، غدًا حوالي السـاعة الثالثة، أحضـري قصصـك المصـورة القديمة التـي تودين بيعهـا، وسـنرى كم سـنجني مـن المـال"، ثـم أعطانـي تذكـرة صغيـرة طبـع عليهـا: سـددت لأسـبوع كامل فـي ٣٠ يونيـو ١٩٧١.

رأيت كندال يخفض رأسه قليلاً، ثم استدار ولوّح لي بيديه مع ابتسامة عريضة، فابتسمت ولوحت له.

تبادر إلى ذهني أن كندال معجبًا بي، مثلما يعجب الشاب بالفتاة، حتى في هذا الشكل والجسد الغبيان ذو الثديين البارزين من جميع الاتجاهات.

عندما عدت إلى المطبخ، كانت أسرتي لا تزال تتحدث عن مستقبل جدتي بيبي، بيما وضعت أمي السلطة على المنضدة. جلست وأنا أشعر رغم ادعاءات المتسلل، أنني سأحيا حياة الفتاة المراهقة الناضجة ابنة البلدة الصغيرة التي قذفت عبر الزمان مثل كرة المضرب السريعة.

قال أبي: "إذن لقد رسينا على بر، سنطلب ساكن"، ثم ربط منديل المائدة حول رقبة قميصه القطنيّ.

اقترحت ليندا: "كريسويل مكان جيد لطلب مستأجر، ديبي إنك ترددين هناك كثيرًا لشراء القصص المصورة. لما لا تعلّقين إعلانًا غدًا؟"

قلت: "بكل سرور"، مثلما تقول سبوتنيك تشيك للعالم بأنه لا توجد مصادفات.

وقفت أمي عندي لتملأ كأسي بمشروب سباركلنج سبارو بنكهة العنب.

نصحتني قائلة: "اشربي هذا يا كارا، إنه مفيد لكِ".

شربت كأسًا بالفعل، لكني سرعان ما ملأت كأسًا آخر، كان مذاقها أكثر من رائع، رغم أن شراب العنب غير كحولي، إلا أنه فجأة انتابني الشعور براحة وسعادة لم أشعر بهما منذ زمن.

الفصل الثالث
النجم اللامع يسوع غريب الأطوار

ربما تغيرت في سنتين، لكن كريسويل ظل مثلما هو؛ بالخردة الرديئة نفسها على الأرفف، والقشرة فوق سترة كريسي الصوفية البالية، والأشرطة اللاصقة التي تربط عويناته معًا فوق قصبة أنفه، والجدران المتأرجحة المتخمة بالقصص المصورة.

سلّمت كريسي لافتة الطابق السفلي للإيجار، ودفع كندال ثمن مجموعة القصص المصورة. ووجدت مخبأً في غرفتي تحت السرير يتضمن عددًا مخزيًا من قصص آرتي وبيتي وفيلما، وهي بضعة نسخ ممزقة من القصص الكلاسيكية المصورة مثل أمير القلب الشجاع وما شابه، وأعداد من قصص المرأة الخارقة التي مر عليها سنتين وللأسف قد أعادوا سرد قصتها الأصلية مرة أخرى بانتزاع قواها الخارقة ووضعها داخل ثوب وزارة الدفاع لحل الجرائم، بأسلوب رجل المباحث الحقيقي، حتى ذهب زيها المميز، وصارت الآن امرأة سمراء ترتدي حذاءً عاليًا، وقد أحزنني جدًا رؤية هويتها المميزة تتلاشى.

سأل كندال كريسي وهو يحصي مكاسبه:"هل يمكننا التجول في المحل وتفحص القصص ياكريسي؟"

تمتم كريسي لكندال:"خذ راحتك، ولكن إن كشفتك وأنت تسرق شيء سأقطع خصيتيك"، ثم ألقى قصص المرأة الخارقة وبيتي وفيلما في صندوق كُتِبَ عليه: "جميع الأنواع/أثداء ومؤخرات".

أضاف كريسي: "مهلاً يارجل، ألم يسبق وأخبرك أحد أنك تشبه بطل قصة أسود ورائع وخَطِر؟ لا بد أنه السبب وراء ولع الفتيات الصغيرات بك". انتابني الخجل وارتفعت حرارة وجهي حتى فروة رأسي، كما لو كنت أثبت كلام كريسي.

همهم كندال: "أغرب عن وجهي أيها الأبله الحقير"، ثم أصدر ضحكة عالية حينما أمسك يدي وسار بي بعيدًا عن منضدة المحل.

مشينا في ممرٍ متخم بأكوام عالية من الخردة بعد أن اضطررنا إلى المشي جانبًا خَلف رفٍ مكتظٍ بصناديق مجوهرات موسيقية صاخبة، والذي بدا كمصحةٍ عقلية لراقصات باليه ذات بضعة راقصات آلية تدور وتقفز على إصدارات من سيمفونية بحيرة البجع ونهر الدانوب الأزرق، تدار جميعها في وقت واحد، وأمامهم خليط من الدمى المتحركة الراقدة فوق بعضها بأذرعهم الفينيل الممددة، وأعينهم الواسعة الزجاجية، وأرجلهم البلاستيكية القوية العالقة في الهواء، حاولت ألا أنظر إلى شفاههم الوردية الصغيرة التي تتخذ دومًا شكل حرف ال O.

وقفنا أنا وكندال على رف فوق الممر ذو المشمع المترب الذي كُتِبَ عليه: "أشياء غريبة"، إذ لم تكن القصص المصورة التي تتضمن قصص مصورة لليموريان في هذا الفصل من المتجر مستعملة فحسب، بل حملت عناوين مبهمة كذلك، يعود الكثير منها إلى زمن الخمسينيات، بعضها صوّر على ماكينة تصوير جيستنير ثم دبسوا معًا باليد. كانت هناك أيضًا قصص هوت رود، ورعب، ووحوش،

وصولاً إلى القصص الدينية. وإذا بحثت أكثر ستجد قصص جنسية، وغيرها من المواضيع الهادمة، كالقصص التي استوردها كريسي -أو على الأرجح هربها- من كاليفورنيا مثل زابرودر، والسيد ناتشورالي، والقط كيرت.

وجدت من بين المجموعات الغريبة، نسخة مضى عليها عام من إحدى الصحف الصفراء، وهي صحيفة إيفزدروبير الوطنية، وقد تكون إما نُظّمت تنظيمًا خاطئًا أو حدث خطأ بها؛ إذ ظهر على الغلاف الأمامي إليزابيث تايلور، وديبي رينولدز معًا في صورة ملفقة، لأن كلتاهما لم يقبلا عرض صورة تجمعهما في الوقت نفسه. كانت ليز تايلور ترتدي فستانًا أحمرًا مطرزًا وثدييها كالصواريخ، أما ديبي رينولدز فقد ارتدت قميصًا متوسط الطول قطنيًا؛ منقطا فوق جسمها العاري، تحت عنوان رئيسي وهو: "كشف النقاب عن ديبي وليز"، مع نصائح عن الجمال وخسارة الوزن.

بينما يبحث كندال في صناديق القصص المصورة، اطلعت على نصائح خسارة الوزن؛ حيث أكدت ديبي رينولدز على الهواء المنعش، والتمارين الرياضية، والمواقف الإيجابية، أما ليز تايلور فقد فضلت التطهير، وقد قرأت طريقتها باهتمام؛ إذ اعتمدت على إشراف من طبيبة فينيسية شهيرة، ولكن منهجيتها الأساسية كانت سهلة بما يكفي، حيث تقوم على ثلاثة ركائز وهي: كل، تقيأ الكعك، ثم كرر.

قال كندال: "ديبي، تفحصي هذا"، وانتزع صندوقًا بعنوان "الدعاية"، ثم التقط قصة مصورة بعنوان: وعيد الشيوعي في وادٍ ممتع، في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى غلاف القصة، ظهرت عائلات تهرب من منازل تشتعل فيها النيران، وتظهر الأمهات تصرخ، والآباء يقتلون بالطلقات النارية على أيدي رجال يظهرون في صور ظلية مرتدين خوذات عسكرية. هذا وتدور أحداث القصة حول بلدة تقع في وسط أمريكا استولى عليها الشيوعيون؛ ففي البداية حاول سكان البلدة الصغيرة بسذاجة تحقيق الاستفادة المثلى من الشيوعيين، معتقدين أن كل شيء سيكون على ما يرام تحت حكم السوفيتيين، طالما أنهم لم يتحدثوا في السياسة، وقال عمدة البلدة: "الشيوعيون أفضل من الموت"، وقد كان مخطئًا بالطبع؛ إذ حول الشيوعيون الكنائس إلى حظائر دجاج وخنازير، وحرقوا مباني المكاتب والبنوك، وأعدموا أصحاب المصانع الرأسماليين شنقًا في وسط ميدان البلدة كي يكونوا عبرة، وعلاوة على ذلك؛ عملت الأمهات حتى الموت في مصانع الجرارات، وأجري غسيل مخ لأطفالهن كي يشوا للشرطة السرية عن أي شخص من العائلة تبدو عليه علامات الأنشطة المناهضة للثورة. لكن المصير المظلم كان ينتظر الآباء اللذين يختفون جميعًا طوال الليل، وعلل حينها الشيوعيون للأسر بأن الرجال قد أرسلوا للعمل في المزارع التي ستوفر الغذاء لسكان المدن، وقد اتضح بعد ذلك أن الرجال قد أرسلوا إلى مراكز الأسر التي تخطط على إجبارهم لتخصيب الأمريكيات الشبيهات بإلكا سومر ممن يتمتعن بالملامح الشقراء والطول والجمال.

هـز كنـدال رأسـه عندمـا وقـف علـى هـذا الفصـل وقال: "يحصل هـؤلاء الرجـال علـى سـرير نظيـف ومـال يومـي فقـط نظيـر مضـاجعـة الشـقراوات، إن كانـت تلـك هـي الشـيوعية حقًـا، يسـرني الانضمـام إلى الحـزب".

أشـرت لـه: "أشـك فـي تلـك الفتيـات، حيـث فـي الظاهـر؛ أنـه يجـب عليهـن أن ينجبـن طفـلًا واحـدًا تلو الآخر، ألا يزيد ذلـك من حياة الأشـخاص؟"

قـال كنـدال: "إنهـا تتشـابه كثيـرًا مـع بعض الأسـر فـي شـيبمان كورنـرز".

عدنـا للقـراءة مـرة أخرى.

كنـتُ محقـة، فقـد كان علـى الفتيـات فقـط أن يحمـلـن لينجبـن مزيـدًا مـن العمـال، حيـث كان كل طفـل مـن أب مختلـف ينشـأ علـى الشـيوعية لكسـر بنـى الأسـر الرأسـمالية وتعزيـز الحـب الحـر.

أظهـرت صفحـة واحـدة ثكنـات مـن الشـابات الجميـلات ببطون كبيـرة يجلسـن ويمارسـن الحياكـة وهـن يدخّـن ويقـرأن كتـاب Das Kapital، وقـد وقعـت إحـدى الفتيـات فـي حب رجل أرمـل كان معهـا في الصـورة، حيث ظهـرت الفتـاة في القصـة تتوسـل إلى رئيس الثكنـات وهـي امـرأة تشـبـه الرجـال فـي هيئتهـا تسـمى كليب، لتسـمح لهـا بالهـرب معـه، ولكنهـم بـدلاً مـن ذلـك زجـوا بهـا إلـى السـجن، لكـن بالطبـع لـم يظهـروا الـولادة، فقـط اكتفـوا بعـرض تأوهـاتهـا ونـداءهـا للنجـدة، وقـد رُسِـمَت بألـوانٍ باهتـةٍ وهـي تتلوى بيـن قضبـان زنزانـة الحبـس الانفـرادي، بينمـا وقفـت فـي الخـارج حارسـة السـجن تنظـر عبـر نـافـذة الزنـزانـة الصغيـرة،

وقد سقطت دمعة على وجنتها، وعندما وصلت كليب أخيرًا إلى الزنزانة لإخراج الفتاة؛ كانت الفتاة قد تقوقعت في زاوية وهي تبكي فوق قطعة قماش صغيرة بين ذراعيها، قالت كليب لها في برود:"هل تحسنتِ قليلاً؟"، فقالت الفتاة وهي تنتحب:"مات طفلي"، قالتْ الشيطانة:"جيد، ستلحقين بالطفل، وسأعيدك إلى مركز الإنتاج على الفور، يجب أن تستعدي قريبًا لإنتاج المزيد من العمال، فهناك رجل جديد ينتظرك للتكاثر معك الآن"، قالت الفتاة:" لا...لا...لا". في الصفحة الأخيرة ظهرت رسمة مقربة لعيون الفتاة بدا عليهما الجنان ثم جملة: النهاية.

تمعنتُ وتمعنتُ في الصفحة، وتسائلت، إن كان ذلك مثل ما حدث لليندا، الانتظار لإنجاب طفل بيلي، قصة غريبة تتشابه مع القصة في كتاب وعيد الشيوعي.

قطع صوت كريسي قرائتنا أنا وكندال وهو يتكلم من عند مكان الدفع:"آسف يا بني، أنك تأتي إلى هنا كثيرًا طوال الوقت، ولكن لم يعد لدي عمل، ولم أعد قادرًا على تحمل تكاليف المساعدة منذ عام ١٩٥٢".

نظرت على طول النفق الطويل للممر المبعثر ورأيت ظهر الرجل الذي تحدث معه كريسي، كان يرتدي قميص داشيكي، وبنطال جينز ممزق، وشعره بني متموج يصل إلى كتفه؛ كان يشبه المسيح.

"أنا لست هنا للحصول على عمل مربح، بل جئت لأعرض صفقة تجارية، وعلى حد علمي أنك مرتهن".

قال كريسي ببطء وهو يحك خلف رأسه الصلعاء:"البعض يصفني بذلك".

"لديّ آلات للحفاظ عليها، سأعود بها مرة أخرى".

تذمر كريسي وقال: "سمعت ذلك من قبل".

رأيت يسوع ينقب في شنطته السفرية الصغيرة، لكنه لم يخرج شيئًا على الفور وسأل كريسيول: "هل أنت محارب ياكريسويل؟"

تغير وجه كريسويل وبدت عليه ملامح الشك وقال: "لقد تجندت، وقبل أن يُرسل إليّ التقرير، حدث التفجير؛ حيث أسقطوا القنبلة الذرية، وانتهى العرض، كانت أكبر خيبة أمل في حياتي".

سأل يسوع في رفقٍ: "هل كنت تحارب في كوريا؟ أم نيوزيلاندا؟ أم في إحدى بلاد حرب الدومينو الأخرى؟"

هز كريسي رأسه: "لا يوجد تجنيد في كانوسا منذ فرض ضريبة الدخل W2، فيما عدا تصنيع القنابل في شيبمان كورنرز، ما الأمر؟"

نظر يسوع حوله بطريقة مسرحية كالممثل على خشبة المسرح وقال: "يبدو أنك من الرجال الطيبين الذين شهدوا الواقعة، هل هناك شخص آخر في المحل؟"

"لا...آه نعم، ثمة طفلان في الجزء الخلفي من المحل يتفحصان الكتب المصورة، لا تقلق منهم".

كنت أقف في المقدمة بجانب كندال، حيث نثرت قصص وعيد الشيوعي على الأرض أمامنا، نظرنا أنا وكندال لبعضنا بعض، ووضع كندال إصبعه على فمه.

أخرج يسوع شيئًا من حقيبته وسلمها لكريسي، كانت جديلة ملفوفة لقطعة معدنية لامعة في حجم رغيف خبز الجاودار بلون النحاس، بدت كلعبة سلانكي عملاقة تفككت ولحمت ومن ثم لم تعد فتاتها الناعمة معًا مثلما كانت.

سأل كريسي:"ما هذا بحق الجحيم؟"، وهو يتفحص الجديلة النحاسية مرارًا وتكرارًا.

أجاب يسوع:"من الواضح أنها الملف اللولبي".

قال كريسي:"أوه نعم"، فلم يكن يحب أن يمتلكها أحدًا غيره، وتابع حديثه:"لم يكن لديّ واحدة لمدة من الوقت، ماذا تفعل هنا ثانية بحق الجحيم؟"

وضع يسوع يده على أردافه وانحنى للخلف قليلاً، وظل يهتز ذهابًا وإيابًا، كما لو كان يحاول حل غمزة في ظهره ثم قال:"إنه محول كهرومغناطيسي".

أومأ كريسي برأسه وقال:"جيد".

"اقترح أن نحفظه خلف طاولة المحل بدلاً من وضعه على الأرفف حتى لا يقع في الأيادي الخطأ".

واصل كريسي فحص القطعة:"ما السعر الذي تريده؟"

"مائة".

تذمر كريسي وقال:"هل تظن أنها جواهر تاج سخيف أو شيء من هذا القبيل؟ سأدفع لك عشرة".

قال يسوع:"خمسون، كلانا يعرف إنها تستحق أكثر من ذلك بكثير، لذا أي حماقة أخرى سأعرض صفقتي على مكانٍ آخر يارجل".

"أربعون، آخر كلام".

"ممتاز".

تصافح الاثنان، وفتح كريسي درج النقدية وسحب دفتر الفواتير.

قال يسوع وهو يجمع أمواله:"إنك تدير صفقة صعبة ياكريسويل".

كتب كريسي فاتورة رهن،وأدخلها يسوع بحذرٍ في محفظة أخرجها من جيب بنطاله الجينز، تعجبت من تلك المحفظة المصنوعة من الجلد الأسود النظيف، كأنها علامة تجارية جديدة، فهي لا تبدو من النوع الذي يتوقع أن يحمله يسوع.

قال كريسي وهو يلتقط الجديلة النحاسية ويضعها في صندوق أحذية فلورشايم:"لا أستطيع أن أضمن لك أنها ستكون هنا عندما تعود ثانية، فالناس تأتي إلى هنا لتبحث عن جميع أنواع القرف".

أدرج كريسي الصندوق في رفٍ عالٍ خلف طاولة النقدية،عندما دوت فجأة صفارة إنذار غارة جوية في البلدة فوق المحل كالموجة العارمة.

وعندما استدار يسوع، رأيت وجهه بوضوح، حيث غطيت عيناه بزوج من النظارات الشمسية السوداء، من النوع الذي يرتديه الطيارين أثناء الاختبار، إلا إنه بدت علامات حروق الشمس على وجهه، وجلد متقشر وردي مع بقع من الجلد الرقيق الجديد، بدا كأنه نسخة مصغرة من الرجل المتسلل، الذي أعرف أنه يمكنه الظهور في أي عمر.

هل قفز هو أيضًا بعد كل ذلك؟ أم أن هذه نسخة أخرى منه فقط جاءت من المستقبل؟ هل سيعرفني؟ فكرت مليًا ثم قررت أن أفضل شيء هو الانتظار والمتابعة.

صاح في كريسي قائلاً: "ماذا يحدث بحق الجحيم؟"

لوح كريسي بيديه قائلاً: "اهدأ، إنه مجرد عطل، يحدث طوال الوقت"، وقبل أن يكمل شرحه، انقطعت الصفارة مع أنين يشبه فرس النهر المحتضر، لا بد أنه حارس المدرسة قد صعد إلى السطح وسحب القابس، وقد مال المتسلل واستند على طاولة المحل واضعًا يده فوق صدره.

قال كريسي وهو يمسك ذراع المتسلل ربما ليسنده أو يطرده خارجًا وهو يقول: "كأنك قد رأيت شبحًا، يبدو أن نوبة قلبية ستنتابك، لتصيبك في أي مكان آخر".

حرك المتسلل رأسه يمينًا ويسارً بسرعة كأنه يريد أن يتخلص من الماء في أذنه، وأبعد يد كريسي وقال: "اللعنة على تلك الصفارة، لقد ظننت أن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت قبل الموعد المحدد"، ثم اعتدل في وقفته وعلق حقيبته على كتف واحد، وعندما خرج رن جرس المحل.

خرجنا أنا وكندال من المكان، ومسحنا آثار أقدامنا، وقد رأينا من نافذة المحل الأمامية الكبيرة المتسلل يركب سيارة كتلاس زرقاء كبيرة ويكأنها خارجة من حرب؛ إذ كان الطلاء مخدوشًا ومتحرقًا مع بقع معدنية صدئة وثقوب ممزقة تشير إلى أن مقابض الباب الجانبية قد خلعت من مكانها، وقد قام المتسلل بتعديل مرآته الخلفية، وقشر الرصيف بصرير إطاراته.

سألني كندال: "هل تعرفين ما هو المحول الكهرومغناطيسي؟"

هززت رأسي: "أحب أن أعرف".

قال كندال: "لنتبعه".

***

تركنـا محـل كريسـي دون أن نودعـه وقدنـا دراجاتنـا علـى طول الشـارع الرئيسـي؛ عندمـا مررنـا بمنعطفٍ ووقفنـا خلف السـيارة الكتلاس الزرقاء ذات لوحات ماساتشوستس، سمعنا أصوات موسيقى ليـد زبلين تخـرج مـن نوافـذ السـيارة، ونظـر كنـدال خلفـه إلـيّ من فوق كتفيـه وكأنـه يريـد أن يقـول لي:"وجدتـه".

وقفـت خلـف الكاتلاسـ سـيارة موسـتان سـوداء ملسـاء ذات كابـح علـى غطاء السـيارة علقت عليها لوحات نيويورك، تقودها امرأة ترتـدي قبعـة الممرضـات وقفـت خلـف عجـلات الكتلاس.

تحـول اللـون إلـى الأخضر، ورغم أن السـيارة متهالكة، أسـرعت الكاتلاس كسـيارة هوت رود المحصنـة، وكأن المتسـلل يعرف أن أحدًا ما يتتبعه. وقف كندال على دراجته وزاد سرعته إلى أقصى حد ممكن حتى سبقني بكثير، وعندما أضيئت المصابيح البرتقالية في السيارة؛ إزدادت سرعتها وشقت طريقها خلال تقاطعات الطريق محدثة صرير بإطاراتها.

قـاد كنـدال خـلال الضـوء الأحمـر، فصـرخـت إليه:"احترس!"، حيـث انحـرف سـائق سـيارة لتفاديـه، مطلقًـا إنـذارًا طويـلاً مـن بـوق السـيارة، ولا يـزال كنـدال محـاولاً اللحـاق بالكاتلاس عندمـا انطلقـت السـيارة الموسـتان السـوداء بسـرعة أمامـه لتنحـرف إلـى الرصيـف لإيقافه، إلى أن اصطدم كندال بالصدام الخلفي للموستان السوداء، فسـقطت الدراجـة مـن تحـت كنـدال كالخطـوة الخاسـرة فـي لعبـة كيربلانـك،

وقفت الموستان لثوانٍ، والمحرك يتسكع، حتى مضت مسرعة في طريقها تاركة كندال راقدًا في الشارع على كومة من الخردة التي كانت دراجته من قبل، وقفت أحدق في المشهد، واضعة يدي على فمي، كانت آخر نظرة ألقيتها على مشهد الضرب والهروب لوحة ترخيص تنتهي بـ د-٣٠، وكان كندال ملقيًا على دراجته المكسورة كالخرقة.

"ديبي"، سمعت صوتًا يناديني فاستدرت لأرى ساندي تقف خارج البنك الملكي لكانوسا مرتدية تنورة قصيرة وحذاءً بكعب عالٍ، وبلوزة بوليستر لامعة، وكان شعرها الغامق تتخلله خصلات شقراء، وتضع مستحضرات التجميل التي جعلتها تشبه عارضات الأزياء، فرغم أنها تبلغ السادسة عشر إلا أنها بدت وكأنها في العشرين. كانت جميلة كفتيات مركز تخطيط الأسرة في قصة وعيد الشيوعي، وقف بجانبها والدها السيد هولوب المعروف أيضًا باسم السيد كابيتاليسمو (الرأس مالي) ممسكًا حزمة من الورق محدقًا في الحادثة.

سألنا: "هل أنتم بحاجة إلى المساعدة؟"

جرينا ثلاثتنا نحو الشارع إلى حيث يرقد كندال الذي حاول الوقوف من بين كومة الصلب والألمونيوم والمطاط.

الفصل الرابع
ضمانات جانبية

قال كندال: "ستقتلني أمي"، إذ غرست علبة من الصفيح في قصبة أنفه التي كانت تقطر دمًا.

قال السيد هولوب وهو يضرب العجلة المتحركة بقبضة يده على سبيل التأكيد: "أنت فتى محظوظ جدًا. فالناس في هذه البلد يقودون سياراتهم كالمجانين، ويزداد الأمر سوءًا عند النساء خاصة تلك المرأة التي حاولت دهسك".

لفت ساندي ذراعها الرشيق على المقعد وتحولت إلى كندال قائلة: "حينما تعرف والدتك ما حدث ستفرح أنه لم يصبك أي مكروه".

"ستسعد إلى حد قتلي وأنا بلا دراجة ولا أبيع صحف ومجلات، أي لا أكسب مالاً".

قالت ساندي: "سيبدأ موسم حصاد الفراولة خلال أسبوع".

رد كندال مستنكرًا: "إنها لسيت وظيفة، بل استعباد".

لم يكن مخطئًا، فقطف الفاكهة وظيفة عديمة الأهمية، لكن الفتيات في شيمان كورنرز لم تجدن شيئًا أفضل، أما الشباب فيحصلون على وظائف صيفية بمرتبات أفضل في شغل البناء أو العمل في خط الإنتاج في شركة شيبكو، إلا أنه يجب أن يكون لهم ترابطات أسرية، وفي حالة ككندال ذو اليد الضعيفة؛ يتيم الأب؛ فقد تُرِكَ للوظائف المتواضعة ضعيفة الأجر كوظائف الفتيات.

فكرت في أن أمسك يد كندال السليمة، لكني تراجعت عندما أدركت أن تحت العلبة الصفيح، كان يوجه نظراته إلى ساندي.

سألت ساندي في محاولة كي لا أسمح للغيرة بالتسلل إلى نبرة صوتي:"لماذا تتأنقين يا ساندي؟"

"كنت أساعد أبي في التعامل مع موظفي البنك حول قرض أعمال، بالترجمة بينه وبين مدير البنك".

قال كندال:"لم أسمع قط عن بنك يفتح يوم السبت". قلبت ساندي شعرها الطويل بجاذبية جنونية وقالت:" لدى أمي صديقة تعمل صرّافة، وقد تحدثت إلى المدير لتتفق معه على تنظيم موعد مع أبي في عطلة نهاية الأسبوع لأنه يعمل في الليل، ولكن يبدو أن الأمور لم تسير على ما يرام، إذ اشترط البنك على أبي أن يكون له شيء يسمى "ضمانات"".

سألتها:"وما المقصود بالضمانات؟"

أجاب كندال:"مال، والمعروف أيضًا برأس المال كما في قصة داس كابيتال".

قلت لها:"أي أنهم يريدون أن يتوفر لديكم المال ليقرضوكم مال؛ هذا جنون".

استدارت ساندي الآن ونظرت إليّ:"كيف حصل والدك يا ديبي على رأس المال اللازم لمصنع النبيذ؟"

تذمر كندال من تحت العلبة وقال:"اقرأي الملصق يا ساندي، إنها مجمعات سباركلنج سبارو للنبيذ إحدى أقسام شركة شيبكو، أي أنهم هم الممولين للسيد بيوندي".

هأنذا فهمت أخيرًا أن أبي لم يكن عاملاً في مجمعات سباركلنج سبارو للنبيذ؛ بل مديرًا لها، لذا لا عجب من شراء غسالة أطباق من ماركة مايتاج، فالجميع تقريبًا في البلدة يشربون نبيذ سباركلنج سبارو اللذيذ؛ نظرًا لرخص ثمنها واحتوائها على نسبة عالية من السكر، وقوية للغاية، حتى شراب العنب غير الكحولي كان مسكرًا، وبناءً على ما رأيت حتى الآن، إزدادت شعبية النبيذ في جميع أشكاله على مدى العام ونصف الماضيين.

قلت لساندي:"آسفة يا ساندي لا أعرف شيء عن عمل أبي"، وأنا أقول في قرارة نفسي يالسخرية القدر أن السيد كابيتاليسمو لا يمتلك رأس المال اللازم.

قال كندال:"ساندي، لا بد أن تسير الأمور مع والدك على خير ما يرام، لأنه يبيع البذلات المضادة للإشعاع، فالطريقة التي تسير بها محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية، تشير أننا سنحتاج هذه البذلات عما قريب".

هزت ساندي رأسها وقالت:"لقد باع الحقوق لهم منذ مدة طويلة بأقل كثيرًا عما تستحق، والآن لديه فكرة جديدة: مطعم أوكراني للوجبات السريعة مثل ماكدونالدز، ولكن مع وجبة البيروجي وحساء الخضار الروسي".

مشى السيد هولوب معنا على طول شارع زي، وقد وجدت منزل كندال في حالة أفضل عن معظم الأماكن الأخرى في الحي؛ إذ بدا الكوخ المجاور مهجورًا، وكسيت نوافذه المكسورة بألواحٍ خشبية؛ فيبدو أن بام بام لم يعد يقطن هناك.

عندما فتح كندال الباب الأمامي، تذكرت حينها ذاك الصباح حينما انفجرت إطارات أبي وظهر المتسلل في أراضي زي، لم أتخطى يومها عتبة الباب قط، تعجبت أكنت هنا منذ ذلك الحين.

دلفت إلى غرفة ذات جدران رمادية شاحبة وسجادة متعددة الألوان، كانت سجادة فارسية - فقد رأيت مثلها في إحدى الأفلام، هذا وقد غطيت الجدران بالأعمال الفنية التي تضمنت اللوحات الزيتية الحقيقية ذات ضربات الفرشاة السميكة القوية. ولم أر قط الكثير من اللوحات في غرفة واحدة من قبل؛ اللهم فيما عدا رحلة مدرسية إلى متحف في تورونتو، وقد تضمنت اللوحات عددًا قليلاً من تنسيقات زهور قديمة وأطباق فاكهة مملة، ولكن كانت هنالك لوحة لحصان يربض تحت شجرة، يتدلى منه صفنه، مما أكسب اللوحة واقعية جعلتها تفوق جميع الصور في كتب والتر فوستر عن كيفية الرسم، وهناك لوحة أخرى صدئة لتمساح المياه المالحة مربوطًا في مربط الحبال، بالإضافة إلى لوحتين من أكبر اللوحات وأفضلها على الإطلاق؛ وهما لوحة الدكتور مارتن لوثر كينج في زي السجن عندما اغتيل في زنزانته ملوحًا بكلماته المضادة للحرب في بيان عُلِّق فوق رأسه، بينما كانت اللوحة الأخرى لوجه صبي وهو كندال في صغره، حدقت إليّ عيناه الكبيرتان الجديتان التي شعرت فيهما بالقلق، خاصة عندما وقف بجانبي.

هذا وقد عُلّق جنبًا إلى جنب مع جميع اللوحات على الحائط، صليبًا تجريديًا يدويًا للمسيح ، ولكن بدلاً من أن يكون جسد هزيل نصف عارٍ، عُبّر عن جسد المسيح بواسطة قطعة ملتوية من الخشب

الداكن. كان هذا الصليب الوحيد في منزل كندال بعكس منزلي، الذي عُلّق فيه المسيح في كل غرفة في هيئته وكأنه يتألم من فرط العذاب ومتوجًا بالأشواك.

وضِعَتْ فوق طاولة القهوة مجموعة من الصور الأبيض في أسود داخل إطار لرجل يبتسم مرتديًا قبعة العمال في شيبكو، ظننت أنه كندال، إلى أن أدركت أنه والده الميت، ديف كندال.

قال لي كندال: "تفضلي اجلسي، هل تفضلين المياه الغازية أم العصير؟"

سألته: "هل لديكم أي مشروب عنب لسباركلنج سبارو؟"

اتسعت ابتسامة كندال وقال: "معذرة لا أقصد الإساءة، إننا لا نشتري أي من منتجات والدك، فأمي تريدني أن أبقى واعيًا برأس هادئة متزنة".

"حسنًا إذن، أي شيء لديك".

ارتميت على أريكة قطنية ناعمة، وشاهدت كندال يختفي في المطبخ، أحببت ذاك المنزل الصغير الهادئ، وقد كان كل شيء في العراء، حتى أنني لم أتخيل أي شخص يحفظ أسرار هنا.

قال كندال في المطبخ: "ما رأيك في الأشياء الجديدة".

نظرت حولي: " ما الجديد؟ ربما تقصد اللوحات، إذا كان كذلك؛ أيهم؟ وهل من المفترض أن أحبها أو أكرهها؟ لأنهم أعجبوني جميعًا"، ثم صرخت مرة أخرى قائلة: "أحببتهم".

"وأنا أيضًا لقد قلت لأمي أنها أفضل أعمالها".

فهمت أخيرًا من تلك؛ والإجابة أن السيدة كندال هي الفنان الذي رسم كل تلك اللوحات، فمحاولة التظاهر بمعرفة ما حدث طوال تلك الفترة أشبه بمحاولة تجميع ١٠٠٠ قطعة ألغاز نصفهم مفقود.

جلسنا جنبا إلى جنب على الأريكة، وفتح كندال علبة الفانتا بيده المشوهة، كان الإبهام والسبابة كما هما في حالة سليمة، بينما قبضت أصابعه الأخرى العلبة كالمخلب، وددت لو لمست هذا النسيج السميك المخيف على مفصل أصابعه، وتسائلت عما إذا كانت ديبي من عام ١٩٧١ قد سبق وفعلت ذلك أم لا.

سألني:" لماذا تحدقين في مخلبي؟"

هذا ما أطلقه على يده "مخلبه"، هززت كتفي وتناولت قراميش الذرة، فلطخت توابل الجبن أصابعي البرتقالية.

قلت له:"كنت أفكر فحسب في مدى استخدامك لهذه اليد".

أجابني وهو يسكب الصودا:"قالت أنجي أنني استخدم كلتا اليدين جيدًا".

أنجي مرة أخرى، حاولت التفكير في طريقة لأفهم ماذا حدث معها.

فألمحت له:"يبدو أن الانفصال عنها أمرًا صعبًا".

هز كندال كتفيه غير مبالٍ وقال:"نعم، أعتقد ذلك. لم يكن هذا قراري حقًا"، ثم استرخى على مسند الأريكة دون أن ينظر إلى عيناي وتابع:"أغراها رجلاً مهمًا في شيبكو بعرضٍ مغرٍ وهو تقلد منصب رئيسة بائعات الهوى، فرَفَضْتُ تمامًا هذا العرضَ وخيرتها بيني وبين شيبكو، فاختارت شيبكو، والآن هي العشيقة الأولى لكبار

ضباط شيبكو، ولا تضاجع من هم أقل من رتبة ملازم الإدارة، هذا بالإضافة إلى الرحلات، والملابس، والحفلات، والمخدرات الجيدة، وجميع أنواع النبيذ التي تسرف فيها".

وضعت يدي على كف كندال المصابة وقلت:"آسفة".

"لا لا تأسفي ولا أنا كذلك، فقد كان يجب أن ننفصل منذ وقت طويل، إذ اختلفت طموحاتنا، فأنجي طموحها الأول هو المال".

سألته:"وماذا عنك؟ بماذا تطمح؟"

رفع كندال يديه كأنه يحاول الإجابة على السؤال في الهواء.

"يبدو غبيًا".

"جربني".

نهض كندال وأدار التلفاز، ثم ألقى نظرة عليّ ويكأنه يحاول إخباري سرًا، لكنه غيّر القناة على مباراة كرة قدم، وعلّى صوت التلفاز للغاية حتى اهتزت أرجاء المنزل، وألقى نفسه على الأريكة بجانبي واضعًا مرفقيه فوق ركبتيه ناظرًا إلى وجهي، حاولت قراءة شفاهه لأعرف ما يقول من بين دوي الحشد العالي.

قال:"أريد إكمال ما حاول أبي الشروع فيه عندما مات، مثل تغيير أشياء الناس في أراضي زي؛ فكل الناس في هذا الحي إما مرضى أو فقراء أو معاتيه، والفتيات الفائضات يعتقدن أن الحل الوحيد هو مضاجعة المديرين، بينما يُرسَل الشباب إلى رحلة القمر بلا عودة، أما الملتوين الفائضون فيُجمَعون لإجراء تجارب الأدوية عليهم؛ حيث تدفع لهم صيدلية شيبكو بضعة دولارات لتجربة أدوية القلب عليهم قبل أن يتناولها المديرين،

وهـم يخبروننـا دومًـا أن العالـم سـينفجر، دون بـذل أيـة محاولة للتصالـح مـع العـدو. فالأمـر يبـدو سـهلاً جـدًا ويكأنهـم يحبـون خوض حـرب مسـتمرة، لذلـك يجـب أن يغيـر شـخصًا مـا هـذا الوضـع، وإلا فلن ينجـو الكوكـب، وأنـا أشـعر بأننـي هـذا الرجـل الذي سـيحمل على عاتقه مهمـة إيقـاظ العالـم".

ثـم أخفـض كنـدال صـوت التلفـاز حتـى أعـاده إلـى وضعـه الطبيعـي، جلسـنا صامتيـن جنبًـا إلـى جنب نشـاهد اللاعب الرئيسـي في فريـق جريـن بـاي وهـو يُفصَـل، وقـد كنـت أفكـر فـي قـرارة نفسـي حيـث اسـتوقفني أوجـه الشـبه بيـن كنـدال وبيلـي.

"كندال هل تقصد أنك توحدت مع الثرثارين؟"

نظـر إلـيّ فـي حذر وهـز رأسـه، مشـيرًا إلـى مـا ظننتـه مذياعًـا صغيـرًا علـى طاولـة جانبيـة - إنـه المـلاك الحـارس لشـيبكو، وفقًـا لاسـم العلامـة التجاريـة علـى واجهتـه مـع كلمـات، مـاذا سـتخفي؟ كان المـلاك الحـارس راديـو تنصـت.

إذن ثمـة شـخص مـا يتنصـت علينـا، انتابنـي هـذا الشـعور المخيـف نفسـه عندمـا خضعـت لجهـاز بـات بـون لكشـف الكـذب الـذي يتوهـج فـي الظـلام.

قـال كنـدال فـي صـوتٍ مرتفـع: "الثرثـارون خرافـة، والجميـع يعـرف ذلـك".

عندمـا قـال ذلـك، التقـط لوحـة وقلـم وكتـب تحـت مذيـاع المـلاك الحـارس لشـيبكو: "سـأحوّل الموضـوع إلـى قصـص مصـورة، تثيـر جنونهـم".

لـف ذراعـه خلـف مقعـدي ثـم قال:"لـديّ شـيء خاص أريـد أن أريكِ إياه: قصة مصورة محظورة أخطأ كريسي في حفظها، إنها مثيرة جدًا لمدونات القصص المصورة، لذا منعوا طباعتها، ولكن تسربت منها بعض النسخ".

ضحكت قائلة:"ليس كريسي من يخطئ في الحفظ".

رد كينـدال: "نعـم، إنها أشياء مثيرة جدًا، فأي شيء له علاقة بالفتيات الحقيقية يجعل كريسي غير مرتاح".

نظرت إلـى الأرض وبدأت أعتقد أن الفتيات الحقيقيات يجعلن كندال غير مرتاحٍ أيضًا، ثم واصل كندال حديثه قائلاً:"دعيني أخبركِ شيئًا؛ تذكرني الفتاة في هذه القصة بكِ".

فتح بابًا مغلقًا يوصل إلـى غرفـة نومـه، وعلى الرغم مما فكرت فيه من عدم وجود أسرار في منزل كندال، إلا أنه بذل جهدًا جهيدًا لإخفاء عدد سبتمبر ١٩٦٧ من مجلة عملاء الانتقام بطولة الزعيم كايل الساحق، والفاتنة الأوروبية الصاروخ كونتيسينا دولوريا دي لارجو؛ حيث كانت مخبأة تحت لوح في أرضية داخل خزانته، وقد أحضر كندال القصة إلى غرفة المعيشة وجلس بجانبي على الأريكة نقلّب الصفحات على ركبتينا.

وكانت كونتيسينا مقاتلة تنحدر من أصول أرستقراطية ذات شعر أسود وعينين زرقاوين؛ ترتدي ملابس تجمع ما بين ثوب راقصة الباليه والبيكيني، كان الزي مفصلاً لجسدها للغاية كما لو رسمت عارية، مع ألوان أضيفت بعناية لتشير إلى الملابس، وتحت ملابسها ظهر صدرها العالي غير المثبت بحمالة صدر في هيئة أظهرت جاذبيتها،

وحلمات ثدييها البارزة كطلقات البندقية، وخصرًا نحيلاً كخصر زجاجة النبيذ تعتليه أرداف مستديرة وفخذين رياضيين، تعجبت كيف تسنى لها الحفاظ على هذا الخصر النحيل بينما باقي أجزاء جسمها ممتلئة، إنه حقًا لجسدٍ قوي، هذا هو الجسد الذي يجب أن أسعي إليه لإنقاذ العالم.

قلت في دهشة: "هل أشبهها حقًا؟"

قال كندال: "نعم، وجهها فقط".

نعم وجهها فقط، هذا ما قلته في قرارة نفسي في خيبة أمل، فأنا لم أمتلك جسدًا بهذا الشكل أبدًا، حيث ظهرت كونتيسينا في الصورة توجه ركلة إلى ما بين فخذي رجل سيء ثم تستدير وتوجه ركلة برجل أخرى إلى فك رجل ثاني، وبعد بضعة صفحات، تظهر كونتيسينا مع كايلي كروشير في بيت العزوبية الخاص بالعمالة السرية.

ففي اللوحة الأولى: يرفع كروشير سماعة الهاتف من قاعدته، مشيرًا إلى العلامة الشهيرة "لا تزعجونا"، وفي خلفية أخرى تظهر كونتيسينا تترنح على مقعد بار وتفك رباط حذاؤها.

اللوحة الثانية: يظهر ظهر كونتيسينا العاري من الخلف وهي جاثية على ركبتيها أمام كروشير، الذي وقف شامخًا أمامها بيدين مقبوضتين محدثًا نفسه: "يا إلهي إنها جميلة لدرجة أنني لست متأكدًا من قدرتي على التحكم في نفسي".

قال كندال محذرًا: "هنا تبدأ النجاسة".

رفرفت أجنحة نفاذ الصبر في مخيلتي حتى انفتح الباب

الأمامي قبل أن يقلب الصفحة، كانت السيدة كندال التي وقفت أمامنا تحمل حقائب من مطعم A&P، وقد فتحت فاها قليلاً حينما رأتني ولكنني لم أرى تعبيرات عينيها لأنها كانت ترتدي نظارة شمسية.

قال كندال: "أمي"، بصراحة وكأنه سيذكر حقيقة.

قلت: "مرحبًا سيدة كندال"، محاولة التظاهر بالبراءة، لكنها لم تنخدع بذلك، وخلعت نظارتها ثم وجهت إليّ نظرة كأنها تقول لي ماذا تفعلين بابني.

نظرت إلى وجه كندال وقالت: "ماذا تفعلين هنا يا ديبي بيوندي؟" حتى سقطت منها حقائب الخضراوات، ثم واصلت حديثها: "جون ماذا حدث لك؟ هل كنت تتعارك؟"

تمتم قائلاً: "سقطت من فوق الدراجة، الأمر لا يبدو سيئًا إلى هذه الدرجة"، ثم التقط الحقائب من أمه.

ألقى كندال نظرة سريعة عليّ ثم على أمه، وانصرف بالحقائب إلى المطبخ، وقد تركنا نحدق في بعضنا بعض.

حاولت التبسم لكن عضلات وجهي منعتني؛ إذ إنني لم أر قط السيدة كندال ترتدي شيئًا جديدًا سوى الحلة الرمادية والقبعة التي تعمل بها أو ملابس الكنيسة، إلا أنها في هذا اليوم ارتدت بنطال جينز وقميصًا مجعدًا وصنادل جلدية، مما جعلها تبدو أصغر من أمي بسنوات عدة، رغم أنهما في عمر واحد تقريبًا.

قلت لها: "أحببت لوحاتك الجديدة سيدة كندال".

قالت لي دون أن تبتسم: "شكرًا".

تورد وجهي ونظرت إلى أسفل متظاهرة بالنظر إلى رباط حذائي، لكنني كنت أتساءل عما تظن السيدة كندال أننا نفعل؟ هل نتدحرج مثلاً فوق الأريكة الزرقاء الجميلة نلمس بعضنا بعض؟ ليس هذا ما كنت أفكر فيه.

رأيت في وجهها إحساسًا وكأنها تود أن تقول لي أن أغرب عن وجهها الآن، فتمتمت وودعتها.

وفي الخارج، التقط كندال دراجتي من خلف مقلب علب النفايات، فامتطيت الدراجة وحملت القصة المصورة.

هز رأسه قائلاً: "خذيها".

قلت له: "يؤسفني أن والدتك لا تحبني".

قال لي: "إنها تخشى أن أقع في المشاكل مرة أخرى مثلما حدث مع أنجي".

انحنيت على مقابض دراجتي وسط ظلمة الزقاق، بين ظلام أمه التي ترفضني على جانب الجدار الرقيق، وكنيسة منزل هاربيت توبمان العالية بطلة السكك الحديدية تحت الأرض، إلى أن قبلني كندال، حيث جمعت رائحة فمه بين نكهة البرتقال الصناعية والبوجلز، حتى سقطت قصة كايلي كروشير وكونتيسينا من يدي.

لمست وجه كندال، فالتقط القصة ووضعها في صندوق الدراجة، وأراح جبهته على جبهتي ثم قال: "سأستعير دراجة أخرى، وآتيكِ غدًا، هل ستمانع أسرتك؟"

هززت كتفي: "لا يهمني إن كانوا سيمانعون أم لا، تعال فحسب".

وقفنا معًا تستشكف ألسنتنا رذاذ الجبنة الصناعية في أفواهنا، حتى ابتعدنا تدريجيًا عن بعضنا واتجهت إلى المنزل.

مررت بلوحة إعلانات في سوق بشارع زي وطريق فيرما وقد نقشت عليها كلمات جرافيتي على شكل جملة: شيبمان تقتل، غير أنها استبدلت الآن بإعلان عن مشروب سباركلنج سبارو الوردي "النبيذ الوردي، وقت الاحتفال!"

وعندما قدت الدراجة بمحاذاة فتاة ضخمة الوجه تمط شفتيها لتحصل على قبلة، تخيلت الأشياء غير المنطوقة بين كايلي كروشير وكونتيسينا التي فعلوها بين بعضهما في صندوق دراجتي، فقد حيرني التفكير في هيئاتهم القتالية الإجرامية كثيرًا حتى شغلني عن صوت همهمة محرك سيارة ذات تصميم جيد، وحينما أسرعت السيارة لتتجاوزني، وجدتها سيارة الموستانج السوداء التي خبطت كندال ذات الكوابح وألواح نيويورك، فألقيت نظرة في لوح السيارة المتوهج على سائقة السيارة ذات الشعر الأشقر وقبعة الممرضة التي لم تدر حتى رأسها لتنظر إليّ.

قدت تقريبًا فوق مصرف المجاري حينما أسرعت السيارة، التي أطلقت عن بعد من الإضاءة الخلفية للسيارة ضوئًا للإشارة إلى الانعطاف قبل أن تختفي في الظلام.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الخامس

إفطار في كوكب الأمهات

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي في غرفة نومي المشمسة، استيقظت على صوتٍ بعيدٍ من رنين الهاتف وأمي وهي ترد عليه، فركت عيني لأمحو الصورة الضبابية ثم تذكرت أنني أرتدي نظارة الآن، وقد كان إطار النظارة يحملق فيّ على طاولتي الليلية، حتى ارتديتها ومن ثم لاحت الغرفة أمامي جيدًا.

لقد تغير شيء ما بين عشية وضحاها؛ إذ صار الهواء في غرفتي أكثر انتعاشًا، وأصوات المرور تتسلل من نافذتي بهدوء، وزقزقة العصافير باتت مسموعة بدلاً من أصوات المحركات، فاستلقيت على وسادتي ومددت يداي في دلالٍ.

تمنيت ألا يظهر المتسلل أبدًا؛ فنحن الآن في الصيف وأسرتي غنية وأعيش حالة حب.

ربما قفزتي الزمنية هي فقدان ذاكرة مؤقت سببتها ضربة شمس، وربما أي شيء ظننت أني أذكره، كوجود المتسلل في مكتب طبيب الأسنان وتحولي المفاجئ من الطفولة إلى الأنوثة، كان سرابًا، كرؤية باجز باني (الأرنب المزعج) في واحة الصحراء عندما اتخذ منعطفًا خاطئًا في البوكيرك.

حتى لو قفزت قفزة حقيقة بالزمن إلى المستقبل، لماذا يجب عليّ أن أكون أنا الشخص الذي سينقذ العالم؟ ومن قال أن العالم بحاجة إلى إنقاذ بالفعل؟

تقلبت على جنبي لأرى سرير ليندا الذي كان خاليًا، فنهضت وارتديت ردائي الوردي ونزلت من درج الرواق حافية القدمين، بعدما تجاوزت زاوية الحائط التي نصب فيها تمثال العذراء الجبسي للحراسة أمام منضدة الهاتف، كانت يداها تفتح معطفها الأرزق بتوسع كأنها تريد قول:"هو ذا، لا شيء تخبئيه هنا يا صغيرتي، ماذا عنكِ؟"

عندما رن الهاتف، نظرت إليّ عينا مريم العذراء المنخفضتان، كأنها تقول:"هيا، ماذا تنتظرين، ارفعي السماعة".

ترددت في قرارة نفسي، ماذا لو كان المتسلل يتصل بي ليقنعني بالخروج من حالة الجمود السعيدة التي أعيشها إلى ما لا أعلم عقباه؟ رفعت السماعة بحذر لأعرف من المتصل.

"مرحبًا؟"

"أخبريني كل شيء بلا استثناء".

قلت:"مرحبًا يا ساندي"، وأنا أتثائب وأحك تحت صدري، حيث أشعر أن حجم صدري المتضخم يسبب الحكة الشديدة.

"أشعر بالغيرة الشديدة، فكندال شاب رائع وجذاب وذكي، وأهلي لن يسمحوا لي أبدًا بالخروج مع رجل ملون".

أحسست بنفحة من القلق عند كلمة ملون.

سألتني قائلة:"هل تحبون بعضكما؟"

"نعم أعتقد ذلك"، أجبتها وأنا أنظر إلى باب المطبخ حيث أشك أن أمي تحوم فيه.

قالت: "هل يسمعك أحدًا؟"

قلت لها: "يمكنك أن تقولي ذلك".

"إذن اتصلي بي مرة أخرى على التليفون الآخر، ثمة شيء مهم أود أن أسألك عنه".

نظرت إلى وجه العذراء الصافي ثم أغلقت الهاتف ونزلت بالدرج إلى القبو، حيث ركَّب أبي تليفونًا آخر في ورشته عام ١٩٦٩ وقد ظل في مكانه كما هو، واتصلت بساندي.

"أنا ثانية"، قلت ذلك عندما ردت على الهاتف:"ليس لديّ المزيد عن كندال لأقوله سوى أنه قادم إلى هنا".

قالت ساندي:"سيغضب والديكِ".

أجبتها:"لا يهمني".

قالت ساندي:"أعرف أن كندال قد ترك تلك الفاسقة أنجي من أجلك، لذا يمكننا الحديث أكثر عن ذلك حينما تأتي معنا إلى شلالات نياجرا، فقد عقد أبي اجتماعًا مع المقرضين على منضدة متجر روك هاوس يوم السبت المقبل، وقال لي أنهم يريدونني أن آتي".

سألتها:"من هم المقرضين؟"

"إنهم كالبنك، ولكنهم رجل واحد، اسمه لاري كوالتشوك، وقد طلب من والدي أن يجلب فتيات رقيقة للاجتماع؛ فهل تأتي؟"

وافقت ولم أفكر لماذا يريد لاري المقرض فتيات حوله أثناء عمله.

"مهلاً ساندي، منذ متى وأنا أرتدي النظارات؟"

ساد صمتٌ متحيرٌ في التليفون متبوعًا بضحكة ثم قالت ساندي:"ألا تتذكرين منذ متى وأنتِ ترتدين النظارة؟ يبدو أن ذلك الرجل قد أطار عقلكِ".

قلت لها في إصرار: "إذن أخبريني".

"لا أعرف، ربما ستة أشهر. ما أتذكره هو أنه يجب ألا تنسي ارتداء العدسات اللاصقة حينما تأتي إلى الشلالات. مفهوم؟"

"هل أرتدي عدسات لاصقة؟"

ضحكت مرة أخرى: "لقد إزدادت حالتك سوءًا يا فتاة، أراكِ لاحقًا".

أغلقت الهاتف وكنت على وشك الصعود إلى الطابق العلوي عندما لاحظت بابًا معدنيًا بلونٍ أخضر باهت بمزلاج معطل ثبّت في الجدار حيث استخدم باب خشبي مجفف لفتح قبو بارد، سحبت المزلاج وتوقعت أن يكون الباب مغلقًا، لكن الباب انفتح على أرضًا مليئة بالزيت.

عم الظلام المكان، فتحسست الجدار الداخلي بحثًا عن مفتاح النور، حتى أضيء أنبوب فلورسنت فظهرت خمسة أجسام تجلس في وضعية مستقيمة فوق مقاعد مصفحة، واضعين أيديهم على ركبتيهم، كانوا أشخاصًا مصنوعين من المعدن والبلاستيك يسترخون في الظلام كأنهم ينتظرون عرض فيلم.

خفق قلبي، فخطوت إلى داخل الغرفة لأنظر إليهم.

لم تكن أجسامٌ، بل بذلات كاملة للجسم كبذلات الفضاء، مع أقنعة وجه، وخوذات، وقفازات، وأحذية، وكان هنالك بذلة سوداء، واثنين رماديتان، وواحدة وردية، وواحدة بنفسجية، وقد علق على صدر كل بذلة لوحة نحاسية صغيرة، كتب عليها اسم من أفراد عائلتنا: الأب، الأم، ليندا، ديبي، الجدة.

كانت البذلة البنفسجية لي، وقد بدت كبيرة جدًا عليّ حتى تذكرت أنني الآن كبرت في غمضة عين وأصبح لي جسدًا جديدًا.

كانت البذلات مضادة للإشعاع، بعدد أفراد أسرتنا، وهي الخطوة التالية الحتمية في النجاة حال وقوع الهجوم النووي، فقد تركنا ملاجئ القنابل؛ ففي البذلات المضادة للإشعاع، لديك حرية التحرك في العالم المشع لأسابيع إلى أن تنخفض مستويات الغبار الذري بما يكفي لتنفس الهواء، على الأقل هذه هي الطريقة التي وصف بها السيد كابيتاليسمو تلك البذلات حينما داهمته فكرة تحويل بدل الغوص إلى ملاجئ إشعاعية، ولم يأخذ أحد كلامه آنذاك على محمل الجد عام ١٩٦٩ سوى أبي حتى الآن.

خمسة بذلات لعائلة من خمسة أفراد، لا بد أن أبي قد غير رأيه حول عدم جدوى البقاء للأقوى بعد الحرب النووية.

لاحظت أن مؤخرة كل بذلة موصولة بخرطوم أبيض ينتهي بصندوق معدني كُتِبَ عليه "نفايات"، وخلف البذلاُت رأيت أرففًا امتدت من الأرض حتى السقف تحمل صناديق من الطعام المجفف مصنف حسب نوعه، مع صفوف من زجاجات سباركلنج سبارو، والنبيذ الأبيض والأحمر، والشمبانيا المتلألئة، لم يكن ذلك ملجأ للقنابل، بل غرفة تغذية وتصفية، ومكانًا كحانة السُكر؛ إذا فشلت كل الطرق الأخرى، ثم أغلقت الباب وصعدت على الدرج إلى المطبخ.

وقفت أمي عند الحوض تغني مع أغنية في الراديو، "اربط شريطًا رقيقًا حول بوكي القديم".

استدارت ونظرت إليّ ثم قالت لي باسمة:"هل تتناولين بيضًا على الإفطار؟"

قلت: "مقليًا رجاءً... أين ليندا وأبي؟"

قالت أمي:"لقد اصطحبا الجدة إلى أحد الطلاب الذي زارنا"، ثم أخرجت علبة البيض من الثلاجة وتابعت حديثها:"يقول أبي أن الشاب بدا مستأجرًا جيدًا".

جلست على المنضدة استمع إلى الصوت الصادر عن غليان الزيت بالمقلاة ودندنة أمي السعيدة بغرابة، وقد وقعت عيناي على الربطة المجعدة خلف مريلة المطبخ الذهبية من ماركة هارفست والتجعيدات الجميلة في شعرها الرمادي، وأحذية التنس البيضاء الساطعة. ما هذا الكوكب الذي انتقلت إليه؟

وضعت أمي طبق البيض أمامي مع كمية صغيرة من الكاتشاب والخبز المحمص المحلى بالزبدة، تمامًا مثلما أحب، وقبل أن أقرر التخلص من الوزن الزائد، على الطريقة نفسها التي اتبعتها إليزابيث، تناولت قضمة من البيض وجلست أمي أمامي على المنضدة وهي تضم يديها.

"إذن ما الذي أسمعه بينك وبين بائع الجرائد؟"

وقفت اللقمة في حلقي وقلت:"ماذا؟"

فركت قطعة من صلصة الطماطم المجففة من على حافة مناديل الطاولة بظفر إبهامها، وهي واحدة من مجموعة مؤلفة من أربعة مناديل طبعت عليها لوحات فنية شهيرة؛ جاءتها هدية مجانية من اشتراكها السنوي في مؤسسة ربات المنزل في كانوسا، وقد استخدمت منديلاً رُسِمَتْ عليه زهور عباد الشمس لفان جوخ.

"قالت والدة كندال ذلك"، ثم تابعت:"بأنكِ وابنها كنتما معًا أمس، ووقع حادث أصيب فيه، وقد وجدتكما في المنزل تجلسان على الأريكة بمفردكما"، ثم سكتت للتأثير وقالت:"اعتَقَدتُ أن أنا ووالدك نود أن نكن على علم".

هززت كتفي وقلت:"تقابلنا أنا وكندال عند كريسويل لشراء القصص المصورة، ما الخطب في ذلك؟ ثم سرنا بالدراجات سويًا حتى صدمته سيارة، لقد كنت أتأكد فقط أنه بخير، إلى جانب أن الملاك الحارس لشيبكو كان يسمع كل شيء طوال الوقت في بيته"، فقدت شهيتي وشعرت أن عيون البيض الشهية تشبه العيون في أفلام الكرتون وهي تحدق فيّ، قلت: "جون كندال رائع جدًا".

"نعم إنه رائع وكذلك أمه ولكنهما مختلفان عنا"، ثم نظرت أمي إلى البيض وقالت:"فلتكملي إفطارك، وإلا سيبرد البيض".

غمست قطعة من الخبز المحمص في عين البيض الذهبية حتى ظننت لوهلة أن عين البيض تصرخ.

قلت بعصبية:"لم أكن أعتقد أنكِ أنتِ وأبي متعصبان".

جلست أمي ثانية على مقعدها وقالت:"أنا وأبيك لسنا متحيزان"، ثم استطردت وهي تطمئنني:"كيف يمكن أن نكن كذلك وقد نشأنا في بلدة غير إيطالية وغيّر أهلها أسماؤنا إلى الدخلاء وآكلي الثوم".

"بالضبط. كيف سيكون شعورك إذا لم يردك الناس أن تصاحبي أبنائهم فقط لأنكِ إيطالية؟"

"ولكن ياكارا ماذا لو أنتِ وكندال أحببتما بعضكما وتزوجتما، فكري في أولادك؟"

بدأت عين البيضة السليمة في طبقي تسقط دموعها حتى طعنتها بحافة الخبز المحمص.

"أية أولاد؟ لقد كنا نتحدث، نتحدث فحسب، هل تخشين أن نطفته ستقفز من جسمه إلى جسمي عبر الأريكة؟ أنا لست ليندا، تعلمين ذلك".

أشاحت أمي بوجهها بعيدًا، فقد فتحت موضوعًا لا يحبذ التحدث فيه.

قالت أمي باقتضاب:"سنناقش هذا لاحقًا، اذهبي وارتدي ملابسك".

أخذت أمي قطعة البيض غير المأكولة فدخل أبي وليندا إلى المنزل ومعهما المستأجر الجديد.

قال أبي:"وهذه الكسولة هي ابنتي الصغرى، ديبي دعيني أعرفك على بنيامين دافي، ولكن الجميع يناديه بداف"......أوه لا.

ابتسم المتسلل إليّ، وبدا أصغر كثيرًا عما كان في مكتب طبيب الأسنان حينما فعل فعلته الخرقاء وجعلني أقفز عبر الزمان، وقد قص شعره الطويل قصة حديثة وارتدى قميصًا أبيضًا نظيفًا وبنطال خاكي؛ بدا وكأنه قد اشتراه أمس فقط من شركة وولكو من المال الذي كسبه من كريسي، هذا وقد تدلى صليبًا من الذهب من رقبته، مما يعطيك نفحة غير خطرة من التقوى بطريقة فكرية شعبية، ويكأنه يعي تمامًا كيف يقدم نفسه لعائلتي كي تثق به، ولكن

كان التغيير الأكبر؛ أن إصبعه الأوسط في يده اليسرى سليماً وغير مقطوعًا من عند المفصل.

غمز لي وقال:"مرحبًا بكِ يا أختي الصغيرة".

حدقت في وجهه الوردي المقشّر بأسوأ حروق شمس تراها، وشممت رائحة القرفة من أنفاسه، وقد بدا أصغر كثيرًا عما كان في ليلة الهالووين عام ١٩٦٩ وهو يلتقط أعداد الـ ٤٥ من حفلة متجر الحلوى.

لم يكن هنالك أي مجال للشك الآن، فقد قفز المتسلل إلى حياتي مرة أخرى.

الفصل السادس
تاريخ داف

قلت وأنا أصافح داف:"يالها من مصادفة، لقد رأيتك أمس خارجًا من متجر كريسويل"، كان ممثلاً رائعًا وهو يتظاهر أننا لم نلتقي من قبل.

غمز داف أبي على الطريقة التي يفعلها ابن ناضج لأبيه كي يظهر أنه يفهمه.

قال لي:"لا توجد مصادفات، لقد رأيت اللافتة الإعلانية لشقة الإيجار على متجر كريسويل".

قالت أمي:"أتمنى أن تقبل عزومتنا على الإفطار"، ثم أفسحت مكانًا لداف بجانب ليندا التي ابتسمت له ولكنها لم تستطع أن تتعرف عليه على أنه الرجل الذي جادل بيلي في حفل الهالويين.

وعندما خطت الجدة بيبي إلى المطبخ يتبعها كلبها بيبي السابع، قدمها أبي رسميًا إلى داف قائلاً:"السيدة بيتالونجا، صاحبة الشقة"، نظرت جدتي إلى داف بنظارتها ثم قالت:"سررت بلقائك"، ولكنها لم تبد مسرورة جدًا إلى أن قال:"يبدو أنكِ درستي الإنجليزية في الجانب الجنوبي الشرقي من مدينة نيويورك إن لم أكن مخطئًا".

رفعت جدتي حاجباها ثم أردفت باسمة:"يبدو أن لديك قدرات روحانية، هذا صحيح، فأنا فتاة من مدينة نيويورك، ولكني أحب المنزل الهادئ".

قال داف:"لا تقلقي سيدة بيتالونجا، فأنا أحب الكتب".

تنحنحت أمي وقالت:"لما لا تحدثنا عن نفسك يا سيد دافي؟"

"نادوني داف، ليس لديّ الكثير لأقوله؛ أنا من كونكورد في ماساتشوسيتس، أنهيت دراستي الجامعية في نوتردام".

قال أبي موافقًا:"جامعة كاثوليكية جيدة".

أومأ داف برأسه موافقًا ثم تابع:"كنت أجري بحثًا في المدرسة العليا في معهد ماساتشوستس عندما ظهر تاريخ ميلادي في مشروع اليانصيب لحروب الدومينو، لذلك أنا هنا في كانوسا".

سألته ليندا:"ما هو نوع البحث؟"، بدأت ألاحظ كيف كانت تنظر إليه باهتمامٍ شديدٍ مثل متسابقة ملكة الجمال التي تعري المضيف عقليًا.

قال مترددًا:"يصعب قليلاً شرحه يا ليندا؛ إذ كنت أعمل في مجال جديد، وهو فرع جديد من الأحياء والهندسة وهو الروبوتات؛ من حيث المضمون".

حرّك أبي يده في الهواء وقال:"يا إلهي الروبوتات، ستوقّع معك جامعة سانت ديسماس، سواء تدربت أم لا".

قالت ليندا موافقة:"بالتأكيد"، وهي تنظر إلى داف في إعجابٍ شديد.

تراجعت في مقعدي وأنا أراقب عائلتي، حيث بدا وكأن داف قد سحرهم؛ فأمي عادةً ما تشكك في الغرباء حتى تعرفهم لعقدٍ أو عقدين، وقد غرفت المزيد من البطاطس المقلية ولحم الخنزير المقدد في طبقه دون حتى أن تسأله.

قال أبي:"والآن علينا التفكير فيما سنفعل في براميل النبيذ الموجودة في المكان الذي ستقطن فيه، فحماي قد حفظ كميات من النبيذ في تلك البراميل تكفي لثلاث سنوات، لذا فإن تعبئتها في زجاجات سيستغرق أسابيع عدة، وفي الوقت ذاته أكره أن أسكبها في الصرف".

وضع داف الشوكة والسكين وشبك أصابعه ثم قال:"أبسط الطرق هي أتمتة العملية؛ أي ضخ النبيذ من البراميل عبر الفناء إلى القبو للتعبئة، إنها الفيزياء، وكل ما سنحتاجه هي خراطيم مياه ومضخة، وملء الزجاجات وسدها على طريقة خط الإنتاج، ربما سنحتاج في تلك المهمة إلى خمسة أفراد على الأقل".

أومأ والدي برأسه موافقًا ثم قال:"سيكون أنا وأنت وديبي وليندا...".

قالت أمي:"لا تنظر إليّ.... البخار وحده سيضرني".

لوحت بيدي في الهواء وقلت:"جون كندال يبحث عن عمل".

قال أبي:"كم سيحتاج من المال؟"

اعترضت أمي:"كارلو، لا تشجعها".

قلت:"خمسة دولارات تكفي".

قال أبي وهو ينظر إلى أمي:"حسنًا، سنرى كيف سيسرع إلينا؟ فنحن بحاجة إلى المساعدة، ولن أمانع من وجود هذا الفتى طالما أنني أراقبه".

استعار كندال دراجة من أحد الجيران، وسار بها في فترة ما بعد الظهر، ورغم أن أبي وأمي قد قابلوه عند الباب مرات عديدة لجمع الصحف؛ قمت بعمل تعارفات رسمية.

صافح أبي كندال ونظر إلى يده المشوهة.

"أنا متأكد أنك مستعد للعمل، لكنني غير واثقًا إن كنت تستطيع تعبئة زجاجات بيد واحدة".

أزعجتني إشارة أبي الحادة إلى إعاقة كندال، فهز كندال كتفيه ثم أردف:"طالما لا أحد يطلب مني العزف على البيانو، إذن يمكنني استخدام يدي جيدًا في أغلب المهام".

ضحك أبي وقال:"أتذكر والدك في المصنع، لم أكن أتفق مع حشده الفوغائي، لكنه كان رجلاً صالحًا، والآن لنباشر العمل".

بدأ داف في مهمته بتفريغ براميل النبيذ مستخدمًا المضخة التي نظفها أبي عندما أغلقت ورشة الميكانيكا المحلية، وقد جمعّنا أنا وليندا جميع خراطيم المياه في حديقة المنزل وبرمناهما معًا لتكوين ثعبانًا مطاطيًا يبتلع الخمر ثم يتجشأه.

وقفت ليندا وداف عند نهاية المضخة، بينما وقفنا أنا وكندال وأبي ننتظر عند طاولة العمل تحت نافذة القبو بجيشٍ من زجاجات النبيذ الفارغة وماكينة سدادة النبيذ القديمة الخاصة بجدي.

قال أبي آمرًا:"كندال وأنا سنعبئ الزجاجات، وأنتِ ستتولين سدها يا ديبي"، وعندما بدأ النبيذ في التدفق، اكتشفنا سريعًا مشكلة في خطة داف، فحتى ولو كان اثنان يقومون بالتعبئة وواحدٌ يسد؛ لم نستطع الاستمرار، ففي غضون دقائق غرقت ملابسنا بالنبيذ، وطفح

النبيذ الأرجواني السميك إلى الأرضيات، متخللاً أحذيتنا، حتى أصابتني الأبخرة بالدوار.

صاح أبي:"مهلاً، مهلاً، مهلاً؛ ديبي أسرعي إلى البيت المجاور وأخبري داف أن يغلق المضخة".

أشار كندال:"يجب أن يغلق التدفق كل بضعة دقائق حتى يمكننا الانتهاء، وربما يجب علينا تفريغ الخراطيم في أواني الطهي أولاً، ثم في الزجاجات. لن يمكننا العمل بالسرعة الكافية بهذه الطريقة".

أومأ أبي برأسه:"هذا ما كنت أفكر فيه يا بني".... بني؟ !!

أسرعت إلى البيت المجاور لأخبر داف بالخطة الجديدة، وعندما عدت، بدا واضحًا أن والدي وكندال قد انخرطا في محادثة، حيث أمد أبي كندال بمعلومات عما يريد القيام به في حياته، وبينما كنت أنزل سلالم القبو باضطراب، سمعت كندال يقول:"أفكر في الصحافة لكن أمي تريدني الالتحاق بكلية الحقوق".

أومأ أبي برأسه:"القانون تجارة جيدة للرجل، حيث يمكنك دائمًا تأليف كتب مثل إيرك ستانلي جاردنر".

فقال كندال: "بيري مايسون؟!! أفضل كتابة أشياء مثل رواية "Fail-safe".

أومأ أبي:"لست من المعجبين بالروايات الخيالية كثيرًا ولكن Fail-safe مشوقة جدًا إلى حد إنها أخافتني للغاية".

سأله كندال:"أتعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث؟ أعني هل يسبب بعض الخلل حرب نووية عرضية؟"

قال أبي: "بالتأكيد يمكن أن يحدث؛ إنها مسألة وقت".

وقفت أستمع على الدرج؛ إذ لم يجري أبي معي محادثة كهذه من قبل، ولم يناقشني أبدًا عن طموحاتي المهنية، فقط جام ما يطلبه مني هو الحفاظ على درجاتي.

وبمجرد أن امتلأت آخر زجاجة نبيذ وسُكّرتْ، جلسنا جميعًا حول مائدة مطبخ جدتي، إلى أن سكب والدي زجاجات لكل منا: منها زجاجة من جعة الزنجبيل المفيدة لقطع الطعم الحامض لعنب الكانوسا المحلي؛ إذ كانت تشكيلة الكروم الشمالية قوية مما جعلت طعم النبيذ شديدًا.

قال أبي رافعًا زجاجته: "مرحبًا؛ إنها ليست وفق معايير سباركلنج سبارو، ولكنها ليست سيئة لنبيذ الحديقة الخلفية، أليس كذلك؟"

تسلم أبي من داف إيجار أول الشهر وآخره، وعرج إلى الباب المجاور ليذيق جدتي بيبي وأمي خمر جدي المعتق، وفي الوقت نفسه، نزلنا أنا وداف وليندا وكندال على الدرج لرؤية شقة داف الجديدة، حيث تحولت من غرفة ضيقة، مظلمة، ذات رائحة ترابية إلى غرفة أخرى، بينما أخبرت ليندا داف ببرنامجها الدراسيّ في جامعة تورونتو، إذ أنهت للتو السنة الثانية.

أحنى داف رأسه للوراء، وأرجع عموده الفقري مثلما فعل في متجر كريسي ثم قال: "أفتقد الحياة الأكاديمية، فقبل أن أتسلم بطاقة اليانصيب، كنت أحضّر رسالتين دكتوراه في علم الوراثة والهندسة الحيوية".

رفعت ليندا حاجبيها بدهشة حتى تجعدت جبهتها قائلة: "رائع، لست متأكدة مما يكون هذا حقًا".

قال داف وهو يمرر يده على شعره: "لست متفاجئًا، فهي لم تكن موجودة حتى الثمانينيات، مثلما ترين يا ليندا، أنا جئت من المستقبل".

الفصل السابع
أكثر حرارة من الجحيم

كان التشابه بين داف والمسيح قد جعل ليندا تصدق كل ما يقوله، فيما عدا كندال الذي بدا مرتابًا حتى سأل داف:"من أي عام أتيت؟"، أجاب داف:"ولدت عام ١٩٩٦، وقد عُدّلت السنة التي قفزت فيها بسبب التغيرات المدجزرية التي من المفترض أن تكن أو ربما ستكون في عام ٢٠١٩، فأزمنة الفعل مخادعة حينما تقفز عبر الزمان". أجرت ليندا مسألة حسابية ثم قالت:"إنك في الثالثة والعشرين من العمر"، وذلك في نبرة صوت تدل على أنه أفضل عمر لكل الرجال.

قاطعه كندال ساخرًا:"وكيف يبدو المستقبل إذن يا داف؟"

أجاب داف وهو يفرك فروة رأسه:"أحر من الجحيم، لهذا السبب حدثت لي كل تلك الحروق؛ حيث فقدت درعي الشمسي أثناء عاصفة رملية في صحراء ماساتشوستس الكبرى، وقد ظننت أني سأحترق حتى الموت إلى أن عثرت عليّ جمعية البحث والإنقاذ اللذين لم يكن أمامهم خيارًا سوى القيام بقفزة طوارئ، وقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة أمامي للهروب من الشمس بسرعة".

اقتربت ليندا منه ولمست إحدى وجنتيه المحترقة، فتراجع على الفور واستطردت:"أعتقد أن لدينا بعض الصبار في خزانة الأدوية".

جلس داف في الطابق العلوي في المطبخ ذو الأرضية الفينيل القديمة، وقد دهنت ليندا وجه داف بعجينة بلون أخضر باهت لاصقة من إناء، مما جعل وجه داف شبيهًا بالطحلب.

سألت داف: "لماذا ٢٠١٩ ستكون حارة جدًا يا داف؟ هل ستقترب الأرض من الشمس؟"

هز داف رأسه وقال: "تزداد طبقة الغلاف الجوي ضعفًا مع الوقت، وأنتِ لم تشعري بعد بذلك، ولكن بعد خمس أو ست سنوات من الآن سيبدأ العلماء أخيرًا بتحذير الناس من احترار الأرض".

سألت ليندا: "وما سبب ضعف الغلاف الجوي؟"

نظر إليها داف بحزنٍ شديدٍ وقال: "لا أعلم إن كان يفترض إخبارك بهذا يا ليندا أم لا، فقد يصعب عليكِ تحمل ذلك".

قالت ليندا: "عليك أن تخبرنا يا داف".

بدت عيناه الزرقاوان وكأنهما تتفحصها ثم قال: "أحيانًا من الأفضل ألا تعرفي ما ينتظرك".

وضعت ليندا يداها فوق وجهها ثم قالت: "أوه لا، سيلقون القنبلة أليس كذلك؟"

أومأ داف برأسه وقال: "سينهي الإشعاع النووي ما بدأه جيل آباؤكم بما يسمى الحرب النووية الردعية؛ إذ اتضح أن تلك الحرب لم تمنع أي شيء سوى المستقبل".

وضعت ليندا رأسها بين ذراعيها.

قال كندال معترضًا: "مهلاً انتظر دقيقة، لقد قلت أن هذا يحدث بالفعل، إذن كيف يمكن ذلك إذا كانت القنبلة لن تُلقى لسنوات؟"

قـال داف:"إنكم لا تفهمونني ياشباب أليس كذلك؟ ستفجر الحرب العالمية الثالثة جزءًا كبيرًا من الغلاف الجوي مدمرة طبقة الأوزون الواقية التي تمنع الشمس من حرق الأرض، إلا أن التأثير الحراري سيلاحظ الآن، إذا ما نظر أحد إليه، وقد انفجرت القنابل الذرية الأولى عام ١٩٤٥، ومن ثم هناك ميجاطن من الاختبارات الذرية منذ ذلك الحين، وهكذا، ألا تعلمون تداعيات ذلك على المدى البعيد؟ ناهيك عن أن نيكسون سيبدأ الاختبارات تحت الأرض بالقرب من ألوشيانز، وهذا ما سيغضب السوفيتيين مما يضعنا على طريق نهايته مأساوية للغاية عندما يضغطون على الزر عام ١٩٧٩".

همست له:"ماذا سيحدث وقتها؟" وأنا أفكر في تحذير داف لي عن الحرب النووية التي ستندلع عام ١٩٧٩ عندما كنت في عيادة طبيب الأسنان.

أغلق داف عيناه ثم قال:"ستكتسح أولاً العواصف النيرانية الكوكب، ثم يأتي بعد ذلك المطر الذري، حيث يسقط الغبار الذري في قطرات المطر، وستتحول المدن إلى مقابر مهولة، وستكون نيويورك وباريس ولوس أنجلوس مدن أشباح تكتظ بالموتى والمحتضرين، مما سيترتب عليه مايلي: انقراض الحيوانات، ونقص المحاصيل الرئيسية، وفوضى، وتشوهات خلقية"، ثم فتح عينيه ونظر حول المنضدة لثلاثتنا وأردف:"هل تريدونني أن أكمل؟ إنكم تعيشون في آخر الزمان يا أولاد، فاستمتعوا بحياتكم، وعندما ولدت، آسف؛ أقصد سأولد؛ ستكون معظم المدن الكبرى التي تعرفونها موجودة فقط في كتب التاريخ، لذا يفضل أن نرى نيويورك قبل أن تنهار في المحيط الأطلسي".

فكرت في جدتي بيبي مرة أخرى في بيتنا مع أمي وهي تستمع إلى أوبرا الميتروبوليتان في نيويورك على الهواء مباشرة في الراديو، في أثناء غسيل الأطباق، بالتأكيد لن تتحمل جزءًا من تلك الأخبار.

قال كندال بإصرار:"لا أفهم ذلك، لقد قلت أنكِ قد تم أختيارك في اليانصيب؛ إذن كيف عرفتك الحكومة وأنت لم تولد بعد؟ وأين أرسلوا بطاقة اليانصيب الخاصة بك؟"

ألقت ليندا نظرة سريعة على كندال عندما كانت تدهن الصبار في ظهر أيدي داف، وقرأت في عينيها أنها انزعجت من أسئلة كندال المتكررة، إلا أن داف ظل ثابتًا وهو يقول:"الحكومة تعرف كل شيء عنا يا رجل، الماضي والحاضر والمستقبل؛ إذ يمكنك القفز عبر الزمان ولكن لا يمكنك الاختباء، وثمة أناسٌ كثيرة تفعل ذلك للهروب من الضرائب بعدما يبذّرون كل أموالهم في زمنهم، ثم يقفزون إلى زمن تكون الأسعار فيه رخيصة كهذا الزمان الذي أتى منه الساحر المذهل كريسكين".

قلت له:"أعرفه؛ ففي كل مرة يظهر في مسلسل جوني كارسون، يمكنك أن ترى في عينيه ماذا سيحدث، ومن أيضًا أتى من المستقبل يا داف؟"

فكّر داف فأكملت ليندا:"إيفل كنيفيل، وهوارد هيوز، والدكتور كريستيان برنارد، ومارتن لوثر كينغ الابن، إلى أن اغتيل بطبيعة الحال، وهذا الرجل الذي يثني الملاعق أوري جيلر".

قاطعتها قائلة:"ألا تقفز الفتيات أيضًا عبر الزمان؟"، إذ كنت أفكر في القفزة التي قفزتها للأمام.

"بعضهن، لأن هذا صعبًا على جهازهن التناسلي"، كتفت ذراعي على صدري ورمقت داف في غضبٍ، إذ لم يذكر لي هذه النقطة قبل أن يرسلني إلى فترة البلوغ.

كان كندال جالسًا على مقعد المطبخ ممدًا ظهره للخلف على طريقة رعاة البقر وهو يحملق في داف، ثم سأله:"ماذا ستفعل بعد ذلك؟ هل ستعود إلى عام ٢٠١٩؟" بنبرة صوت توحى بأنه يستنكر أن داف يقوم بهذا الشيء الخطير.

هز داف كتفه وقال:"لست متأكدًا، ليس لديّ وقتًا لأترك أثرًا للتتبع، فالأمور تزداد سوءًا، لذا اعتقد أنني علقت هنا"، اكفهر وجه ليندا ونظرت إليّ أنا وكندال ثم قالت:"حان الوقت للتوقف عن مضايقة داف، لا بد أنه مجهد".

قال داف وهو يتثائب:"نعم، أنا مرهقٌ للغاية، وربما سأجلب حقيبة النوم من سيارتي حتى ابتاع سريرًا أو ما شابه".

قالت ليندا:"ثمة أسرّة فارغة هنا، وسيساعدك كندال على نقلها إلى الطابق السفلي، أليس كذلك يا كندال؟"

وهكذا انتهى الأمر بداف المعروف بالمتسلل بأنه قد صار جارنا.

عندما حل الليل بعد تناول عشاءً خفيفًا يتألف من شرائح الفجل مع زيت الزيتون والخبز المحمص وسلطة أوراق الهندباء، توجهنا أنا وداف وليندا وكندال إلى الحديقة الخلفية مصطحبة معي التلسكوب وبطانية، وكان الجو دافئًا، والليل صافيًا مما يساعد على مشاهدة النجوم.

قال داف:"يا إلهي، إنها درب التبانة، يوجد الكثير من الرماد الذري في الغلاف الجوي في زمني لرؤية السماء بوضوح جدًا، هل تمانعين أن ألقي نظرة بالتلسكوب يا أختاه؟"

"تفضل".

كان داف يعرف كل مجموعات النجوم بطريقة مذهلة، ويشير إليهم كعلماء الفلك، إذ أخبرنا أنه تعلم من الكتب، فيما عدا قلة من النجوم الأكثر سطوعًا في سماء الليلة الملوثة من عام ٢٠١٩.

فكرت فيما قيل لنا ونحن أطفال ثم قلت:"إذا فجّروا الأرض، هل سيرسلونا للعيش في القمر؟"

ضحك داف آسفًا ثم قال:"هذه خرافة أطلقتها وكالة ناسا ووالت ديزني يا أختي الصغيرة، فهناك المزيد من المال الذي يجنى في صنع الحرب أكثر من السلام، ورغم ما تسمعينه؛ إلا أنهم يبنون مستودعات صواريخ فوق سطح القمر، وليست قباب جيوديزية وحدائق مائية، وعلى أي حال حتى في ٢٠١٩ فإن العيش فوق سطح القمر يظل حلمًا، وقد تبين أن السفر عبر الزمن أسهل".

كان الجو يزداد برودة كلما اشتد الظلام، فتجمعت النجوم كالزجاج المحطم في جنبات الليل الحالك، وقد تحدث داف عن المستقبل، وكيف احتمى والديه في ملجأً محصن وقاهم من سقوط القنبلة، لذلك ولد داف معافىً وذكيًا بما يكفي للحاق بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، أو بالأحري كان داف هو ما تبقى من أطلال بوسطن؛ إذ وُلِدَ أغلب أبناء جيله من آباء تحولت جيناتهم تحولاً مرعبًا جراء الإشعاع، مما نتج عنه أطفالاً غير طبيعيين نهائيًا.

وأوضح داف:"أنا واحدًا من الطبيعيين، أي من الأقلية، فأغلب ممن في سني من الملتوين".

سألته:"كيف ذلك؟"

"التَوَتْ خيوط الحمض النووي بطرق غريبة مما جعلهم استثنائيين، وهو التعبير المناسب دبلوماسيًا".

قال كندال:"لدينا الكثير من الاستثنائيين الذين يعيشون في شارع زي الآن، ونطلق عليهم الملتوين أيضًا"، بدا لي كندال لأول مرة أنه يقيّم الحقيقة المحتملة لكلام داف، ثم استطرد قائلاً:"كيف يبدو الاستثنائيون في عصرك؟ هل يمتلكون قوى خارقة؟"

هز داف رأسه وقال:"ليس تمامًا، فالمجموعة الفرعية من الطفرات الجينية قد أسفرت عن مواهب خارقة، وعرافين، ومتحولين، وقارئي أفكار، إلا أن أغلبهم يعانون من نقص النمو أو زيادة في التطور، أو مريض عادي يا كندال، أضف إلى ذلك؛ أنهم يموتون مبكرًا عادةً جراء خلل في الميتاكوندريا الخلوية؛ فبعضهم يبدو طبيعيًا عند ولادته، ولكن مع التقدم في السن تهاجمهم الفطريات الآكلة للحوم أو الجذام، هذا ويعاني ٩٠٪ من سكان العالم بمرض الإشعاع الموروث، لذا فإن مصطلح "استثنائي" مصطلح غير دقيق، والمصطلح الأنسب في الواقع هو "المُدمَّر جينيًا".

قطع صوت ليندا الظلام وقالت:"يبدو المستقبل مروعًا، أليس هنالك شيء يمكنك القيام به لإيقاف هذا الجحيم؟"

تنحنح داف وقال: "نعلم أن كل قفزة زمنية تغير الزمن بطرق ضعيفة جدًا مثلما يتجعد الدثار، لهذا السبب قد تتذكرين أشياء من ماضيكِ تذكرًا يختلف عن أي شخص آخر كان هناك معكِ، لكننا نشعر بالقلق إزاء محاولة تستهدف تغيير التاريخ بطريقة كبيرة يمكن أن يكون لها تأثيرًا عظيمًا، فحتى لو تمكنت من اكتشاف وسيلة لوقف القنبلة، هناك بعض الكوارث الأخرى بالأهمية نفسها التي سرعان ما ستحتل مكانها، وقد تكون أسوأ من ذلك، لذا يصعب عليّ وصفها"، سألته وقد جف حلقي: "وهل هناك ما هو أسوأ من الحرب النووية؟"، إذ بدأ يُخيل إليّ أنه أمامي فقط ثمانية أعوام لأعيش طبيعية، ولم أكن متأكدة أنني أود العيش كالاستثنائيين.

هز داف رأسه وقال: "لكي نكون صادقين، فإن تغيير التاريخ أمرًا توقعيًا خالصًا لم يفعله أحد من قبل، ولكن يجب أن نكون قادرين على تجنب الأحداث المستقبلية بدلاً من تغييرها بوقف الاستمرارية التي نعيش فيها الآن، والاندماج في عصر زمني آخر يشبه زمننا".

سألته ليندا: "هل هذا ممكنًا؟"

أومأ داف برأسه قائلاً: "نظريًا نعم؛ فوفقًا للميكانيكا الكمية اكتشفنا تلفازًا ذو نطاق ترددي منخفض يحوّل إلى خارج عالمنا؛ إذ نؤمن بما سينقلنا إلى الأزمنة البديلة المقرونة بزمننا بضعف التي أنشأتها الانفجارات الذرية".

هز كندال كتفيه قائلاً: "ياله من موضوع كبير، لقد قرأت عن التواريخ البديلة في الكتب المصورة لسنواتٍ".

قال داف: "أتحدث عن العلم وليس الكتب المصورة، وقد عثرنا على زمن بديل من الطيف الأقرب لنا، ألا وهو التوقيت القياسي الأرضي الذي بدا أكثر ثقافة قليلاً؛ إذ لم يتجه إلى إشعال الحرب العالمية الثالثة رغم أنهم قد بدأوا في إفساد الكرة الأرضية بجميع الطرق الأخرى، ونظريًا شخص ما في زماننا وليس في زمانهم سيكون قادرًا على دمج العالمين معًا، غير أن هذا الشخص يجب ألا يوجد في زمانهم الجديد، لذا نطلق على هذا الشخص "مطارد الأيون".

سألته: "إذا لم يوجد مطارد الأيون في الزمن الجديد، ماذا سيحدث لهم؟"

"يصعب القول، فقد تختفي تكنولوجيا المعلومات إلى اللاشيء أو تبقى على قيد الحياة، ولكن في حالة غير مستقرة ومتدهورة للغاية".

ارتجفت أمام داف من الوصف السريري للمصير الذي حرص على إرسالي إليه.

أشرت إليه: "يبدو كأنها صفقة لعينة لمطارد الأيون"، هز داف كتفيه قائلاً: "وماذا تعني حياة شخص واحد مقارنة بالملايين الذين سيتم إنقاذهم؟ نعم قد تتم التضحية بمطارد الأيون، ولكن أي شخص آخر من التوقيت الذري ستُحمل حياتهم إلى التوقيت القياسي الأرضي دون أن يعلم لحسن الحظ ما حدث لهم، أي يجب أن أقول أن هناك ثمنًا قليلاً سيتم دفعه".

ساد الصمت بيننا شاعرين بالرهبة من سشاعة السماء، ناهيك عن ضخامة التبصر العقلي في قصة داف.

لعبت لعبة الربط بين النقاط مع النجوم كي أربط بين الثور والسلطعون والدب والمرأة الجالسة وإشارتي الفلكية وميزان العدالة، فقد أخبرني داف وأنا عند عيادة طبيب الأسنان إنه اكتشف أنني مطارد الأيون، لكن نسخته الجديدة الأصفر سنًا لم تكن على دراية بهذا الاكتشاف، وبالنظر إلى إمكانية العثور على نفسي غير موجودة في الزمن البديل، لم أود أن أعرّفه، خاصة أنني الآن لديّ الكثير لأعيش من أجله.

اقتربت من كندال، وأملت رأسي على كتفه، فاستدار للمس أذناي بشفاهه.

لم يبد الوقوع في الحب مثلما وصفته أختي ليندا "كأن تؤكل حيًا" فكندال صديق أستطيع الوثوق به، وقد كانت فكرة وجود ثمانية سنوات فقط أمامنا تجعل حبنا هالكًا ومتعجلاً؛ فالعشاق الأسطوريون يناضلون ضد وابلاً من الأحداث العالمية، فقد كنا مثل زيفاجو ولارا في زمن الثورة الروسية، وطوني وماريا في غرب نيويورك، وبوني وكلايد في داست بول.

لم يكن هناك وقتًا لنخسره، لذا عليّ أن أبدأ حياتي بالطريقة التي تعلمتها في تدريبات انحني واختبئ في سانت ديسمال كأنه لا يوجد غد، ومنذ ذاك اليوم، قررت ألا تفلت مني تجربة جديدة.

الفصل الثامن
الإغواء في الكتب المصورة

أطلقنا عليه اسم بوستابوكاليبتيكا؛ "أي النجاة بعد النهاية المروعة"، فقد كنا في كوكبنا الخاص الذي تعرض للقصف والمؤلف من فردين؛ إذا لم ندخل الفئران في الحسبان؛ حيث نزع كندال لوحًا مفككًا من الزاوية الخلفية من متجر الحلويات المهجور وأدخلني إلى المبنى المظلم.

رغم أن المبنى الخشبي كان حطامًا محترقًا، إلا أن الطابق الأول ظل كما هو؛ إذ بذل والد بيوتر محاولة طفيفة لإعادة فتحه، ولكن بحلول عام ١٩٧١، ظهرت المواد الإباحية والمثلجات في كل متجر ونقاط الاستراحة على الطريق السريع حتى غُطي المبنى المهجور في النهاية بالخشب، وكانت الجدران والمنضدة متفحمة ودرج النقود مع قطعة محروقة من الستيل مع أمر شراء نهائي ظلت في مكانها حتى أصابها الصدأ وقد كتب عليها مبلغ ٦,٦٦ دولارًا مثل الدعامة في أفلام الرعب، هذا إلى جانب بعض العلب الغامضة ذات الملصقات المحروقة المرصوصة فوق الرفوف المتهالكة، وقد تبين أننا على حق عندما كنا أطفالاً ونظرنا وسط عتمة الظلام وراء متجر الحلوى معتقدين بوجود تنانين.

وقد ادعى كبار السن في طريق تسلا أن المبنى ملعون، مما دفع كندال إلى قول أن سمعته هذه قد جعلته مكانًا مثاليًا لتجمع العشاق؛ إذ لم يرغب أحد في دخول المبنى غيرنا، وخلافًا لمنزل كندال، لم يكن هناك ملاك شيبكو الحارس الذي يتنصت على كل كلمة نقولها.

جلسنا جنبًا إلى جنب فوق حقيبة نوم حملها كندال وفرشها أسفل جزءًا مكسورًا من السقف تتخلله الشمس، خلع كندال قميصه ثم تحسست بيديّ صدره وظهره وذراعيه وتركته يتحسس تحت قميصي وسراويلي وحمالة صدري ليلمس حلماتي المتيبسة، لكنني لم أقوى على خلع ملابسي.

قلت له:"ليس بعد، ليس بعد".

تذمر قائلا: "إذن متى؟"، مدعيًا أن الإحباط يسبب له إزعاج بدني شديد لطبيعة ذكورية لا أتفهمها.

أجبته:"ليس بعد فحسب".

استلقينا على ظهورنا متشابكي الأيدي، وتشاركنا زجاجة من زجاجات خمر جدي زينيو التي أحضرتها من القبو، وقطعة من الحشيش ابتاعها كندال في الخفاء من إحدى محلات الألبان الصغيرة في شارع زي.

غمغم كندال في أذني:"تمنيت ألا تكوني كاثوليكية لعينة".

قلت له:"وأنت كاثوليكي أيضًا".

"افتراضيًا فقط".

"إذن ماذا أنت حقًا".

قال كندال:"وثني"، ثم قبلني مرة أخرى.

رغم الإحباط، إلا أن عدم ممارسة الحب مع كندال كان أكثر إمتاعًا من أغلب العلاقات التي سأقيمها في السنوات المقبلة، ليس لأننا أصدقاء في الحب فقط، بل بسبب خطورة الاستكشاف؛ فالبوستابوكاليبتيكا ليس مجرد مكانٌ للاختباء فحسب، فالأصوات

الخفيفة الناتجة عنا قد تُسمَع بسهولة من الشارع، وعندئذ قد يعود والد بيوتر ليفحص ملكه، ورغم أن ذلك غير محتمل إلا أن فكرة أن يكتشفني أحد مع كندال أعجبتني؛ إذ تعلمت شيئًا جديدًا وهو ما يسمى النوازع الجنسية الشخصية، حيث أردت أن تتم رؤيتي وأضبط متلبسة، وأكون في وضع خطر مع من أحب، لم أكن أريد الإحساس بالأمان.

كانت إحدى المواضيع الخطرة عن البوستابوكاليبتيكا التي ناقشناها هي سبب إصابة كندال؛ فبعيدًا عن ملاك شيبكو الحارس، أحس كندال بالأمان ليقول لي أنه قد نسي الحادثة وبعض الأسابيع القليلة التي سبقتها.

قال لي:"وافقت أمي أن أنوِّم مغناطيسيًا لأنسى؛ إذ وعدوها أنني سأكون أفضل حالاً عندما أكن بلا ذكريات من الماضي".

إذن هو فقدان ذاكرة مستحدث جراء صدمة بواسطة التنويم المغناطيسي، وهي أداة نفسية تساعد الناس الذين تعرضوا لصدمة جسدية على نسيان كل شيء عنها، وقد استُخدِمَت مع ضحايا الحوادث والتعذيب كي ينسوا المأساة ويستمروا في حياتهم، وهي أيضًا طريقة سهلة لمساعدة الناس على نسيان الحقائق المؤلمة كاحتمالية أن العيش في أراضي زي يجلب المرض للناس، ولا عجب أن شيبكو قد أعادت كندال إلى المنزل مع ملاك شيبكو الحارس لمراقبة المحادثات عن المحتويات التخريبية؛ إذ لم يعد صالحًا لاستخدامه كفني صواريخ في شيبكو، وأيضًا ليس خطرًا عليهم بذاكرته الممحاة من السر الذي شاركته معه، وهو اكتشاف والدي أن أراضي زي لا تزال ملوثة تلوثًا خطيرًا بالنفايات النووية.

تساءلت لماذا لم تستخدم شيبكو طريقة غسيل المخ نفسها معي أو مع ليندا أو أبي، ثم خطر في بالي، أنهم ربما قاموا بذلك بالفعل، فمن يعرف ما حدث في العام ونصف الماضيين؟ وهذا ما يفسر لماذا جميع أفراد عائلتي تبدو مبتهجة على غير العادة.

نهض كندال وقال: "لديّ شيء أريد أن أريكِ إياه".

رأيته يسحب حزمة من الكتب المصورة من حقيبة ظهره ثم استطرد: "لقد هرّب كريسي المزيد من القصص المصورة السرية خارج الولايات، مثل قصص كرامب على الأغلب، وقصص زابرودر، وهمجروان".

وفي قصة زابرودر يظهر فتى بحار يقف أمام فتاة ذات ضفائر متدلية وقد ظهرا الاثنين في مشهدًا شديد الإباحية، وقد بدوا في الرسم ضخمين وبشعين خاصة الفتاة التي رأيتها قبيحة في نظري.

انتابني إحساس بأن كندال يود أن يقول لي شيئًا إلى أن سألني: "هل سبق وأن فعل أحد معكِ ذلك؟"

"حسنًا، بالتأكيد، أنا في السادسة عشر بطبيعة الحال".

إنها ذكريات أنجي باترون مرة أخرى.

قلت له: "الرسومات قبيحة جدًا، خاصة الفتاة لدرجة أنني أشعر أن من رسم تلك الرسومات يكره الفتيات".

هز كندال رأسه: "بحقك يا ديبي، إنها قصة مصورة رديئة لا تعرف الحدود أو المحرمات".

قلت له: "أعتقد ذلك"، وأنا أقلب الصفحات، كانت الصور

مضحكة ومثيرة وصادمة في بعض الأحيان، وعنيفة وعدوانية أحيانًا أخرى، وقد بدت أثداء النساء ومؤخراتها ثقيلة وقبيحة ومثيرة فقط في أعين الرجال المصورين في القصة الذين سرعان ما سال لعابهم لدى رؤية أثداء النساء، حقًا لم أكن أتخيل أن أرسَم أنا وكندال هكذا، وأراهن أن أنجي لن ترغب في ذلك أيضًا.

كنا نتقابل في هذا المخبأ ونقضي ساعة معًا كل يوم، حتى تطورت العلاقة تدريجيًا، إلى أن قلت لكندال: "إن سمحت لك بذلك، فلن تتوقف". قال كندال: "نعم، هو كذلك".

قلت له: "إذن توقف، ليس بعد".

قال لي: "متى إذن".

قلت له: "لا أعرف". وأنا أفكر فيما حدث لليندا، فهي لم تتحدث أبدًا عن الطفل، والمرة الوحيدة التي ذكرت فيها اسم بيلي، أخبرتني أن الراهبات في دير تورونتو للفتيات قد ساعدوها كي تنسى وجوده، وربما خضعت ليندا لفقدان الذاكرة بالتنويم المغناطيسي ككندال، لذا فإذا كان هناك شيئًا واحدًا برع فيه الطب النفسي في التوقيت الذري؛ فهو مساعدتنا على نسيان الذكريات المؤلمة والحقائق الخطيرة، وبهذه الطريقة يمكننا المضي قدمًا في حياتنا دون شائبة من معرفة أو تجربة.

***

لم أفهم الكثير عن جسمي ولا عن تحديد النسل، وقد قفزت من المدرسة الإعدادية إلى فصلٍ عن الثقافة الجنسية تترأسه السيدة ديبياترو الحامل، والتي وافقت في آخر يوم في الدراسة أن تشارك الفتيات خبرتها الكبيرة، بينما تحدث السيد بونيفاتشي مدرس الألعاب مع الأولاد حديث رجل إلى رجل، كان كل ما فهمته من تلك المحادثة، أن فقدان الفتاة لعذريتها، هي عملية سريعة مؤلمة ودموية، ما لم تفض الفتاة بكارتها بأن تلقي نفسها بقوة على مقعد الدراجة، أو من خلال السدادات القطنية (التامبون) مثلما يحدث عند الجماع، كانت مراوغة في كل شيء فيما عدا النظافة وذكر أفضل أنواع الغسول، أما عن تحديد النسل؛ فلم تنبس ببنت شفة، إلى أن لوحت جودي جارلاند بيديها في شجاعة في الهواء لتسألها: "ماذا عن حبوب منع الحمل؟"

طوت السيدة ديبياتري يداها بطريقة وقائية فوق بطنها المنتفخة وقالت: "إن حبوب منع الحمل مؤامرة شيوعية يا فتيات، فإذا كانت النساء المختبئات خلف الستار الحديدي يلدن، فماذا تعتقدين إذن أن يحدث للديموقراطية؟"

ثم تابعت لتتنبأ بأن بعض النساء اللاتي أنجبن بعد تعاطي حبوب منع الحمل سينجبن مخلوقات مثيرة للاشمئزاز تسمى المخنثين وهنا سألت السيدة ديبياتري جودي قائلة: "هل هذا ما تريدينه؟ وكيف ستصممين غرفة الأطفال وأنتِ لا تعرفين إن كان ولد أم بنت؟"

بعد الحصة، تسلمنا شهادة المرحلة الإعدادية من مطبعة جيستنير في فصلنا، ثم ذهبنا إلى الملعب لسؤال الأولاد عما تعلموه من مدرس الألعاب، وقد أخبرونا أنهم قضوا وقت الحصة يلعبون لعبة إمساك العَلَم، وهي لعبة قال السيد بونيفاتشي إنها ستعلمهم كل ما يحتاجون معرفته عن الثقافة الجنسية، "فقط الرجال الأقوياء الذين سيظلوا على قيد الحياة".

***

بعدما قضينا وقتنا أنا وكندال معًا في مكان الاختباء، ضبّطنا ملابسنا، وزحفنا خارج المتجر المحطم، وقبّلنا بعض ثم مضى كل منا في طريقه؛ وكان كندال يبحث عن وظائف غريبة في الأعمال شبه الرديئة في شارع زي، وأنا أبحث عن وظيفة رسم صفحات الغلاف بأشكال رجال نصف متوحشين، ونصف حيوانات، ومغتصبين، ونساء واسعة العينان، كبيرات الصدر، نحيفات الخصر يرتدين مشدات ضيقة مع تسريحات شعر مجنونة؛ حقًا لم أتوقف عن الرسم قط، ولكن إعلان مدرسة مراسلات الفنانين المشهورين المكتوب على ظهر قصصي المصورة، قد أعطاني إحساسًا جديدًا بالعجلة.

طمأنني نورمان روكويل بجملة: "نبحث عن أناس يحبون الرسم" بعينيه المرسومتين اللتين تتوسم فيهما الطيبة: "أرسلي لنا كتيب اختبار المواهب الحرة، كي نعرف إذا كان لديكِ مواهب خفية، ثم استعدي لمستقبل حافل من الرسوم المتحركة الإبداعية المربحة، ورسم الأزياء، وتصميم الجرافيك، والفن التجاري، والطبيعة الصامتة، وصور الأطفال".

ملأت القسيمة بحروف أنيقة واختصرت اسمي الأول والأوسط بالحروف الأولى حتى لا يعرفوا أنني فتاة، وقد وجدت ظرفًا وختمًا ثم توجهت إلى صندوق البريد بأحاسيس مزدوجة ما بين ما يريده القدر والهزيمة؛ فربما سأكون فنانة مشهورة، ومن ناحية أخرى؛ هل هناك مستقبل في الأساس؛ لكي أستعد له؟

عندما أسقطت ظرفي في صندوق البريد، لاحظت لافتة على قطب الهاتف كتب عليها: مطلوب جامعي ثمار في الساعة السادسة صباحًا، والتجمع هنا.

بدأ حصاد الفراولة، وحان الوقت لطي دفاتر الرسم والسعي لكسب المال؛ فخمور سباركلنج سبارو لن تحتاج إلى مزارعين حتى أواخر حصاد أغسطس، ومن ثم ليس أمامي سوى حصاد الفراولة أو لا شيء.

الفصل التاسع
الفاكهة النضرة

وصلنا أنا وكندال وساندي عند زاوية فيرمي ولاكشور خمسة عشر دقيقة مبكرًا كي يتم أختيارنا أولاً، إلا أن المزارعون لا يصعب إرضائهم؛ فإذا كان لديك يدًا واحدة ورجلين ستُختار كذلك؛ إذ كان أغلب المزارعين من العمال المهاجرين من ترينيداد وتوباغو وجميعهم رجال سود يعيشون في المزارع في الصيف والخريف ويقطنون في الاستراحات لكسب المال ليرسلونه إلى منازلهم، ثم الانتقال إلى الحصاد التالي، وهو التبغ في تيلسونبورغ والطماطم في ليمينغتون، وكان هؤلاء الرجال هم الوحيدون الذين يعرفون ما يفعلون، أما نحن فقد كنا عمالة إضافية، أي أرخص الرخيص.

ارتدينا ثلاثتنا ثلاث طبقات من الملابس وهي الطبقة العليا لهواء الصباح البارد؛ فبمجرد أن تبخر الشمس الندى، يمكنك الاكتفاء بالطبقة الثانية من الملابس، وأخيرًا الطبقة الثالثة في المساء، إلى أن تشتد حرارة الجو بما يكفي للعمل عراة، ولكننا لم نستطع بسبب شجيرات الفراولة، ورذاذ مبيدات الأعشاب، والشمس الحارقة، والبق، ناهيك عن رقع القراص اللاسعة، مما قد يدفعنا لارتكاب أخطاءً فادحة وهي إشعال النار في أجسادنا المكشوفة.

أحضرنا معنا أكياس ورقية من الشطائر والكثير من السوائل رغم أننا نعرف أن المزارع سيجلب زجاجات من مياه الآبار إلى وسط الحقل كي نشرب منها، ولكنها ستكن دافئة ذات طعم معدني، وقد حملت ساندي علب من كولا الرويال كراون المثلجة في حقيبة ظهرها، بينما حمل كندال دورقًا كبيرًا من المياه المثلجة.

قالت ساندي: "هل ستحمل هذا الشيء معك في الحقل؟"

أجابها كندال: "ستتوسلين إليّ أن أشربك منها في الساعة الواحدة".

هذا وقد انتابتني الدهشة لدى رؤية توأم دوناتو هنا أيضًا في الحقل يرتدين ملابس رياضية مِوَبّرة، وأحذية ركض نظيفة، وحقائب متماثلة.

قالت جودي جارلاند: "إن جمع الفراولة هو أفضل وسيلة لاكتساب السمرة".

أضافت جاين مانسفيلد: "البيكيني تحت ملابسنا" ثم نظرت سريعًا إلى كندال.

ومع مرور الوقت، وصل المزارع ذو الوجه السمين بشاحنته الصغيرة، وقد تجمع العديد منا في زاوية "فيرمي ولاكشور"، واضطررنا إلى الوقوف في قاعدة الشاحنة ونحن نتشبث ببعضنا بعض، قاد الفلاح الشاحنة مسرعًا عندما انعطف انعطافًا حادًا إلى الطريق الرئيسي خارجًا من المزرعة حتى كادت ساندي أن تقع فأمسكها كندال بذراعيه ليثبتها.

قال أحد الصبية:"أتساءل عما إذا كان هذا الأحمق سيتوقف إذا سقط إحدانا من الشاحنة".

قال كندال:"أشك، إننا مستَهْلَكون".

وبمجرد أن شقت الشاحنة طريقها إلى الحقل، قفزنا منها ثم عادت مرة أخرى لجمع المزيد من جامعي الثمار، وقد أسند إلينا أحد العمال صفًا نجمع منه الثمار وسلمونا بطاقات أجور، كانت عشرين سنتًا للسلة الواحدة، فإذا أردت حقًا كسب المال، عليك بالسرعة والتي تعتبر العامل الأساسي؛ فكلما جمعت أسرع، حققت المزيد من المال، وإذا تعبت فاجلس في وقت العمل، فاقدًا وعيك من الحرارة، أو ملتهمًا الفاكهة التي جمعتها شأنك شأن ساندي التي اشتهرت بذلك، وقد لا تأتي بشيء من هذه الوظيفة في آخر اليوم سوى حروق الشمس.

امتد أمامنا فدانٌ من الفراولة نحو أفق بحيرة أونتاريو، وفي الحقول البعيدة؛ كان العمال المهاجرون يتحركون جيئةً وذهابًا فيما بين الصفوف بسرعة مذهلة، ربما كانوا في تلك الصفوف منذ الفجر.

جلست ساندي عند بداية الصف أمامي، بينما كان كندال في الصف من خلفي، واصطفت جاين وجودي على بضعة صفوف بعيدة؛ يحملن سلالهن بطريقة غريبة كأنهن يفكرن فيما يفعلن بحقائبهن.

سمعت جودي تقول:"هذا مقرف جدًا".

وفـي السـاعة الثامنـة، خلعنـا أنـا وكنـدال وسـاندي الطبقـة الخارجية من ملابسنـا، وكانت توأم دوناتو بملابس البيكيني من فوق والبنطال من تحت، ولم يجمعن الكثير من الثمار في صفهن حتى شككت أنه سيكون أول وآخر يوم في جمع الثمار.

حينمـا ملأنـا السـلال، جمعناهـم فـي منتصـف الصـف معًـا، ولكن كنا نتوقف من وقت لآخر عن الجمع كي نضعهم في المكان الذي جمعهم منه العامل في ظهر قاعدة الشاحنة. فالتحرك جيئةً وذهابًا حاملين لسلالٍ ثقيلة يستغرق وقتًا؛ الأمر الذي يغني عن قول أنه لم يُدفَع لنا مقابل هذا.

وعنـد الظهيـرة، كنـت عند قمة خزان؛ بسـراويل قطنية ممزقة، بينما ارتدى كندال سراويل الركض وقميصًا، وقد وصلنا إلى صفٍ من الأشجار شكلوا سدًا وقائيًا من الريح.

قال كندال:"حان وقت الغداء".

ناديـت سـاندي:"سنسـتريح يـا سـاندي"، إذ كانـت فـي طريقهـا إلـى الصـف بسلتين ممتلئتيـن في يديها.

هتفت:"تركـت غدائـي عنـد أول الصـف، وعلـيّ أن أسـلم تلـك السـلال للعامـل أولاً".

مسكت يده وقلت:"أنظر ها أنا ذا وأنت وحدنا".

ووجدنـا بقعـة فـي الظـل، حيـث حملـت ريـاح البحيـرة حشـرات البـق، وبجلوسـنا عنـد الأشـجار الواقيـة مـن الريـاح؛ صرنـا بعيـدًا عـن مرمـى بصـر جامعـي الثمـار.

وخلع كندال قميصه الفوقي ثم فرشه على الأرض لكي أجلس عليه، فجلست أحدق في عضلات صدره ومعدته الملساء، لم يرهقني النظر إليه يومًا، كما لم ترهقني يومًا لمستي له.

وشربنا بعضًا من دورق الماء البارد الذي كان يحمله كندال معه، ثم أمسك بطرف قميصي غير ذي الأكمام وقال لي: "لِما لا تخففين من ملابسك قليلًا؟ لا بُدَّ وأنك تشعرين بالحر".

ترددتُ فوجدته يقول: "لن يراكِ أحدًا هنا"

قلت له: "لكنكَ ستراني".

هز كتفيه وقال مبتسمًا: "لا عليكِ؛ فأنا حبيبكِ على أي حال"

لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي ينطق فيها كندال بتلك الكلمة، إنه بالفعل حبيبي، أليس كذلك؟ أما أنا فكنت حينها امرأة، أو لم أكن كذلك؟ وربما كان قد حان الوقت لأُريه هذا الجانب مني، فأقبلت على فعل ذلك؛ وأنا محتمية بعشب عالٍ، وخلعت قميصي غير ذي الأكمام ثم فككت وثاق مشد صدري وألقيتهم على الأرض أمام كندال، ولقد أعجبتني تلك النظرة التي اعترته حيث وسعت عيناه وهو يراقبني وأنا أخلع ملابسي، لا أعتقد أنه كان يصدق أنني سأفعلها، جلست على قميص كندال وأنا عارية الصدر، كانت الشمس والرياح تداعباني مثل غريبين؛ فلم ير نهداي الشمس منذ أن كنت في الرابعة من عمري.

ضمني كندال إلى صدره وكان ملمس صدره دافئ وزلِق، وقام بالضغط بجسده على نهداي، وكدت أن أتذوق طعم عصير الفراولة من فوق شفتيه، وأخذ كندال يمرغ أنفه برقبتي ونهداي وكتفاي بل إنه مرغه بإبطي كذلك، حينها قلت له وأنا أبتعد عنه: "لا تقبلني هنا، أنا مُتعَرِّقة"

فقـال: "وأنـا أهـوى تـذوق عرقـكِ، كمـا كان يفعل نـابوليـون مـع جوزيفيـن"

فـالتفـتُ لأنظـر إليـه فوجدتـه يشـتَمّ رائحتـي بالفعل فضحكت وقلت لـه وأنـا أبعـده عنـي: "نـابوليون"!!

فحكـى لـي أنـه كان يقـوم بعمـل بحث علمـي خاص بورقـة بحثيـة؛ وقـد قدمهـا بالعـام الماضـي فـي مجـال التاريـخ، وقـد علـم أن نـابليـون عنـد خروجـه للحـرب لفتـرة طويلـة؛ كان يكتـب خطابـات مثيـرة إلـى جوزيفيـن ويطلـب منهـا قائـلًا: "لا تستحمين".

قلت لـه: "يـا للقـرف، أهـذا مـا تدرسـونه فـي صفـوف التاريـخ المدرسـية؟"

التـف كنـدال حتـى اعتلانـي فارتـاح صـدره الأملس علـى نهـداي وهـو يقـول: "نعـم، كمـا أننـا نقـرأ فـي صـف اللغـة الإنجليزيـة كل مـا هـو مثيـر أيضًـا"

كانـت يـدا كنـدال موضوعـة علـى أفخـاذي؛ وقـد عـاد ليقبلنـي مـرة أخـرى بعـد أن أدخل لسـانه ليستقر فـي أعمـاق فمـي، وأحسسـت بألـم لَطِيـف يسـري بيـن أرجلـي؛ وقـد وصـل إلـى مسـامعي صـوت جـرار يزمجـر بعيـدًا عنـا.

وأقحـم كنـدال أحـد أصابعـه فـي مقدمـة بنطالـي القصيـر فأنزلـه قليـلًا للأسـفل، كنـت علـى وشـك مسـاعدته في تحرير سـحابي عندمـا حلق كنـدال فـي الهـواء؛ وطـار للخلف بفعل قـوى خفيـة؛ اتضـح فيمـا بعـد أنهـا القـوى الصـادرة من ذلك المـزارع الـذي كان قد أوصلنا هـذا الصبـاح إلـى الحقـل، وكان لـون وجـه المـزارع الممتلئ يشـبه لـون

قطعة لحم لم تنضج بعد، وضغط المزراع بحذائه على صدر كندال وقد ثبته إلى الأرض وهو يصيح: "أغرب عن هنا، لقد أخبرتكم أيها الملاعين السود أن تتركوا فتيات المدينة وشأنهن!"

وقفت على أرجلي وأنا مصدومة مما يدور وكنت أحاول أن أغطي نهداي بقميصي الفوقي غير ذي الأكمام وأنا أقول للمزارع: "لا عليكَ يا سيدي، إنه حبيبي"

نظر المزارع إليّ أنا وكندال باشمئزاز ثم قال: "إنه ليس بيتًا للبغاء، أنتِ، تعالي معي، سأخبر والديكِ"، ثم نظر إلى كندال: "أما أنت؛ فإذا كان حدث ذلك قبل عشرين عامًا لكنت جلدتك بالسوط، لكنك لا تستحق المتاعب التي ستلحق بي من ورائك، أخرج من مزرعتي".

نظر كندال إليّ أنا والمزارع ثم قال: "لا أعرف طريقًا للعودة إلى البلدة".

صاح المزارع: "أتظنني سأهتم؟ أخرج من هنا الآن بحق الجحيم".

ارتديت ملابسي بأسرع ما يمكن، وأنا أشعر بعيون المزارع تخترق جسدي؛ وقد وقفت ساندي وتوأم دوناتو وبعض جامعي الثمار عن بعد في مجموعات صغيرة يحدقون إلينا، وكانت شاحنة المزارع عند طرف الحقل، لذا تعين عليّ السير على طول الطريق معه، وأنا أشعر بالحر والإحراج، استدرت لأنظر إلى كندال الذي وقف معلقًا يده على جانبيه لا يعرف ماذا يفعل، عندما حاولت الابتعاد عن البائع والرجوع إلى كندال، هز المزارع رأسه وأشار بيده قائلاً لي: "لا تعودي واستمري في المشي"، حتى سار كندال أخيرًا صوب الطريق الرئيسي.

اصطحبني المزارع إلى منزله والغضب يشع من وجهه كالحرارة المتصاعدة من الطريق الممهد بالقطران حديثًا، ولم يقل شيئًا إلى أن وصلنا إلى ممر السيارة، ثم استدار لي وقال: "هذا ما أحصل عليه عند تشغيل فاسقات شارع زي، ومع ذلك سأسدي إليكِ بعض النصائح التي ينبغي أن تأخذي بها يا فتاة؛ لقد عرفت الكثير من المِلوّنين على مر السنين، وهذا الولد ليس من طينتك؛ أفهمتي؟"

اكتفيت بالتحديق في وجهه؛ إذ وددت في قرارة نفسي أن أبصق في وجهه ولكنني قد تجمدت من فرط الإحراج وتربيتي التي علمتني ألا أكون وقحة مع الكبار، وعندما طلب مني رقم هاتفنا، أعطيته رقم هاتف جدتي بيبي على سبيل التمرد، فلو عرفت جدتي أهون من أن تعرف أمي.

دلف إلى منزل المزرعة، وعاد بعد بضعة دقائق ثم دخل إلى مقعد السائق في السيارة وقال لي: "والدك في الطريق".

قلت في ذهولٍ: "والدي"، أجعلت جدتي أبي يترك العمل ليأخذني؟ المشكلة تزداد سوءًا عما توقعت.

قال لي المزارع: "لم أجرؤ على أن أحكي لوالدك ما حدث، لقد تركت الأمر لكِ". ثم اقترب مني ليفتح الباب حسبما ظننت، ولكن بدلاً من ذلك قبض على صدري وقبلني سريعًا قبل أن أفتح مقبض الباب حتى وقعت إلى خارج الشاحنة.

ضحك المزارع حينما وقعت من الشاحنة ثم هَمّ بالرجوع إلى الحقل وهو يقول: "إنكِ قبيحة جدًا لتكوني بائعة هوى على أي حال".

أدار الشاحنة وشق طريقه عائدًا إلى الحقول، جلستُ على الناصية أنتظر أبي، وبعد حوالي عشرين دقيقة، وردت سيارة تنثر الغبار في كل مكان حولها في نهاية الممر الطويل، لم تكن سيارة أبي، بل سيارة داف الكاتلاس، الذي نزل ووقف بجانبي ناظرًا إليّ بصرامة.

قال لي:"سمعت أنكِ في صداقة مع العدو؟ تعالي اركبي يا أختاه، فجدتك تريد إرسالك للقوات البحرية، ولكني أقنعتها بالعدول عن ذلك من أجلي".

لم نر المزارع ونحن في طريق العودة إلى الشارع الرئيسي وأنا أسمع صوت طحن الحصى تحت عجلات السيارة.

قلت في يأسٍ:"أعتقد أن جدتي قد أخبرتك عما حدث؟ هل جُنَّت؟!!"

حرك داف يده يمينًا ويسارً محاولاً تقليد سلوكيات جدتي ثم قال:"لم يصل الجنان إلى إخبار عائلتك، وماذا ستقول لكِ: لا تقبلين الأولاد؟"

تقوقعت في زاوية المقعد في السيارة وكتفت يداي حول ثدياي المذنبان.

قلت لداف:"داف هل سيستمر التحيز في المستقبل؟"

تذمر قائلاً:"هذا أبديّ؛ والذي سوف يتغير هو أن فتى أسود سينسجم مع فتاة بيضاء والعكس صحيح، ولن يكون موضوعًا كبيرًا".

قلت: "الجميع يقول أنه صعب على أولادهم، لأنه سيكون هناك تحيزًا ضدهم، ولن تتهيأ لهم أبدًا الفرصة لتحقيق أي شيء".

قال داف ضاحكًا: "انتظري وسترين"، ولم يوضح أكثر من ذلك.

نظرت إليه وهو يقود مخرجًا يده من النافذة ويميل رأسه وهو يدندن مع أغنية في الراديو، فهمت عندئذٍ لماذا يبدو أصغر سنًا وكيف شفى إصبعه الأوسط؛ إذ إن داف لم يكن هو المتسلل الحقيقي، على الأقل ليس بعد، وقد تساءلت عما سيحدث إذا قابلتني ذاته الأخرى الأكبر والأكثر حكمة؛ أنا وهو.

قلت له: "ألا تتذكرني من...."، ثم بحثت عن كلمات لأصف له الزمن قبل قفزتي وقلت: "من قبل".

نظر إليّ بابتسامة غامضة وقال: "من قبل ماذا؟"

"قبل، قبل، منذ حوالي عام ونصف، اعتقد أنني رأيتك في إحدى قفزاتك المبكرة وكنت في ذاك الوقت في الثالثة عشر".

هز داف رأسه وقال: "في عام ١٩٦٩ كنت في مرحلة ما قبل الدكتوراه أناضل في التحضير للرسالة وأشرف على طالبي الغبي المتخرج، لم أقم بأي قفزات، اللهم فيما عدا الحانة، ربما ديجافو".

استلقيت على مقعدي وفكرت في ذلك، هل كان محقًا؟ فمع مرور الوقت؛ كل شيء تذكرته قبل القفزة صار أقل واقعية شيئًا فشيئًا، مثل زيارتي لطبيب الأسنان غير المؤكدة وكأنني أتذكر حلمًا طفيفًا، واكتشفت كذلك أن لديّ ذكريات يفترض أن تكون قد حدثت في أثناء الثمانية عشر شهرًا المفقودين مثل جنازة جدي زين، وكالليلة التي ساعدت فيها جدتي بيبي على أخذ بيبي السابع إلى عيادة الطبيب البيطري بعدما أكل سم الفئران، وامتحان الرياضيات الذي فاتني

بسبب آلام الدورة الشهرية، هل حقًا عشت تلك الأحداث أم أنا فقط استوعب ذكريات عائلتي؟ لم أكن متأكدة.

قطع داف حبل أفكاري، وأومأ برأسه أمام الزجاج الأمامي ثم قال: "انظري إلى الطريق".

كان كندال يسير بجانب حفرة الصرف على جانب الطريق الرئيسي، بلا قميص في الحر، خافضًا رأسه، يؤرجح دورق الماء الذي معه، وعندما حاول داف الوقوف ليأخذه معنا، أبعده كندال وقال: "سأمشي وحدي".

اقترب داف إليّ حتى صار بجواري ليفتح باب الركاب الجانبي وقال: "مستحيل يا رجل.... إن البلدة على بعد عشرين ميلاً من هنا، هل ستقطع كل تلك المسافة في هذا الحر؟"

تردد كندال لبرهة حتى قلت: "اركب من فضلك".

ركب كندال بجواري في المقعد الأمامي، وحملق في زجاج السيارة، كان جسده صلبًا كالخشب، وقد شق داف الطريق الحجري بالسيارة.

سأله داف: "هل دفعوا لك أجرك؟"

قال كندال: "ياله من سؤالٍ أحمق".

كانت تلك آخر كلمات تفوهوا بها إلى أن وصل داف إلى حدود شارع زي، فقفز كندال من السيارة وأغلق الباب بعنف ثم توارى في منزله دون أن يلقي نظرة للوراء أو يودعني، حتى أنه لم يشكر داف.

***

جلست على المنضدة الفينيل في منزل جدتي بيبي التي سكبت لي قهوة الإسبريسو في كوبٍ ثم قالت: "إنه فتى لطيفًا، لكنه لا يناسبك. أتعلمين ذلك؟"

أشرت لها: "ولكن أنتِ من بين كل الناس التي تعرف التحيز يا جدتي".

هزت رأسها وقالت: "انصتي: ثمة شيء واحد كي تستطيعين العيش مع أناس عاديين إن كنتِ إيطالية، ربما غيرتي اسمكِ الأخير، وفقدتي لغتك، ولكن بعد مدة، لن ينظر لكِ الناس على أنكِ مختلفة عن الآخرين، لكن صديقك لن يستطيع القيام بأي شيء تجاه لون بشرته، وشيبمان كورنرز ليست قرية غرينيتش، هل تفهمين ما أقوله؟ قد تقولين هذا الفتى جيد مثل الكثيرين، لكن انتظري حتى يحصل على وظيفة أو قرض من البنك أو يستأجر منزلاً خارج شارع زي، كارا إنه حال العالم الذي نعيش فيه".

رشفت الإسبيرسو وأنا أشعر أنها تتصارع من أجل ما ستقوله، وهذا على غير عادتها، فقد كانت دائمًا بارعة في التعبير عما يجول بخاطرها.

وقالت: "لقد قال المزارع أنكِ كنتِ نصف عارية، هل كنتِ تقبلين هذا الفتى أم حدث شيئًا آخر؟"

انتابني إحساسٍ دافئ وقلت: "نعم، قبلنا بعضنا كثيرًا"، قالت جدتي: "كثيرًا"، وهي تنظر الآن إلى عيناي ثم قالت: "ديبي أنصتي لي،

لم تكن أختك تكبرك كثيرًا حينما وقعت في مشكلة، هل تفهمينني؟"، فقلت لها: "لم يكن الأمر كذلك".

رفعت رأسها وقالت: "حسنًا حسنًا، سيظل الأمر بيننا، غفر الله لمادلينا التي أنجبت بنتًا أخرى أبقتها متيقظة أيضًا طوال الليل، فقط كوني حذرة"، ثم أخرجت طبقًا من البسكويت الطازج ووضعته أمامي ثم أردفت: "كلي، تبدين نحيفة في الآونة الأخيرة وإلا ستختفين عما قريب".

قضمت البسكويت وأنا أعلم أني سأحتاج إلى لحظة هادئة لأتخلص منه وأتقيأه قبل أن تبدأ عملية الهضم.

***

نظرت إلى الساعة المعلقة في المطبخ ووجدتها الخامسة، فخرجت من الباب الأمامي وركبت دراجتي خارجة من الجراج، قدت الدراجة على طول طريق "فيرمي" حتى وجدت ساندي تقف أمام عتبة منزلها ولا تزال بملابس العمل، وعندما رأتني هتفت قائلة: "لقد تحدثت بلطف مع العامل حول أتعابك"، ثم سحبت بعض الفواتير المطوية من جيب بنطالها الجينز، وقالت: "هل أنتِ معاقبة؟"، هززت رأسي وقلت: "تدخلت جدتي بيبي، ومع ذلك أعتقد أنكِ ستجمعين الفراولة بدوني أنا وكندال"، قالت ساندي: "برأيك ماذا قال لوالدته؟"

أجبتها: "آمل ألا يخبرها شيئًا، ففي كل مرة يتقرب مني تحدث مشكلة".

قالت ساندي: "يجب أن تتصلي به، فوالدته قد تركت المنزل لتوصيل بعض الطلبات ومن ثم سيجيب هو على الهاتف".

اتصلت به من مطبخ ساندي، حيث كانت السيدة هولوب والدة ساندي تدندن مع أغنية "أحلام ربة المنزل اليومية" في الراديو وهي تخلط سلطة البطاطس؛ إذ من المفيد أحيانًا أن يكون لك أم لا تعرف الإنجليزية، ورد كندال على الهاتف من الرنة الأولى.

سألته: "هل أنت بخير؟"

قال لي بغلظة: "ما رأيكِ؟"

أشرت عليه: "أتقابلني في بوستابوكاليبتيكا؟"

رد كندال: "لا بد أنكِ تمزحين أليس كذلك؟ لقد كنتِ على وشك التسبب في قتلي، والآن تريدين أن تغريني حتى الموت؟ لا شكرًا".

إزدادت سرعة نبضات قلبي، فكندال لم يسبق وأن غضب مني من قبل.

سألته: "هل آتي إليك؟"

صمت لبرهة ثم قال: "نعم أعتقد ذلك، ولكن انتظري حتى يحل الظلام".

***

عم الهواء الرطب شارع زي مثل منشفة البحر المبللة، وكنت أقود الدراجة بمحاذاة منزل بام بام المهدم، إلى أن رأيت كندال جالسًا على أدراج عتبة منزله الأمامية وقد تسرب صوت برنامج "أبنائي الأربعة" التلفزيوني عبر النافذة الأمامية.

نهض كنـدال ومشـى بجـوار الكنيسـة الأسـقفية الميثوديـة البريطانيـة المجـاورة، وتبعتـه وأنـا أجـر دراجتـي، كانـت الكنيسـة المطليـة بالأبيض تتـلألأ فـي عتمـة الليـل، وجدرانهـا الطويلـة تتطلـع إلينا باشمئزاز مثل نظرة قاضي شاحب طويل القامة، فصرت أشعر بنبضـات قلبـي وأنفاس كنـدال والأصـوات الليليـة، وزجـرة الظربـان والراكونات تدوي في كل مكان في صناديق القمامة، وعندما وقفنا في الظلال فـي الزقـاق، نزلـت من الدراجة ووضعت ذراعـيّ حوله لكنه لم يعانقنـي بـدوره.

قلت له بتوجس: "أحبك".

رد كندال: "أحقًا؟ لست متأكدًا من ذلـك؛ فقـد كنـتِ تنتظريـن حتـى نصيـر فـي حقـل لتقيميـن علاقـة معـي، ومـع ذلـك قـد حاولـت أنـا وقتها لجعل الأمور تسير على ما يرام وبأمان دون التعرض لمضايقات، حتـى خرجتِ عن طورك كي تتأكدي من حصولك على النشوة؛ يبدو أنكِ مشعة".

خفق قلبي بشدة بينما غمغم كندال: "ما حدث لم يكن خطأي، يجب أن ننهي ذلك على أي حال".

تـرددت، وازداد توتـري؛ فهـل حيـن أخبـره بحبـي لـه أتفاجـئ برغبتـه فـي الانفصـال؟ لـم يكـن الأمر منطقيًا، فقلت له: "قال داف أن الأمر سيصير أسـهل".

شـعرت بالتوتـر يسـري في جسـده، وقـال: "داف شـخص مخـادع من الدرجة الأولى".

أشرت إليه: "ولكن الكثير مما يقوله يبدو حقيقيًا".

رد كندال:"أنا لا أقول أنه رجل غير ذكي، ففي الواقع يبدو مبدعًا بشكل مذهل، وتلك هي المشكلة؛ إذ يبدو الأمر كأنه يكتب سيناريو فيلمًا ويجربه علينا".

قلت له:"أود أن يخبرني داف بالحقيقة، فقد يكون المستقبل فوضى؛ ومن الممكن مع وجود المشاكل الأخرى لن يهتم أحد بما نكون عليه نحن الاثنان".

أراح كندال ذقنه فوق قمة رأسي وملأت رائحته أنفي التي تجمع بين شراب القيقب والعرق ومزيل العرق ثم قال:"وقد لا نستطيع الاهتمام بما يفكر غيرنا عنا، ونوافق على الزواج عندما نبلغ السن المناسب".

قلت له:"نتزوج؟"

عبر النافذة المفتوحة في المنزل المجاور؛ زادت أصوات الصيحات المألوفة من الضحك ليبين مدى طرافة البرنامج، ولم أعرف ماذا أقول؛ فقد تحول فمي إلى رماد، وأردت أن أجري، إذ لم أكن أريد الاستقرار كأمي وإنجاب أطفال، وإدارة منزل، فقط أردت أن أكون لكندال مثل الكونتيسينا للكابتن كروشير؛ حيث كان كروشير دومًا هو من يقوم بالمغامرات بينما تلامس كونتيسينا جبينه المحموم، صحيح أنها كانت تصارع الأشرار كل حين وآخر، لكني شككت أن هذا قد يحدث لي، ويأتي اليوم الذي سأتزوج فيه؛ خاصةً حينما رأيتها بمئزرة الكوكتيل فوق لباسها الضيق تقدم المقبلات لأصدقاء كروشير من هيئة الانتقام، بينما هم يدخنون التبغ ويلعبون البوكر، وكانت تدخل أحيانًا رأسها إلى غرفة الأطفال لتتفحص الطفل. لا شكرًا لقد عزمت ألا أكون مثل أمي.

قلت في احتشام: "مازلنا صغار على الزواج يا كندال".

فقال: "لكنكِ أحببتِ الفكرة أليس كذلك؟"

هـزرت كتفـي وحدقنـا فـي بعضنـا بعض، ثمـة شـيء تغيـر بيننـا، كأنـه يقف علـى حافة القنـاة واضعًا يده في جيبه بينمـا ألوح له من الجهـة الاخـرى للقنـاة، إلـى أن قـال أخيرًا: "أفضـل أن أوصلـك إلـى المنـزل، فالوقت متأخـرٌ جـدًا".

هـزرت رأسي قائلة: "يمكنني القيادة بمفردي يا كندال".

شعرت وأنا أقود الدراجة على طول شارع زي في وسط شيبمان كورنرز، بالراحة مع كل دوسة بالبدال وهي تنتشلني من غضب كندال الموجه إلـيّ لأسباب لا أفهمها وإلى العالم لأسباب تصورتها بغباء، وصحيح أنني لم أكن في الخامسة عشر بعد، لكنني أعرف كيف يشعر شاب أسود نشأ في بلدة صغيرة متعصبة بإحساس الكراهية.

عندمـا وصلت إلـى مقتنيـات كريسويل، ركنت الدراجة ووقفت ويـداي مضمومـة حـول جانـب أعينـي لأرى مـا فـي داخـل المتجـر، ولـم أرى إلا الأرفف وراء الخزانة، فإن كان هـذا ما ساعد داف للقفز عبر الزمـان مهمـا كان، لمـاذا إذن لـم يسـتخدمه؟ فالكونتيسينا لـم تخجـل مـن السـفر، وإذا أتيحـت لهـا الفرصـة للقفـز عبـر الزمـان، فسـتترك حبيبهـا الغليـظ كروشير عن طيب خاطر.

حاولت فتح مقبض البـاب الأمامـي لكريسـي لكنـه كان مغلقًـا بإحكام.

عندهـا؛ عـدت إلـى الدراجـة، ومشـيت فـي الشـوارع الحـارّة الرطبـة، وحتـى أعمـدة الإنـارة بـدت متدليـة فـي الحـر.

قدت الدراجة حتى ممر بيتنا، إلى أن سمعت الصوت المألوف نفسه لبرنامج "أبنائي الأربعة" يتسلل عبر نافذة الغرفة، وأحد ما يدندن معه، نظرت للأعلى، في ضوء القمر، فسمعت والدي يجلس على حافة السطح؛ إذ كان يفعل ذلك من وقت لآخر حتى يقترب من قمة الجبل، وكانت أرجله تتدلى من فوق المزراب لكنه لم يلحظ أنني هنا إلى أن قلت:"مرحبًا".

خيم عليّ ظل رأسه وقال:"لقد عدتِ متأخرة، أكنتي تتسكعين مع ساندي؟"

قلت له:"نعم"، على الأقل نصف الحقيقة، فقد تناولت العشاء عند عائلة هولوب. وسقط شيء ما على الأرض بين قدماي، وكان زوجًا من قفازات العمل الجلدية.

قال أبي:"تعالي إلى هنا".

كانت القفازات كبيرة جدًا، ولكنها تفي بالغرض. خطوت في مشتل أزهار أمي، وأنا أحرص على عدم سحق زهور البتونيا المحببة إلى قلبها وأمسكت بالتعريشة البيضاء المثبتة بإحكام على الجدران.

عندما اقتربت بما يكفي، مد أبي يده ورفعني حتى جلست بجانبه.

وقال: "هيا أيتها القردة، هوووب".

زحفت إلى السطح المنحدر، الذي تضيئة أنوار الشوارع، وقد بدا العالم من أسفل منظمًا كلعبة المونوبولي حيث صفوف المنازل على شكل مستطيلات محاطة بأسوار، وشبكة الطرقات وحفر الصرف التي بدت كأنها حرثت بواسطة عصا عملاقة حادة.

استلقى أبي على الألواح واضعًا يديه خلف رأسه يتأمل السماء، فمنذ أن قفزت إلى عام ١٩٧١، وهو يبدو كل يوم أصغر سنًا، يذهب كل صباح إلى مصنع الخمرة مرتديًا ملابسه القطنية بشاحنته الصفراء المتوهجة وهو يصفر، ثم يعود إلينا في المساء بزجاجات سباركلنج سبارو لنتذوقها. سألته:"هل أنت سعيد يا أبتاه؟ أقصد سعيد بعملك وأملاكك؟"، أجابني:"نعم سعيدٌ جدًا".

صمت لبرهة لأحدد كيف سأدخل في الموضوع إلى أن قلت له:"هل تعلم أن السيد هولوب يحاول اقتراض المال الكافي ليفتح مطعمًا؟"

استدار ونظر إليّ:"ما هو نوع المطعم؟"

قلت له:"وجبات سريعة أوكرانية مثل ماكدونالدز وحساء روسي"، تذمر أبي ونظر مرة أخرى إلى النجوم ثم قال:"إيجور دائمًا حالم ذو أفكار جيدة ومتابعة سيئة للنجاح".

"هل صمم البذلات المضادة للإشعاع التي في القبو لنا؟"

أدار أبي رأسه لينظر إليّ مرة أخرى:"لا لديّ حرفي يصنعها، فقد باع إيجور حقوق البذلات منذ مدة طويلة. المشكلة ليست أنه صنع الكثير من تلك البذلات، بل المشكلة في أنه لا أحد يعلم هل ستعمل جيدًا أم لا، لكنني أدركت أنه؛ ماذا سيكون أرخص -بحق الجحيم- من حفر ملجأ للقنابل؟".

قلت لأبي:"أعتقد أنه لم يحصل على الكثير من رأس المال اللازم لفكرة البذلات، أليس كذلك؟"

رد قائلاً:"على الأغلب لا".

"إذن كيف حصلت على رأس المال اللازم لشراء سباركلنج سبارو؟"

"لماذا تريدين معرفة ذلك؟"

هززت كتفيّ:"مجرد فضول، أعني أنها شركة عائلية أليس كذلك؟"

قال أبي:"حسنًا؛ شيبكو هي شريكتي التي تمتلك نصف المصنع فقط لكنني أحصل على رسوم إدارة جيدة".

فقلت:"كيف تود شيبكو امتلاك مصنع نبيذ؟"

قال أبي:"لإسعاد الناس؛ فنحن كما ترين نستخدم العنب الهجين لتأثيره المهدئ".

بدا الأمر مريبًا لي حتى وأنا في عمر الخامسة عشر فقلت له:"أتخدرون الناس يا أبي؟"

رفع يديه تعبيرًا عن الاستسلام ثم قال:"والآن لا تقتلينني؛ فشيبكو تقوم بذلك على سبيل الخدمة العامة، وقد كنت مستاءً عما يفعلوه في أراضي زي لمدة طويلة، ولكن الحقيقة هي أننا لن نستطيع القيام بأي شيء لتغيير العالم، وقد يعيش الناس في هدوء وسعادة بدلاً من القلق والإعياء حول الحرب العالمية الثالثة".

أشرت له:"ربما إن قلقوا بما يكفي، سيجبرون الحكومة على تغيير أشياء".

"كيف تعتقدين بالضبط أنهم سيقومون بذلك؟ لن يتغير شيء يا عزيزتي، حتى تأتي قوة عظمى وتضغط على الزر، إننا في طريقٍ مسدودٍ".

قلت لأبي:"وحتى ذلك، كل ما علينا هو الاسترخاء"، غمغم قائلاً: "شيء من هذا القبيل، فكل هذا النضال لديف كندال في الستينيات وأولئك الناس في أراضي زي منذ بضعة سنوات يشتكون من مستويات الإشعاع إلى أن يتعرضون للضرب من قوات الأمن؟ ما الهدف؟ فلا يبدو أن أحدًا منهم سيكون بالجوار بما يكفي ليشعر بالآثار، ستنهيهم القنبلة قبل أن تقوم الطفرات بذلك بمدة طويلة، ستفهمين ذلك عندما تكبرين".

استلقيت على المرفقين فوق السطح المنحدر، حيث أقنعني منطق أبي؛ إذ آمنت بنشوب حرب نووية حاسمة. وهكذا، عِش حياتك، إشرب، إعمل مع شيبكو، وكن سعيدًا، فغدًا القنبلة القاتلة.

رأيت القمر وهو يتلاشى بظل الأرض ويتحول من طبق أبيض مسطح إلى جسم كروي بلون الدم القديم الصدئ، أحسست أنه يمكنني الوصول إليه والتقاطه وهو يتدحرج من جدار السماء كالكرة المطاطية الحمراء.

قلت: "يبدو القمر غريبًا الليلة".

قال أبي: "إنه كسوف، كانوا يطلقون عليه قديمًا: القمر الدامي".

عندما شاهدت القمر يزداد إحمرارًا، خطر ببالي أنني لست في المكان الخطأ، بل في الزمان الخطأ، فإذا كان سلاح داف السري يمكن أن يعيده إلى الماضي، فربما أستطيع تحويل عقارب الساعة إلى أراضي زي، وإلى اللحظة الخاصة التي ربما قد قلبت حياة كندال رأسًا على عقب وأنا معه، أو إلى الوراء عندما التهمت الماكينة والد كندال الناشط حيًا في شيبكو،

ولأمكننا أيضًا تجنب الإهانة التي تعرضنا لها في المزرعة ذاك اليوم، أي كنا سنتمكن من تجنب تلك الأخطاء أو منعها، ثم نقفز أنا وكندال بعد ذلك إلى بعدًا جديدًا بمنأى عن العواقب الوخيمة إلى حيث لا نتذوق مرارة الكراهية والتحيز والقرارات الخرقاء، لكن كل ما يمكنني القيام به هو إقناع داف بأن يريني كيفية استخدام السلاح السري المخبأ في صندوق الأحذية خلف خزانة كريسي.

الفصل العاشر
عضة القرش

وقفت ساندي أمامي تحمل زوجًا من الملاقيط الفضية ثم حذرتني قائلة : "هذا سيؤلم".

دمعت أعيني من الألم على الفور وقلت: "آه ماذا تفعلين؟"

"أنتف حواجبك حتى تصير رفيعة مثل ميا فارو"

"بربك ...إن ميا فارو شقراء ومتزوجة من فرانك سيناترا، يع".

فقالت ساندي: "انظري إليهما".

فتحت أعيني ولم أجد حواجبي، بدوت مختلفة تمامًا فأصابتني حالة مستمرة من الدهشة.

قالت ساندي: "لم أقصد أن أنتفهم كلهم، ولكن من المحتمل أن يكون هذا أفضل لأنهم غير مناسبين مع شكل وجهك"، ثم أشارت إلى مخطط وضع الماكياج الملصق على مرآتها ثم قالت: "سأرسمهم مرة أخرى حتى نحصل على الشكل المناسب".

التقطت قلم الحواجب باللون البني الغامق الحاد المدبب وضغطت على الجلد فوق عيوني، كان يؤلم مثلما آلمني نزع الحواجب، وأخيرًا رأيت في المرآة حواجبي الجديدة ترتفع فوق عيناي كعلامات الاقتباس ويكأن عيناي تريدان قول شيء.

"والآن الرموش الصناعية".

رأيت ساندي تضع خطًا رفيعًا من الصمغ للرموش العنكبوتية، سألتها قائلة: "من أين لكي بكل هذا الماكياج؟"

قالت لي: "أبي سمح لي بشرائها؛ فعندما ذهبنا إلى البنك، أرادني أن أبدو أكبر سنًا... اللعنة، لقد لطخ الصمغ جميع أصابعي".

شعرت بالرموش الصناعية خفيفة الوزن كأن عنكبوت الرتيلاء يمشي فوق مقلة عيناي، ركزت عيني التي لم توضع عليها الرموش بعد على ساندي وهي تدس الرموش في مشبك رموش معدني وكأنها ستنفذ عملية تعذيب.

ورغم الوزن الذي خسرته، إلا أنني شعرت بأني بقرة مقارنة بساندي النحيفة التي بذلت قصارى جهدها لتعزيز الأنا فيّ، وعندما مسحت وجهي كله بكريم الأساس من ماركة **Cover Girl**، قالت لي: "لديكِ بشرة رائعة يا ديبي، فعندما أضع كريم الأساس على وجهي تكبر البثور أكثر".

حوّل كريم الأساس وجهي إلى لوحة فارغة، أنا الآن بلا ملامح، باستثناء حواجبي المرسومة وعيناي السوادوين الواسعتان اللتان تحدقان في المرآة، لقد مُحيت الآن حتى يمكن أن أكون أي شخص.

ثم وضعت ساندي ظلال العيون وتحديد العيون السائل، وأحمر الخدود، ثم البودرة انتهاءً بأحمر شفاه من ماركة **Cherries on the Snow**، تنهدت ساندي وقالت رغم أن الشفاه الحمراء الساطعة تليق على الجميع فيما عدا النساء الكبار، إلا إن شفتاي يناسبهما اللون الوردي كلون العلكة أو الأبيض كالموت.

حدقنـا نحـن الاثنـان لأنفسـنا فـي المـرآة وأكتافنـا بمحـاذاة بعضهـم بعض، وبدونـا مذهليـن، ولـم نكـن فتيـات مدارس ثانويـة مـن نوهيرزفيل، بل تحولنـا إلى فتيات أنيقات متطورات في السـابعة عشـر مـن العمر.

انتظرنـا السيد هولـوب بالسيارة في الطابق السـفلي، الذي لم يسبق أن رأيتـه متأنقًـا قط؛ إذ ارتـدى حلـة وربطـة عنـق وأحذيـة بنيـة لامعـة، وكان شـعره الأسـود مملسًـا للخلف حتـى برزت جبهتـه للغاية.

كنـا فـي طريقنـا لرؤيـة لاري كوالتشـوك المعـروف أيضًـا باسـم القرش، وقـد أوضحـت سـاندي أنـه رجـلاً غنيًـا يقرض المـال لمـن لـم يتمكنـوا مـن الحصـول عليـه مـن البنـك، وكان هـذا هـو قرض القرش؛ وهـو شـخص يسـاعد النـاس الذيـن يقعـون فـي مـأزق، وكانـت جنسيته نصـف أوكرانيـة، لهـذا وثق فيه السيد هولوب.

سَـأَلتُ سـاندي:"إذا كان كلاهمـا يتحدثـان لغـة واحـدة، إذن لمـاذا يحتاجـك أو يحتاجنـي؟"

وضعـت سـاندي ملمـع شـفاه وردي لـون العلكـة علـى شـفتاها، وأجابـت: "القرش يؤدي صفقاتـه جميعها بالإنجليزية، وهو رجل لعوب كجيمس بوند، لذا فهو يحب الفتيات الصغيرات حوله وهو يؤدي عمله كي يشـعر بالاسترخاء".

كانـت شـلالات نياجـرا دائمًـا مكتظـة بالنـاس، ولكـن ذاك اليـوم كانـت أهـدى مـن المعتـاد بسـبب العاصفة. هذا وقـد أقيم كازينو "منضـدة الـروك هـاوس" علـى حافـة الشـلالات وكان خاليًـا باسـتثناء عائلـة مينونيـت الكبيـرة التـي التفت حـول منضـدة بالقـرب مـن خزانة النقـود،

وقد ارتدى الرجال قمصان زرقاء مع حمالات البنطال، بينما ارتدت النساء قبعات وفساتين طويلة، وقد جلست في الخارج مجموعة من هاري كريشنا الذين ارتدوا جلباب برتقالي اللون ومعاطف أمطار صفراء ينشدون بالهندوسية "هاري كريشنا هاري كريشنا، كريشنا كريشنا هاري هاري".

كان القرش يدخن في ظُلّة في الخلف وأمامه طفاية وضعت فوق مفرش طُبِعَ عليه أفضل خمسين مشروبًا عالميًا، كان أصغر مما توقعت، فقد كان ذو شعرٍ أشقرٍ طويلٍ يصل إلى كتفيه مجفف بعناية، وشاربٍ أشقرٍ كثيفٍ، وارتدى القرش بنطال جينز أزرق وقميصًا قطنيًا محلول الأزرار؛ ليبين القلادة الكبيرة التي على شكل دائرة ويخرج منها سهم والتي تستقر فوق صدره المشعر، حينما صافحه السيد هولوب ابتسم له ونهض قليلاً ثم نظر إليّ أنا وساندي فأصدر صفيرًا منخفضًا.

قال لساندي: "يمكن أن تكوني عارضة أزياء يا حبيبتي"، ثم تحوّل إليّ وقال: "تبدين مثل بائعات الهوى، أراهن أنكِ ستظهرين يومًا ما في مجلة بلاي بوي".

بدت عيناه كالقرش حقًا، ولكن بدلاً من أن تكن سوداء مميتة، كان لونها أزرق كالجليد، وقد حدق فيّ مدة طويلة حتى اضطررت أن أخفض بصري.

ربت على المقعد الذي بجواره وقال لي: "اجلسي هنا يا حبيبتي، فأنا لن أعض".

وقف لأدخل إلى الظُلّة ثم جلس مرة أخرى بجواري، وهكذا أصبحت أجلس بينه وبين الجدار، ثم لف ذراعه على الفور حول خصري وجذبني نحوه حتى لم تجد يداي مكانًا تسند عليه سوى أرجله، وكان يتطلع إليّ بشراهة كما لو كنت شطيرة سجق مدخن.

تمتم قائلاً: "هذا أكثر مما توقعت".

كانت النادلة تختلس النظر إلينا وهي تجمع أدوات المائدة والمناديل لترتيب طاولتنا، فحاولت أن أطلبها لتأتي إلى طاولتنا، لكن أحد رجال المينونيت أشار إليها طالبًا فاتورة حسابه، فأعطتنا ظهرها وشاهدتها في يأسٍ وهي تتلاشى بين مجموعة من الأبواب المتأرجحة.

قال السيد هولوب:"لنتحدث الآن عن العمل".

أجاب القرش: "نتحدث عن العمل عندما آذن بذلك"، ثم انحنى مرة أخرى لسحب سيجارة ثانية، وألصق ركبته بركبتي. وتحت المنضدة أخذ يدي وحركها من عند أعلى رجله إلى ركبته، وعندما ظهرت النادلة مرة أخرى ترك يدي وسألني: "ماذا تطلبين؟"

ثم التفت للنادلة قائلاً: "مثلجات للفتيات".

قالت النادلة وهي تنظر إلى دفترها: "فانيليا أو فراولة أو شوكولاتة؟ أو كولا النيوترون أو ماونتين ديو أو سفن آب؟"

سألنا القرش: "ماذا تطلبن يا فتيات؟ على حسابي".

طلبت ساندي مثلجات الفراولة في السفن آب، وعندما دفعني القرش بلطفٍ قلت: "مثلها"، وطلب السيد هولوب قهوة.

ثم قالت النادلة إلى القرش: "وأنت يا سيدي؟"

فقال: "كوب ماء"، وقد تصبب العرق من الجزء المجاور من جسدي لجسده.

قال القرش للسيد هولوب: "ها قد سمعت فكرتك وهي وجبات روسية جاهزة ولكنها أوكرانية في الأصل أليس كذلك؟ لما لا تسميها وجبات أوكرانية جاهزة؟"

أوضح السيد هولوب في صبر: "لأنها أسهل فهمًا على الناس في هذا البلد عما إذا قلت أوكرانيٍ؛ فهم لا يعرفون مدى اختلاف أوكرانيا عن روسيا، فإذا قلت روسي سيتذكرون كوسيجن (رجل سياسي) ورواد الفضاء وخليج الخنازير والقمر الصناعي سبوتنيك".

أجاب القرش في شكٍ وهو يستلقي بظهره في الظُّلّة: "وبهذا سيبتاعون طعامك؟"

عادت النادلة بالمشروبات في صينية، وقد وضعت المثلجات المقدمة في كؤوس كبيرة مثلجة مع ملاعق طويلة أمامي أنا وساندي، هذا وقد حاولت إسقاط كرة الآيس كريم في السفن آب، لكنني لم آكل شيئًا لأنني كنت أركز على يد القرش التي كانت تتحسس ظهر أرجلي.

قال القرش بعد تفكير: "لن تكون شطائر البرجر فكرة سيئة".

بينما كان القرش يجري محادثته وساندي منشغلة بالترجمة وراؤه، أدخَلَ يده في بنطالي فوددت أن أصرخ ولكن تجمد لساني، فاستمر القرش بالتلاعب في جسدي أكثر مما فعله كندال بلا مقاومة مني وهو يدخن السيجار بيده الأخرى، وقد ثبّتُّ أعيني على المفرش محدّقة في صور المشروبات التي كانت سايد كار، وجيبسون وأولد فاشوند، وروب بوي.

مال القرش عليّ وسألني: "أثمة خطب ما في المثلجات؟"، وشممت رائحة التبغ في أنفاسه، فهززت رأسي نفيًا.

تحول لون وجه ساندي إلى لون السمكة النيئة، إذ كان القرش يجري مساومات صعبة، وحاولت ساندي أن تشرح لوالدها ما قصده القرش "بالفائدة المُرَكّبة" إلى أن تصبب العرق من جبهة السيد هولوب رغم المكيف.

حينما أراد القرش المساومة بالإنجليزية قال السيد هولوب:"أفكر في أمريكا، في سلسلة مطاعم مثل ماكدونالدز، أتعرفه يا لاري؟"

مال القرش على المنضدة رافعًا إصبعه إلى ساندي والسيد هولوب:"لقد ذهبت إلى ماكدونالدز في بافالو مئات المرات، ولكنهم لا يبيعون فارينكي، بل يبيعون الهامبورجر والبطاطس المقلية والصودا والأشياء التي يحب الأمريكان تناولها"

أوووه..... قلت في ضعفٍ: "عفوًا عليّ الذهاب إلى الحمام".

اتسعت ابتسامة القرش في وجهي فسحب يده ثم قال لي: "تفضلي، فلا نريدك أن تبللي نفسك يا عزيزتي".

أسرعت إلى حمام السيدات، وفي الوقت نفسه استمر إنشاد جماعة الهاري كريشنا الذين لاحوا كومضات برتقالية وصفراء تموج خلف النوافذ المبتلة وهم يرددون تحت المطر "هاري راما هاري راما، راما راما، هاري هاري".

كان الحمام خاليًا، توجهت إلى المقصورة وسحبت بنطالي وجلست أتبول لبضعة دقائق، حاولت ألا أتخيل خلايا جلد القرش،

لا أعرف ماذا يسمونها في العلم؟ نعم الخلايا الطلائية، وهي تطفو بداخلي، فعندما تصيرين امرأة ستشعرين أن جسدك ملكًا للجميع.

لُطّخَ بنطالي بالدماء- أهذه بداية الدورة الشهرية- حقًا لا يمكن التنبؤ بها كالمعتاد، ولكني أشعر بالألم في فرجي سببه مخالب القرش التي هتكت عذريتي تمامًا كالطريقة التي شرحتها السيدة ديبياترو.

أخرجت فوطة قطنية من حقيبتي وفردتها في ملابسي، ثم وضعت إصبعي في حلقي، رغم أن معدتي ليست ممتلئة، إلا أن ذلك يجعلني أفضل حالاً.

رجعت إلى الطاولة في تثاقل، وارتحت لرؤية المال في الصينية السوداء للنادلة، وكان السيد هولوب يقول شيئًا للقرش الذي أومأ برأسه وهز كتفه قائلاً: "بالتأكيد يمكنهما الذهاب الآن"، وقد ثبتت عين القرش عليّ لثانية ثم صرف وجهه.

توجهنا أنا وساندي إلى الخارج حيث بللتنا قطرات الشلالات ورذاذه في ثوانٍ، تمنيت حينها لو أحضرت مظلة معي. فكرت في إخبار ساندي بما حدث تحت الطاولة، ولكن إن قلت ذلك بصوتٍ عالٍ، إذن فهي حدثت حقًا وليس تخيلاً، ولكن عليّ الاعتراف بأنني جلست بجواره وتركته يعبث بي؛ فقد قيل لي دائمًا أن أتحلى بالأدب مع الكبار وطاعتهم، ولكن كان بإمكاني إبعاد يده.

ذكرت نفسي بأننا سنموت قريبًا على أي حال حينما يسقطون القنبلة، لذا لا يهم من الذي فعل شيئًا بمن.

بدأنا بالسير أنا وساندي دون أن أتفوه بما حدث لي إلى أن وقفنا عند حافة الشلالات الذي كان دائمًا مكاني المفضل للاستمتاع بالمنظر وكذلك للجميع. وفي الجو الحار يكتظ الجدار الحجري بالسياح المرتدين السراويل القصيرة وقمصان الجولف وهم يحملون كوز المثلجات في يدٍ ويمسكون أطفالهم الصغار الجالسين على الحائط باليد الأخرى، وقد سمعت أن الأمهات أحيانًا يدعن أولادهن ليسقطوا في الشلالات عن عمدٍ ولكن تلك الأخبار لم تصل للجرائد قط لكي لا يقوم الجميع بذلك، وعادةً ما ينتهي الأمر بتلك الأمهات بالرحيل إلى تورونتو حيث لا يُسمَع عنهن أي أخبار بعد ذلك.

ولم يكن هناك أطفال على حافة الموت ذاك اليوم، فقد كان هناك فقط بضعة أفراد بدا أنهم من الهند يرتدون عباءات بلاستيكية يتخذون أوضاعًا لالتقاط الصور في الضباب- وهو الأمر الذي جعل أبي يشير إليّ بعينيه ذات يوم بما يفيد عدم وجود ضوءٍ كافٍ لالتقاط الصور، ولكن كان يبدو عليهم أنهم يستمتعون بوقتهم، ربما لأنهم سيعودون قريبًا إلى الهند بصور لهذا المكان الرتيب الرمادي البارد.

حدقت إلى أسفل عند حافة الشلالات شديدة الضحالة، غير أن سرعة تدفق المياه تشير إلى أنك إن وضعت إصبعًا فقط فستجرفك قوة المياه إلى الشلالات؛ وفقًا للفيزياء، ما عدا قاربًا محطمًا انفصل عن مركب بخاري أعلى النهر، وقد انجرف صوب الشلالات حيث كُتِبَتْ عليه القصة التاريخية على النحو التالي؛ في عام ١٩١٨ فتح رجلان على متن القارب البوابات فغرق في الماء إلى أن رسي على الصخور على حافة الشلالات الضحلة حيث جريان المياه الشديد القوة،

وقد تم إنقاذ الرجلين بواسطة خط رفيع من الضوء يتصاعد من محطة كهرومائية فتحتم عليهما الظهور في هذا الضوء ليلاً؛ لأنهما لا يعرفان كم سيمكث القارب على الصخور قبل أن ينجرف إلى الشلالات. وهناك رجل قد أصابه الجنون وانتهى به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقلية، بينما مضى الآخر حياته يحكي للناس تلك القصة في الحانات، أما القارب فلم يترك مكانه قط.

سألتني ساندي: "ماذا تريدين أن تكوني حينما تكبرين؟"

قلت لها: "رائد فضاء".

فقالت: "إنه جواب طفلة صغيرة، فالفتيات لا يعملن رائدات فضاء، اختاري شيئًا واقعيًا".

وكنت عادةً ما أجادلها حول هذا الأمر؛ ففي ذلك الوقت درّب السوفيتيون امرأة رائدة فضاء على الرغم من أنها لم تصعد إلى الفضاء قط، لذلك شعرتُ بالهزيمة.

قلت: "لا أعرف، وماذا عنكِ؟"

قالت ساندي: "مضيفة".

فكرت في ذلك وقلت: "فكرة جيدة، فمن الجميل أن تسافري بعيدًا عن هنا في أي وقت تشائين".

عندئذٍ خرج السيد هولوب والقرش من الباب الأمامي للروك هاوس، وقد علت ابتسامة واسعة وجه السيد هولوب فانضمت ساندي إليه وسار الاثنين معًا يتحدثون في حماس، وضع القرش يداه في جيوبه ووقف بجانبي، ثم قال في صوتٍ خفيضٍ: "يجب أن أراكِ مرة أخرى".

قلت له وأنا أثبت عيني على لافتة وقوف السيارات: "لا أستطيع".

فقال: "بحقك، يجب عليكِ، فحالما رأيتكِ عرفت أنكِ مختلفة، تعرفين كيف؟" .. هززت رأسي وتابعت السير.

"إنها الكيمياء، فجسمك قد أخبر جسمي بأشياء عنكِ".

"أوه نعم مثل ماذا؟"، فرغم كل شيء أردت أن أعرف.

"مثل أنكِ مثارة ولديكِ ما يسمى الفيرمونات التي ألتمسها في بعض الفتيات، وهي كيمياء طبيعية لأنك مثيرة طبيعيًا".

تمتمت: "لا أصدقك"، رغم أنني بدأت أتساءل عما إذا كنت لم أسمع شيئًا من هذا القبيل من توأم دوناتو.

أكاد أسمع تسارع أنفاسه من فوق المشبك المتقطع في أحذيته الشبيهة بأحذية رعاة البقر وقال: "إنكِ ناضجة جدًا قياسًا بعمرك".

قلت له: "أحقًا؟ لكن لديّ صديق"، فقد بدأت أصدقه.

نخر قليلاً وقال: "وهل قضى منكِ وطرًا؟"

قلت له: "لا".

فقال: "أتعلمين، لقد كنتِ تنتظرينني؛ ففي الأزمنة القديمة كانت الفتيات ذوات الطبيعة الخاصة مثلكِ يُرسَلون إلى الملك أولاً، وفي شيبمان كورنرز أنا الملك".

"أنا في الرابعة عشر فقط، أو على الأحرى ما يقرب من الخامسة عشر".

هز كتفه وقال: "ومن يعبأ بالعمر؟ أنا في الثامنة والعشرون،

والطبيعة لا تهتم بكبر أو صغر عمرك، ففيرموناتك هي من حثتني على ذلك".

قلت له: "ولكن كيف ستقابلني؟"؛ أحببت فكرة أن أكون مثيرة طبيعيًا وأن يمارس أحد ما الحب معي، فقد بدا لي ذلك رومانسيًا كتقديم الورود والشوكولاتة، وكل ما أردته فقط ألا يظهر عند منزلنا وقت العشاء.

فقال: "أتمزحين، لقد ميزت ريحتك ككلب الصيد، أراكِ لاحقًا أيتها الصغيرة".

ثم مضى بعيدًا قبل أن أقول أي شيء وصفع السيد هولوب على ظهره واختفى وسط حشد هاري كريشنا وعائلة المينونيت التي تأكل المثلجات.

وفي السيارة، أدار السيد هولوب المذياع وقام برفع الصوت المريح لوالتر كرونكيت والذي أخبرنا أن الرئيس نيكسون وافق على أكبر تجربة نووية تحت الأرض في التاريخ في جزر أليوتيان، وأن السوفيتيين يهددون بالانتقام ...إلخ إلخ إلخ، فقد سمعت كل ذلك من داف، الذي نبأنا أن هذا الاختبار سيزيد الحرب الباردة اشتعالاً حتى ينتهي الأمر بحرب عالمية ثالثة في غضون ثماني سنوات، ربما هذا ليس موضوعًا كبيرًا؛ إذ بدأت أؤمن أن أبسط مخرج من مشاكلي هو انفجار العالم.

سألتني ساندي: "عما كنتما تتحدثان أنتِ والقرش وأنتما في الطريق إلى السيارة؟"

هزرت كتفي قائلة: "الكيمياء".

قالت ساندي ضاحكة: "يا لكما من مملين بهذه الأشياء العلمية".

***

طلبت من السيد هولوب أن ينزلني في حي يبعد عن منزلي، وعندما وصلت إلى المنزل، ركضت في الطابق العلوي ونزعت فستاني وبنطالي ودسستهما بين المرتبة والفراش، ثم جهزت حمامً ساخنًا للغاية وغطست في حوض الاستحمام واضعة وجهي تحت الصنبور مباشرةً كي تغمر المياه كل رأسي، وقد نزعت الرموش الصناعية التي نزعت معها الكثير من الرموش الطبيعية، كان الأمر مؤلمًا كأي شيء آخر ذاك اليوم، ولكن هذه المرة بات الألم مُلهيًا؛ إذ كان عقابٌ كعقاب القرش لي؛ فثمة شيء خطر فيه لا يقاوم، وتساءلت ما إن كانت الكيمياء في جسدي تناديه، فقد اندلع كل من العار والإثارة داخلي في آن واحد.

عندما خرجت من الحوض، ألقيت نظرة على وجهي الورديّ المبتل في المرآة، وقد بدوت مثل القطة التي حُلِقَت فروتها، لذا تعين عليّ اختلاق كذبة فريدة من نوعها لشرح سبب اختفاء حواجبي ورموشي الذين نتفوا.

سمعت صوت أمي وهي تطرق على الباب قائلة: "ديبي".

أجبتها: "نعم".

قالت: "صديقك على الهاتف".

"قولي لساندي أني سأتصل بها لاحقًا".

قالت أمي: "ليست ساندي، بل بائع الصحف".

عندما فتحت الباب ورأت أمي وجهي رسمت الصليب بيدها ثم قالت: " يا عذراء".

قلت لها: "حاولت أنا وساندي تغيير طلتنا إلى طلة جديدة فانتزعت ساندي شعرًا كثيرًا بالملقاط، لا تقلقي سينمو مرة أخرى".

هزت أمي رأسها وانصرفت.

ذهبت إلى الهاتف الموجود في غرفة المعيشة في زاوية تمثال العذراء، وعندما رفعت سماعة الهاتف، أحسست أن عيناها المخفوضتين المجصصتين تنظران إلى وكأنهما تقولان: انتبهي لنفسكِ يا صغيرتي.

قلت: "مرحبًا".

أضحى الديجافو قويًا وفوريًا هذه المرة وعرفت ما سيقوله كندال:"قابليني في مكان الاختباء".

نظرت إلى باب المطبخ، كانت أمي تنظف غلاية الشاي، ثم قلت لكندال:"ظننت أنك تريد إنهاء ذلك".

صمت لبرهة ثم أردف: "آسف، كنت منزعجًا ولم أقصد ذلك".

والآن جاء دوري للتردد فقلت: "لديّ تقلصات شديدة، لننتظر بضعة أيام".

"لا يهمني إن كنتِ تعانين من آلام الدورة الشهرية، فنحن لن نفعل أي شيء، فقط أحضرت بعض القصص المصورة الجديدة".

أغمضت أعيني وقلت: "مزاجي لا يسمح للمزيد من الزابرودر الآن يا كندال".

"أعدك لا مزيد من الزابرودر، لقد أحضرت قصة جديدة بعنوان الانحراف وأخرى رائعة بعنوان راكب الأمواج الفضي، لنتقابل غدًا عند الظهر".

حاولت تخيل نفسي أجلس في متجر الحلوى المهجور وأقرأ القصص المصورة مع كندال كطفل صغير بعدما حدث مع القرش هذا اليوم، ولكن لم يكن هناك وسيلة لرفضه دون المزيد من المناقشة، فقد كان المطبخ هادئًا بما يكفي لأشك أن أمي تتنصت عليّ، لذلك وافقت.

قال كندال: "عظيم، أراك لاحقًا"، ثم أضاف: "أحبك".

أجبته: "حقًا..... نعم وأنا أيضًا"، ثم أغلقت الهاتف.

عدت إلى غرفتي واستلقيت على السرير وأنا احتضن وسادتان حيث ازدادت التقلصات حدة كأن الرب يضربني في بطني، وقد قررت أن أحفظ ما حدث بيني وبين القرش في الجزء المغبّر في رأسي مثل الصناديق الصغيرة وراء مكتب النقدية في محل كريسي؛ إذ غطى الغبار الأشياء الثمينة المنسية لمدة طويلة ، ولم يكلف أصاحبها نفسهم عناء العودة إليها.

ذهبت إلى الحمام لتغيير الفوطة الصحية، ورغم أنني لم أتناول أي شيء، إلا أنني تقيأت سائلاً ترك مرارة في فمي لكنه كان مرضيًا للتخلص من أي شيء دخل جسدي هذا اليوم، لقد تطهرت الآن داخليًا وخارجيًا، وأنا على استعداد لسقوط القنبلة وتدميري وتدمير آخر رجل على كوكب الأرض.

الفصل الحادي عشر
الحقيقة والعدالة

لم أعود إلى بوستابوكاليبتيكا في الأيام التالية، ولكي أتجنب الأسئلة؛ طلبت من ساندي أن تتصل بكندال وتخبره أنني متوعكة، وقد أخذت ميدول ورقدت يومين في السرير مع زجاجة الماء الساخن والأعداد السابقة لجاسبر الشبح المسالم وهنري الصغير، حيث أرتاح على قصص الأطفال المصورة، إلى جانب مثلث الحب المستمر بين فيلما وبيتي وأرتي المجهد عاطفيًا، وقد كانت تقلصات الحيض إحدى الأشياء القليلة التي لم يتمكن المصل من التصدي لها، لكنهم يعملون على ذلك.

وأخيرًا، في اليوم الثالث، همدت التقلصات وانخفض تدفق الدورة، ووصلني مغلفًا بنيًا في البريد كُتِبَت عليه الكلمات الآتية "يوجد وثائق مهمة برجاء فتح الظرف فورًا".

كان كتيب اختبار المواهب الحرة من مدرسة مراسلة الفنانين الأمريكيين المشهورين، وقد كُتِبَ فيه ما يلي:

عزيزنا السيد د.ر.بيوندي:

هل تستعد لاتخاذ الخطوة الأولى للفنان المبدع؟

تهانينا!

فإن اختبار المواهب الحرة المرفق سيفتح الباب لمستقبل أحلامك، وسواء أكان ذلك بعد تقلد مهنة ذات دخل مجزٍ وسفر وعمولات أو كنت مجرد مبدع جدير بالاهتمام سيرافقك معلمو

مدرسة مراسلة الفنانين الأمريكيين المشهورين على طول طريق أحلامك ياسيد د.ر. بيوندي، فقط كل ما عليك هو اتباع الخطوات الثلاث الآتية:

١. إكمال كتيب الاختبار باستخدام قلم رصاص مدبب آتش بي وممحاة.

٢. وضع الكتيب في ظرف بريد مدفوع وإرساله إلينا دون الحاجة إلى طابع وسندفع لك رسوم البريد.

٣. تأكد من إرفاق استمارة التسجيل المكتملة، فإذا كانت نتيجة الاختبار مرضية؛ سنرسل كود تسجيل طالب المدرسة الخاص بك على الفور وسنعين لك معلمًا ونرسل إليك فاتورة بأول ٢٦ أسبوع من حصص المراسلات بسعرٍ منخفض للغاية يصل إلى ١١،٥٥ دولارًا للحصة بالإضافة إلى ضرائب الولايةٍ أو المقاطعة المطبّقة. هذا صحيح؛ فقط بثلاثمائة دولار مع الضرائب يمكنك السير في الطريق إلى مهنة جديدة كليًا، وإذا كان اختبارك واعدًا أو شرارة إبداعية فريدة من نوعها، فقد توصي هيئة الفنانين الأمريكيين المشهورين بمنحة لك، فإذا كنت ترغب في الانضمام، يرجى وضع علامة في المربع الموجود في الاستمارة.

وقّع نورمان روكويل الرسالة بنفسه، وقد حدقت في سعر الدراسة ذات الثلاثمائة دولار؛ إذ ظننت أنها مجانية، ولكن هذا ليس إلا اختبار مواهب قد أحصل بموجبه على منحة، وعلى كلٍ أنا أتعلم الرسم من كتب والتر فوستر منذ سنوات.

عندما فتحت كتيب اختبار المواهب، طلبت مني الصفحة

الأولى رسم رأس غزال، وعلى غرار طريقة رسم الخيول، بدأت برسم مستطيل حتى تذكرت بعد مدة أن رأس الغزالة تُرسَم بمثلث، فرسمت ومحوت الغزال مرارًا وتكرارًا إلى أن لُطِّخَت الورقة باللون الرمادي الخفيف، وأخيرًا أحدثت ثقبًا في الورقة أيضًا، فألقيت كتيب الاختبار مدركة أنني لا أتمتع بالموهبة التي تؤهلني لأصير فنانة مشهورة أكثر من كوني زوجة لكندال أو عشيقة القرش، مضى ثلاثة أيام ولم يكن هناك أي علامة لظهور "لاري كوالتشوك" رغم كل الوعود التي قطعها معي.

انتظرت حتى تغادر أمي المنزل ثم اتصلت من الهاتف الإضافي المجاور لتمثال مريم العذراء؛ ففرح كندال لسماع صوتي.

قلت له: "يمكنني مقابلتك في بوستابوكاليبتيكا اليوم بعد الغداء".

قال لي: "لقد اشتقت إليكِ".

أجبته: "وأنا أيضًا".

أحضر القصص المصورة ولكننا لم نهدر الوقت في القراءة، بل بدأت العلاقة الحميمية مع كندال والتي تطورت إلى أن صارت مثلما حدث مع القرش، وقد ظننت في البداية أن كندال لن يكون مثل القرش، لكنه من واقع تجربته السابقة مع أنجي باترون، كان يعي ما يتعين عليه فعله.

اتفقنا أنا وكندال أن نتقابل في البوستابوكاليبتيكا يوميًا حتى يبدأ موسم الخريف.

***

تحولت خطط السيد هولوب لمحل الوجبات السريعة إلى أرض الواقع بفضل قرض القرش عالي الفائدة، فاشترى مشواة مستعملة ومقلاة كبيرة وماكينة نقود ومنضدة خشبية مهترئة وثلاجة علب مياه غازية، ودفع إيجار الشهر الأول والأخير على محل مهجور، ولم يكن هناك مساحة كافية للطاولات والكراسي، فبالكاد تجد مكانًا كافيًا لدخول الزبائن وتقديم طلباتهم.

حاكت السيدة هولوب بعض البلوزات الأوكرانية لنا بألوان الأحمر والأبيض الفولكلوري مع التطريز والزخرفة، واحدة لي وواحدة لساندي، وقد أسند السيد هولوب لكندال وظيفة بدوام جزئي وهي رص تجهيزات المحل وتفريغ سلة المهملات، وهي وظائف لا يستطيع السيد هولوب القيام بها يوميًا لارتباطه بعمله في المصنع، وقد حققت دخلاً أفضل من جمع الثمار، طالما أن هناك زبائن تدفع.

كُتِبَت القائمة باليد في بطاقة ووضِعَت على الطاولة بالوجبات الآتية:

برجر سبوتنيك (مثلما اقترح القرش).

بطاطس لايكا المقلية (سميت على اسم الكلبة المنكوبة التي كانت على متن سبوتنيك ٢).

فطائر البيروجي في علبة (كانت فكرة السيد هولوب الأصلية المستوحاة من دجاج كنتاكي المقلي والموضوع في دلو).

البرش- حساء الخضار الروسي (أشك في ذلك).

لفائف الكرنب مع الكولا (كولا آرسي حقيقية).

كان يوم الافتتاح حافلاً؛ إذ حضر الجيران لرؤية المحل ومصافحة السيد هولوب، وكانت أغلب المبيعات -مثلما تنبأ القرش- ليست للطعام الأوكراني، بل للبرجر والبطاطس المقلية وعلب المياه الغازية.

قل الازدحام في اليوم الثاني، وكان الزبائن قليلين من فئة عمال السفن من الجهة الأخرى للقناة، أما في اليوم الثالث، وقفنا أنا وساندي ننتظر أي زبون يدخل من الباب بينما حاول كندال التوصل إلى أفكار دعائية فقال: "ربما علينا الإعلان في الراديو"، لكننا نعرف أن إعلان واحد على المذياع قد يكبد السيد هولوب رأس ماله كله بما فيه الأجور الصغيرة التي يدفعها لنا.

وعند الظهر فُتِحَ الباب ودلفت السيدة دوناتو وبناتها وهن يرتدين ملابس تنس متماثلة وقد طلبن بيروجي في علب. راقبتني السيدة دوناتو وأنا أحسب الباقي، ثم قالت لي: "تبدين رشيقة قليلاً آنسة بيوندي".

قلت لها: "شكرًا لكِ"، وأنا أسلمها النقود وأتساءل إن كانت ستعطينا إكرامية أم لا. لكنها لم تعطينا شيئًا.

بينما كنت أفكر في أن أسرة دوناتو ستكون الزبائن الوحيدة لهذا اليوم، فتحنا مجلة ناتس الموضوعة على الطاولة المهترئة لاستغلال الوقت، وفي أثناء القراءة عن "أمور التجسس المتبادل"، انفتح الباب ودلف شابان وسيمان لهم شعر أسود، كان واحد منهم في عمري تقريبًا، والآخر بدا عليه أنه في أوائل العشرينيات، وقد مشوا في المحل وكأنهما أصحابه.

كان الشاب الأصغر طويلاً ونحيلاً، بينما الأكبر أقصر قليلاً ومفتول العضلات كالملاكمين. تفحص فتى العضلات القائمة على الفور حتى عقد حاجبيه كأنه لم يفهم ما يقرأه، بينما علت ابتسامة عريضة مشرقة وجه الشاب الآخر رغم تجمع البثور في وجهه ولحيته الطويلة، حيث كان في طريقه للتحول إلى محطم قلوب مجموعة العشاق اللاتينيين.

قال لنا: "مرحبًا يا ديبي مرحبًا يا كندال، كيف حالك يا رجل؟"، ثم أدركت أن محطم القلوب هذا هو بام بام.

قدم لنا الشاب الضعيف في القراءة مفتول العضلات وعرفنا به؛ اسمه روكو أندوليني، صديقه وابن عمه غير الرسميّ، وقد طلب الاثنان مثلما توقعنا برجر سبوتنيك وبطاطس لايكا.

سأل كندال بام بام وهو يحول لقبه إلى لقب أكثر لطافة: "كيف الحال في المزرعة يابيب؟"

هز بام بام كتفه وقال: "خير من أي مكان يمكن أن ترسلني إليه الجمعية الكاثوليكية لمساعدة الأطفال؛ إذ أتناول ثلاث وجبات في اليوم وأجمع الفاكهة وأذهب إلى الكنيسة، لكن المدارس هنالك ليست سيئة للغاية، فمن السهل جدًا أن تسترخي وتقرأ روايات الخيال العلمي تحت مكتبك دون أن يعاقبك أحد على ذلك، فهم بحاجة إلى المزيد من الأيدي في المزرعة".

مضغ روكو برجر السبوتنيك ببطء وهو يواصل النظر بعيناه التي تشبه عيون البقر إلى بام بام؛ إذ لم ينظر قط إلى ساندي أو إليّ، فكلما أطلق بام بام مزحة يلتفت إلى روكو، كي يتأكد أنه لم يبتعد حتى

أدركت ما بينهما، روكو يحب بام بام والعكس صحيح، أي أنهما يحبان بعضهما. ربما يكونون من برج الجوزاء، إلهان توأمان من برج واحد، ولكننا لم نتوقع أن بام بام سيكون هو الزعيم الأكثر ذكاءً.

شاهدناهم في حزنٍ وهم يغادرون المحل ويلوحون بأيديهم وهم يعدوننا بتكرار الزيارة مرة أخرى قريبًا.

قالت ساندي: "رائع، ألم يتغير بام بام؟ لقد صار وسيمًا الآن".

نظر إليها كندال بدهشة وقال: "اعتقد أن بام بام وروكو مثليين مثلما بدا عليهما".

هززنا رأسنا أنا وساندي وقلنا :"إنك متحيزًا".

قال كندال: "هذا مستحيل، أنا لم أقل أنني لا أحبهما، بل قلت الحقيقة الجلية؛ إنهم شواذ".

لَفَّت ساندي شعرها حول كتفها وقالت: "إنه لم يقابل الفتاة المناسبة فحسب".

عندما حل المساء أغلقنا المقلاة الكبيرة وتحولنا إلى علب المياه الغازية المثلجة وألقينا النقود في ماكينة النقد، وشربنا الكولا سريعًا من أجرنا اليومي.

جاء داف وليندا في نهاية اليوم لأخذنا، وقد وقفت السيارة الكاتلاس بمحاذاة الرصيف بينما أغلقت ساندي المحل، وقد سمعنا عن بعد صوت دوي صفارة إنذار الغارة الجوية المفاجئة، فسدت ساندي أذناها بيديها وأغلقت عينيها، إذ كرهت هذا الصوت منذ ذاك اليوم الذي بللت فيه نفسها في أثناء تدريب "احم نفسك".

وفي ثوان، سمعنا إشارة "المكان آمن" فعرفنا إنه إنذار كاذب آخر.

سأل داف عبر نافذة السيارة: "كم مرة يحدث هذا العطل اللعين؟"، هز كندال كتفيه وقال: "إنه يُطلَق كثيرًا في الجو الحار".

سأله داف: "أين صفارة الإنذار ؟"

قال كندال: "فوق سطح المدرسة الثانوية، حيث يعرف الحارس كيف يوقفها".

أومأ داف رأسه عند تلك المعلومة وقال: "يجب أن يوقفوا هذا الشيء اللعين".

قلت لداف: "ولكن ماذا لو شُنَّ هجومًا فعليًا؟"

"لن يهم، فالقذائف التسيارية العابرة للقارات تنتقل بسرعة فائقة، وكل تلك الإنذارات لا تفعل شيء سوى أنها تجعلك تتغوطين في ملابسك من فرط الخوف الشديد الذي يستمر معك لخمسة عشر دقيقة قبل نهاية العالم".

قال كندال:"يا إلهي، شكرًا على الاستنارة يا داف، لقد ارتحت كثيرًا".

سألت ليندا عندما تجمعنا في السيارة: "كيف حال العمل؟"، ردت ساندي بيأس: "سيء جدًا، فقد كان أكثر زبائننا هم ثلاثتنا".

كان داف بثياب العمل وقد جمع شعره الطويل تحت قبعة الدهّان، إذ كان يبحث عن وظائف للحرفيين في البلدة كي يستمر في دفع الإيجار حتى يبدأ في تدريس الفيزياء وحساب التفاضل والتكامل في جامعة سانت ديسماس، ومثلما توقع أبي، فقد تمكنوا من اقتناص

فرصة توظيف مراوغ للمشروع يكون متعلمًا ومثقفًا وكاثوليكيًا للبدء من الصفر. هذا وقد اقتربت ليندا من داف لتفسح لي مكانًا في المقعد الأمامي، وقد بات الاثنان لا ينفصلان، كنت أعرف أن ثمة شيء ما بينهما، ليس فقط من الطريقة التي يلف بها داف ذراعه حول كتف ليندا ويده المتدلية التي تلعب بنهايات شعرها، بل لأنني استيقظت من نومي ليلاً أكثر من مرة لأجد نفسي وحدي بالغرفة، فقد كانت الوسادة في سرير ليندا الخالي موضوعة تحت اللحاف مثلما كانت تفعل حينما وقعت في ورطة في أثناء أزمة القذائف، حيث كانت تسلل إلى البيت المجاور عبر الباب الخلفي غير المغلق خلف غرفة نوم جدتي بيبي التي تنام فيها، إلى أن تنزل إلى القبو حيث سرير داف ثم تعود مرة أخرى إلى غرفتنا قبيل الفجر، وكنت آراها تدخل وتخرج من نافذة غرفة النوم بعينين نصف مغلقتين، إذ كنت أتظاهر أمامها بالنوم.

ربما هو ذلك الشيء الذي حكى لي القرش عنه؛ حيث قال بمجرد أن تبدئين فلن تستطيعين التوقف، وقد قارن ذلك بعصير برتقال فلوريدا ، فنوعه المميز يجعلك تدمنه كالنبيذ.

رقدت في سريري تلك الليلة وأنا أتخيل داف وليندا خلف الباب المجاور.

تخيلت القرش في رأسي "ديفيد نيفن" المفعم بالحياة أو القاسي وشريك واضح في الجريمة رغم التشابه الكبير بينه وبين كايل كروشير الجاهل، فحتى لو لم تعبأ الكونتيسينا بالقواعد اللغوية السيئة، فإن السلبيات المضاعفة قد أزعجتني، وقد تساءلت عما إذا كان هو وكندال قد يتصارعان حتى الموت من أجلي.

بين بشاعة الهواء في غرفتي وما أفكر فيه لما يجري بين ليندا وداف خلف الباب؛ لم يغمض لي جفن، فنهضت من الفراش ووقفت عند النافذة استمع إلى الأصوات الليلية في شيبمان كورنرز كصوت المنشار المتذمر للسيكادا، وصراخ القطط المرعب في الحر، وصوت سيارات الهوت رود التي تتسابق بسرعة فائقة على امتداد طريق فيرمي.

التقطت مبرد أظافر ليندا وظللت أخدش الستار مثلما فعلت هي في الماضي إلى أن قفزت من النافذة على شريط العشب بين منزلنا ومنزل جدتي ظنًا مني أنها قفزة بسيطة لكنها كانت أبعد مما ظننت، حيث وقفت بالأسفل أحدق في النافذة وأتساءل كيف تسلقت ليندا إلى النافذة لتدخل الغرفة مرة أخرى، لا بد أن ليندا قد اكتشفت طريقة وكذلك أنا سأحاول.

كانت ليلة مقمرة غطى فيها القمر كل شيء حيث جعله كلون مثلجات الفانيليا البيضاء ويكأنني سقطت في عالم الأشباح. أسرعت إلى الباب الخلفي الذي أعرف أنه مفتوحًا؛ إذ قالت جدتي بيبي أن استدارة المفتاح يصعب على يداها التي تعاني من التهاب المفاصل، لذلك كانت تتساءل عن سبب غلق الباب على رجل في المنزل؟ فإذا اقتحم المنزل لصًا، سينبح بيبي السابع وجدتي ستصرخ ومن ثم سيجري داف حاملاً مضرب البيسبول الذي أمدته به جدتي لهذا السبب تحديدًا.

وقفت في غرفة المعيشة داخل المنزل أستمع إلى شخير جدتي المنخفض، وقد خرج إليّ بيبي السابع يلقي عليّ التحية وهو

يهز ذيله، وقد كنت أعرف أنه لن يكلف نفسه عناء النباح عليّ، فنظرت إليه ووجدت بعض الخدوش أسفل ذقنه إلى أن عاد مرة أخرى إلى غرفة نوم جدتي. حاولت التنصت على داف وليندا غير أن الدرج شديد الانحدار وطويل حتى القبو ومهزوز ويصدر صريرًا، لذلك سيسمعون خطواتي.

خلعت حذائي وتوجهت صوب المطبخ حافية القدمين، لربما أجد شيئًا شهيًا أعدته جدتي ووضعته في الثلاجة، فأنا أفقد الكثير من الوزن حتى شعرت أنني أريد أن آكل بشراهة. عندما وقفت أمام باب الثلاجة محدقة في سلطانية العصيدة المتبقية وعلبة السردين المأكولة، سمعت شخصًا ما يقول: "ستخيفين أي أحد حتى الموت".

كان صوت ليندا متبوعًا بداف: "لا لست كذلك، سأزعجهم حتى يستيقظوا".

أغلقت باب الثلاجة في هدوء، وقد أصدر مفصل الباب المطاطي صوتًا طفيفًا وهو يلتصق بالثلاجة كالشفاه المبتلة. كانت أصواتهم تخرج من فتحة الهواء الساخن، إذ نسيت أن الصوت ينتقل من القبو بهذه الطريقة. فانحنيت على الأرضية المشمع وشممت رائحة السجائر مع أصواتهم في المطبخ.

قالت ليندا: "لنأخذ ديبي معنا". نعم ظننت أنها ستفعل ذلك.

أجاب داف: "ما زالت طفلة".

أوه حسنًا بالتأكيد لم يظن القرش أنني طفلة صغيرة.

"لا يمكنني أن أتركها".

قال داف: "لديها فرصة جيدة هنا مثل أي مكان آخر، فلا يبدو أنها ستكون آمنة معنا". أعطني استراحة يا عزيزي.

وأشارت ليندا: "أيمكننا العودة إليها فيما بعد؟"

أجاب داف: "لا أستطيع أن أعدك".

يالهم من خونة ومنافقين، يتركونني هنا لأحاول إنقاذ العالم، بينما يفرون هم إلى المستقبل.

قالت ليندا: "إنها في خطر في شيبمان كورنرز"، ثم أتبعها همسًا لم أتمكن من سماعه وتابعت: ".... أنا محتارة، فأنا الوحيدة التي تراقبها هنا".

أتراقبني ليندا؟

قال داف في ضيقٍ: "أتفهم ذلك؛ دعيني أفكر في هذا الأمر، فقد أفسدت التواصل الزماني المكاني بما يكفي لأسبب مشكلة لا نهاية لها، فإذا أخرجت ديبي من المعادلة، سيصير الأمر كارثيًا".

ماذا؟ وماذا يعني ذلك؟ وماذا تقصد ليندا أنني في خطر؟ ولم تذكر الكثير من عائلتنا، شعرت كما لو أن الجدران ستنفجر إذا تعين عليهم حفظ سرًا آخر.

عندها وقفت، وأحدثت الأرضية صوت الصرير، فتجمدت في مكاني.

همست ليندا: "ما هذا؟"

قال داف: "جدتك تتبول فحسب".

عندما تحركت خلسة عبر غرفة المعيشة إلى الباب، لاحظت شيئًا على المنضدة الجانبية؛ وهي المحفظة الجلدية السوداء التي

أخرجها داف عند كريسي، وهكذا، أضأت أباجورة لادي ليبيرتي الأرضية على الإضاءة الهادئة وفتحت المحفظة وأخرجت رخصة سياقة ماساتشوستس باسم بنيامين دافي مع صورة له يرتدى نظارة عاجية وحامي جيب؛ جعلاه يبدو وكأنه أحد رجال غرفة التحكم. تاريخ الميلاد (١٨ يناير ١٩٤٨). بالإضافة إلى بطاقة هوية بلاستيكية من مكان يسمى الديناميكا العامة في بومونا بكاليفورنيا، حيث ظهر في الصورة بقصّة شعر كالبحارة وربطة عنق باسم بين دافي، مهندس كهربائي، بحث وتطوير، قسم الطائرات العسكرية. ومن المؤكد وجود بطاقة له. تعجبت لماذا يُرسَل شخص مثل داف إلى فيتنام طالما أنه قادر على اختراع طرق جديدة لقتل العدو كالفيروسات والروبوتات وما إلى ذلك؛ ووفقًا لداف، فإن التاريخ سيظهر أن فيتنام وحروب الدومينو الأخرى كانت محاولة للقضاء على جيله بأكمله والبدء من جديد بزواج الرجال المسنين؛ مثل ريتشارد نيكسون بملكات الجمال في العشر سنين الأخيرة، وهي مؤامرة بدت مثل قصة مصورة عن الدعاية كنا أنا وكندال قد قرأناها عند كريسي.

أعدت البطاقات مرة أخرى إلى محفظة داف ووضعتها على المنضدة الجانبية، فقد عرفت الحقيقة الآن مثلما توقعت أنا وكندال، إذ بدأت أعتقد أن داف ممثل تافه من الدرجة الأولى، وقصته عن كونه من المستقبل ضربًا من الخيال، لقد غسل مخي لأصدقه. فهل فقدت حقًا سنتين من عمري في قفزة زمنية، أم أنني أتحول إلى بلهاء؟

الفصل الثاني عشر
جزيرة أمشتكا

عندما طلبت مدرسة مراسلة الفنانين الأمريكيين المشهورين التحدث إلى السيد بيوندي، أعطت أمي سماعة الهاتف إلى أبي، وبعد برهة عاد أبي إلى المطبخ حاملاً البشائر بأن ابنته الصغرى قد أظهرت بريقًا من العبقرية الفنية حتى ظنت المدرسة أنني صبي، وقد اتخذ ممثل المدرسة موعدًا لزيارة منزلنا في المساء لمناقشة مستقبلي الفني.

تذمرت أمي قائلة: "أن يأتوا إلينا أمرًا يصعب تصديقه؛ كيف سمعوا عن رسومات ديبي؟"

تمتمت وأنا آكل الخبز المحمص :"أرسلت إليهم اختبار مواهب مجاني".

قال أبي: "تهانينا! لقد قالوا أن لديك جوهرة إبداعية فريدة".

كان مسرورًا للغاية، لذلك لم يطاوعني قلبي على إخباره بأنني قد رميت ورقة الاختبار، فتمنيت ألا تخرج مني تلك المعلومة، ونحن في غرفة المعيشة أجلس مرتبكة أمام ترويج ممثل مبيعات المدرسة الشهيرة.

لم يبد ممثل المدرسة شبيهًا بالفنانين، بل كان رجلاً قصيرًا يرتدي سترة رياضية تناثرت عليها قشرة الرأس وذو أيدي عصبية وشفاة مرتعشة ويحمل حقيبة رُسِمَت عليها صورة ذاتية لنورمان روكويل كتلك التي رأيتها في الإعلان مكتوبًا عليها جملة "نبحث عن أناس يحبون الرسم".

رغم اضطرابه ورائحة التوابل القديمة والجاودار، ذكر رجل المبيعات عدة أشياء أسعدت والداي؛ خاصة أبي لدى سماعها. منها أنني أظهَرتُ درجة عالية من الموهبة الفنية، ولم يكن هناك أي شك في ذلك، وكذلك عملية البت في المدرسة صارمة ومتشددة ومثبتة علميًا، وقد بدا ذلك غريبًا لأنني لم أرسل الاختبار.

تشتت أفكاري حتى انتبهت مرة أخرى حينما قال الرجل أن العديد من خريجي مدرسة الفنانين الأميركيين المشهورين هم أنفسهم الفنانين المشهورين الآن؛ حيث ذكر أسماء العديد من رسامي الكاريكاتير المعروفين الذين ظهرت أعمالهم في القصص المصورة الملونة في مجلة شيبمان كورنرز مثل قصة "الفلاحين الجذابين" وهي قصة أمي المفضلة.

وأقرَّ أبي: "صدقًا لقد أتت بموهبتها مني فقد كنت أتمتع دائمًا بنزعة فنية".

نظرت لأبي في دهشة وسألته: "منذ متى؟"

رفع أبي ذقنه ثم قال: "أحببت الرسم منذ صغري، فقد كنت جيدًا فيه، فلو حصلت على بعض التشجيع، لكان الوضع الآن مختلف".

أدار رجل المبيعات رأسه تجاه أبي بشفتيه المرتعشتين؛ حيث كان ذلك تعبيرًا أشبه بقطة صغيرة تحاول احتكار فأراً كبيرًا بطئ الحركة.

"لدينا شخص محلي ليكون معلم ديبي الآن، للتصحيح والتعليق على عملها والدروس الشخصية حتى أنه يمكنه مقابلتها مرة أسبوعيًا وهو على بعد خمسة أميال من منزلكم الجميل، طبعًا

لا يمكنك التصديق، ولكنني لا أضمن بأن تلك الفرصة ستستمر، فقد تضيع غدًا أو في وقت لاحق الليلة، انظري إلى الفرص الجيدة، وثقي بي، هذا المعلم جيدًا، اغتنمي الفرصة".

تجشأ بصوتٍ منخفض وأخرج قلم حبر من جيبه ووضعه فوق استمارة مطوية على منضدة القهوة ثم علّق يديه بين ركبتيه وانتظر، فنظرت إلى أبي.

التقطت أمي الورقة الصغيرة وقالت: "ثلاثمائة دولارًا مبلغ كبير".

أرجع رجل المبيعات ظهره على الأريكة مرة أخرى وثنى يديه فوق كرشه الصغير ثم تنهد قليلاً وقال: "هذا السعر على مدار ٢٦ أسبوع، أي أن كل حصة بعشرة دولارات وقد تم خصم ثمنها خصيصًا من أجلكم، أي أقل من سعر فنجان قهوة يوميًا".

قالت أمي: "شكرًا، يمكنني أن أخصم لنفسي، فهذا يزيد على أحد عشر دولارًا في الأسبوع، أي ما يقرب من دولار وأربعين سنتًا للقهوة، يمكنك في هذه البلدة الحصول على كوبٍ محترمٍ من القهوة بربع دولار".

قال رجل المبيعات مغيّرًا طريقة الإقناع: "فكري في الأمر على أنه استثمار لمستقبل ابنتك".

قالت أمي بصوت ينم عن شكوكها في نوع من المؤامرة العالمية لمندوبي مبيعات البيوت: "الشاب الذي يبيع لنا الموسوعات أخبرنا بهذا الشيء".

نظر رجل المبيعات إلى أبي الذي يقرأ النشرات.

قال أبي: "هذا أفضل شيء، من الجيد أن يكون لدى ديبي هواية"، وقد رأينا أنا وأمي ورجل المبيعات أبي وهو يوقّع على الورقة في خانة التوقيع، وهكذا، أصبحت طالبة في مدرسة مراسلة الفنانين الأمريكيين المشهورين.

بعد تبادل المعاملات المملة للكبار من الخصومات الضريبية والشيكات اللاغية، صافحني رجل المبيعات، وقدم لي ملف تكميلي كطالب في المدرسة مؤكدًا لي أن المعلم سيتواصل معي في غضون خمسة أيام عمل، وستكون دراستي بالمراسلة مع مهامي المنجزة وتوجيهات المعلم عبر البريد، اعتمادًا على ما نتفق عليه، وقد نجتمع أكثر من مرة في الأسبوع.

قال لي رجل المبيعات: "الأمر كله يعتمد على مستوى قدراتك يا عزيزتي"، وقد غمز لوالدي غمزة واسعة كي يظهر له على الملأ مدى موهبتي.

عندما وصلت البطاقة البريدية أخيرًا نيابةً عن مدرسة الفنانين الأميركيين المشهورين مع اسم المدرب وعنوانه ورقم هاتفه، وقفت عند صندوق البريد لمدة خمس دقائق طويلة أحدق في ذلك. كان نصها:

"السيدة بياتريس كندال ١٠٥ أ شارع زيورخ"

أوصلني أبي في المرة الأولى التي خرجت فيها إلى شارع زي لدروس الرسم رغم أنني أكدت له أنني قادرة على الوصول إلى هناك بنفسي.

"يجب أن تعتني بنفسك في هذا الحي"، كان ذاك تفسيره الوحيد لتوصيله.

عندمـا وصلنـا إلـى منـزل كنـدال، فتحـت السـيدة بـي كنـدال الباب ببذلتها الملونة ووشاحها الأنيق، وأستطيع في ذلك الحين أن أرى أبـي مندهشًـا وازدادت دهشـته عندمـا دخل وشـاهد لوحاتهـا.

قالت لأبي: "كنت أشك دائمًا أن ديبي تتمتع بمواهب فنية".

أجابها: "لقد ورثتها مني، حيث أنني كنت دائمًا أميل للفن".

أثـار هـذا إعجـاب السـيدة كندال التي كتفت ذراعيها واسـتمعت إلـى وصـف أبي الطويل عـن الأيـام المفقودة من شـبابه ورسـم الكلاب والمنـازل الريفيـة، ومـن الواضـح جدًا أن أبي والسـيدة كندال قد نسـيا وجودي تمامًا؛ فعندما عرضت عليه مشروبًا باردًا، وافق ثم تبعها إلى المطبخ لمواصلة حديثهما، وانتابني شعور غير مريح بأن يتولد بينهما ما تسميه الأجيال القديمة؛ انسجام.

كانـت السـيدة كنـدال معلمـة ممتـازة، أفضـل بكثيـر مـن معلـم دراسـات الأعمـال الذي يدرّس أيضًا للصف التاسـع الفنـون البصريـة- وهـي مـواد الفنـون الأختياريـة الوحيـدة فـي كليـة سـانت ديسيمـاس - وكان كل مـا يفعلـه هـو تقديـم شـرائح ملونـة قاتمة مـن منحوتات عصر النهضة والسماح لنا في بعض الأحيان بالنفخ في قطعة من الفخار في الفرن، وعلى الرغم من السيرة الذاتية المصممة خصيصًا من أجلي في النهاية بواسطة الناشـر التـي اشتملت على ماجستير من مدرسـة بارسونز المرموقة في نيويورك، جاء تعليمي الفني الوحيد من السيدة كندال، التي كانت تجتمع معي كل أسبوع للتدريب على رسـم المناظير والرسـومات الحيـة ونظريـة اللون، وقـد تبيـن أن المبلـغ المدفـوع هـي أفضل ثلاثمائة دولارًا قد أنفقها والداي عليّ؛ فبعد سنوات، ستمدني

المدرسة بما يمكن أن نسميه مهاراتي القابلة للتسويق، ناهيك عن ذلك؛ ففي خلال تلك الأسابيع من توصيلي ذهابًا وإيابًا ؛ توطدت الصداقة بين السيدة كندال وأبي؛ مما جعل أبي يبدي اهتمامًا أبويًا بجون كندال.

لكنني كنت أفكر في نفسي ومستقبلي.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

مر الأسبوع الأول من المدرسة الثانوية سريعًا- لم تتغير الأمور كثيرًا، حتى مع الشهور الثمانية عشر المفقودة؛ منذ أن اكتظت فصولي بالأطفال الذين عرفتهم من مرحلة الروضة، وكان أكبر تغيير هو رؤية داف يتجول في الممرات مرتديًا قميصًا بأكمام قصيرة وربطة عنق، حيث يحيطه الأطفال بنظارات اللحام يلوحون له بالواجبات المدرسية في الكيمياء وهم يهتفون له :"سيدي سيدي" كي ينظر إلى معادلاتهم أو يجيب على أسئلتهم عن الجداول الدورية، هذا وقد ارتفعت نسبة التسجيل في فصوله ارتفاعًا كبيرًا؛ عندما أعلن أنه سيدرّس كيفية صنع تلفاز يمكنه تلقي البث من بعدٍ آخر؛ وهو مشروع شائع في بلدة تستطيع بالكاد التقاط محطات من بافالو.

عادت ليندا آسفة إلى جامعة تورونتو على وعد بالعودة إلى منزلنا في عطلات نهاية الأسبوع، وقد كان داف يقضي الكثير من الوقت في منزلنا منذ مغادرتها ويتناول معظم وجباته معنا، كما لو كان بالفعل صهرنا.

أما أنا فقد انهمكت في أعمال روتينية يومية طوال ست ساعات تتمثل في مناوبة الحصص كل يوم، وقيامنا أنا وكندال بتنظيف بصمات الأصابع أو سرقة قبلة كلما قابلنا بعض عند الجرس أو عند خزانتنا بعد انتهاء اليوم الدراسي، وقد عُرِّفنا بالعاشقين في المدرسة الثانوية، حتى صار المعلمون الأصغر سنًا والأكثر تحررًا ينظرون إلينا نظرة رضا، وللتأكيد على هذه النقطة؛ انتُخِبَ كندال رئيسًا لاتحاد الطلاب وقائد فريق كرة السلة، بينما تقلدت أنا منصب ليندا القديم في فريق الكرة الطائرة، وصرت أول فتاة تُعيّن أمين صندوق اتحاد الطلبة، هذا وقد اعتُبِرَت الأشهر الأولى من المدرسة الثانوية وقتًا ذهبيًا لكندال ولي؛ إذ شعرت خلالهما أننا غيرنا فكرة التحيز وجعلناها مدينة فاضلة مشرقة مقدامة لا تميز بين الألوان.

وكنت قد أتممت الخامسة عشر في الرابع من أكتوبر؛ وقت أن أخذني كندال لمشاهدة فيلم شافت **Shaft**، فقد كان كندال يعرف الرجل الذي يبيع التذاكر، لذلك تمكنا من الدخول رغم أن الفيلم كان محظورًا على الأطفال تحت سن الرابعة عشر عامًا؛ إذ كُتِبَ في العرض القصير للفيلم "إذا وددت مشاهدة الفيلم؛ فخذ الإذن من والديك!"

سرنا بسيارة داف الكاتلاس إلى وسط البلدة، وقد أضاف شاسيه السيارة البالي واللوحات المكتوب عليها الولايات المتحدة هالة من البهجة والتألق؛ إذ كنا أول ثنائي من عرقيات مختلفة يشاهدان فيلم شافت في سينما شيمبان كورنرز وسط البلد هنا! وبتنا الآن متحضرين تمامًا مثل بافالو.

كانت قصة الفيلم تدور حول كيفية استعادة الفوغائيين لهارلم.

قال رجل عصابات إيطالي نمطي: "أبحث عن رجلٍ أسود يسمى جون شافت"، أجاب شافت: "لقد وجدته أيها الإيطالي الحقير".

هنا انطلقت الضحكات من كندال.

أحببت مشاهدة الأفلام في نيويورك، لأنها خَطِرَة وقذرة ومزدحمة بالأحداث ولا يمكن توقع نهايتها، ونيويورك هي إحدى الأمكنة التي أود السفر إليها برفقة كندال بجانب زيارة بحر السكون.

***

أجبرت نفسي على التوقف عن القلق بشأن نهاية العالم؛ إذ أقنعتني محفظة داف التي تحمل رقم هوية من القرن العشرين أنه لا يزيد عن كونه فنانًا، وأن كل ذكرياتي عن القفز عبر الزمن قد انبثقت من خيالي الواسع، أضف إلى ذلك، أن داف لم يذكر أبدًا الجداول الزمنية البديلة أو أنني مطاردة إِيون، وهكذا، بدت فكرة القفز إلى عالم موازٍ مع أخذ كل من على الأرض معي وكأنها قصة في كتابٍ مصور.

ومع ذلك، في كل مرة أرتاد إلى غرفة التلفزيون حيث يشاهد أبي أخبار بافالو المسائية، يختلجني لظى التوتر المشؤوم عند كل كلمة يتفوهها والتر كرونكيت.

لم تسر مباحثات معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية في هلسنكي - المعروفة باسم سالت SALT - على ما يرام؛ إذ كان ريتشارد نيكسون على وشك أن يضع حلاً لقضية الحد من الأسلحة النووية بإظهار قوة غير مقيدة بقوانين على جزيرة أمشيتكا وتفجير قنبلة كانيكين، وهي أكبر تجربة نووية تحت الأرض أجريت في أمريكا، وقد تنبأ مجموعة من الغوغائيين البحريين المشردين بحدوث تسونامي وحدوث زلازل مُدَّعين أن الانفجار سيسبب دمارًا لا يوصف لما بدأ الناس يسمونه بـ"بيئة الارض".

قال داف:"إن جزيرة أمشتكا على عتبة روسيا! لذلك ما هو هدف الاختبار النووي تحت الأرض الذي يبلغ خمسة مليون طن؟"

رد أبي مؤكدًا: "إنها رسالة إلى الروس".

تنحنح داف الذي دائمًا ما يفعل ذلك حينما يختلف مع أبي ثم قال: "لست متأكدًا من أن السوفيتيين سيرسلون لعنة؛ حيث يمتلكون مخزونًا كبيرًا من الأسلحة النووية نفسها".

اكفهر وجه أمي وهي تغرف اللازانيا قائلة: "الطعام جاهز"، ثم تنهدت وتابعت: "السياسة على طاولة العشاء".

في ذاك العام الموافق يوم الأحد ٣١ أكتوبر، سيُعقَدُ حفل رقص الهالوين في كلية سانت ديسماس ليلة السبت الموافق ٣٠ أكتوبر، وقد شعر الجميع بالحماس لدى سماع الأخبار التي أفادت أن السيد دافي سيكون "نجم الحفلة" أي الحارس والمشرف، وكان من المتوقع أنه سيتسامح مع السلوكيات السيئة كشرب النبيذ في الحمامات، وتدخين المخدرات، والخناقات.

وقـف داف علـى غيـر المتوقـع حارسًـا خـارج بـاب الصالـة الرياضية ذاك المسـاء مرتديًا زي قديس، وكان شعره قصيرًا وبلحية صناعيـة تخفـي حـروق الشمـس المسـتديمة فـي بشـرته، وقـد علمـت أنـه يعانـي مـن الإكزيمـا وليس مـن حـروق الإشـعاع، حتـى صـار يصعب التعرف على داف، في حين وقفت ليندا بجواره مرتدية زي الراهبة.

قالـت لـي وهـي تضـع خصلـة مـن شـعرها تحـت الخمـار: "الـزي كلـه مريحًـا فيما عدا الخمار".

حضـرت إلـى حفـل الرقـص فـي زي الكونيتيسـينا بجـوارب لـون الجسـم وأحذية عالية وثوب راقصـة الباليه وشـعر مسـتعار يشـبه خلية النحـل بلـون أرجوانـي، أمـا سـاندي فقـد ارتـدت طبقـات مـن التنـورات الخشنة التي على الأرجح قد جلبتها السيدة هولوب من البلدة القديمة مـع صديـري أحمـر ضيـق وحـذاء أحمـر مـن زي الرقـص الأوكرانـي التقليدي؛ حيث تقمصت دور غجرية عرافة ذات شعرٍ غجري منفوش كأنهـا مسـتيقظة تـوًا مـن النـوم، إلا أنها بدت غاية فـي الجمالٍ أكثر من المعتاد.

سـألتني سـاندي وهـي تهـز تنورتهـا: "هـل هـذا زي بائعـة الهوى يا ديب؟"

عبسـت فـي وجههـا وقلـت: "أنـا محاربـة الجرائـم كونتيسـينا دولوريـا دي لارجـو، صديقـة الكابتـن كايـل كروشـر مـن قصـص هيئـة الانتقـام. كيـف يبـدو هـذا مثـل بائعـات الهـوى؟"

هـزت كتفهـا وقالـت: "لا يهـم، تبديـن نحيفـة فـي هذا الـزي، هل فقدتِ وزنك؟"

قلت: "قليلاً"، وقلت ذلك وأنا أحاول عدم عض شفتاي الصفراء المشققتين، إذ كنت أفكر في الطعام في كل الأوقات هذه الأيام".

جاء كندال متقمصًا دور شافت وقد ارتدى كنزة بياقة عالية ونظارة شمسية وسترة جلدية ومسدس ماء دُسَّ في حزامه، وقد نمّى سوالفه وألصق شاربًا صناعيًا جعلني أتمنى لو كان حقيقيًا.

قلت له: "يجب أن تكون هكذا طوال الوقت".

قال كندال اقتباسًا من مشهد بالفيلم: "أكثر إثارة من بوند، وألطف من بوليت".

أما جودي وجين دوناتو فارتدتا مثل مضيفات شركة بان الأمريكية في فيلم قهوة أو شاي أو أنا Coffe، Tea or Me؟ وقد غازلهما بام بام وروكو، اللذان أتيا من المزرعة، هذا وقد ظهر الشباب في بذلات مكونة من ثلاث قطع وقبعات بورسالينو وأحذية خفيفة الأطراف، وكأنهم في فيلم الأب الروحي **The Godfather**، وقد حمل بام بام حقيبة الكمان على سبيل الزينة.

قال له كندال:"من أين حصلت على هذه الثياب الرثة يا رجل؟"، وهو يعدل طية صدر السترة المخططة.

أجاب بام بام:" من فرانك والد روكو؛ لديه العديد منهم مُخزّنين في كرات النفتالين، وقد تخلى عنهم وخصصهم للأوقات الترفيهية وأخبرنا أنهم ملكًا لنا جميعًا".

وقد حضرت إحدى فرق المرآب في شيبمان كورنرز لعزف الموسيقى الحية مستعينين بمجموعة من الجيتارات الكهربائية والطبول والماندولين والبالالايكا، حيث كانوا مجموعة مُخلّطة من الموسيقى الشعبية الأوكرانية الإيطالية التي أضافت بعض معزوفات ليد زيبلين ووالتون جون وديفيد باوي إلى ذخيرتهم الفنية. وقد بدأوا حفلة المساء بأغنية "المهاجرين" - التي تناسب سانت ديسماس - إلى أن صعدت ليندا فجأة على خشبة المسرح في زي الراهبة وهي تهتف: "أوقفوا الموسيقى"، ومثّلت بيدها حركة الذبح حول رقبتها، فناولها قائد الفريق عازف الجيتار الميكروفون.

قالت ليندا: "أريد منكم أجمعين التزام الهدوء والبقاء في أماكنكم"، ثم أضافت: "تلقينا للتو أنباءً من الولايات، لذا سيلقي السيد دافي بيانًا".

دوى صوت داف عبر مكبرات الصوت وهو يحاول الحفاظ على هدوئه ولكن بدا مهتزًا قليلاً - يا لها من لمسة لطيفة. "يرجى الانتباه! تلقى مجلس إدارة المدرسة مؤخرًا تنبيهًا من نظام إذاعة الطوارئ، الذي كُلّفت بقراءته لكم على النحو التالي: لقد أُجرِيَ اختبار نووي حراري على جزيرة أمشيتكا في وقت مبكر من اليوم في الساعة ١٢:٠١ صباحًا بتوقيت المحيط الهادئ، وقد جُرِفَتْ الطيور المشعة الميتة على ساحل سيبيريا، فاعتبر الاتحاد السوفيتي هذا عملاً عدوانيًا، لذا أعلنوا الحرب على أعضاء منظمة حلف أمريكا الشمالية بما فيهم كانوسا. هذا وقد أفادت تقارير شبكة "إن بي سي في نيويورك" أن قيادة الدفاع الجوي لأمريكا الشمالية - نوراد - تؤكد

أن الصواريخ التيسيارية السوفيتية عابرة القارات قد تركت صوامعها، وفي وقتٍ قصيرٍ، سنكون تحت هجوم نووي".

نظرنا إلى بعضنا البعض، وقد بدا الرعب على حفنة من المراهقين الذين يرتدون زي الأبطال الخارقين وشخصيات من أفلام العصابات، كانت هذه هي اللحظة التي أمضينا طفولتنا بأكملها نستعد لها، بالتدريبات، والاختباء، واختبارات نظام إذاعة الطوارئ؛ فكل الطرق ستؤدي إلى الحرب العالمية الثالثة، مثلما يقول والدانا دائمًا، فإن شيبمان كورنرز ستكون أول من يذهب تحت الأنقاض.

وضعت ساندي يداها على وجهها وبكت في صمت فلففت ذراعي حولها، حيث كان جسدها يرتجف وكأنها تقف في عاصفة.

استمر صوت داف على مكبرات الصوت: "يرجى الاستماع بعناية إلى هذا الجدول الزمني لحافلات الطوارئ؛ طريق ويلاند إلى شارع نياجرا- الحافلة أ، شارع سكوت إلى طريق لاكشور- الحافلة ب، أما إذا كنتم من خارج هذه المناطق، يمكنكم ركوب الحافلة ٢ب، وستُقِلّ أي منكم ممن يعيشون على الطرق الرئيسية أو على الجانب الآخر من قناة ويلاند. يرجى التزام الهدوء والاصطفاف بنظام للانصراف، وستكون الحافلات في موقف السيارات خلال لحظات..... حفظكم الله وأسركم أجمعين".

سقط بعض الأطفال الأصغر حجمًا الذين لم يكتمل نموهم بعد إثر الاندفاع نحو الباب، وقد شعرت بيد تقبض على يدي، كانت يد كندال.

صرخ كندال من بين الصرخات: "هذا هراء! لا بد أنه مقلب".

هتفت له: "أعرف، إن كان هجومًا حقيقيًا، فسنسمع......".

إلى أن سمعنا دوي صفارات إنذار الغارة الجوية من فوق سطح المدرسة، يعلو وينخفض مبكرًا مثل صراخ الموت الجماعي في كوكب الأرض.

وفي أثناء التدافع والرعب خارج الصالة الرياضية، رأيت ليندا في زيها الكنسي تختفي عبر أبواب غرفة تغيير الفتيات، وهذا ما بدا غريبًا أنها تفر في الاتجاه المعاكس عن الجميع.

بدأت أفكر فيمن أود الموت معه عائلتي أم كندال، وقال داف أن القذائف التسيارية عابرة القارات يمكنها الوصول إلينا في أقل من خمسة عشر دقيقة، أي ما يكفي بالكاد للذهاب إلى منزلنا وتقبيل جدتي بيبي ووالداي قبلة الوداع. كنت أثق قليلاً في البذلات المضادة للإشعاع المحفوظة في القبو، فحتى لو نجونا، ما فائدة العيش في عالم خالٍ من الناس؟ شدد كندال على يدي بقوة حتى حسمت المسألةً؛ فإذا كانت نهاية العالم، سنخرج معًا، فجريت وسط الحشود، واندفعنا نحن الاثنين عبر أبواب الحريق مع ساندي وبام بام وروكو وخلفنا بقليل توائم دوناتو. لم تصل الحافلات بعد فشككت أنها لن تأتي؛ فلربما كان الإعلان مجرد وسيلة لتطبيع الوضع لجعله يبدو وكأن السلطات تسيطر على الوضع، ولكن إذا حكمنا بالتجمهر وبكاء المراهقين خارج المدرسة والقتال على هاتف واحد عمومي، فإن استراتيجية تطبيع الوضع تلك حتمًا ستبوء بالفشل.

نظر كندال من فوق رؤوسنا في جيع الاتجاهات وقال: "أين داف بحق الجحيم؟ يجب أن يكون هنا، يخفف الرعب على الناس".

هتف روكو: "ثمة مكان لنا جميعًا في سيارتي، ولكن أين نذهب بحق الجحيم؟"

قالت جودي جارلاند: "يوجد في منزلنا الجديد ملجأً نوويًا تودع أمي فيه الطماطم المعلبة".

حضنت ساندي نفسها وقالت في ارتجاف: "أريد الذهاب إلى المنزل وأكون مع والداي".

قال كندال: "معي مفاتيح سيارة داف، سآخذكِ في سيارته وروكو سيأخذ الباقي إلى منزل دوناتوس"، ثم استدار ونظر إليّ وقال: "ديبي، اذهبي مع روكو، سأذهب إلى أمي وعائلتك وسنكون هناك بأسرع ما يمكن".

حاولت الاعتراض لكنه قبلني وقال: "أحبك"، ثم دفعني إلى أذرع بام بام وركبت في السيارة الكتلاس وكذلك قفز عددٌ قليلٌ من الأطفال من بناية ساندي إلى المقعد الخلفي، وغادر كندال موقف السيارات بينما فتح روكو صندوق سيارته لحمل المزيد من الركاب.

انتقلت عائلة دوناتو إلى منطقة مترامية الأطراف تزرع نبات الصفصاف الحزين على العشب الأمامي، وكانت غابة الصالة الرياضية في الفناء الخلفي مثل آخر قفص في حديقة الحيوان الذي فرت منه جميع الحيوانات؛ إذ كان التقسيم عبارة عن شوارع وأزقة مسدودة متشابكة، تلتف حول بعضها فتؤدي مرة أخرى إلى نفسها مثل الثعابين عندما تأكل ذيولها، وكانت الشوارع تعج بأكوام من الأوساخ والحفر الشاسعة بانتظار أن يبنى عليها أكواخ جديدة، وهذا ما جعل الحي يبدو كأنه منطقة حرب.

عندما ركضنا إلى الممشى الأمامي، فتحت كلوديا دوناتو الباب وهي تمسك زجاجة مارتيني في يدٍ طُلِيَتْ بطلاء الأظافر، وكان شعرها مصففًا للخلف على شكل قبة سوداء رائعة يعلوها تاج من حجر الراين. سمعنا أصوات موسيقى الحفلة وتصاعد الضحكات من المنزل.

قالت في تلعثم: "تبدون رائعون جميعكم"، ثم قبلتني على خدي حينما انسكب مشروبها على السجاد وقالت: "أنتِ جميلة جدًا وقد ألتهمك حالاً، هيا ادخلي".

وداخل البهو، لاحظت وعاءً ذهبيًا ممتلئًا بسلاسل من المفاتيح - ميكي ماوس، وبلاي بوي، وباني إبيرز، وأمبير الحرب في كندا، وأقدام الأرانب، وعلامات السلام.

قالت جودي جارلاند:"ألم يخبرك أحدًا يا أمي".

أشاحت كلوديا بيداها عند سماعها التحذير وقالت: "يا حبيبتي إنه العطل المعتاد، لقد أدرنا التلفاز وكل ما رأيناه هو ساحات هوليوود، حتى أبيك قد اتصل بأمن شيبكو فقالوا أنه مقلب الهالوين؛ حيث أطلق شخصًا ما صفارات الإنذار بحيث لا يمكنهم إيقاف تشغيلها، اهدئوا يا أولاد وسأحضر لكم مشروبًا".

اتبعنا كلوديا عبر غرفة معيشة تعج بأميرات في منتصف العمر من راقصات الباليه ونجمات السينما، وقد كان عددًا قليلاً من الرجال في هيئة الهيبيين يرتدون سراويل واسعة وشعر مستعار سخيف، أو رعاة البقر بقبعات، وقد تدلت بطونهم المنتفخة من فوق أحزمة بمسدسات لعبة، وقد كان صوت أغنية داستي سبرينغفيلد العميق الصادر من جهاز التسجيل يعم المكان.

بدوا كأنهم ينتمون إلى أفلام العصابات، في حين وقف روكو وبام بام في غرفة المعيشة ببذلاتهم التي تعود إلى زمن الخمسينيات يحتسون الجعة، وقد تواصلت صفارات الإنذار صعودًا وهبوطًا، فتغلبت السيدة دوناتو عليها بتشغيل المسجل.

نزلت إلى المطبخ، حيث بدأت التوأم بتحضير أطباق رقائق الريتز المغلفة بالمحار المعلب اللزج، وتصاعدت رائحة جبن الغروبير الحار من وعاء سيراميك.

قالت كلوديا لجودي جارلاند وهي تنحني لشم الفوندو اللاذع: "لا تفسدي الفوندو -مخفوق الجبن- يا حبيبتي".

ناولتني كلوديا صينية وقالت لي: "نبيذ مانهاتانز، ومارتيني والروسي الأبيض، هل تمانعين إن حملتيها يا حبي؟ هناك فتاة".

شققت طريقي خلال الجمع مرورًا بإليزابيث تايلورس وبيت دافيسيس وميا فاروز من عصر طفل روزماري وهن يحتسين المارتيني ويضحكن بصوت عالٍ على النكات القذرة التي يلقيها الرجال، هذا وقد التقطت الأميرة جرايسيز كأسًا من النبيذ الروسي الأبيض من الصينية وقد طليت أظافرها بطلاء أظافر وردي أنيق بينما تحدثت كلوديا كاردياليس بهمس بلكنة فرنسية زائفة، أما البحارة ورعاة البقر فقد كانوا يرمقون راقصات الباليه والراقصات العاريات بنظرات غرامية وهم يسكبون الجعة من الزجاجات.

على الجانب الآخر من الغرفة، وقف القرش يدخن غليونًا ويحتسي مشروب المانهاتن، وقد عُلِّقَتْ ميدالية الشاب اللعوب بين شعر صدره الذي يبرز من أعلى ثوب استحمام أسود لامع وبجانبه

امرأة شقراء متضخمة الثديين ارتدت ملابس الأرنب المثير تتمايل بأحذية شائكة ذات كعب عالٍ منحنية بجسمها قليلاً وتثني رجلاً برزت منها الركبة حتى بدت كالفرس عندما يتخذ وضعًا، استغرق الأمر مني بضع ثوانٍ للتعرف عليها؛ كانت الشقراء أنجي بيترون، أو النسخة المبالغ فيها المنحوتة المنسلخة بلا رحمة عن هيئتها الأولى، وقد بدت بين إنسان آلي في رواية خيال علمي إباحية وبعض أنواع القصص المصورة عن عالِم الكيمياء المجنون الذي أجرى تجربة خاطئة. كان شعرها الأسود المجعد قد تم تلميعه وتحولت عيونها السوداء إلى الأخضر الزرعي، وباتت رموشها مستديرة وطويلة للغاية كأنها ستمشّط جبينها، وبات خصرها مشدودًا بإحكام في مشد معدني، وقد تدلى من فوقه سلسالاً فضيًا رقيقًا، وقد ارتدًى القرش سوارًا رُبِطَ بإحكام حول معصمه.

عندما لاحظني القرش، همس في أذن أنجي، ثم ربط سلسال مشد خصرها بصنارة صيد على الحائط وكأنه يوثق كلبًا غاليًا. إن نوع الحيوان قيمٌ بما فيه الكفاية لسرقته، ولكن من الغباء أن تجد طريقها إلى البيت مثل كلب صيد أفغاني. نظرت أنجي إلى القرش بخفوتِ ورشفت كوكتيل بلون الدم المتجمد، ولم تتحول قط من وضع الانحناءة الذي كانت عليه.

شق طريقه بين الجمع إليّ حاملاً زجاجة الخمر في يده يلتهمني بعينيه مثل ذاك اليوم في الشلالات.

قال لي: "أعرفك من مكان ما".

لم أصدق ذلك!! فقد مزّق عذريتي وأعطاني أوهامًا سخيفة ولا يتذكر من أنا؟

قلت له وأنا أضع صينية المشروبات: "تقابلنا في مطعم الروك هاوس مع أسرة هولوب".

بدا من عينيه أنه عرفني فقال: "أجل تذكرت! تبدين نحيفة جدًا، لم أعرفك في البداية، حيث اختفت أثدائك الجميلة، لكنكِ لا تزالين رائعة رغم ذلك. يمكننا أن نمدك بأثداء أخرى بمنتهى السهولة، أتسمحين لي أن أصب لكِ مشروبًا".

جذبني من كوعي واصطحبني إلى قلعة متلألئة من زجاجات الخمور فوق بار تنحني فوقه عاهرة ثملة تتكئ على مسرجة خافتة الضوء أمام خلفية من ورق الحائط الذهبي المرقط بتشكيلة من صور ظلية لنساءٍ عاريات، وقد انعكس وجهي ووجه القرش في مرآة كتب عليها: نبيذ تشينزانو.

"ماذا تشربين؟ مشروب تيكيلا؟ أم جعة من الشعير والزنجبيل؟ أم نبيذ حب على الشاطئ؟ أم خمر البلونك؟"

وقعت عيناي على قارورة بلون الحلوى كخمر الكرز الذي نحتسيه في الكريسماس.

فأشرت قائلة: "هذا".

التقط القارورة وقال: "دوبونيه، فرنسي! أنتِ ذواقة. أتريدينه مع الثلج؟"

"نعم بالتأكيد".

أمسك حفنة من مكعبات الثلج من دلو وألقاهم في كأسٍ وملأه حتى حافته مع مقبلات حمراء ثقيلة، ثم أدخل يده في جيب ردائه وأخرج حبة دواء بيضاء صغيرة عقدها بين إبهامه وسبابته قبل أن يدسها في كأسي.

فقلت: "ما هذا؟"

فأجاب: "ملعقة من السكر لتخفيف الدواء"، ثم نقر على كأسي بإصبعه وقال: "هذا للكيمياء أيتها الصغيرة".

تذوقتها كانت مسكرة ولاذعة في آنٍ واحد، كنبيذ جدي المختلط بالسفن آب. بلعت الرشفة الأولى وسالت الثانية إلى الكأس.

وعبر الغرفة، رقصت كل من جودي جارلاند وجاين مانسفيلد على سجادة غرفة المعيشة يحفهن رعاة البقر مثل هؤلاء الذين نراهم في الأفلام، الذين كانوا يتمايلون معهن، وقد كانت النجمات وراقصات الباليه ينظرن إليهم بغضبٍ ويتصاعد من بين أصابعهن ذات الأظافر المدببة دخان سجائر فرجينيا سليمز في حنقٍ. وفي الوقت نفسه، دفعت كلوديا الباب الهولندي المتأرجح، ودلفت بوعاء فوندو ساخن تحمله قفازات الموقد ذات شكل خنوص وردي، وقد رأيتها وهي تتعثر وينسكب الجبن أمام جميع الضيوف حتى وصلت إلى طاولة البوفيه في سلام.

حاولت أن أقول: "لَم أكن أعرف أن كبار السن يقيمون حفلات هالوين،" ولكن خرجت مني الكلمات على هذا النحو: "لمعف كبسنقمن حفل هاك"، كما لو حشر لسان شخص آخر بين أسناني.

قال لي القرش وهو يلف يده الحريرية حول خصري: "ألم تسمعي أبدًا عن مفاتيح الحفلة؟"، وشعرت بأصابعه تداعب ثدياي كالجيتار الإسباني.

هززت رأسي؛ إذ أشعرتني تلك الرشفة الصغيرة من الخمر الشبيه بالحلوى الملونة بالدفء والحرية والصخب كأن

كتفاي وأرجلي قد انفصلا عن جسدي. فأخرج القرش غليونه من فمه وابتسم إليّ ثم قال: "يلقي كل الرجال مفاتيحهم في وعاء، حتى نهاية الليل تأتي الفتيات الصغار وتختار كل واحدة مجموعة، تذهب على إثرها مع الرجل صاحب المفاتيح إلى منزله ولا أحد يعرف من نام مع من"، ثم مال مقتربًا مني وهمس في أذني: "تبدين مثيرة في ثيابك هذه، أتعلمين يمكنكِ أن تكوني من بائعات الهوى، ويمكنني أن أجري لكِ اختبارًا. ستعينك شيبكو في لمح البصر وستحبين العمل في هذا المجال؛ حيث الحفلات والملابس والرحلات البحرية وجميع المخدرات والخمور التي تحبينها، وسأعرفك على ما يريده الرجال؛ ستحبين ذلك أيضًا".

ومن بين آثار فاتح الشهية والعقار غير المعروف الذي أفسد عقلي، أنيرت بصيرتي؛ لم يكن القرش يحبني، بل كان يعمل لصالح شيبكو.

قلت وأنا أتوخى الحذر عند نطق كل مقطع: "لا أحب أن أكون بائعة هوى، وسيأتي صديقي جون كندال عما قريب".

انفجر القرش ضاحكًا وقال: "هل تواعدين كندال؟ هذا الطفل الشبيه بميدولارك ليمون الذي اعتاد على مواعدة أنجيل؟ آه يا آنستي، لو كنت أعرف أنكِ تحبين هذا النوع، لدهنت وجهي بالسمرة".

سكبت ما تبقى من مشروب الدابونيه في وجهه، فسال الشراب الأحمر من أنفه حتى تحولت نظراته الخبيثة إلى زمجرة.

وقال: "أيتها العاهرة الحقيرة، سأقتلك"، وحاول إمساك يدي بقوة لكني تمكنت من الفرار منه بأقصى سرعة ممكنة.

"فلتذهب إلى الجحيم"، قلت ذلك وأنا أشق طريقي بين الحشد.

أطلقت من خلفي إحدى الليز تايلورس ضحكاتها وقالت: "لا تكتمل الحفلة حتى يُسكَب المشروب في وجه لاري".

اتبعني القرش طوال المدخل، ولكن روكو أعاق طريقه، حاول بام بام الإمساك بي ومعانقتي، ولكنني أبعدته في حرج، فقد بحثت عن حمام لأحبس نفسي بداخله، إلا أن غرفة الماكياج أمام القاعة الأمامية كانت مشغولة فركضت إلى الطابق العلوي حيث ظننت أنني سأجد حمامًا رئيسيًا كبيرًا، وها قد وجدته؛ كان ذو جدرانًا وردية فاقعة اللون وحجرة استحمام كبيرة، وقد امتلأت حقيبة الماكياج الصغيرة بأدوات ماكياج وشامبوهات وعطور كلوديا. أغلقت الباب ورفعت غطاء المرحاض الوردي الباهت وأنزلت ثوبي وجلست لأتبول. شعرت فجأة بالدوار، فانحنيت وأغلقت أعيني وأرحت رأسي بين ركبتاي، لم أكن متأكدة أن هذا الصداع بسبب الخمر أو قرص الدواء الذي دسه القرش في كأسي.

ظلت رأسي بين ركبتاي إلى أن أحسست بنقرٍ على كتفي، ففتحت عيناي دون أن أرفع رأسي وتساءلت هل عثر عليّ القرش؟

لا ليس القرش، بل أسوأ، الأسوأ للغاية، وجدت أرجلاً ترتدي ملابس بيضاء ضيقة وأحذية أكسفورد.

قال صوت مألوف: "لقد تحملت منك ما يكفي يا آنستي، حان الوقت لبدء إخراج ما تعرفينه عن أحد الفوضويين".

رفعت رأسي، فوجدت الممرضة دوتي تمسك بيد ترتدي قفازًا مطاطيًا؛ إبرة تحت الجلد، وتمسك ذراعي باليد الأخرى،

حاولت النهوض من فوق المرحاض لكنني تجمدت في مكاني.

عندما اقتربت من ذراعي لتضبط زاوية الإبرة في العضلة قالت: "لاري الأحمق، كان يجب أن يتحلى بالمعرفة الكافية عند تعيين فتاة عادية مثلك؛ إذ تُفضل شيبكو انتقاء بائعات الهوى لديهم من قاع المجتمع، ولكن حبوب الإغراء التي استعان بها كانت صدفة مفيدة، فكما تشعرين، إنها تسبب شللاً مؤقتًا، وهي فعّالة جدًا حينما تودين أن تكون ضحيتك عاجزة".

راقبتها في رعب وأنا أرى الإبرة توخزني في جلدي، غير أن شيئًا ما جعل الأمر يبدو غير منطقي، وهو شعوري بالألم؛ فإذا كنت مشلولة حقًا، فحتمًا لن أشعر بالألم.

أخذت نفسًا عميقًا لأستجمع كل قواي، فمددت ركبتي وركلت الممرضة في صدرها على غرار ما رأيته من الكونتيسينا وهي تقوم بتلك الحركات عدة مرات في هيئة الانتقام وهي موثقة بالحبال على كرسي لرجل سياسي سمين يرتدي عصابة عين، غير أن إسقاط الأخت التوأم الشريرة لعندليب فلورنسا كان أمرًا في غاية السهولة عند المقارنة.

أستطيع رؤيتها غارقة في نوبة من الدهشة مع مجموعة من الأفكار التي تجول بعقلها وهي تتأوه، فقد سقطت الممرضة مثل شوال البطاطس المثقوب، وتهشمت الإبرة الزجاجية إلى شظايا على الأرضية الرخامية وقد كوّن المصل اللعين الذي حاولت حقني به بركة صغيرة مقرفة، كما لو كان بعض ضيوف الحفلة الثملين قد تغوط بالخطأ على بلاط الأرضيات.

رفعت ثوبي الراقص في حين كانت الممرضة تتأوه وتتلوى بين شظايا الزجاج وبدأت الدماء تسيل فوق ملابسها البيضاء.

قلت للممرضة: "لو كنت مكانك لتعاملت مع بقع الدماء هذه أيتها الممرضة، ألم يخبرك أحد ألا ترتدي الأبيض بعد يوم العمل؟"

صرخت الساحرة البيضاء: "أيتها الحقيرة!" وحاولت الوقوف فوضعت قدمي فوق خصرها- لا أصدق أنها ملابس مؤسسة جيردل- ثم دفعتها مرة أخرى إلى حوض الاستحمام وفتحت صنبور المياه الباردة على آخره حتى استعصى التمييز بين صوت صراخها وبين دوي صفارات الإنذار... لقد بدا الأمر ممتعًا.

اهتز مقبض الباب متبوعًا بطرقات حادة.

قلت بصوت مرتفع: "ابتعد، إنه مشغول".

"ديبي"، كان صوت بام بام.

فتحت الباب وألقيت نفسي بين ذراعيه، فلف ذراعه حولي وقبّل جبهتي.

قال بام بام: "لست متأكدًا أن كندال سيحب أن يرانا هكذا".

قلت له: "أو روكو".

وصلت صوت ضحكات بام بام إلى أذناي من صدره.

اصطحبني إلى الممر أمام راعي بقر متكرش يضاحك فتاة من النجمات أمام الحائط الذهبي، وعندما نزلنا الدرج الدائري إلى حيث ينتظرنا روكو، أوضح بام بام أن كندال قد علم أن دوي صفارة الإنذار كانت مقلبًا؛ إلا أن داف وليندا قد اختفيا بشاحنة أبي، والآن تحمل السيدة كندال والدي في سيارتها بحثًا عنهما في جميع أنحاء شيبمان كورنرز.

قبل أن نغادر لمحت القرش يلف يده حول أنجي واليد الأخرى حول جودي جارلاند وعم صوته المكان الصاخب وهو يقول: "تبدين كمضيفات شركة بان الأمريكية يا حبيبتي، هل سمعتِ عن نادي ميل العالي؟ أنا عضو فيه".

فك بام بام وروكو قيودهما وارتديت حذاء محاربة الجرائم.

سألته وأنا أغلق سحاب الحذاء: "ماذا سنفعل الآن؟"

قال روكو: "سنقابل كندال ونتعقب هذا الأحمق داف. يبدو أنها ستكون ليلة طويلة ياكونتيسينا".

الفصل الثالث عشر
الاقتحام

تحسس بام بام بيده على طول حافة إطار النافذة الخشبي المتساقط فوقنا ممسكًا بعتلة.

قال بام بام: "لقد سبق لي اقتحام هذا المكان حينما كنت في العاشرة، لذلك فالأمر سهل".

سأله كندال: "ولكن إلى أين تؤدي النافذة؟"

"نفايات، ومنه إلى متجر كريسي".

أمسك بام بام بكتف روكو، الذي عقد أصابعه معًا ليصنع درجًا يضع بام بام قدمه عليها- واحد اثنان ثلاثة، ثم رفع روكو بام بام عاليًا بما يكفي للوصول إلى العتلة بين إطار النافذة والحافة، وفي حركة سريعة واحدة انفتحت النافذة محدثة صوتًا عاليًا وتطايرت رقائق الطلاء كالجلد الميت تحت المبرد. أدخل بام بام العتلة لتكبير المساحة، ثم انزلق إلى داخل النافذة برأسه، يليه كندال قافزًا ممسكًا بعتبة النافذة بيده السليمة في حين أمسك بام بام الأخرى حتى تسلق بسهولة وقد ركلت قدميه الهواء من خلفه. والآن حان دوري، واحد اثنان ثلاثة، رفعني روكو، ولكن لم أتمتع بالقوة الكافية لأسحب نفسي عبر عتبة الباب فانتهى بي الأمر بتعلقي بأصابعي. أمسك كندال وبام بام يداي وحملوني إلى داخل النافذة. فطقطقت أذرعي من الألم.

همس بام بام: "وزنكِ خفيفٌ للغاية"، رافعًا إبهامه لأعلى إلى روكو؛ إذ كان الاتفاق أن يظل روكو في موقعه حتى يحذرهم إذا ظهر كريسي أو أي شخص آخر خلف المتجر.

سألنا بام بام: "هل أنتم جاهزون؟"، أومأ كندال برأسه لنا، فسمعت صوت صرير المفصلات حولنا، وكانت المساحة فاغرة كثقب أسود عاصف شاسع.

همس بام بام: "سأشعل المصباح حتى نرى أين سنذهب، فأنا أعرف كريسي يمكن أن ينصب فخًا للدببة".

لاحت فجأة فينا عين متوحشة في الظلام أفزعتني، فمسكني كندال من ذراعي ليثبتني.

همس لي: "إنها رأس حصان فحسب، من أرجوحة الحصان القديمة المُحَطّمة في الملاهي".

أضاء المصباح الغرفة فظهرت مجموعة من الأحصنة ذات أرجل مثنية ورؤوس مائلة للخلف وأنف محترقة، وقد رقد بعضهم على الأرض مخوزقين بعصا طويلة، والبعض الآخر سقط أمام الحائط.

كان بام بام يضبط المصباح على الأرض ونحن نشق طريقنا أمام الحوافر المقلوبة والأرجل المحشورة، ثم أغلق المصباح ودفع الباب الذي يؤدي إلى المتجر بهدوء.

أنارت أضواء الشوارع مقتنيات كريسويل بما يكفي لنمضي في طريقنا إلى حائط الصناديق الصغيرة خلف ماكينة النقدية، وأشار كندال إلى صندوق حذاء فلورشايم على الرف العلوي ثم وقف فوق كرسي القدمين لإنزال الصندوق.

وضع الصندوق تحت ذراعه وقال هامسًا: "لنخرج من هنا".

عندما استدرنا للرجوع من حيث أتينا، دوى إنذار السوبرنوفا داخل متجر كريسويل، وكان الضوء قويًا جدًا أعماني لبضع ثوان، فاستدرت في جميع الاتجاهات حتى قبضت يد أحدهم على كتفي ودفعتني إلى الأرض، إنه بام بام يسحق كتفي. لمس حصى الأرض وجهي مع الصياح وتحطم الزجاج كافةً من حولنا. لا بد أن شخص ما أو شيء ما يدخل عبر النافذة الأمامية من متجر كريسي، كانت العيون مغلقة بقوة مع اتخاذ وضع "تفادي وغط رأسك"، وقد سمعت أصوات وقع الأحذية على الألواح الأرضية.

فتحت عيني على بتلات وردية دامية تسبح في الهواء وتقفز من ضوء لمبات حمراء تدور على أسقف سيارات الشرطة التي تقف خارج النافذة الأمامية، وقد انفجرت دوائر بيضاء في مجال رؤيتي، كنهاية بكرة فيلم سوبر ٨ المنزلي، ولكن لا يزال بإمكاني جعل بام بام يخدش بأطراف أصابعه لوحات الأرضيات حتى يخلع واحدة للوصول إلى باب القبو، وهز رجله في الحفرة وسقط بجنبه واختفى عن الرؤية، ثم دفعني كندال بعد بام بام حتى سقطت على أرض لينة كريهة الرائحة، ثم نزل كندال من بعدي. كنا داخل حفرة ربما بعمق أربعة أقدام تحت مستوى الأرض. كانت تتصاعد منها روائح النفط والعفن وشيء لم استطع تحديده ولا أريد ذلك، كانت الروائح معلقة بقوة في الهواء. سحب بام بام سلسلة لإغلاق باب القبو حتى عم الظلام المكان.

همست: "أين نحن؟"، فأنا أكاد أتقيأ من الرائحة.

قال لي بام بام:"صه".

دوت أصوات الأحذية فوق رؤوسنا، وقد تسللت خطوط من الضوء عبر بعض الثغرات في الألواح الأرضية، وكأنها تشعر بوجودنا حتى صار وجه بام بام واضحًا وعيونه تحملق في الأعلى وهو يحمل في يده سلسال باب القبو. بدا هادئًا بغرابة كأنه يفعل ذلك كل يوم.

أستطيع أن أرى الآن أننا في جحر عند مصب نفق كبير. واصل الضوء التسلط علينا ولكننا كنا على مسافة عميقة لا تُمَكّن من رؤيتنا، ومع ذلك، انكمشت في بام بام فسحبني إلى ذراعيه وهمس على مقربة من أذني: "اهدئي الآن".

نادى صوت ذكوري مميت: "أين ذهبوا بحق الجحيم؟"، عرفت ذلك الصوت، إنه صوت رجل الشرطة الذي حضر اختبار جهاز بات بوون لكشف الكذب.

قال صوت آخر: "كان هناك أكثر من شخص واحد، اختفوا جميعهم. لنرى الجزء الخلفي، ربما هربوا منه".

ثم قال صوت متذمر: "يجب على الشرطة الكندية أن تقبض على رجلها".

قال الشرطي مرة أخرى: "لا تضيعوا الوقت، تعاملوا بانحيازٍ شديدٍ. شباب أو فتيات لا أكترث، سنعصرهم حتى يعترف أحدهم أين ذهب هذا الثرثار".

يمكننا أنا وكندال وبام بام رؤية وجوهنا بوضوح الآن حيث بدأت الأضواء الوردية تتخلل الجحر كنهر الدماء.

همست:"روكو".

هز بام بام رأسه كأنه يقول لا تقلقي، ثم بدأ يمضي قدمًا في الظلام تبعناه أنا وكندال، كنا نزحف على بطوننا كثلاثة رخويات عمياء، حيث التصق الحصى في يداي وركبتاي، وقد كنت بين الحينة والأخرى انزلق عبر شيء مقزز مبلل وطري حاولت ألا أتخيله.

همس بام بام: "توقفوا"، أضاء مصباحه ورأينا جدار صلب بطوبٍ ناعم الملمس. عندما تفتت قطع صغيرة من الأرض الجافة فوق رؤوسنا، انتابتني نوبة من الهلع الخنيق؛ ماذا لو انهار النفق فوقنا ودفنا أحياء؟ ماذا لو لم يعثر علينا أحد؟ هل هو موت بطئ عن طريق الاختناق في الأرض تحت كريسي؟ لاح وجه بام بام في الظلام.

"هل الصندوق معك؟"

قال كندال وهو يسعل: "بالطبع".

أضاء بام بام المصباح فظهرت محتويات الصندوق؛ لم نجد الملف اللولبي، ووجدنا بدلاً من ذلك بطاقة لمبنى قُصِفَ بالقنابل وبعض الصور الممزقة لأناسٍ يحدقون بتفاهة إلى الكاميرا، هذا وقد كُتِبَت في ظهرها حروف نصيةً تقول: "أحب نيويورك"، ولكن فوق كلمة أحب رسم قلبٌ تتخلله شَرْطَة.

قال كندال:"لقد ترك داف رسالة لنا".

جلسنا معًا محطبين إلى أن اختفت الهتافات والخطوات، وبعد ذلك انتظرنا لفترة أطول قليلاً.

قال بام بام أخيرًا: "حسنًا".

انبطح بام بام على ركبتيه وصار يسير على هذا المنوال واضعًا يده خلف رأسه حتى وصل إلى فجوة، لم أكن أعرف أنها هنا، كنا أمام باب خشبي غائر في الجدار الطوبي. طرق بام بام الباب بقوة ثلاث مرات، ثم توقف ثم طرقه مرتين إلى أن اهتز الباب وانفتح قليلاً ببطء، فدخلت نسائم الهواء النقية ورأينا رأس روكو.

تساءل روكو:"ماذا حدث بحق الجحيم؟"

خرجنا من الباب بجنبنا وعصرنا أنفسنا لنفسح مكان للخروج. تحوّل بام بام إلي وابتسم، كان وجهه مغطى بالتراب، وقال لي:"أنتِ أولًا".

كانت أرجلنا ترتجف، وقد زحفت عبر مجرى يؤدي إلى فتحة نافذة من الطوب حيث قسم السور المعدني الصدئ السماء ليلاً إلى شبكة من النجوم.

سألت بعدما خرجنا جميعًا: "ما هذا المكان الذي زحفنا منه؟"

قال كندال: "إحدى الأنفاق القديمة التي كانت هارييت توبمان تخبئ العبيد فيهم، وقد حفرتها شيبمان كورنرز لهم، ولكن كيف عرفت أنهم هنا يا بيب؟"

قال بام بام:"لا يوجد مكان اختباء في هذه البلدة لا أعرفه".

سألته: "من هؤلاء الرجال؟"

أجاب بام بام:"إنهم شرطة، على الأرجح شرطة كانوسا الكندية، وربما بعض الشرطة العسكرية لشيبمان كورنرز. لا بد أنهم أحبوا الذهاب إلى نافذة كريسي".

***

رفع بام بام روكو، الذي دفع السور المعدني جانبًا ثم رفع كل منا بيد واحدة إلى أعلى الجدار الطوبي الذي كان ذات يوم جزءًا من القناة المهجورة منذ مدة طويلة.

وجدنا مربط حبال سفينة وسدادة أسمنتية انشقت نصفين وقبعت على رقعة من الأعشاب فبدت كفطر غراب حديديّ.

لم يكن أحد منا كبيرًا بما يكفي لتذكر الأيام التي أفرغت فيها السفن حمولتها على أرصفة مخازن وسط بلدة شيبمان كورنرز، ولكننا جميعًا لعبنا بجانب القناة المهجورة التي تضج بالوسخ والرغوة البيضاء القذرة، وفي الأيام الدافئة، كانت رائحة البيض الفاسد تنجرف إلى جميع أنحاء البلدة، ولكن بعد حادثة سقوط طفل وغرقه في الزبد السميك؛ وافقت البلدة على ضخ المياه إلى خندق، إلا أن ممر كريسي الخلفي لا يزال يطل على مكان كان البحارة يلقون فيه البراميل والصناديق من السفن.

قفزنا من فوق الجدار إلى الجسر، وعبرنا الجزء السفلي من القناة، ولكنه الآن أرض عشبية من الأشجار كثيرة الأعشاب والمواقد القديمة والسيارات المحطمة. اصطحبنا روكو إلى المكان حيث أخفى هو وكندال السيارة الكتلاس والسوينجير في رقعة سميكة من شجيرات التوت البري.

اتفقنا جميعًا أن سيارة داف لا بد من التخلص منها؛ فبالنظر إلى ما رأيناه للتو، ربما يكون هناك نقاط تفتيش عنها في شيبمان كورنرز ومنطقة كانوسا الكبرى، بجانب أنني كنت على يقين بأن الممرضة الشريرة التي قادت السيارة الموستانج ستكون جزءًا من القوات، وهكذا أطفئنا المصابيح الأمامية وقدنا السيارة بسرعة لمسافة قصيرة إلى القناة المهجورة المخبأة على قطعة أرض عشبية بين ملعب غولف خاص وقطار مصنع. استمر صراخ صفارة الإنذار القاسي ونحن نقود السيارة في الطرق الخلفية ثم انحرفنا إلى طريق صخري.

وضعنا جميعًا أكتافنا على الرفرف الخلفي لسيارة داف، حيث تأرجحت على الخرسانة المكسورة على طول الحافة حتى انقلبت أخيرًا على جنبها في المياه المتذبذبة بالأسفل. كانت أنوفنا بالأسفل وجذوعنا في الهواء على الطريقة التي تتخيل بها غرق السفينة تيتانيك، توقفت الكاتلاس لبرهة حتى غمرتها المياه ثم غرقت عبر تدفق جياش من الرغوة الملوثة بدت مثل كمية كبيرة من معجون أسنان ألكا سلتزر على أسنان صفراء بعد حفلة سيئة للغاية.

سرنا بعد ذلك نحو سيارة روكو السوينجير، وقد أنارت ومضة من الضوء الأفق، ولاح عن بعد توهج وكأنه نار مستعرة.

قال روكو:"ما هذا بحق الجحيم؟ ربما حرب نووية حقيقية".

قال كندال:"لا ربما حقول تحترق في البلدة".

قال بام بام:"إنها جميع حقول الكروم، ستحترق الأعمدة الخشبية كالعفن".

همست: "سباركلنج سبارو".

مثلما سنكتشف فيما بعد، أشعل أحد الأشخاص مائتي فدان من حقول العنب.

***

أوقف روكو السيارة في الممر عند منزل جدتي بالضبط عند توقف صفارات الإنذار، وقد سمعنا فيما بعد أن حارس المدرسة توصل أخيرًا إلى وسيلة لوقف ملف داف اللولبي؛ حيث استخدم معه موقد اللحام. وقد ظل الإنذار يصفر لثلاث ساعات متواصلة مما يعني أنّ أخصائيين السمع في شيبمان كورنرز ستنهال عليهم الشكاوى من فقدان السمع وطنين الأذن لسنوات قادمة.

عندما دخلنا إلى المنزل ونحن في غاية التعب، كانت جدتي بيبي تحمل سماعة الهاتف ووجهها مبيضًا، ناولتني السماعة دون أن تنبس بكلمة.

قلت: "مرحبًا".

"ديبي، أنا ليندا".

"أين أنتِ؟"

"في طريقنا إلى الغرب؛ حيث سننضم إلى هؤلاء الناس الذاهبين في قوارب لوقف اختبارات أمشتكا، فقد قال داف أن هناك فرصة حقيقية لمنع قيام الحرب العالمية الثالثة، يمكننا يا ديبي تغيير المستقبل وإنقاذ جميع سكان تلك البلاد، ربما سننقذ أنفسنا كذلك".

قلت: "ليندا، إن داف مجنون والشرطة تلاحقه".

عندئـذٍ حـدث تشوش فـي الخـط وسـمعت أبـواق الشـاحنات، وصـوت داف المكتـوم وهـو يصيـح فـي ليندا كي تسـرع. كانـت مركبتهم تغادر.

"حبيبتـي، يجـب أن أذهـب، أخبـري أبي أننـا تركنـا شـاحنته عند موقف شاحنات هاسكي خارج سادبوري. أبلغيه اعتذاري بشأن مزارع الكروم، فقد قال داف أنه يجب أن أفعل ذلك حتى يفيق الجميع ويروا مـا يحـدث، أحبكـم جميعًـا. أعدكـم أننـي سـأعود قريبًـا عندمـا نحقـق هدفنـا المنشـود، قولـي لي أنكِ تصدقينني".

قلت لهـا: "أصدقك".

قالت: "أخبري أمي وأبي أني سأكون بخير".

وقـف الشـباب يراقبوننـي، وكان بيبـي السـابع هنـاك أيضًـا منكمشًـا فـي جدتـي. رغـم توقـف صفـارة الإنـذار، بقـي صـدى الصـوت في الهواء المضطرب، كظهور الرعد قبل العاصفة، قالت ليندا ثانيةً: "أعدكـم أننـي سـأعود"، ثـم أغلقـت السـماعة.

***

بعـد سـتة أيـام، مباشـرة قبـل تفجيـر كانيكيـن النـووي الحـراري تحـت الأرض، رأينـا لينـدا وداف في الأخبار، كانـوا جزءًا من مجموعة بحارة يقصدون بحر بيرينـج للاقتراب بما يكفي من جزيرة أمشيتكا لوقـف الاختبـار، وقد قالوا أنهم يطالبون "بالسـلام الأخضـر".

قـد ظهـر داف فـي الكاميـرا رافعًـا قبضتـه فـي الهـواء، ولينـدا تغنـي أنشـودة مع الآخرين. يا إلهي، لا، لن نذهـب.

جلس أبي وأمي وجدتي بيبي واضعين أيديهم على وجوههم، وكانت أمي تبكي وجدتي تصلي.

حاولت طمئنتهم قائلة: "وعدتني ليندا مرتين أنها ستعود".

ومن يومها لم أرى ليندا أو المتسلل في شيبمان كورنرز ثانية.

صرت اعتقد أن كل ما مررت به من قفزة زمنية وفقدان ثمانية عشر شهرًا، كانوا جزءًا من حياتي التخيلية. حان وقت تنفس هواء الواقع النقي.

بحيرة سوبيريور، الحديقة الإقليمية
١١ أغسطس- التوقيت القياسي الأرضي

اعتدت كل أغسطس أن أجهز تلسكوبي القديم وآخذ العبّارة إلى جزيرة تورونتو لمشاهدة سقوط النيزك بيرسيد من الشاطئ على نقطة جبل طارق، حيث يدهشني عِلم بعض الناس في المدينة عن وجود أوبرا المجرات الكبرى التي تدور فوق رؤوسهم.

كنت أود دائمًا مشاهدته بعيدًا عن التلوث الضوئي في المدينة في مكانٍ في عتمة الليالي، حيث يبدو كأنك في الفضاء الخارجي، وهذا هو سبب موافقتي على اقتراح دارين أن نقضي أسبوعًا نتأمل فيه النجوم من على بحيرة سوبيريور.

تناقشنا عما إذا كنا سنستخدم خيمته الملائمة مع جميع الأحوال الجوية أو استعارة سيارة رحلات صديقه ذات التسعة عشر قدمًا. اخترت سيارة الرحلات، فأنا أريد سريرًا مريحًا.

قال دارين: "لمن يريدون أن يكونوا رواد فضاء، أعتقد أنكِ لا تحبين الخشونة".

أجبته: "في الفضاء تكون بلا وزن، بينما على الأرض هنا يجب أن أضع ظهري في الاعتبار".

كانت سيارة الرحلات مثل سمك المنوة مقارنة بالمنازل المتحركة الشبيهة بالحوت المنتفخ التي تُحدث ضجة وهي تسير على طول الطريق السريع، وكان التصميم الداخلي الدافئ للسيارة الضيقة أشبه بالمركبات الفضائية، إلى جانب أواني دارين والمقالي

وزجاجات الكامباري والفيرموث والنبيذ الأحمر المخزنة بعناية في أماكن مخصصة مصممة ببراعة. هذا وقد زودت السيارة بحمام صغير ومطبخ وسرير ينزلق من تحت مقعد في الخلف عند الضغط على الزر، إلى جانب المياه الجارية ساخنة وباردة ومرحاض صغير وبالوعة وموقد وثلاجة ومايكروويف ومكبرات صوت في الخلف؛ إذ قرر دارين إغوائي بتشغيل معزوفات كاملة لفيفالدي وفريق آي سي/ دي سي والأخوان ألمان وهولست: مجموعة الكواكب.

"أراهن أننا لدينا فضاءً أكثر من فضاءهم في بعثات جيمناي؛ حيث أتعجب كيف استفادوا من كل كسرة في الفضاء".

قال لي دارين: "لدينا بارًا محمولاً أفضل من الذي عند رواد الفضاء، ألم تلاحظي مساحة الشمبانيا في الثلاجة؟ اخبريني هل لدى نيل أرمسترونج شيء من هذا القبيل يتطلع إليه عند نهاية اليوم القمري؟"

ولإحياء المناسبة، قدم لي شراشف حريرية طبعت عليها صور إباحية من علامات الأبراج الفلكية.

قال لي باسمًا: "إذا اهتزت الشاحنة، لا تهتمي بالضربات".

كان الطريق إلى بحيرة سوبيريور طويلاً، حيث استغرق يومًا ونصف، ولكن عندما وصلنا بات المنظر من خيمنا يستحق الرحلة؛ حيث الشاطئ الصخري الضيق الذي يطل عليه مخيمنا المؤدي إلى امتداد لا ينتهي من أعظم البحيرات الكبرى، وكانت الأمواج الرمادية تقترب منا حتى قلت لدارين أن ينسى فريق آي سي/دي سي كي نتمكن من الاستماع إلى صوت خرير الماء و نسيم الريح.

سحب دارين سلك كهربائي بقوة ٣٠ أمبير إلى منفذ خارجي للمحافظة على استمرار تشغيل أنظمة دعم الحياة لدينا. واحتسينا الإسبريسو في الخارج على طاولة النزهة للاستمتاع بالهواء النقي، وقد أخبرنا المخيمون أن الصيف ينتهي هنا قبل تورونتو بكثير، فأشعلنا النار للتدفئة لرؤية النيزك الذي يظهر في حدود الساعة العاشرة مساءً.

وخلافًا للفضاء الخارجي، عندما تتأمل النجوم من الأرض، عليك أن تناضل مع المناخ والأحوال الجوية؛ فقد كانت موجة العاصفة تتبعنا إلى الشمال حتى تلبدت سماء الليل بالغيوم، وقد جاءنا حارس الحديقة ليقول لنا: "أنتم هنا يا رفاق لرؤية النيزك أليس كذلك؟ يجب أن تكون الظروف مواتية مساء غد، ورغم ذلك ستكون قارسة البرودة، لذلك ارتدوا الملابس الثقيلة".

نمنا في الصباح التالي، كي نجهز أنفسنا للبقاء حتى وقت متأخر لمشاهدة السماء، وبينما كنا ننتظر حلول الظلام، ذهبت للركض. وكان صوت حذائي الرياضي على الطريق الممهد بين أغصان من الأشجار من مجموعة لوحات الفنانين السبع قد حُفّز على إصدار الإندورفين، مما ساعدني على تحقيق ما يسمى بمتعة الركض إلى أن ظهرت ثلاث دراجات نارية وأخذ صوت محرك دراجاتهم يزداد حينما اقتربت من متجر المخيم. توقعت أنهما دراجتان من ماركة هارلي ديفيدسون، واحد أسود والآخر أحمر، أما الثالث فقد اندهشت لرؤيته، فقد كان كاواسكي أبيض يحمل لوحات ماساتشوستس.

بينما أركض في مكاني أشاهد رجال هارلي يترجلون ويخلعون خوذاتهم قبل الولوج إلى المتجر، تاركين صديقهم الثالث لمراقبة الدراجات الذي لا يزال راكبًا دراجته حتى خلع خوذته، فبدا وكأنه محارب الطريق المثالي الذي من المرجح أنه في الستينات من العمر، وقد ربط شعره الرمادي ذيل حصان. كان جلد وجهه ورديًا متقشرًا، كما لو كان يعاني من مرض جلدي؛ ربما إكزيما.

لا ليست إكزيما؛ بل حروق الشمس.

توقفت قليلاً، وحبست صدمة المعرفة أنفاسي، فتهاويت على مقعد بجوار متجر المخيم، وجلست واضعة رأسي بين ركبتاي.

"هل أنتِ بخير؟ هل أحضر لكِ مشروبًا؟"

أومأت دون أن أرفع رأسي، فأنا أعرف بالفعل أنه راكب الدراجة النارية ذو حروق الشمس الذي يتحدث معي، كانت أنفاسه كرائحة علكة بنكهة القرفة.

سمعت أصوات العملات المعدنية وهي تسقط في ماكينة المشروبات ورفعت رأسي، لأجده يلف غطاء زجاجة الجاتوريد وهو عائدًا إليّ، حتى أعطاني الزجاجة، رغم تعجرفه وغروره الحاسم، وقد أخذت منها رشفة وجلس بجانبي ينظر إليّ في قلقٍ.

التقطت أنفاسي أخيرًا ثم قلت له: "لن أذهب معك".

تجهم وقال: "عفوًا؟"

لم أرى في عينيه أية إمارات تدل على أنه عرفني. إنه لا يعرف من أنا.

سألني: "لست مريضة بالسكري، أليس كذلك؟"

"لا أنا فقط ...... آسفة ظننت أنني أعرفك".

أصدر صوتًا ما بين الضحك والتنهد ثم قال: "تظنين أنكِ تعرفينني ثم تشعرين بالدوار؟ هل أعتبر ذلك مجاملة؟"

"بل أقصد أنني أعتقد أني أعرف وجهك. إن حروق الشمس تملؤه".

"إنها حروق الرياح من قيادة الدراجة في هذا الجو، هل أنتِ هنا مع أحد؟ ربما يتعين عليّ أن أجدهم لكِ".

هززت رأسي: "أنا بخير الآن".

"أمتأكدة؟"

أومأت برأسي: "سأعود إلى مخيمي، شكرًا مرة أخرى على المساعدة. رحلة سعيدة".

"ولكِ بالمثل، اعتني بنفسكِ جيدًا"، ثم نهض فسمعت صوت صرير الجلد.

عندما فتح باب متجر المخيم، ابتسم لي، كانت أسنانه بيضاء مستقيمة في هذا الوجه الأحمر التالف.

رفعت يدي ألوح له تعبيرًا عن شكري، فلوّح لي بدوره بإشارة سلام، بدا إصبعه البنصر مبتورًا من فوق المفصل.

لا بد أنه داف، أو على الأقل نسخة التوقيت القياسي الأرضي لداف، التي تعلل سبب عدم تذكره لي، إنها ليست المرة الأولى التي أقابل فيها شخصًا من ماضيّ غير الموجود.

رغم ما تقول سبوتنيك تشيك؛ أحيانًا تكون الصدفة مجرد صدفة.

ركضت ببطء إلى المخيم، حيث كان دارين يستخدم فأسًا يشق به الخشب لإشعال النار وشعره الملون كلون القمح ينساب في عينيه. عندما ركضت إليه، وضع الفأس بعناية على طاولة نزهة ومال لقبلة لكنني أبعدته، فتراجع وتجهم قائلاً: "هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبة".

"أشعر بالجفاف قليلاً. سأشرب بعض العصير واستحم".

انضممنا أنا ودارين تلك الليلة إلى حشد من المخيمين على الشاطئ لمشاهدة سقوط النيزك، حيث الهواء النقي البارد، مفترشين الأغطية فوق الرمال ورقدنا عليها نحملق في سقوط الشهب، وقد أشرت إلى كوكبة أوريون الصياد أو الجبار، وكاسيوبيا المرأة الجالسة، والحمل الآلهة اليونانية للحرب، وجميع مجموعات النجوم الأخرى المألوفة، وقد ربطت النقط بين النجوم للكشف عن صور الإله والآلهة وحيوانات حقيقية وأسطورية والرموز القديمة مثل برج الميزان؛ ميزان العدالة، إلى أن دمرت مجرة درب التبانة نفسها على النصف الغربي من السماء، فانشقت مجرتنا لتتيح لنا النظر إلى عدد لا يحصى من الكوكبات الأخرى.

في وقت لاحق عندما كنت متقوقعة بجانب دارين في الجزء الخلفي من سيارة الرحلات، استيقظت في منتصف الليل، وأنا أشعر أنني أتجمد رغم الجسم الكبير النائم بجانبي مع صداع قاتل.

رشحت لنفسي عقار تايلينول، ولكن عندما حاولت التحرك في نهاية السرير الذي يشغل الجزء الخلفي من السيارة، وجدتني لا أتحرك، ورأسي مقيدًا على لوح.

لم أتمكن من الحديث كذلك، ففكي كان منغلقًا بالمسامير المعدنية المثبتة في خدودي، على غرار فرانكشتاين، وكانت الأجزاء الوحيدة التي يمكنني تحريكها هي أعيني، إلى أن رأيت وجهان مرتديان قناع التنظيف ينظرون إلى أسفل في وجهي، كانا أبي وأمي، كانت عيون أمي تجهش بالبكاء، بينما سحب أبي ملاءة غطى بها وجهي، حاولت الصراخ لكنني لم أستطع، حتى بدأ العالم يتحول للون أبيض.

هزني دارين حتى استيقظت: "لا بأس، كان كابوسًا".

كان ذلك أفضل جزء في حلمي المتكرر ألا وهو الاستيقاظ، خاصة في وجود شخصًا ترتاح معه.

قال دارين: "بماذا كنتِ تحلمين؟"

انكمشت في دارين ثم قلت: "رأيت أنني فوق طاولة العمليات، وكان والداي هناك يظنون أنني مِتُّ، ظللت أخبرهم أني على قيد الحياة، ولكنهما لم يستطيعا سماعي".

اعتدل دارين في جلسته ولف ذراعه حولي ليطمئنني، كان وجهه دافئًا يبعث فيّ الطمأنينة.

"لقد رأيت حلمًا كهذا من قبل؛ إذ شاهدت ذات يوم أنني أدخل كهفًا، فإذا بي أقابل وحشًا تبين أنه أبي الحقيقي".

تجمدت وكأنني عدت إلى الحلم مرة أخرى وقلت له: "ماذا تقصد بأبيك الحقيقي؟"

جذبني دارين إليه أكثر؛ إذ كان بارعًا في تهدئتي، من العجيب أن الكثير من الأشياء عنه بدت آمنة ومألوفة - حتى القليل من التصرفات التي أحيانًا ما تذكرني بأبي.

وفي أحيانٍ قليلة جدًا، كنت أفكر بخجلٍ في القرش؛ يديه، وبشرته، وشيء ما حول شكل فكه، والجمال الفتّان حتى أمحو القسوة.

قال دارين: "لقد كنت ابنًا بالتبني".

حكي لي دارين عما يعرفه، حيث وُلِدَ في مكانٍ ما في جنوب أونتاريو في يونيو ١٩٧٠، وكانت أمه مراهقة غير متزوجة، وقد ذكر أنه حاول العثور عليها من خلال وكالة تساعد المتبنين في العثور على والديهم الحقيقيين. وهي حتى الآن، ترفض الاتصال.

"ماذا عن والدك؟"

تثاءب دارين ثم قال: "ترك اسمه في سجلات ميلادي، وهذا ليس أمرًا جيدًا؛ إذ يعني ذلك أن والدتي إما لم ترد التعرف عليه وإما أنها لا تعرف من هو، لكنني لم أكن أشعر بالطمأنينة حول ماهيته؛ حيث كانت المعلومة الوحيدة التي عرفها والداي بالتبني هي أنني قد أرث من والداي الحقيقيين دمًا شاذًا غريبًا".

سبحت في عالم سبوتنيك تشيك - تصحيح: في عالمي- وتذكرت مقولة لا توجد مصادفات، ترى أي نوع من الشذوذ؟

مد جسده وتثاءب قائلاً: "نوع من الحساسية للأدوية الجراحية، لم أخضع لها من قبل، لذا لم أتعمق فيها قط، إلى جانب أنها نادرة بطبيعة الحال".

أشرت له: "أهو إنزيم كولين إستريز الكاذب؟"

فرك عينيه وقال: "ربما، الوقت الوحيد الذي تنتابني فيه هو عندما أذهب إلى طبيب الأسنان، لذا يخدرني دائمًا بالغاز بدلاً من إبرة النوفوكاين".

عندما خلد دارين أخيرًا إلى النوم، استيقظت وارتديت الملابس الرياضية، كانت أدفأ ما وجدت، ثم خرجت من السيارة لمشاهدة عجلة النجوم فوقي، كانت الشهب لا تزال تتساقط، لا بد أنهم يضحكون عليّ؛ إذ وقعت في الحب مع ابن أختي المفقود، وليس لديّ إلا نفسي فقط لألومها.

وها هي ذا المأساة الوحيدة التي تجنبتها من بين الآلاف التي تتسارع لتلحق مكانها.

في الصباح التالي عند الفجر، قبل أن يستيقظ دارين، ارتديت بسرعة قميصي وبنطالي الجينز وحزمت حقيبتي وطويت تلسكوبي وخرجت من أرض المخيم إلى الطريق السريع، وفي الضباب، اقتربت عربة كبيرة، رفعت لها إبهامي لتقلني معها.

أوصلني سائق الشاحنة إلى فندق ليتل فينلانديا، شمال حديقة بحيرة سوبيريور، ثم اتصلت من مكتب الاستقبال بالمتجر التعاوني في واوا وطلبت منهم توصيل طاولة رسم.

حان الوقت لوصل الخيوط الغائبة من قصة سبوتنيك تشيك الأصلية.

عدت إلى العمل مرة أخرى.

القصة الأصلية التي لم تُحكى من رواية
لفتاة بلا ماضي

الجزء الرابع
زاوية في الوقت المحدد

أداء
سيدة الخوارزميات

الفصل الأول
العروس العصرية
شيبمان كورنرز، ١٩٧٩ بالتوقيت الذري

في يوم انتحار الرئيس ريتشارد نيكسون، رأيت عصفور كاردينال في حديقتنا الخلفية يخيم فوق شجرة البرقوق، كانت أول مرة أراه فيها كانت في بطاقة عيد الميلاد، وقد كان العصفور أحمرًا قرمزيًا كالدم الطازج، وأصغر مما اعتقدت وذا تغريدة كصافرة القطار الخارقة.

قال أبي: "إنهم شريرون للغاية"، ثم مرر إليّ منظار احتفظ به على مكتبه، فقد كان يحب مراقبة الطيور بعد تقاعده من سباركلنج سبارو وبيع أسهمه مرة أخرى إلى شيبكو، أردف أبي: "يجب أن تري زوجته! إنها تهاجم انعكاسها في النافذة ظنًا منها أنها أنثى أخرى تتطفل على زوجها".

تجاهلت "أنسنة" أبي، فهو لا يستطيع مقاومة هواية إسناد المشاعر الإنسانية إلى الفصائل الأخرى.

قلت له: "لم أره قط من قبل".

"لأننا لم نعد نستخدم مادة الدي دي تي في زراعة الكروم، لهذا السبب عادت الطيور المغردة مرة أخرى".

اعتبرت وجود العصفور البراق نبراسًا للأمل، حتى مع أنباء انتحار نيكسون التي ملأتني بالحزن والفزع؛ فخطورة وفاة الرئيس المخلوع تجذب كل شيء نحو نشرات الأخبار مثل شعاع المركبة

الفضائية، وفي راديو المطبخ، وصفت مذيعة هيئة إذاعة كانوسا بصوتها الناعم العميق المأساة للمرة المائة في ذاك اليوم، وغسلت أمي الأطباق والصنابير الساخنة والباردة تتدفق تدفقًا متقطعًا، وكنا ما بين المسح والشطف، والشطف والمسح، فلا مفر من الأعمال المنزلية سواء مات الرؤساء السابقون أو ظلوا أحياء.

لماذا اهتم؟ كما لو كان نيكسون شخصية محبوبة، فقد تساءلت عما إذا كان السبب الذي أودى بحياته لم يكن الاكتئاب أو الشعور بالعار من جراء الإقالة، ولكن لأنه أراد الهروب من القادم الذي يعرفه، قُل ما تريد عن نيكسون، بأنه ربما يفتقر إلى نظرة ثاقبة عن إخفاقاته الشخصية، لكنه كان لديه ما يكفي من البصيرة لإدراك أن عام ١٩٧٨ سيكون عام للكر والفر- وبالمعنى الحرفي، فهو أولاً أخذ حمامًا ساخنًا، ثم فتح الشرايين في معصميه بشفرة الحلاقة.

كنت في الثانية والعشرين من العمر وفي السنة الأخيرة لدراسة العلوم البيولوجية في جامعة تورنتو، التي تعتبر مثالية للمرأة التي تخطط مهنيًا للصعود إلى القمر، فمنذ اختفاء داف و ليندا، عشت ما قد يسميه البعض حياة ساحرة تمثلت في درجات جيدة، وأسرة سعيدة، ومظهر حسن، وصحة جيدة رغم الانتكاسات في بعض الأحيان والسقوط في الشره المرضي، الذي ساعدني عليه طبيب نفسي وصف لي دواءً مهدئًا يسمى الفاليوم. ليتني الآن أستطيع ركل هذا الفاليوم.

والأفضل من كل ذلك، كان لديّ صديقي المثالي، أعني خطيبي؛ حيث حددنا أنا وكندال ميعاد الخِطبة، وللأسف لم تعش جدتي بيبي حبيبتي لتحضر خطبتي؛ ففي السنة الأخيرة من الجامعة، تعرض وركها للكسر وهي تصعد سلم القبو ويداها تحمل الغسيل وقد كانت في الوقت عينه تعاني من الالتهاب الرئوي في مرحلته المتقدمة فماتت في المستشفى. كان كلبها الشنوزر الأخير الذي يسمى بيبي الثامن قد مات أيضًا حزنًا عليها بعد بضعة أسابيع، وتكريمًا لذكرى جدتي بيبي؛ وعدت نفسي بالقيام برحلة إلى مدينة نيويورك مع زوج أخبرتني جدتي أن المجتمع لن يتقبله أبدًا.

لا توجد امرأة تشتري أكثر من عددٍ واحدٍ لمجلة العروس العصرية Modern Brides في حياتها، والشيء نفسه ينطبق على مجلة حسناوات الزفاف Wedding Belles، والعرائس الذرية Atomic Brides وعروس كانوسا Canusa Bride، وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع، أحضرَت ساندي دفترًا من مجلات الزفاف البراقة إلى منزلي، جنبًا إلى جنب مع زجاجة مهربة من الفودكا بالبصل؛ حيث بدأ السيد هولوب بتصنيع خمرة يدوية أسفل طاولة سبوتنيك برجر، الذي صار الآن أكثر الوجبات السريعة شعبية في شيمان كورنرز.

ألقيت نظرة على صفحات تحتوي على صور رجال مغرورين بشوارب، وصور إباحية لنساء شقراوات مثيرات ورجال يجلسون في مغطس ويتبادلون الشراب من زجاجات الشمبانيا العملاقة.

قلت لها: "أحقًا يفعل الناس ذلك في شهر العسل؟ لا عجب أن كندال يفكر في أن نهرب".

"ماذا، وتحرمون أمهاتكم من فرصتهن الوحيدة في ارتداء ملابس العُرس؟ ياله من تهور"، ثم رفعت ساندي كأسها لتشرب في نخب خطبتنا وقالت بالأوكرانية: "نخب مليون سنة".

استكملنا شرب كأسات الفودكا وعدنا إلى مشاهدة الصفحات عن أثواب الزفاف ذات الطبقات المتماسكة والمعاطف الريش والقفازات والأربطة والأوشحة والخواتم والملابس الداخلية وكعكات الزفاف التي بدت مثل تاج محل.

ما زلنا خير أصدقاء؛ فقد قضينا أنا وساندي قرابة أربع سنوات في مدن مختلفة – حيث درست ساندي التغذية في جوالف وأنا في تورونتو – ولكن ظلت صداقتنا وطيدة، وهكذا كنا ذاك النوع من الأصدقاء الذين لا يعرفون ما سيقوله الآخر وحسب؛ بل ونقرأ أفكار بعضنا بعض، وعند نهاية المساء، قبل أن نخلد إلى النوم جنبًا إلى جنب على أرضية غرفة التسلية، بدأنا بخدش البالونات الفكاهية المخططة على رؤوس العرائس ذات البشرة النحيلة، وعيونهن البائستين أمام عرسانهن ذوي القمصان المكشكشة والبذلات المخملية، مع جملة: "أرني قضيبك أيها الولد الكبير! فأنا أتزوجك فقط من أجل مجموعة علب الجعة التي بحوزتك، وليشهد الرب أنني لن أجوع ثانيةً". حقًا يمكنك توصيل الثقافة إلى عاهرة، ولكن لا يمكنك أن تجعلها تفكر.

قبل انتهاء المساء، اخترنا الرجال الذين نرغب في النوم معهم؛ حيث اختارت ساندي رجلاً ذو شعر أشقر مائل إلى الحمرة بلحية، ويشبه الإسكندنافيين يرتدي حُلّة من قماش الطرطان

الصوفي المقلم - وقد اتفقنا أنا وساندي على أنه بالتأكيد أجمل بدون البذلة- في حين اخترت أنا رجلاً مفتول العضلات ذو شعر أسود مجعد وابتسامة جذابة يرتدي بذلة بلون الأزرق الفاتح وهو أكثر الألوان شيوعًا وقتذاك.

قالت ساندي: "يبدو أنه شاب إيطالي لطيف".

أجبتها: "آمل ألا يكون بهذا اللطف".

لم تساعدنا سخريتنا على زعزعة المتعة السخيفة المذكورة في المجلات فقط، بل ألهتنا كذلك عن الأحداث العالمية التي تزداد رعبًا يومًا بعد يوم؛ فبعد أمشتكا، خمدت الحرب الباردة ثم اندلعت ثانيةً مع بداية عام ١٩٧٧ حينما اكتشف حلف الناتو أن السوفييتيين قد صمموا ببراعة صوامع صواريخ على حدودهم مع فنلندا، وتقترب اقترابًا مخيفًا من طرف الستار الحديدي.

وفي الوقت نفسه، واصل العِلْم الغربي على تأليف الموسيقى وصنع الجبن ونشر مزيلات العرق تحت الإبط، هذا وقد نظم نشطاء أمشتكا أنفسهم إلى مجموعة تسمى "السلام الأخضر" وحذروا من أن التلوث ومبيدات الآفات سيقتلوننا مثلما هو الحال مع القنبلة الذرية، ولكن رويدًا رويدًا تحدثوا عن الأرض بعبارات روحية، كما لو كان الكوكب قد سُلِبَ ونُهِبَ وحُرِقَ حيًا مثل قديس القرون الوسطى، غير أن الحكومة تسامحت معهم، بينما تجاهلتهم شيبكو؛ إذ كان النهج الجديد للشركة هو التظاهر بأن تكون الشركة منحازة للحد من الأسلحة وحماية البيئة، ومنذ ذلك الوقت، صرنا جميعًا في حالة من التهاون.

ومثلما تنبأ داف، اكتشف العلماء أن درجة حرارة الكوكب تزداد؛ فألقوا اللوم على مركبات الكربون الكلورية الفلورية والتي أحدثت ثقبًا في طبقة الأوزون التي تحمي الأرض من أشعة الشمس، مع التنبؤ بمرض سرطان الجلد، حتى أصدرت جماعة السلام الأخضر بيانًا تطالب فيه الجميع بضرورة التخلي فورًا عن بخاخات رذاذ تثبيت الشعر المحملة بالإيروسول الذي يحتوي على مركبات الكربون الكلورية الفلورية، وهكذا استجاب توأم دوناتو بتخزين علب رذاذ الشعر فاينال نت في قبوهم، وأطلقت شيبكو حملة إعلانية تعزز الحياة الخضراء مع الإشارة بلطفٍ إلى عدد الأشخاص الذين أعانوا أسرهم وسددوا رهوناتهم بالعمل لحساب شركات تعمل في مجال صناعة مركبات الكربون الكلورية الفلورية CFC.

تجمدت الحرب الباردة أكثر من ذي قبل؛ في تلك السنة الحافلة التي أقيم فيها زفافنا، فتجمدت معها العلاقات بين الكتل الشرقية والغربية أكثر من أي وقت مضى، هذا وسبّب انتحار نيكسون الكثير من البحث عن الذات؛ ففي الولايات أدى تعاطف الناس بشكل غير متوقع إلى ميل دفة الانتخابات لصالح جيرالد فورد، وفي الوقت نفسه، فإن أطول الحدود غير المعزولة في العالم صارت أقل ودًا بكثير بعد فوز بيير ترودو أخيرًا في الانتخابات والزواج من سيدة المجتمع الكوبية، لذا وضع نائب الرئيس ريجان نظامًا يقوم على التالي: " من يريد الدخول في علاقات عمل مع صهر كاسترو".

والأكثر إثارة للقلق هي محطة الفضاء ناسا وسكاي لاب، التي تخسر المدار ببطء مثل الرجل العجوز عندما يسقط من السرير؛ فالجميع يعي أن طنًا من الخردة الفضائية ستتحطم في

مكان ما على الأرض في منتصف عام ١٩٧٩، وادعى السوفييت أن محطة الوقوع كانت حيلة لإخفاء هجومًا من الفضاء على اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وقد اعتقدت أنه حالة بسيطة من العجز التقني، لكن يبدو أن سكاي لاب كان محكومًا عليها بالفشل منذ البداية؛ حيث فقدت درع الحرارة عندما أرسلت لأول مرة إلى المدار، ومنذ ذلك الحين، ظهرت لعنة فشل محطات الفضاء الواحدة تلو الأخرى، ولا عجب من قرار ناسا بالسماح للمحطة بالرجوع إلى الأرض- حيث تحترق عند العودة وهذا هو المأمول لديهم؛ بدلاً من إهدار المزيد من الأموال في التكنولوجيا التي عفا عنها الزمن. وقد حث بعض العلماء وكالة الفضاء على إرسال المحطة إلى الفضاء لتسبح مع الأقمار الاصطناعية الأخرى الميتة مثل فانجارد وتلستارز الأول والثاني، لكنه أمر مكلف، وهو شيء بدا على ناسا فجأة أنها تعاني من عجز فيه، وهكذا بدلاً من ذلك؛ دفعوا حملة للعلاقات العامة لطمأنة مواطني الأرض بأن فرص إصابة إنسان واحد من سكاي لاب كانت واحدًا من كل ستمائة مليار.

أما في المدن الكبرى؛ صار الطنين المنخفض المثير للأعصاب الذي لا يستطيع أحد التعرف عليه ضوضاءً في الحياة اليومية، وقد أطلقت عليه الصحف اسم هوتوير هوم HotWire Hum؛ ففي نيويورك، ادعى "كون أديسون" أن ذلك الطنين ليس كهربائيًا في طبيعته، وأخيرًا؛ كتب طبيب نفسي جونجي الفكر كتابًا نظريًا يفيد أن هذا الطنين هو صوت القلق المقمع الذي يتسرب من اللاوعي الجماعي،

وكان بعض الأفراد يرتدون قمصانًا طبعت عليها كلمات مثل "لقد نجوت من هوتوير هوم"، وقد بدأ الأطباء يلاحظون ارتفاعًا في النوبات القلبية خلال الأخبار الليلية، ولا عجب أن صالات الرقص قد اكتظت بهذا الضجيج.

خلال تلك الشهور المتوترة، عندما ظهرت رؤوس الصواريخ كالأوتاد واقتربت سكاي لاب أكثر وأكثر إلى الأرض؛ أجرينا أنا وساندي وجودي وجاين مفاوضات تجارية عالية المستوى مع متعهدي المطاعم، وعكفنا على المفاضلة بين النذور التقليدية التي يدليها العروسين في حفل الزفاف و شِعْر رود ماكوين.

كان هنالك سؤالاً عن الرقصة الأولى ألا وهو هل يجب أن نبدأ أنا وكندال حياتنا معًا التي يطلق عليها "لم الشمل" بالثنائي بيتشس أو هيرب أو فريق بيجيس بأغنية "ما مدى حبك؟" How Deep is Your Love?""؟ ولكن في اليوم الذي اخترنا فيه أخيرًا باري وايت وفريق أوركسترا لاف أنليميتد ومعزوفة "موضوع الحب"؛ ظهر فجأة نبأ إخباري على قناة السي بي سي في الراديو يفيد أن المفاوض الأمريكي كيسنجر قد تخلى عن محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية بعد اشتباكات بالأيدي نشبت بينه وبين نظيره السوفياتي، حيث قال كيسنجر إنه لم يكن هناك أحد يتفاوض بحسن نية، ولا حتى من جانبه، وهو يضمد أنفه المكسور، وضلوعه المشروخة. وهكذا لقيت المحادثات مصرعها، وأصبحت كلمة الوفاق كلمة أنيقة تستخدم في وصف عملية تهدئة كلا الجانبين وأخذ حبوب مهدئة، وباتت خطأ مريرًا في البرامج الحوارية التي تأتي في وقت متأخر من الليل.

عندما قدمت طلبية بخمسمائة علبة عود ثقاب بيضاء، دقت ساعة القيامة الخاصة بعلماء الذرة ثلاثين ثانية أقرب إلى منتصف الليل، لكن كندال رفض الاعتراف بفضل داف واكتفى بقول أنه لا يزيد على مجرد تخمين جيد وقال: "لم أقل أبدًا أن هذا الرجل غبيًا ربما كان ذو بصيرة، ولكن في نهاية اليوم، هل نتجه إلى حرب عالمية ثالثة؟ لا أعتقد يا ديب، لن تتخلصين مني بهذه السهولة".

***

في يوم حفلي في قاعة كنيسة سانت ديسماس، بقى أبي وكندال في المنزل يشاهدان مباريات كأس ستانلي، حيث كان أبي يشجع فريق تورونتو مابل ليفس بينما شجع كندال فريق بوفالو فلامس، وقد جلسا في غرفة التسلية في القبو يحتسيان البيرة ويتجادلان على الإحصائيات ويتراهنان.

لم يجف الحبر على درجة ماجستير كندال حينما بدأ العمل في صحيفة مجتمعية في مقاطعة لوث بينما عمل صحفيًا حرًا في الصحف اليومية الكبرى خارج كانوسا في مدن مثل هاميلتون وتورنتو، إلا إن مهنة الصحافة لم تروق لأبي باعتبارها عملاً للرجل؛ إذ رأى أن كندال سيكون له مستقبلاً أفضل إن اشتغل محاميًا جنائيًا.

كنت أرى كندال يجامل أبي ويقول له: "نعم، أرى أن درجاتي تؤهلني للالتحاق بكلية الحقوق، لذلك سآخذ الأمر بجدية يا سيد بيوندي".

وضع أبي يده على كتف كندال وقال له: "ناديني بأبي".

ثم كان هناك والدة كندال، التي كلما قمنا بزيارتها في شارع زي، تقدم لنا سيناريو يجب على ثلاثتنا اتباعه على النحو التالي:

(السيدة كندال: كم من الرائع أن تكوني في مهنة تمكنك من اكتشاف علاجًا للسرطان. فكري في الأمر يا سيدة جون.

كندال: الصحافة مهنة يا بني، ويا سيدة كندال ولكن لا زلت أرى أنه يجب أن تستمع إلى السيد بيوندي، فإذا كان والدك على قيد الحياة ورآك تلتحق بكلية الحقوق، لن يصدق نفسه)

وبمجرد أن استخدمت السيدة كندال بطاقة الأب الميت، لم نعرف أنا أو كندال ماذا نقول، ولكن أستطيع قول أن كندال أحب قليلاً فكرة كلية الحقوق، فبمجرد أن يكون محاميًا؛ ستكون هذه مجرد خطوة صغيرة واحدة إلى السياسة؛ إذ يتميز كندال بحسن المظهر والوضوح ويحظى بشعبية، واجتماعي وذكي وفكاهي، وقد كانت صديقاتي في الكلية يحببنه ودائمًا ما يقلن لي: "أوه ديب، أنتِ محظوظة جدًا فكندال رائع....إلخ".

تخيلت في عقلي أنا وكندال في منزل مزرعتنا في بعض ضواحي تورونتو الراقية، حيث يروي كندال الحديقة وأنا آخذ أطفالنا المخلطين الرائعين إلى مدرسة مونتيسوري.

ولكن كانت المشكلة هي؛ إنني أود الذهاب إلى النجوم.

قد تحدث؛ فقد بدأت وكالة ناسا بتعيين نساء عالمات خبيرات في البعثات كان من بينهن طبيبة أعصاب كندية، أي أن الأمر لم يكن سوى مسألة وقت قبل أن تجد الفتاة المحظوظة نفسها

تجلس على خليط من وقود الهيدروجين والأكسجين القابل للاشتعال بدرجة عالية وهو يندفع بقوة إلى منطقة الضغط الديناميكي الأعظم. لماذا ليس أنا؟ فتعليمي مطلوب لرواد الفضاء، فقط أحتاج الآن إلى أن أكون في قمة قواي البدنية، وهكذا بدأت بالركض لفات في ملعب فارسيتي وعندما أعود إلى المنزل في شيبمان كورنرز أركض بجانب القناة من الموقف ٢ إلى الموقف ٤ وأعود ثانية، حتى أنه في بعض الأحيان؛ كان البحارة من بحيرات ليكرز وسالتيز يلوحون إليّ مهللين، وفي محاولة لتحويل نفسي إلى كتلة من العضلات المشدودة، بدأت ارتاد قاعة التدريب على الأوزان المحملة بالتستوستيرون في هارت هاوس، وقد كنت دائمًا المرأة الوحيدة التي تتمرن على الآلات، كنت أشعر بأزواج العيون في الغرفة وهي تتعقب ثوب الباليه الأسود الصغير الذي أرتديه، على الأقل الرجال الأصغر سنًا الذين كانوا يتظاهرون بعدم اكتراثهم بتمارين الصدر والعُقلة، حتى لو أوضحت الانتفاخات الواضحة لديهم في بنطال الصالة الرياضية القصير خلاف ذلك. وقد حظيت بأقل قدر من الاحترام من المدرب البالغ من العمر خمسين عامًا من فريق الملاكمة في الجامعة ؛ فقد أوضحت قائلة: "أنا لا أريد القتال، بل مساعدتكم فقط على تهيئة نفسي على طريقة الملاكمين في اللعب" وكان هذا القول ليس بقول صادقٍ تمامًا، وبدلاً من ذلك؛ نظر إليّ نظرة تعالي ورفضني قائلاً : "أنتن يا مؤيدات حقوق المرأة تعتقدن أنكن تستطعن فعل كل شيء، ولكن أنتن لا تزلن مجرد فتيات"، ثم أخرجني مع ضربة خفيفة على مؤخرتي.

بـدلاً مـن التنـازع والوثـب مـع الملاكميـن، تلقيـت تدريـب الماراثون مع فريق الركض، وكنت أركض في أصغر حذاء رجالي يمكن أن أجده، هذا وقد ركضت على طريق سبادينا إلى كازا لوما، ثم عدت أعلى التل نحـو مستودع سـانت كلير، كنـت أزداد سـرعة ولياقـة وقوة، وعندمـا لويـت ذراعـي مثل بوباي، برزت كتلـة عضلية صلبة من ذراعي النحيل، كنت على يقين أن هناك مستقبل في الفضاء ينتظرني طالما أن حياتـي لـم تنحصـر فيمـا بيـن الأطفـال والرهـن العقـاري ومقابلات الآبـاء والمعلميـن وزوج مشغول بالحفـاظ على المنـزل ووالدين يعانين من الشيخوخة يحتاجان للرعاية مثلما حدث مع أمي حتى ماتت جدتي بيبي؛ إذ كان والداي بالكاد يخرجان مساءً؛ فما بال الفضاء الخارجي.

على الرغـم مـن طموحاتـي، إلا أنـه عندمـا عرض علـيّ كندال الزواج، قلت نعم؛ نعم لأكبر زواج تقليدي في الكنيسة أرادته أسرتي.

ظلـت ليندا مختفيـة لسبع سـنوات آنـذاك، وقـد حـاول أبـي في البدايـة إبـلاغ الشـرطة التـي تراجعت وقالـت أن ليندا بالغـة، واقترحوا أن نحاول البحث عنها في أماكن الاستراحة في حي يوركفيل في تورنتو أو قطاع شارع يونـج حيث تذهب الفتيات اليائسات في نزهة؛ ففي نظر رجال الشرطة؛ كانت ليندا مجرد هاربة أخرى، وقد استأجرت جدتي بيبـي محققـاً خاصًـا مـن بافالـو، والـذي أخذ مالهـا لكنـه قـال أن أثرها قد اختفى؛ ففي رأيه، أن ليندا ربما تعيش في مكانٍ ما باسـم مسـتعار مـع داف وأصدقائـه الراديكالييـن – محبـي الأشـجار الثرثاريـن، مثلما وصفهـم رجل المبـاحث.

كنت لجميع النوايا والمقاصد؛ الابنة الوحيدة التي تسحب مستقبل عائلتها معها، فإذا لم أتزوج وأنجب أطفالًا، إذن ما هو هدف والداي وأجدادي الذين هاجروا إلى كانوسا للحفاظ على سلالة العائلة؟. والآن كان كل شيء متروك لي، وإلا، مثلما أشارت أمي، لكان أجدادي بيبي وزينيو بقيا في إيطاليا وقتلا على يد الفاشيين.

لا أريد الإلحاح على الزواج.

***

ارتديت، في شهر يونيو، فستانًا ملفوفًا من عند الخصر من تصميم جلوريا فاندربيلت بنقشات من الورود، واعتليت خشبة المسرح في قاعة كنيسة سانت ديسماس، وقد بدت ملامح الفخر على وجه أمي والسيدة كندال وهن تفتحان الهدايا، لم يكن ذلك مثل مهمة صنع شطائر الخيار التي يمكنك الإفلات منها وفتح مجموعة من الأكواب وزوجًا من مناشف الشاي، فقد كانت من وجهة نظري عربدة استهلاكية منحطة، إذ كانت حفلاً من القدور الكريستالية وأدوات المائدة الخزفية وبذلات مضادة للإشعاع رجالية ونسائية، وكل هدية ثمينة تصفها جين مانسفيلد بلهفة في الميكروفون؛ في حين ربطت جودي- جارلاند الحامل بشهورها الأخيرة شريطًا على قبعة ورقية لأرتديها في التصوير الفوتوغرافي. هذا وقد وضعت ساندي كل هدية على دفتر يومية كي تساعدني على كتابة مائتين وخمسين ملاحظة شكر، مما أشعرني حينها كما لو كنا في الواقع البديل حيث عدم وجود ما يسمى تحرير المرأة،

وهـذا لا يعنـي أن الحـركـة قـد حـازت علـى الكثيـر مـن القبول في التوقيـت الـذري؛ ففـي عـام ١٩٧٩، لم يكن لـديّ حتى الحق في الحفاظ علـى اسـمي، إذ عندمـا أتـزوج أُصبـح رسـميًا السـيدة جـون كنـدال، أمـا ديبـي بيوندي فسـتختفي من الوجود.

لحسـن الحـظ، كان هنـاك الكثيـر مـن الخمـر، وقـد خلطـت رابطـة سـيدات ديسماس الكاثوليكيـة شـرابًا كحوليًـا ثقيـلاً مـن خمـر الرم المسـكر الذي هو عبارة عن جعة الزنجبيل والجريـنادين، أسـموه شـراب فسـتان العروس، وبعد كأسـي السـادس، أحسست بحاجة ملحة إلـى إفـراغ مثانتـي، فنزلـت مجموعـة مـن السـلالم وعلـى طـول الـرواق وجـدت بابًا.

قـد تعتقـدون أننـي سـألاحظ عـدم وجـود علامـة السـيدات أو رمـز السـيدة الشـهير ذات التنـورة المثلثـة على باب الحمـام؛ ربما كان ذلـك تأثيـر مشـروب الـرم المُحلّـى بالجرينـاديـن، فبـدلاً مـن الحمـام؛ وجدتـي فـي غرفـة استُخدِمَت فـي تخزيـن مجموعـات أطقـم المطبـخ الخاصـة بـي ذات العلامـة التجاريـة ومنتجات ديكـور المنـزل، وقد كان عددهم مائتان وخمسـين قطعة، كل واحدة كالكرة المكبلة في سـاقي؛ حيث يصعب على فتاة تصعد إلى النجوم ووراؤهـا خشخشة ستة أوانـي خضـراء مـن الفونـدو المخلـوط بالأفوكادو.

هـذا وقـد أحـاط بـي فـرن التحميـص الجديـد، وماكينـة تحضيـر الطعـام، وعجّـانـة كيتشـن إيـد، وخـلاط مـن ماركـة هاميلتـون بيتش، وأريكـة للاسـتلقاء، ومسـجل يعمـل بنظـام الصـوت الربـاعـي، وخزانـة تلفزيـون ملونـة، وأوعيـة مطبـخ متنوعة، فصـرخـت صـرخـة طويلة عاليـة يليهـا عـدة صـرخـات متتاليـة.

انتظرت أن تدخل أمي مسرعة من الباب تسألني ما دهاني، ولكن كل ما سمعته هو ضحكات النساء وأصوات رنات كعوبهن العالية على الأرضية المشمعة في الخارج.

مسحت عيناي عندما خرجت من الغرفة، لكني ما زلت في أمس الحاجة للتبول عاجلاً.

وجدت الحمام أخيرًا في آخر الرواق ففتحت الباب، وفوجئت بسيل من الثرثرة والعطور الاصطناعية، وأصوات ورائحة النساء المخمورة وهي تعدل رؤوسها في تثاقل، دلفت إلى حجيرة، ورفعت فستاني وتخلصت من سيلٍ من مشروب فستان العروس في المرحاض بينما أفسدت الدموع زينة وجهي، وفي حقيقة الأمر لم أبكي على امتلاكي ثلاثة مواقد بطيئة ذات حجم صناعي، بل لأنني خُنت كندال مع رجل قابلته في غرفة التدريب على الأوزان، كان يسمى "بوب" ولا أعرف اسمه الثنائي، فهناك الكثير ممن يحملون اسم بوب في جامعة تورونتو.

كان بوب مصارع، ولم يكن يعرف كيفية إرجاع البار على آلة تمديد الساق، لأن هناك خدعة في ذلك؛ فحقًا كل ذلك فيزياء؛ فبغض النظر عن مدى قوتك، إلا أنه إذا لم تسحبها بالطريقة الصحيحة، لن تتحرك، وقد كان يهمهم ويبذل جهدًا جهيدًا، فرقصت الفالز في ثوب الباليه ومسكت البار بيدٍ وسحبته لأسفل بمنتهى السهولة، فضحك لاعبو كرة القدم الذين كانوا يتمرنون على آلات الوزن، وتبعهم بوب بعد أن شرحت له الخدعة.

أستطيع قول أنه شعر بالقليل من الإحراج والخجل من طريقة تمرير يده في شعره الأسود المجعد، ثم تحولنا فيما بعد من غرفة الوزن إلى المقهى، ثم إلى الحانة، ثم غرفته، ولحسن الحظ كان أعزبًا يدرس في كلية تارتو.

عاشرته مرة واحدة فقط، ولا أعرف السبب، رغم التشابه الكبير بينه وبين العريس في مجلة العروس العصرية الذي اخترته أنا وساندي لمضاجعته تلك الليلة التي ثملنا فيها من الفودكا المصنوعة في المنزل. نهضت من سريره قبيل الفجر وخرجت عائدة إلى المنزل عبر الشوارع الخالية في تورونتو.

في اليوم التالي، اصطدمنا أنا وبوب ببعضنا فدعاني للخروج.

فأجبته قائلة: "لا أستطيع"، وأنا أتلفت حولي لأتأكد أن لا أحد يرانا.

"لا تستطيعين، أعلم أنكِ غاضبة مني. أليس كذلك؟ آسف لقد تماديت الليلة الماضية قليلاً".

لم يكن لديّ أي شيء أفعله.

قلت له: "أنا مخطوبة".

هز رأسه وقال: "إنكِ تتزوجين الشخص الخطأ، إنه لا يعرفك".

كدت على وشك الضحك وأنا أقول له: "إنه يعرفني منذ أن كنا صغارًا".

"هذا هو رأيي، أنه لا يزال يفكر فيكِ وكأنكِ فتاة صغيرة".

"كيف تقول ذلك؟ إنك لا تعرفه".

قال لي: "أعرف أكثر مما تعتقدين"، ثم تشنجت عضلات أكتافه وبدا عليه الجرح والغضب والارتباك إلى أن أردف: "حسنًا إذن. تزوجي من هذا الرجل، أتمنى لكما حياة سعيدة مع بعضكما"، ثم مضى في حال سبيله.

نعم شعرت بالذنب؛ فقد كنت أعلم أنها علامة تحذيرية بأنني غير مستعدة للزواج؛ إذ كان كندال الرجل الوحيد الذي عاشرته قبل أن ألتقي ببوب. ظللت مستيقظة ليالٍ عدة أسأل نفسي لماذا سمحت بذلك، حيث كنت أعلم أنني غير سعيدة، ولكني تركت الأمور تمضي دون أن أحاول التدخل.

أحببت كندال، ومن لا تحبه؟ فقبل ثماني سنوات، كان صديقًا مخلصًا في الأشهر التي اضطررت فيها أن أتولى زمام أموري بعد اختفاء أختي، وقد كان مصعوقًا ومخلصًا حينما تأملت بعيون دامعة صورة جسدي الهزيل والطريقة التي سوت بها عائلتي الطعام في حبٍ عندما كنت أتعالج من الشره المرضي، وعندما أتممت السادسة عشر، مارسنا الحب أخيرًا، كانت ممارسة كاملة وليست نصف المضاجعة التي تجعلكِ شبه عذراء؛ فقد فعلنا ذلك في غرفته حينما كانت السيدة كندال خارج المنزل ترسم المناظر الطبيعية على لوحة في نهاية الأسبوع، وكان يفترض أن أنام عند ساندي، وقد استعار نسخة من مجلة **Your Body & My Body** من إحدى النساء في مركز شباب شارع زي، قرأنا فيها بعض السطور حول ما يمتع الإناث، وهكذا فكيف لا أحب شخصًا يهتم؟

كنت لا أزال جالسة فوق المرحاض، ووجهي ذو الأنف السائلة بين يداي إلى أن طرق شخص ما باب المرحاض.

إنها ساندي: "ديب، هل أنتِ بخير؟"، لا بد أنها عرفتني من حذائي الذهبي المخملي ذو النعل السميك.

قلت مترددة: "لا".

"افتحي الباب".

"أريد البقاء لوحدي".

"افتحي وإلا سأزحف من تحت الباب".

فتحت الباب، وعندما رأت ساندي وجهي صرفت النساء التي تجمعت لرؤية العروس الباكية، واصطحبتني إلى المخزن الذي غادرته للتو، وعثرت على صندوق من المناديل وسكبت لي كوبًا من الماء، واتفقنا على أن مشروب فستان العروس كان قويًا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه اختراع مجموعة من السيدات الإيطاليات البالغين من العمر ستين عامًا، وقد رجحت ساندي أن سبب دموعي هو المشكلة الجوهرية التي تواجه المرأة؛ وهي الارتباك، لكني قلت لها أنني على ما يرام ولكن ثمة شكوك تساورني مع الإحساس بالذنب.

"لماذا تشعرين بالذنب؟" سألتني ساندي وقد عبس وجهها وقربته إليّ كثيرًا، حتى كان يمكنني تقبيله، وفكرت أن أفعل ذلك، ولكن بدلاً من القيام بذلك؛ أخرجت منديلاً من جيبي ونظفت مخاط أنفي.

"لقد خُنت كندال".

كنت أعلم عندما أتفوه بتلك الكلمات، أنني أخطئ بإخبار

ساندي، وقد شعرت بتغيير خفي في إمساك ذراعها بكتفي، ثم ضاقت عينيها حتى لم يظهر منها غير علامات زرقاء ثاقبة.

لم تقل لابد أنكِ غير متأكدة من هذا الزواج يا ديبي وربما عليك إلغاؤه أو القول القديم؛ ولِمَ العجلة؟ ربما أنتِ غير مستعدة بعد.

بل قالت بدلاً من ذلك: "وكيف تخدعين رجلاً عظيمًا مثل كندال؟ هل جننتِ؟ إنه رجل مثالي".

إذا نظرنا للوراء، أستطيع قول أنني تعثرت في تلك اللحظة، كما لو أن أحد ما سحب سجادًا من تحتي، فغيرت الأسلوب واتفقت مع ساندي أنني مرتبكة بالفعل. لماذا ارتكبت مثل هذا التصرف؟ ومن هي المرأة العاقلة التي تخون رجلاً رائعًا ككندال؟ حاولت أن أشرح لساندي أنني نفسي لا أعرف لما حدث ذلك، فالرجل لا يعني شيئًا لي وكأن عقلي وقلبي قد ذهبا في حالة سبات صناعي لليلة.

اقترحت عليّ ساندي قائلة: "لنتظاهر أن شيئًا لم يحدث، ودعينا لا نتكلم في هذا الموضوع ثانية، إنه مريع للغاية".

وهكذا بدأ أول مارس في زفافنا بتردد.

***

كان شعري ملفوفًا على شكل كعكة على جانبيّ رأسي، وقد بدوت كأميرة في العصور الوسطى؛ تتأنق بفستانٍ عاجي من عدة طبقات، بينما وقف كندال مستقيمًا وطويلاً ووسيمًا بجانبي في بذلة كحلية من ثلاث قطع، فقد رفض جهود شركة توكسيدو رويال لتضعه هو وبام بام وروكو وغيرهم من العرسان في الزي الشائع من الأزرق الفاتح والكشكشة، وكان معازيمي هن ساندي وجين مانسفيلد وجودي غارلاند، اللاتي ارتدين فساتين برتقالية غامقة جميلة بأكمام واسعة عند نهاية اليد وخصرًا عاليًا، وقد برزت بطن جودي جارلاند الحامل كمقدمة السفينة، حيث ستلد بعد أسبوع من حفل زفافي توأم ذكور وستسميهم على أسامي الشخصيات التي ظهرت قبل الحرب مثل كلارك جابل وكاثرين هيبورن.

بعد تقبيلي بعاطفة على صوت رنات خمسمائة كأسًا مليئًا بالشمبانيا الوردية، وقف كندال وألقى خطابًا مضحكًا ومؤثرًا مما جعله هو وأمي يمسحان دموعهما، بينما رفع بام بام أو بيب مثلما يسميه الأغلبية الآن، نخب العروس وأطلق مزحة عن أن من أفضل المزايا التي حدثت له هو أن يكون أفضل صديق لنا نظرًا لأنه سيأتي معنا رحلة شهر العسل؛ فمن باب توفير النفقات وافق على أن يقلنا بالسيارة إلى مكانٍ منعزلٍ رومانسي وليس حمامات بفقاعات وكأس الشمبانيا في جبالٍ بوكونو، ولكن إلى مكان صار مرادفًا للحصباء والجريمة والانهيار العمراني، إنها نيويورك! أدين لجدتي بيبي بهذا كثيرًا.

الفصل الثاني
شهر عسل خارج هذا العالم

عشر ساعات على الطريق السريع لولاية نيويورك، هذا هو الوقت الذي يستغرقه السفر من شيبمان كورنرز إلى الواقع المرير في مدينة نيويورك. وعلى طول الطريق خلال نهر هدسون، مررنا ببلدات صغيرة الواحدة تلو الأخرى، كنا نتوقف من حين لآخر لتعبئة السيارة بالوقود وتناول الطعام في مطاعم رخيصة، وقد كنا نلفت الأنظار أنا وكندال وبام بام؛ فتاة بيضاء ورجل أسود، وشاب مثليّ إيطالي ذو عضلات يرتدي سروالاً ذهبيًا حريريًا قصيرًا وقميصًا وقرطًا - دعونا نقل أننا اشتهرنا. كانت تلك البلدات تشبه كثيرًا شيبمان كورنرز، باستثناء الأعلام الأمريكية المرفوعة في كل مكان وهي ترفرف في الريح أمام المدارس ومراكز الإطفاء وعلى ملصقات السيارات التي كُتِبَ عليها "أحب أمريكا"، أي يقصد بها أحبها أو أحشرها في مؤخرتك. وفي مكان ما على مقربة من حدود ولاية نيو جيرسي، بدأنا نسمع طنينًا ثابتًا منخفضًا من هوت واير هوم، حيث تحولت المدن الصغيرة إلى ضواحي لمدن كبرى محطمة. ومن خلال الزجاج الأمامي حدقنا إلى مَريء عملاق يلتهم نفسه على مراكز تجارية تختنق بالسيارات وباحات خردة وصوامع كيميائية، ولوحات إعلانات فارغة، عندما خرجنا من عتمة عوادم السيارات من نفق هولندا، كان أول انطباعٍ لي عن مانهاتن أنها قمامة مشتعلة في منتصف قطعة أرض فضاء تبرز من بين صفين من المباني، مثل الفم ذو الأسنان الأمامية البارزة.

***

كان وقت الحجز في فندق إكسلسيور في قرية جرينتش الساعة الثالثة مساءً، حيث أوصلنا بام بام إلى الواجهة عند الظهيرة.

سأله كندال: "أين ستقيم يا بيب؟"

"عند صديقي، سأترك لك رقمه، لتتصل بي عندما تمل من كل ذلك الهراء السياحي، وسأريكم أفضل صالة رقص في المدينة"، ثم انصرف بالسيارة ملوّحًا لنا في مرآة الرؤية الجانبية.

فتح لنا الباب رجل مبتور الأرجل يجلس على مقعد في مدخل الفندق، كان يرتدي منديلاً على شعره الطويل وسترة قطنية رثة مطرزة بالعلم الأمريكي، كان كل ما حصل عليه منا هو شكر مهذب، فسمعته يتمتم قائلاً: "لقد تركت أرجلي في نيوزيلندا من أجلكم يا أحقر الحقراء".

كان اللوبي تفوح منه رائحة كريهة من التبغ القديم ومواد التبخير المنعشة؛ حيث ذكرتني رائحة مبيد الصراصير القوي ببرجر سبوتنيك في صباح يوم الاثنين، وقد سمعت من راديو خشبي مصقول كبير في الزاوية، سباق خيل أداره الراديو تلقائيًا، في حين جلس رجل سمين سمنة مفرطة بحجم أربعمائة قميص رياضي يومئ برأسه وهو يقرأ صحيفة ديلي نيوز، وقد برز لحمه من جانبي أريكة جلدية حمراء متصدعة، ورأيت كذلك فتاة يبلغ حجمها حجم رِجل واحدة من ذلك الرجل، كانت تهتز ذهابًا وإيابًا وراء حاجز من صندوق كبير بعيون ثابتة وفمٍ مفتوح، وقد حلقت رأسها من على الجانبين، وتدلى قِطاع

من شعرها إلى وسط جمجمتها متخذًا شكل إنذار "موهاك" لوّن بالأزرق كالببغاء.

حدق إلينا موظف الاستقبال، وقد دارت عينيه في مختلف الاتجاهات على جانبي رأسه الضيق كالسمكة.

قال الموظف: "ندير منزلاً نظيفًا هنا، ارحل أنت وقريبتك الحمقاء من هنا".

قال كندال: "لدينا حجز هنا"، ثم وضعت يدي اليسرى التي ترتدي خاتم زواج من متجر جرانثام بلازا على الطاولة.

مال الرجل برأسه المسطحة لرؤية الخاتم، ثم انحنى انحناءة قليلة بلهاء وقال: "لا أقصد الإهانة، ولكننا نتوخى الحذر هذه الأيام، هذا كل شيء، فقط نبقى حذرين مثلما تقول الحكومة"، ثم قلّب في صندوقٍ يمتلئ ببطاقات الفهرسة وأردف: "اخترنا لكم الدور السادس، جناح شهر العسل، لكنه غير جاهز بعد، فمازال يتم تنظيفه من آثار النزلاء السابقين"، لم أكن أود التفكير فيما كان يفعله النزلاء السابقون.

التقط الموظف مظروفًا ومفتاحًا حديديًا ثقيلاً بدا وكأنه سيفتح باب قلعة فرانكنشتاين، كان عنوان الرسالة: "رسالة إلى تشو"، وذلك من حجيرة خلف المكتب ذكرتني بالطاولة النقدية الخاصة بكريسي.

كان الخطاب موجهًا إلى العروسين، وبداخله ملاحظة من ابن عمي الثاني في بروكلين قال فيها:

مكتبة
t.me/t_pdf

"مرحبًا بالسيد والسيدة كندال، آمل أن تكون حياتكما الزوجية سعيدة، إن سئمتما من تلك المزبلة التي تقيمان فيها، يسرنا أن نستضيفكما عندنا، وفي هذه الأثناء؛ إليكما تذاكر لإيفيتا، أفضل مسرحية موسيقية في المدينة، مع دعوة لتناول العشاء في مطعم باتسي يوم الجمعة، (سيناترا يأكل هناك) سأكلمكِ قريبًا يا دوني"، ثم طويت الرسالة وأدخلتها إلى حقيبتي، وسألت الموظف: "إذا تركنا حقائبنا هنا للتنزه لبضع ساعات. كيف يتسنى لنا الوصول إلى الجانب الجنوبي الشرقي؟"

سحب ذو العينان الشبيهة بالسمك خريطة مصورة لمانهاتن في حالة يرثى لها؛ حيث استُخدِمَت كثيرًا وكانت صورتها في حجم صغير بحيث بدت مباني المدينة كرَوَث الفئران، وقد أشار الموظف إلى الاتجاهات، إلا أنني تهت بين الشوارع والطرقات المتعددة، ولكن كندال ظل متابعًا للموضوع بأكمله.

"أوه، بالمناسبة، هناك تدريبًا على الغارات الجوية، ثلاث مرات أسبوعيًا. يجب أن نفعل هذا الآن قبل حفل الشراب".

سأله كندال: "هل للفندق ملجأ؟"، وقد شعرت في صوته بعدم التصديق.

حوّل الموظف وجهه إلى كندال كي يصلح له معلوماته بعين محدقة قائلاً: "بالتأكيد، لدينا ملجأ محصنًا في القبو".

أعرف أننا سنواجه ذلك في أي مكان نرتاد إليه في الولايات؛ تدريبات جديدة للتأهب لهجمات نووية. وقد كانوا يتكلمون أيضًا عن إعادة تنشيطها في كانوسا، حتى إشارة الاختبار في نظام إذاعة الطوارئ قد ظهرت ثانية لقَطْع البرامج التلفزيونية.

سألنا الموظف: "لهجتكم مضحكة، من أين أتيتما؟"
قلنا أنا وكندال معًا: "كانوسا".
تمتم الموظف قائلاً: "أرض اللبن والعسل".
لا أستطيع قول هل كان يحاول أن يبدو مضحكًا أم لا.

***

على شارع بليكر، خيمت علينا شمس مانهاتن الضبابية في الولايات المتحدة، وقد حامت حولنا سيارة أجرة صفراء وتباطأت إلى حد الزحف، ثم وجه السائق نظارته الشمسية نحونا وهتف لنا: "سعر خاص اليوم لمن هم من خارج المدينة"، لكننا تابعنا أنا وكندال السير.

كانت الحرارة تشع من الأرصفة المكتظة بالفتيات اللاتي ارتدين سراويل مثيرة وجوارب طويلة، كنّ يتحركن على طول الطريق بأحذية تزلج ذات أربع عجلات، بينما ارتدى الرجال قمصان بوليستر تعلوها حمالات السراويل من المصانع المستغلة للعمال، في حين رفع الرجال كبار السن سراويلهم إلى أعلى وكانوا ينظرون إلى بداية الشارع وآخره بغطرسة وكروشهم تتدلى أمامهم. هذا وقد وقف المحتالون في حُلتهم الجلدية ونظارات شمسية، يبيعون الساعات من حقائب الورق المقوى وهم يترقبون رجال الشرطة، إلى جانب مجانين المؤامرات الذين يحملون لوحات كُتِبَ عليها "أوشكت نهاية العالم على الوقوع"، وكانوا يبيعون خرائط الوصول إلى الملاجئ القوية في وسط البلد وبذلات مضادة للإشعاع بجميع الأشكال والألوان.

أمـا فـي بلدتنـا؛ بـدأ كريسـي ببيـع بـذلات مضـادة للإشـعاع مستعملة، لأنهـا كانـت غيـر معروفـة، وقـد انتشـرت الحملـة الإعلانيـة بجملـة "الآن يمكنـك أن تأخـذ مـأوى القنابـل معـك!"، ولكـن الجميـع يعـرف أن جميـع البـذلات المعروضـة تـدوم يومًـا أو اثنيـن وأنت تشـاهد جميـع مـن حولـك يموتـون.

علـى ضوضـاء المـرورودوي أجهـزة الراديـو الترانزسـتور، يمكننـا سماع الهوت واير هوم في كل مكان نرتاد إليه، حيث كان صوتٌ أزيـز منخفض وثابت، كصـوت آلـة البـاس المثبتـة علـى جهـاز، وصوته يدخـل المبانـي وحتـى الأنفـاق، قد تجده في البداية مثيـرًا للأعصاب، ولكن مثل باقـي سكان نيويورك الأصليين، ستعتاد عليه.

استغرق الأمـر سـاعة للوصـول إلـى الجانـب الجنوبـي الشـرقي، وقـد لاح جسـر بروكليـن فـي الأفـق الـذي تهيمـن عليـه مجموعـة مـن المستودعـات القـاتمـة كتلـك التـي كانـت فـي شـارع زي، حيـث وجـدت مجموعـات سـكنية مبنيـة مـن الطـوب البنـي الرمـادي الداكـن، يخـرج منهـا سـلالـم الحريـق، وقـد حولـت الشـارع إلـى أوديـة مظلمـة.

قال كندال: "هذا هو المكان. سبعة وعشـرون شـارع أورشـارد"، من أمام مبنـى سـكنـي خشبي، وعلى العتبة الأمامية، ظهر رجل مجوّى غيـر معـروف سـنـه ؛ فيمكـن أن يكـون عمـره خمسـة وعشـرين أو خمسـة وستين، سـحـب حلقـة مفاتيـح تقريبًـا مـن جيب ملابس العمل الواسعة وقال: "هـل تريدان الدخول؟"

سألته: "هل مسموح لنا؟"

هـز الرجـل كتفـه وقـال: "أنـا حـارس المـكان إن سـمحت لكمـا

دخلتما، وإن لم أسمح فانسوا الأمر"، وقد نظر إلى أول الطريق وآخره وواصل حديثه: "من سيمنعكما مكتب التحقيقات الفيدرالي؟ لديهم سمكة كبيرة جاهزة للقلي يا حبيبتي".

قلت: "لقد اعتادت جدتي على العيش هنا. إننا من كانوسا".

اكتشفت أن كوننا من كانوسا أشبه بالحصول على بطاقة مجانية للخروج من السجن: ففي نيويورك لا أحد يعتقد أننا قادرين على فعل أي شيء مثير للاهتمام بما يكفي لتكون سيئًا.

فتح الحارس الباب وقال: "انتبهوا لخطواتكما. لم يسكن أحد هنا لأربعين عامًا سوى القطط والفئران والحَمَام".

"فئران"، قلت ذلك حينما فتح الحارس الباب الخشبي المقشر.

ناول كندال مصباحًا وقال: "ستحتاجان إلى هذا".

كانت هناك بوابة معدنية مقوسة تحد البهو الداخلي، وكأنه يدعونا إلى مدخل كبير، وبدلاً من مجموعة أدراج منحدرة تتشبث بالجدار الداخلي، تسلقنا بحذر ونحن نتنفس الغبار ورائحة البول النفاذة.

سألت الحارس: "هل هو بول القطط؟"

"نعم والناس أيضًا، حيث يتسللون إلى هنا للمكوث في الشقق، وهذه هي أغلب وظيفتي، طرد المتطفلين".

دفع كندال الباب ووجدنا غرفة صغيرة ضيقة بها نافذة تؤدي بدورها إلى غرفة صغيرة ضيقة كذلك بها نافذة خشبية، وقد دخل شعاع ضعيف من ضوء الشمس كشف عن سجادة في حالة مزرية متخمة بالغبار الذي أخفى ألوانها.

قلت: "أظن أننا متطفلين أيضًا".

"كلا، أنتم سياح فحسب، الذين قلما أراهم، فلا يكاد يكون هناك أحد يريد زيارة نيويورك".

قال كندال: "نحن في شهر العسل".

سعل الحارس وقال: "أختيار صائب".

سألته: "لماذا تحرس المبنى المهجور؟"

فأجاب: "بعض العاهرات الثريات يجمعن أموالاً لترميم المكان وتحويله إلى متحف، متحف ماذا، ليس لديّ فكرة. كهؤلاء الأوغاد الذين يريدون إصلاح جزيرة إليس، ألم تذهبا إلى هناك؟ يا إلهي، لقد سقطت في المحيط وغرقت فيه".

قالت جدتي بيبي أنها سكنت في هذا العنوان في شقة السكك الحديدية، وقد اعتقدتُ حينها أنها تقصد أنها تستطيع رؤية القطارات وهي تمر من هنا، وقد أوضحت لي أنها تقصد أنها كانت تسكن في شقة دون مدخل؛ حيث يمكنك الانتقال من غرفة إلى أخرى بالمشي عبر كل غرفة، واحدة تلو الأخرى، مثل عربات القطار. قال الحارس: "لن يكون لديك أي خصوصية في منزل من هذا القبيل، ولن تصدق ما يمكن أن يفعله الناس عندما تحاول فقط الدخول إلى الحمام في الليل، اعذروا لغتي".

حاولت أتصور جدتي بيبي عندما كانت مراهقة تقطن في مسكن كهذا مع أخيها وزوجة أخيها وبنات أخيها الأربعة وأولاد أخيها قبل أن تعود إلى إيطاليا وتتزوج جدي زينيو. فقد كانت الشقة تتألف من غرفتين فقط، وقد وجدت بالوعة قد أشارت إلى سبب وجودها، فقلت: "هل هذا هو المرحاض؟"

سعل الحارس وقال: "ماذا تعتقدين، فندق ريتز؟ إنه المطبخ، أما الحمام فهو في القاعة، حمام واحد لكل شقتين. يا إلهي... أتذكر والدي في الأيام القديمة، قبل أن تضع المدينة المُلاك ضمن أهدافها؛ حيث كان يتعين عليك نزول الأدراج والخروج من الخلف إلى المراحيض لقضاء الحاجة، ليلاً وصباحًا، صيفًا وشتاءً، وكذلك الحال عندما تريدين الحصول على الماء أعلى وأسفل وأعلى، وكانت هناك رائحة كريهة بالخارج، والداخل ليست أفضل كثيرًا".

سأل كندال: "هل تذكر متى سكن الناس هنا؟"

سعل الحارس ثانية فبدأت استنتج أنه صوت ضحكه وقال: "أنت تمزح، لقد نشأت هنا، وهكذا عرفت المكان".

وعندما عدنا إلى إكسلسيور مجهدين وجائعين، كان جناح شهر العسل جاهزًا لنا.

شق المصعد طريقه بثقل إلى الطابق العلوي، الذي تديره قزمة ترتدي ما يشبه الزي الرسمي لفتاة الكشافة، حاولت بصعوبة ألا أحدق فيها؛ فقد كانت شقراء بشدة وشعرها مربوطًا ذيل حصان طويلاً وقد طبع ظلاً ذهبيًا على جفنها، وللحظة أكاد أقسم أنني رأيت عينًا ثالثة في منتصف جبينها تغمز لي؛ فلا بد أنه من الحرارة.

قالت لنا: "تبدوان طبيعيان ولطفاء بما فيه الكفاية لتناول الطعام"، ثم أخرجت لسانها الصغير الشبيه بلسان القطة للحس شفاهها وتابعت حديثها: "من أين أتيتما؟"

قلنا نحن الاثنان:"كانوسا".

قالت: "واضح، الطابق السادس، انتبها لخطواتكما".

حاولنا في أدبٍ رفض مساعدة خادم الفندق العجوز لكنه دخل إلى المصعد الصغير معنا الذي أحدث صريرًا ممسكًا حقائبنا إلى أن وصلنا إلى الطابق السادس وفتح الباب وسار بنا في جناح شهر العسل وهو يلوح بيده إلى وسائل الراحة التي تمثلت في حوض صدئ في حمام ذو إضاءة خافتة، وتلفاز مع هاتف بقرص مكسور حشر في خزانة وضوء أحمر يشير إلى اختبار صفارات الإنذار بغارات جوية وليس حقيقيًا، وأخيرًا: رفع النافذة للسماح بالحرارة واللفحة بالنفاذ منه. وقال بصدر يصدر صفيرًا: "هناك منظر خلاب إذا كنتما تحبان هذا النوع من الجمال"، ثم وقف يتنفس في صعوبة واضعًا يديه خلف ظهره، فدس له كندال خمسون سنتًا من جيبه.

بعدما انصرف الخادم، قال كندال: "وأخيرًا لوحدنا".

سحبنا الغطاء الرقيق من على السرير ورقدت على الملاءة الصفراء الباهتة التي خدشت جراء التنظيف بينما أشاهد كندال وهو يميل عليّ، أتذكر بوضوح زيارتي في هذا الوقت، وتسلل ضجيج المدينة عبر النافذة كالموسيقى الغريبة ورائحة الشواء التي تتصاعد من الشارع بالأسفل.

ضمني كندال إلى ذراعيه وقال :"أسعيدة يا ديبي؟"، لففت يدي حوله وقلت له :"نعم بالطبع".

قال لي: "أحبك".

قلت له: "وأنا أيضًا أحبك".

أردت أن أكون سعيدة، ففعلت ذلك حقًا. كنت سعيدة مع كندال، ومع ذلك؛ انتابني قلق مجهول كما لو كان شيء مهم خطر بذهني في منتصف جميع طلبيات علب أعواد الثقاب وتخطيط

الزواج، وكأنني فقدت توجيهي الرئيسي أو فقدت قاربًا لم أقم حتى بحجزه.

نهض كندال ونظر من النافذة وهو عاري؛ كان نحيف ووسيم وذو عضلات كما كان، ووجهه الحساس يزداد جمالاً، كان الرجل المثالي مثلما أرادت ساندي تذكيري.

وبعد ذلك توجهنا إلى حوض الاستحمام وتركنا الدش يسكب على رؤوسنا الماء البارد بشكل متقطع، وقد كنت على وشك أن أقترح عليه التفكير في عرض قريبي حول استضافتنا في بروكلين حينما دوت فجأة صفارة الإنذار الجوية، فانحنيت في حوض الاستحمام وغطيت رأس فحاول كندال طمأنتي وقال لي :"انظري إنه الضوء الأحمر، إنه مجرد اختبار".

منذ تلك الليلة قبل ثماني سنوات، أصابتني أصوات صفارات الإنذار بحالة من الذعر مثل صفارات سيارات الإسعاف والإنذار بالحريق، وتسارعت دقات قلبي كالعداء عندما يجتاز خط النهاية. داعبني كندال في قدماي وملابسي وسكب لي كوبًا من الماء وناولني مهدئًا من حقيبتي.

أسفل الدرج؛ نزلنا إلى المأوى المحصن في إكسلسيور، وقد كان النزلاء الآخرون أمامنا وخلفنا. ومن مشهد نزولهما البطئ متشابكي الأيدي، تبين أن الرجل بالغ السمنة والفتاة النحيفة ذات شعر الببغاء الأزرق رفيقان، بينما تذمر النزلاء الآخرين وشقوا طريقهم إلى الأسفل والضجر يملأ وجوههم؛ فقد كانوا يفعلون ذلك التدريب ثلاث مرات في الأسبوع، مثلما قال أحد النزلاء، حتى بدأت أدرك أنهم ليسوا نزلاء بل مقيمين على المدى الطويل في إكسلسيور.

بدا ما يسمى الملجأ المحصن مثل مطبخ القبو في قاعة سانت ديسماس المجتمعية: جدران مكسوة بالقرميد الأزرق، وأرضية بمشمع رمادي، وصفوف من الخزائن والأرفف يحفظ فيها الفندق الأغذية المعلبة، وبدلاً من وضعية "إحم نفسك" مثل الأيام القديمة، تجمهر المقيمون تجمهرًا مثيرًا للشفقة في الغرفة وهم يتشاجرون في هدوء مع موظف الاستقبال ذو العيون السمكية، إلى أن نادى صوت المكان آمن.

صعدنا الدرج إلى غرفتنا في حين ظل البقية في القبو يدخنون بانتظار القزمة تستدعي لهم المصعد العتيق. كانت ركبتاي ترتجفان عندما صعدت ستة طوابق، إذ لم ينقشع ذعري سريعًا من دوي صفارات الإنذار، وقد وصف لي طبيب الأسرة مهدئ الفاليوم لتخفيف وطأة الفزع، لكنني أحتاج إلى زيادة الجرعة كثيرًا كي تأتي بمفعول.

أبدلنا ملابسنا وخرجنا إلى شارع بليكر، بدا كندال وسيمًا جدًا وقال لي أنني جميلة. بحثت في قلبي عن السعادة وعندما لم أجدها، قررت التظاهر بها حتى أبتهج.

بجانب إكسلسيور، وجدنا مقهى يعلن عن وجبات طعام رخيصة وجيدة، وعشاء ديكسي، فدخلنا وجلسنا على طاولة مشمع ملونة لشخصين عند نافذة تطل على خليج، إلى أن جاءت النادلة مقدمة لنا قائمة طعام لامعة أمامنا ثم وقفت وصوّبت قلمها الرصاص تجاه دفترها استعدادًا لتلقي طلبنا.

حينما ترددت هل أطلب حساء البصل الفرنسية أو طبق فطيرة الدجاج، سمعت صوت وقوع الدفتر على الأرض يليه أزيز القلم أمام المنضدة.

"يا إلهي يا إلهي، لقد قال أنكِ ستكونين هنا اليوم!"

نظرت إلى النادلة لأول مرة، كانت ذات عيون سوداء وحجاب من الشعر الأسود الطويل، وقد استعصى عليّ تخمين عمرها، إلا إنها شابة مثلما ظننت في البداية رغم الخطوط حول عينيها والسواد والنحافة والإرهاق، اعتقدت إنها تحيا حياة شاقة، وخلافً لذلك، بدا وجهها شبيهًا لي على نحو مريب.

"ديبي"، قالت لي ذلك وهي تمسح دموعها.

ها أنا ذا عرفت النادلة الآن: إنها ليندا.

الفصل الثالث
سيدة الخوارزميات

فُرِشَت شقة داف وليندا الكائنة في مدينة ألفابيت بخردة تمثلت في الصمامات والبراغي والعدة وأنابيب النحاس والبطاريات وخوذة عامل اللحام، وشعلة موضوعة على منضدة من التيتانيوم وغيرها من محتويات غرفة المعيشة؛ والتي استنتجت أنها غرفة المعيشة من مقعد الحب المكسور الذي رُفِعَت إحدى أرجله باستخدام الموسوعة البريطانية الجزء من حرف الحاء إلى الميم؛ حيث سرقها داف من مكتبة نيويورك العامة لسُمكها، وقد بدت وكأنها جهاز تلفاز محمول متنقل، ولكني أدركت الآن أنه جهاز حاسوب مصمم يدويًا، ثمة مشهد غريب يتجسد في روبوت بلا رأس ذو أربعة أقدام يقفز كالخيل، وكانت أرجله متعددة المفصلات تقفز إلى أعلى وأسفل دون كلل أو ملل، وبعد بضع ثوان، استُبدِلَ الحصان بحيوان معدني عملاق غريب الأطوار يركض في الثلج على حافر القدم.

أوضحت ليندا: "إنها روبوتات عسكرية؛ إذ قال داف إن الجيوش لا يمكن أن تسير على حمض نووي متحول"، ثم تهاوت في إرهاقٍ أمام طاولة مزرية وأخرجت علبة سجائر من حقيبتها وأشعلت سيجارة بيد مرتعشة إلى أن أردفت: "كيف حال أبي وأمي وجدتي بيبي يا ديبي؟"

"ماتت جدتي العام الماضي".

بدا الحزن على ليندا وقالت: "يا إلهي، وآسفاه".

قلت في نفسي ومرارة الحزن تعتريني، نعم حقًا أنتِ آسفة.

قلت لها: "لقد قضى أبي وأمي حياتهما قلقان عليكِ حد الجنون، حتى إن جدتي بيبي قد استأجرت متحريًا للبحث عنكِ، وعندما لم ينجح هذا الأمر استعانوا بوسيط روحاني؛ إذ كانت أمي تأمل في تدخل إلهي".

وضعت ليندا وجهها في يداها وقالت: "لم أستطع العودة بعد حادثة أميشتكا، فقد كانوا يبحثون عنا".

جلست أمامها على كرسي بلاستيكي مكسور وسألتها: "من هم؟"

"أي إنهم الجميع؛ وكالة الاستخبارات المركزية، والإنتربول، ومأجورين شيبكو، وربما المخابرات الروسية اللعينة، على حد علمي، فهم قد يتظاهرون بالمحبة والتسامح مع منظمة السلام الأخضر؛ ولكن أي شخص يشارك بنشاط في الحركة يوضع في قائمة المراقبة"، ثم نظرت في عيناي وقالت: "لم يكن سهلاً عليّ أيضًا يا ديبي؛ فقد كان داف يظهر ويخرج من حياتي لسنوات، فكنت عندما آوي إلى الفراش ليلاً، لا أعرف هل سيكون هنا في الصباح أم لا، حيث يمضي معظم الوقت في قفزات زمنية إما إلى المستقبل في مختبر معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عام ٢٠١٩ لإجراء المزيد من البحوث، أو إلى الماضي في شيبمان كورنرز في الستينيات لمساعدة شخص ما على إنقاذ العالم على ما يبدو"، ثم رمقتني بنظرة ممتعضة عبر عتمة من دخان السجائر.

سألتها: "متى بدأتِ التدخين؟"

زفرت ثم دفعت علبة سجائر الميريتس إليّ، فهززت رأسي نفيًا بينما تابعت ليندا حديثها: "الجميع يدخنون في ألاسكا، وقد أقلعت عن التدخين قبل بضع سنوات عندما بدأت الغناء في الحانات، ولكن قبل بضعة أسابيع عدت مرة أخرى، نتيجة الإجهاد"، ثم توقفت عن الشرح وأردفت: "وما الذي يهم؟ فالعالم يقترب من نهايته".

سألها كندال: "من قال ذلك؟ أما زلتِ تصدقين هراء داف يا ليندا؟"

سقط الرماد من نهاية سيجارتها على كومة كبيرة من المجلات التي تمثلت في مجلة نيويوركر، وشقة العذوبية المتأرجحة Swingin' Bachelor Pad، والميكانيكا المذعورة Paranoid Mechanics، ومجلة تايم، ومجلة لايف، ومجلة لوك، ومجلة روك، والإيكونومست، ومواطنو العلوم Citizens of Science، ثم أجابت: "افتح عينيك يا كندال، فالصحافة تكتب عن أننا على وشك نشوب الحرب الشاملة والدمار المؤكد المتبادل، أو أنك لم تشعر بعد بمتعة التدريب على الملابس المضادة للإشعاع في نيويورك؟"

قلت لها: "لقد حضرنا تدريبًا في إكسلسيور، ولم نر بذلات مضادة للإشعاع رغم ذلك".

قالت ليندا: "الإكسلسيور! إنه مركزٌ غريبٌ، فهو فندق للملتوين. ماذا تفعلان هناك؟"

تجول كندال بقلقٍ في الشقة، وشق طريقه من بين الآلات. ومن الحمام ناداني قائلًا: "ديبي، تعالي شاهدي هذا".

تركت ليندا تدخن سيجارتها لأرى كندال، كان حوض الاستحمام متخمًا بالملفات اللولبية وأسلاك التوصيل النحاسية كتلك التي تذكرتها عندما كان داف يراهن كريسي.

همس كندال قائلاً: "إنه مخبأ داف للأسلحة السرية".

عندئذٍ ظهر صوتٌ من خلفنا يقول: "إنها ليست أسلحة، بل معدات".

استدرنا فرأينا داف واقفًا عند المدخل، وقد بدا وكأن قطارًا قد صدمه؛ إذ امتلأ جلده بالشامات والتقرحات وقشور الجروح، وصار هزيلاً وضعيفًا، وكأنه قد كبر عشرين عامًا في الثمانية أعوام الماضية، حيث بات يتوكأ بصعوبة على عصا خشبية.

لم يكن هناك ترحيبًا ولا تعجب مفاجئ ولا عناق التحية، كنت أعرف السبب أيضًا؛ فقد كان متوقع حضورنا.

وقال: "الملفات اللولبية ليست أسلحة يا أولاد، بل مجرد واجهة بين الأجهزة الميكانيكية من زمنك والأنظمة الرقمية الخاصة بي، فهي تصبح مستعدة للعمل حينما تحاول استخدام التكنولوجيا القديمة، تلك هي الطريقة التي جعلت بها صفارات إنذار الغارة الجوية تدوي لمدة طويلة، لقد برمجتها".

سأله كندال: "إذن لماذا كل هذه السرية؟"

تأوه داف عندما هوى بصعوبة على كرسي مكتب متأرجح، وقد أسند عصاه على ركبتيه، كان جلده في حالة متدهورة وكأنه سينزلق من وجهه.

وقـال: "لأن الملفـات اللولبيـة مسـموح بهـا فقـط فـي أيـدي الجيش والمجمـع الصناعـي اللـذان يعمـل لحسـابهما، وقـد كنـت تحـت مراقبـة الـرادار فـي شيبمان كورنرز حتـى أوصلني مصباحٌ سـاطعٌ إلى ملف لولبي مفقود من مختبرات بيل، حيث الاستخدام المبكر لقاعدة بيانًات مطابقة مع لوحة ترخيص عابرة للحدود؛ فقد كانوا يحاولون القبض على مهربين النبيذ والسجائر والوصول إليّ، من الواضح أنني سـأدخل كتب التاريخ، أتمنـى أن تكون قد تخلصت من سيارتي".

قال كندال: "لا تقلق لقد فكرنا في ذلك كثيرًا".

كانـت لينـدا تقـف خلـف داف الآن ويداهـا فـوق كتفيـه، كان كليهمـا يتهاويـان مـن الإرهـاق والإجهـاد، حيث بدت أذرع لينـدا نحيلـة وكأنهـا عصـا ممـدة، وانطفـأ وجههـا الجميـل فصـارت نحيلـة جوفـاء الخديـن وامـرأة تدخـن وتشـرب كذلـك.

قلـت بمـرارة: "سـيتطلب الكثيـر لإنقـاذ الكوكـب، أعتقـد أن إفزاع الجميع حتى التغوط على أنفسهم وكسر قلوب الوالدين كل ذلك لا شـيء".

قـال داف: "الأمـر لـم ينتهـي بعـد، فالملفـات اللولبيـة لـن توقـف انـدلاع الحـرب العالميـة الثالثـة، أنتِ يا ديبي من تستطيعين ذلك".

ضغـط علـى زر فـي حاسـوبه الشـخصي، فتحـول الروبـوت المحـارب إلـى الرمـادي ثـم اسـتطرد قائـلاً: "طلـب منـي معهـد ماساتشوستس للتكنولوجيـا تصميـم روبوتـات عسـكرية، وأحذيـة لا تبلـى أبدًا، صدقـي أو لا تصدقـي، مـا زالـوا يشـنون حروبًـا أرضيـة فـي المستقبل، لكني أريد قلب الآثار السلبية للتداعيات النووية كالتدهور البيئي والمجاعات، وكل الطفرات المثيرة للاشمئزاز التي تتكاثر بين

عامة السكان كالفطريات، فكيف مثلاً ستحبين إنجاب طفل يبدو معافًا وطبيعيًا، ثم يتحول إلى شيء كالخميرة بين عشية وضحاها في سريره؟ العيش في عالم مدمر بالأسلحة النووية يا أولاد غير ممتع على الإطلاق، لذلك الحل الوحيد هو مغادرة هذا الزمن الهالك والقفز إلى زمن أكثر أمانًا، ولكن أولاً يجب أن نعثر على مطارد الأيون".

سأله كندال: "ماذا تعني بحق الجحيم؟ ولماذا تعتقد أن زوجتي هي المعنية؟"

نظرت إلى كندال؛ إذ كانت عادته للإشارة إليّ "بزوجتي" تعصبني.

"على ما يبدو، أنكِ نسيتِ ما قلته لكِ حينما التقينا لأول مرة؛ فمطارد الأيون هو الشخص الذي لديه القدرة على جلب التاريخ إلى نهاية اللعبة وسحب جميع من فيه إلى بعد زمني آخر، تمامًا مثل لعبة المطاردة العالمية ذات المطارد. فكري فيها على إنها ملاحقة كل إنسان على الأرض في آن واحد وإخراجهم من اللعبة، إذا جاز التعبير؛ حيث ينهار جدولهم الزمني ويندمج كل من فيه مع أنفسهم البديلة في عالم موازٍ، فلن يدركوا ما حدث معهم إلا بشكل بسيط جدًا، ثم تبدأ اللُعبة مرة أخرى في بعدٍ زمني آخر، وكل واحدٍ يُحمَل إلى الزمن الآخر سيشعر كأنه يعيش فيه دائمًا".

سألته: "ولكن كيف عرفت أنني (هي ذا)؟"

"أجرينا حلولاً حسابية وشكّلنا بعض الطفرات على المستوى الخلوي الذي عثرت عليه من مسحة خدك حينما كنا في حديقة البلوتونيوم، وثمة شيء آخر"، ثم تردد داف، كما لو كان لا يريد الاستمرار.

حثته ليندا قائلة: "أخبرها يا داف".

ارتجفت مع اللمسة الباردة لوشاح القدر المعلق على كتفاي.

تنهد داف وقال: "لا يمكن للمطارد أن يوجد في الجدول الزمني المستهدف، لأنها إذا فعلت ذلك، فإن وجودها من شأنه أن يعرقل تدفق الزمن في البعد الزمني الجديد، ولا أحد يدري ما سيؤول إليه ذلك، في حين يحقق الآخرون تفرّدًا مع أنفسهم البديلة، وتبقى المطاردة مثلما كانت عليه في جدولها الزمني الأصلي".

"هل تريد قول أنني لن أكون موجودة بعد الآن لأنني لم أولد في بُعدٍ آخر؟"

تبادل داف وليندا النظرات، فشعرت حينها أن ليندا تريده أن يقول لي المزيد.

غمغم داف: "شيء مثل ذلك، سأقول لكِ الحقيقة، لا أعرف حقيقة ما ستفعله المطاردة لك".

"ولكن ماذا تريدني أن أَفعل تحديدًا؟"

بدا كندال منزعجًا من أن زوجته قد أخذت كلام داف على محمل الجد فقال :"ديب. ."

قال داف: "تعالِ معي إلى ٢٥٤ غرب شارع ٥٤، عند منتصف الليل، حيث سنلتقى مع زميلي جابرييل. إذا اتبعتِ يا ديبي تعليماته، سنستيقظ جميعًا غدًا في عالم أفضل".

ضحك كندال بسخريةٍ وقال: "دعونا ننتهي الآن، أريد ديبي أن ترى أي فنانٍ أحمقٍ أنت كي نتمكن من العودة إلى شهر العسل".

هـز داف رأسـه وقـال: "لا يمكنـنـا الفهـم حتـى منتصـف الليـل، ولـن نكـون مثل ذلـك بعدهـا".

سـألته: "مـاذا سـنفعل حتى الليل؟"

قال داف بقلقٍ بالغ: "سـنذهـب للتسـوق".

الفصل الرابع
تافهون رائعون

وصلنا إلى واجهة محل مفتوحة في شارع القناة، وقد اخترت بذلة ذهبية ضيقة، ووشاحًا من الريش وزوجًا من الأحذية الذهبية العالية التي تصل إلى الفخذين، في حين اختارت ليندا فستانًا لامعًا ورديًا بلاستيكيًا وحذاءً أرجوانيًا له نعل، وقد أخبرت كندال أنه في حاجة للأختيار من بين نقيضين؛ بذلة من ثلاث قطع- ويفضل الأبيض- أو سراويل قصيرة براقة للصالة الرياضية، وجوارب طويلة، وأحذية ركض ولا شيء غير ذلك. فاختار كندال البذلة، أما داف فقد وجدنا طقمه في متجر سالفيشن الذي يبيع السلع الرخيصة حيث ابتاع مشاعل في لوحة وقميص فضي لامع، وقد فقد الكثير من الوزن على مدى السنوات الثماني الماضية، وعُلّق اللحم الرطب بشناعة في أضلاعه الجاحظة، أخبرتني ليندا أنها أعراض مرض يصيب الجهاز المناعي يسمى الإعياء الزمني، ينجم عن المكوث في الماضي وقتًا طويلاً.

تخلصنا من ملابسنا الأصلية في سلة مهملات محل "سالفيشن آرمي" (جيش الخلاص) وقضينا بضع ساعات في العشاء، حيث تناولنا فطيرة واحتسينا القهوة، في حين استمرت ليندا في التدخين وأقنعت داف في لطفٍ بتناول الطعام، أما كندال فقد اختار شطيرة في النادي وهو غير سعيد.

في الساعة الثانية عشر والربع، توجهنا إلى موعد جابرييل الغامض، وقد ازداد صوت الهوت واير هوم علوًا أكثر من ذي قبل، وكلما مشينا أكثر، صار الصوت أكثر حدة؛ كأننا نتحرك صوب نقطة منبع الصوت.

سار داف وليندا أمامنا متشابكي الأيدي، وكلمني كندال هامسًا: "أهذا ما خططنا إليه يا ديب؟ السماح لهذا الأحمق بخطف شهر العسل؟"

"أواه يا كندال - أختي حالة ميؤوس منها، ولا يمكنني التخلي عنها الآن، يجب أن أقنعها بترك داف والعودة إلى شيبمان كورنرز".

لم يقل كندال شيئًا ومضى في طريقه يتطلع إلى كومة الروث المتلألئة في وسط مانهاتن ليلة السبت.

وفي ٢٥٤ غرب شارع ٥٤، التف طابورٌ حول بناية، وعندما وصلنا إلى نهاية الطابور، رأينا رجلاً عاري الصدر يرتدي سراويل ركض ساتان وجوارب طويلة وأحذية كرة سلة فضية ومشى نحونا، وكان بام بام.

"مرحبًا يا رفاق، لماذا لم تخبروني أنكما قادمان إلى ٥٤، أعمل هنا سرًا عندما كنت في المدينة، لذا أنتم غير مضطرين إلى الانتظار في الطابور مادمتم معي".

تبعنا بام بام وهو يشق طريقه أمام الطابور، فسمعنا اللعنات وتراشق بعض الزجاجات في أعقابنا، وعند المدخل وقف حارسٌ يرتدي حلة، ويحرس الحانة أمام سورٍ صغير من الحبل المخملي الأرجواني، وعندما رأى بام بام نظر إليه وقال: "أنت مجرد مساعد نادل يا بيب، أقصى عدد اثنين، فلتعرف القوانين".

"كن رحيمًا يا جيمي، إنهم ضيوفٌ من خارج المدينة".

"يا لها من صفقة كبيرة وسخيفة، كل ليلة نرى خلطة سلطة مختلفة"، ثم حدق فينا الحارس وقال: "أحب الفتيات الصغيرات ذوات المؤخرة المثيرة في اللباس الذهبي، والأكبر سنًا قليلاً نحيلة وقذرة، ما دهاها بحق الجحيم، والرجل الكبير ذو العصا، هل تمزح يا صديقي، لما لا تذهب للفحص في المستشفى؟ ومن هذا الرجل الأسود ذو اليد التي تبدو كسرطان البحر ويرتدي حلة بيضاء؟ لا أعرف ما هذا"، ثم هز جيمي يده مثلما كانت تفعل جدتي بيبي وأردف: "لديّ عدد قليل من بسكويت الأوريو هناك، لا أريدهم".

اقترب إليه كندال وثنى يده السليمة وقال: "بماذا نعتني؟"

وقف خلفنا مجموعة من الناس يرتدون قبعات صلبة وقمصان رسم عليها نقطة هدف كُتِبَ عليها: سددي علينا يا سكاي لاب، ينتظرون بنفاذ صبر إلى أن هتف أحدهم في غضبٍ: "إما أن تدخلوا أو تذهبوا، خذوا قراركم بسرعة أيها الحمقى".

قال الحارس: "اذهبا يا فتيات مع بيب مثلكم مثل أي شخص آخر، إلى اللقاء".

وضع داف يده فوق كتف كندال وسأله: "هل معك ستة دولارات؟"

أزال كندال يد داف وسحب محفظته وأعطى الحارس رزمة من المال، كنت واثقة من أنها كل المال الذي نملكه.

"هذا يكفي لأربعتنا".

دس الحارس مجموعة من الفواتير في جيب كندال وأنزل الحبل المخملي وفتح بام بام الباب، حتى تسللت نبضة من الضوء المتوهج وانتشرت دقات أغاني فريق آرسونت على الرصيف.

نخر الحارس وقال: "حسنًا أيها التافهين الرائعين، ادخلوا".

دخلنا إلى مدخل اصطف بتماثيل رخامية كاملة من الآلهة اليونانية الرومانية، كانت الخصيتان المتضخمتان تتدلى عند مستوى العين، وفي الأعلى تدلت ثريات كريستالية كحليمات النوازل، وقد امتدت زرابيّ فخمة على الأرضية المنزلقة كاللسان الرطب الطويل حتى أحسست أني مثل دوروثي وهي تدخل نسخة متدهورة مع أوز، وكندال الأسد، وليندا الفزاعة، بينما داف الذي بجانبي رجل القصدير.

واصلنا السير على السجادة الحمراء حتى وصلنا إلى قلب النادي، كانت غرفة رخامية بحجم الحظيرة تكتظ بالريش والجلود وقطع اللحم؛ الكثير من اللحم، وقد فككت الأضواء القوية الحشد إلى خليط من أجزاء الجسم؛ قبضات وأذرع، وصدور وسيقان وأفخاذ، وكانوا يتراقصون على الإيقاعات الرباعية في الملهى.

شققنا طريقنا عبر الحشد الذي تفوح منه رائحة العرق، وأقدامنا تركل غيوم البرونز حتى بدا الأمر كاجتياز غبار نجمي بصعوبة.

جذب داف بام بام من ذراعه وهتف قائلاً: "أين الغرفة المطاطية؟"

أشار بام بام إلى الممشى الضيق بأعلى غرفة الرقص ثم قال: "الطابق العلوي، إنه لكبار الشخصيات فقط".

قـال داف: "أحـد مـا ينتظرنـا، خذنـا إلـى الطابـق العلـوي يـا صديقـي".

لـم يمنعنـا أحـد مـن صعـود السـلم الحلزونـي لعبـور المنصـة إلى باب أشبه بالزنزانة، وقد ربطت حلقة حديدية ثقيلة في منتصف الباب الجلدي الأسود، نظرت إلى أسفل على رؤوس الحشد وهي تهتز مثل الموجات تحت طابق الممشى الحديدي. قبض داف ذراعي بقوة وإحكام وحماس شديد، لكننـي لـم أزعجـه. فثمـة شـيء هنـاك لا مفـر منـه سيُتكشّـف. أردت أن أرى مـا سـيحدث بعـد ذلك.

قـال داف: "هـذا هـو المـكان الذي ستتركنا ديبي منـه. غابرييل ينتظرها في الداخل".

قبـض داف الحلقـة الحديديـة وبـدأ يفتـح لـي البـاب، غيـر أن كنـدال قـد أغلـق البـاب مـرة أخـرى بقـوة.

"لن تذهب ديبي إلى أي مكان من دوني".

قال داف: "لا يمكنك أن تكون جزء من ذلك يا كندال".

أردت أن أقـول لكنـدال أننـي سـأكون علـى مـا يـرام بمفـردي، وأنـي سـأعود إلـى مـرة أخرى عندما أنتهي من إنقـاذ العالم، ولكن قبل أن أتفـوه بـأي شـيء، دفـع كنـدال داف مـن صدره حتـى اندفع نحو حافة الممشـى بذهـول، وقـد رفـع داف ذراعيـه فـي محـاولة لاسـتعادة توازنه، ولكن قبل أن نساعده اصطدم بقوة بالدرابزين الحديدي الذي انكسر بـه فسـقط داف صـوب حلبـة الرقص.

صـرخ الحشـد، وتدحرجـت عصـا داف تحـت أقـدام لينـدا التـي تجمـدت في مكانهـا واضعـة يداهـا فوق وجههـا.

لم يصل داف إلى حلبة الرقص قط، رغم أنني شاهدته وهو يتهاوى إلى أسفل وكان وجهه يحدق فينا في ذهول، وقبل أن أصرخ محذرةً الحشد بالأسفل، اختفى داف؛ كما لو كانت هناك يد خفية قد التقطته من الجو، مثل الملاك مايكل وهو يمسك ألدا الجميلة.

أربكني الديجافو، فقد كنت بالفعل مع داف وهو في ذروة سقوطه، في أراضي زي عام ١٩٦٩ ، وقد هبط على سطح حافلة مهجورة صفراء يذوب من الإعياء الزمني.

فتح بام بام الباب الجلدي الأسود سريعًا وقال: "بحق الجحيم ادخل هنا قبل أن يتصلوا بالشرطة، وإلا سيقتلونك يا كندال".

أمسك كندال يدي ودخلنا ركضًا إلى الغرفة فانغلق الباب وراءنا محدثًا جلجلة مكتومة تلاه صوت هسهسة وكأن منفذ الهواء قد انغلق.

كان الهدوء غير طبيعي؛ إذ لم نعد نسمع الموسيقى والأصوات في الأسفل، حتى دوي الهوت واير هوم قد توقف، مما يعني أن أي شيء يحدث في تلك الغرفة يجب أن يكون في صمتٍ وهدوءٍ تام.

كانت الجدران منجدة بالمطاط الأسود، وفي أحد الأركان وجدت بارًا رطبًا متخمًا بزجاجات الخمور، وفي ركن آخر؛ نصب إصيصٌ لنبات التين البينجاميني الأخضر الذي نما على طول الحائط، إلى جانب فراش مستدير وثير مخملي وسط الغرفة وضع أمامه جهاز تلفاز شاشته بيضاء لا تعرض شيء ولكنها كانت متوهجة.

قلت مبدئيًا: "جابرييل".

وفجـأة عـادت شاشـة التلفـاز إلـى الحيـاة، لقـد كان نمـوذج اختبار، ظهر عليه رمز طاووس إن بي سـي (المجلس الوطني للبث).

قال صوتٌ: "برجاء الجلوس".

نظرنا أنا وكندال إلى بعضنا ثم جلسنا على الفراش المخملي في مواجهة التلفاز.

قال الصوت: "انظرا، هذا ما سيحدث غداً".

الفصل الخامس
زاوية في الوقت المناسب

بدأ بالطريقة التي كانوا دومًا يخبروننا عنها؛ بانتحاب نظام بث الطوارئ الذي يشير إلى بداية نهاية العالم، وقد جلس مذيع الأخبار في استوديو إن بي سي في مكتب خشبي ممسكًا بإحكام ورقة في يده وهو يذيع ما يلي: "اليوم الثاني من يوليو عام ١٩٧٩، في الساعة الثالثة صباحًا بالتوقيت الذري، تحطمت محطة ناسا الفضائية وسكاي لاب، وسقطا إلى الأرض في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، مع أجزاء كبيرة من الأجسام المتطايرة وهي تتحطم في مجمع الكرملين مسببة خسائر فادحة في الأرواح، وقد اعتبر السوفييتيون هذا عملاً حربيًا غير مبررًا من الفضاء، فأطلقت قذائف تسيارية عابرة للقارات في دول الناتو وتشمل الولايات المتحدة الأمريكية وسيادة كندا والمنطقة الصناعية في كانوسا".

توقف المذيع وفرك عينيه قبل أن يقرأ عناوين الملاجئ المحصنة في جميع الأقسام الإدارية الخمسة، حيث ذكر أن جميع قطارات الأنفاق قد توقفت والركاب بداخلها، وأن على أي مواطن من نيويورك يسير في الشارع أو في مكان عمله بعيدًا عن الملاجئ سرعة التوجه فورًا إلى الأنفاق، وأن من يملكون البذلات المضادة للإشعاع يجب أن يتبرعوا بهم الآن مع الوضع في الاعتبار أن فعاليتها الحقيقية في التصدي للهجوم النووي لم تُختبَر.

هذا وارتجفت يد المذيع وسطع شيء على جبينه إثر صوت انفجار عالٍ أفزعه حتى طارت النشرة من فوق مكتب الأخبار وسقطت على الأرض واهتزت الصورة التلفزيونية.

دون قراءة أي شيء، بدا المذيع كأنه ينظر إلينا أو ربما إلى المصور الوحيد الواقف أمامه وقال: "إذن هو ذاك، أهذا كل ما يمكننا القيام به؟"، سمعنا صوت المصور وهو يجيب أنه لم يتلق أي تعليمات أخرى ومن الأفضل لهم ارتداء البذلات المضادة للإشعاع.

"أوه يا إلهي".

تحولت الشاشة إلى اللون الأبيض.

أمسك كندال يدي بقوة وقال مرددًا كلمات المذيع: "إذن هو ذاك، إن غدًا نهاية العالم".

"مثلما تعرف، انظر".

ملأت صورة مهزوزة الشاشة لامرأة تحمل ميكروفونًا بكلتا يديها وتنحني كما لو كانت تتوقع أن ينقض عليها شيء من أعلى، وقد تدلى ما تبقى من شعرها الذهبي كالشمس على وجهها كالشرائط، وظهرت جروح تنزف دمًا من فروة رأسها، وقد لَطخ فستانها فحم من الغبار النجمي من كتفها إلى خصرها، وسقطت قطعة من القماش من على إحدى ثدييها ككعكة السوفليه المنكمشة، حيث سُحِقَ صدرها وجزء من كتفها كذلك. تساءلت في نفسي كيف استطاعت الوقوف؟ إذ لم أرى من وجهها إلا قرح وحروق مثل داف. كان هناك أحد يتحدث معها، وهو المصور الذي يصورها فيديو.

قال لها الرجل: "تحدثي معي يا سالي، استمري في الحديث إنكِ تبلين بلاءً حسنًا، لم يتبق المزيد من الوقت".

فتحت المرأة فمها وأغلقته عدة مرات قبل أن تقول بصعوبة: "لقد رأيتهم جميعًا يموتون في مترو الأنفاق، واخترق البحر المضخات، فخرجت مع الطاقم، ورأيت المنتج يطفو فوق قضبان مترو الأنفاق، وقد تمزقت نصف بذلته المضادة للإشعاع".

قال المصور: "البذلات المضادة للإشعاع لا تفعل شيئًا".

اصفر وجه سالي ورفعت يدها لتمسح عيناها، فظهرت أوتارها خلف ذراعها حيث تقشر جلدها. لقد كانت تتفكك.

"لا أستطيع".

قال الرجل الآن راجيًا إياها: "إنكِ بطلة يا سالي، أرجوكِ تحدثي معي، قبل أن تنفذ البطاريات".

فقهقهت سالي فجأة، كانت تفقد صوابها.

"إننا نموت جميعًا، فمن يعبأ بالبطاريات؟"

أجابها: "علينا توثيق الأحداث، تماسكي وتذكري من أنتِ".

أخذت المرأة نفسًا بطيئًا مرتعشًا واعتدلت في وقفتها قليلاً، حتى بدت جروحها الآن واضحة للعيان. كانت غاية في الفظاعة".

"نحن في نيويورك، الثاني من يوليو عام ١٩٧٩، نسجل في الحديقة المركزية، إذا عثر أي شخص على هذا الفيديو برجاء مشاهدته".

وقد خطت مبتعدة عن نطاق الكاميرا، فبدت الحديقة الآن واديًا من الدخان، وقد تناثرت على الأرض الأشلاء من أذرع وأرجل وجذوع بلا رؤوس وبذلات مضادة للإشعاع ممزقة وملتوية وقد ذابت في الأجسام التي يفترض أنها تحميها، ولكن ما حدث فاق فاعليتها، وقد لمع توهج بلون البرتقالي الغامق في السماء، ومن على بعد ملأت الكشافات الأفق مثل كابوس اليقظة الذي رأيته في طفولتي بعد استئصال اللوزتين.

سألت: "لماذا الأنوار؟ عما يبحثون؟"

"علامات للحياة أو علامات عن المزيد من الهجمات. من يعرف؟ إنهم غير واثقين من أنفسهم، أو ربما بقايا مُوَلِّد، إذا سألتينني، سأقول أنه كان وقتٌ مربكٌ للغاية، أقصد سيكون كذلك".

سألته: "ماذا حدث لسالي؟"

"لا أعرف حقًا، فسالي ليست حالة خاصة، بل هي مجرد مراسلة تحتضر، إنها واحدة من ملايين الجرحى السائرين، ربما ستفعل لها صديقتها جميلاً وتنهي حياتها، فالإصابة بالإشعاع هي موتٌ غاية في البشاعة، وأؤكد لكِ أنه لن تمر هذه الليلة بسلامٍ".

سألته: "هل علينا أن نشاهد المزيد؟"

قال الصوت: "لقد أردت أن أعرفك فحسب لماذا يتعين عليكِ تغيير التاريخ".

أشار كندال قائلاً: "لكن تغيير التاريخ سيسبب جميع أنواع الاضطرابات غير المتوقعة في البعد الزمكاني".

قال الصوت بنبرة استمتاع: "كيف عرفت ذلك؟"

قاطعتهما قائلة: "الجميع يعرف ذلك، تلك هي القاعدة في قصص التنقل عبر الزمان: لا تغير أي شيء وإلا سيتكشف الأسوأ".

رد الصوت: "ثمة استثناءات، أيًا كان الشيء الذي سيأتي لملء الفراغ في الزمن، فلن يكون مثل الحرب النووية".

أعدت النظر إلى التلفاز، فرأيت صورة سالي قد تثبتت على الشاشة قبل أن تختفي، وقد عكست الشاشة الفارغة وجهي أنا وكندال في ملابس الديسكو الغبية ونحن جالسان على حافة السرير، بدا كلانا في حالة ذهول.

"واحد منكم غير مطالب بالمهمة، إنها مهمتها ومهمتي فقط نحن الاثنين".

نظرت إلى كندال وتساءلت عما إذا كان داف محقًا، لربما أفسد الأمور باندفاعه معي.

قال كندال: "سأبقى مع المرأة التي أحبها".

قال الصوت: "إنك تتعامل مع شيء أقوى بكثير من الحب".

رد كندال: "هناك واحد قوي للغاية وسلاحه الوحيد هو الحب". عرفت أن هذا اقتباس من قصة المتزلج الفضي التي قرأناها عند متجر كريسي حينما كنا أطفالاً.

كان هناك صوت حفيف في الغرفة، كما لو كان النسيم قد بدأ يطل، وسمعنا صوت أوراق نبات التين البينجاميني وهي تهتز بشراسة وقد زاد سمكها وتدفقت من الإصيص نحو الأرض، وكان النبات ينمو سريعًا، مثل أفلام ديزني عن الطبيعة، حتى خرجت ساقها المركزية من الإصيص المغبر وانتقلت نحونا، باتت تتحول إلى شيء بدا مثل الإنسان تقريبًا؛ رجل جسده مغطى بالطحالب يزحف معها، ولم يكن طحلبًا؛ بل عفنًا.

شاهدنا أنا وكندال النبات الأرضي وهو يتحول إلى جسد يتلاحم مع البذور الخضراء ويتحول ويعيد ترتيب نفسه حتى صار أخيرًا شيئًا طبيعيًا.

أضحى رجلٌ يحمل حقيبة.

بدا مألوف؛ إذ كان ذو شعر أسود مجعد، وأكتاف عريضة، وعيون سوداء، يتأنق في حلة، وقد فتح ياقة القميص لإظهار السلسلة الذهبية؛ التي كانت ذات قيمة قليلة وفقًا لمعايير عام ١٩٧٩، لم يبد كهؤلاء الهوائيين في الدور الأرضي الذين يرتدون الريش والجلد والمطاط، بل كان من نوعية الشباب الذي يُتوقع أن تجده عند طاولة النرد في الحانة يحتسي شراب المانهاتن ويقرأ صحيفة وول ستريت.

لقد كان بوب المصارع الذي نمت معه ليلة.

سأله كندال: "هل أنت جابرييل؟"

هز كتفه وقال باسمًا: "ناديني بما شئت فجابرييل اسم رمزي، إذ يحب الزملاء من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا الأسماء المستعارة، فهي تجعلهم يشعرون بالغموض والسرية، وأنا الشخص الوحيد القادر على رفع كل وزن ثقيل"، ثم حطم قيوده وسوى ياقته.

سألته قائلة: "هل أنت ملتوي؟"، إذ تذكرت ما قاله داف عن المتحولين.

قال جابرييل متجهمًا: "بل استثنائي، فكلمة ملتوي كلمة هجومية للغاية".

أجبته: "أوه، لم أقصد الإهانة".

لوح جابرييل بيده قائلاً: "وأنا متسامح نظرًا لأنكِ من زمن لا يعرف ذلك يا ديبي، ولنترك الماضي لحاله ونبدأ".

لم يصدق كندال ذلك فمسك يدي ونزعني من فوق السرير وهو يقول: "أي شخص يمكنه إلقاء ممثل درجة ثانية لتقديم فيلم رعب على شاشة التلفزيون، لقد خُدِعنا، لنعد إلى الفندق يا ديبي".

جلست ثانية وقلت لكندال: "يمكنني التفكير بنفسي يا كندال".

شعرت أننا نتحول حقًا إلى كايل كروشير وكونتيسينا، ومثلما هو الحال دومًا، كان كايل كروشير هو من يتخذ جميع القرارات.

وقبل أن يجادلني كندال، سوّى جابرييل الأمور، فوقف عند البار، وسكب لنفسه نبيذًا خففه بالماء وهو يقول: "لقد فات أوان المغادرة الآن".

قال كندال محذرًا: "لا تحاول أن تمنعنا الآن".

هز جابرييل رأسه وقال: "لن أحاول، ولكن الغرفة لن تسمح لديبي بالمغادرة".

نظرت حولي فرأيت الباب الجلدي المبطن قد استبدل بآخر مطاط أسود غير محطم، كنا في مكعب مغلق.

سألته: "هل تمزح معنا؟"

عبس جابرييل وهز رأسه مرة أخرى قائلاً: "لا أستطيع البقاء هنا أكثر مما يمكنك، فعقارب الساعة الذرية دقت حتى منتصف الليل ثم توقفت، ونحن نجلس في الزاوية في الوقت المناسب، وقد توقفت كل ساعة على الأرض لحظة دخولك هذه الغرفة، والزمن لا يمكن أن يرانا، لذلك سنغير التاريخ تغييرًا كبيرًا لدرجة أننا سنحدث ثقبًا في البعد الزمكاني، والجدول الزمني الذي نعيش فيه سينهار،

والمطارد الذي هو أنتِ يا ديبي سيوصلنا إلى التوقيت القياسي الأرضي حيث سيندمج كل واحد منا مع نفسه البديلة للعيش في هذا البعد الأكثر سلامًا، وعندما تغادر هذه الغرفة، ستشعر كما لو كنت قد فقدت الوعي لجزءٍ من الثانية، وفي الوقت نفسه، قد تمكث هنا لساعات أو لأيام أو ربما لعمرٍ".

سألت: "لماذا يجب أن يكون العمر ضروريًا؟"

"لأنكِ بحاجة إلى التدريب، إذ كل ما تفعلينه يجب أن يصير ذاكرة عضلية؛ فالتوقيت الذري على شفا نهاية الحياة الطبيعية وبداية مستوى من المعاناة فوق ما يمكنك تخيله، ولهذا لن نترك شيئًا للصدفة، وبمجرد أن تصيري في سكاي لاب، سنسرع".

سألته: "وماذا ستفعل سكاي لاب؟"

***

التقط جابرييل جهاز التحكم عن بعد وقال: "آه، انظر يا صديقي، داف يلعب بالأوراق مقربًا إياها من صدره، لنشاهد التلفاز قليلاً".

عاد التلفزيون إلى الحياة وقد ظهر موضوع مبهج عن "مسيرة التقدم" مثل عالم ناسا عن أفلام الغد من طفولتي، وقد كتب على الشاشة الصغيرة: "سكاي لاب: مميزات فنية لأول محطة فضاء أمريكية بشرية"، وقال صوت عميق: "مرحبًا يا أولادا لنتعرف اليوم على أنظمة الطيران والملاحة من مختبر ماكدونيل دوغلاس

للمـدارات الفضائيـة المعـروف باسـم إسـ إل آي أو سـكاي لاب".

لـوّح لنـا رواد الفضـاء الكرتونيين من خـارج المحطة الفضائية، وقد وجدت الشـراع الشمسـي المألـوف الـذي رسـم مـع الوجـه الباسـم لسباركلنج سبارو الذي يقول: "يومًا سعيدًا".

لسـت متأكـدة كـم مكثنـا فـي الغرفـة، حيـث شـعرت كمـا لـو عدنـا إلـى مرحلـة الطفولـة ونحـن نشـاهد أنفسـنا علـى شاشـة التلفـاز فـي عرض رسـوم متحركـة بعنـوان "ديبـي الصغيـرة والطفـل كنـدال". اعترف جابرييل بأن هذا الحنين الشـامل للطفولة كان جزء من خطة رجـال معهـد ماسـاتشوستس للتكنولوجيـا، فهي طريقة رائعـة لتوصيلنا سـريعًا إلـى أنظمـة سـكاي لاب الهندسـية والملاحيـة فـي زمن قياسـي؛ إذ أن دمـاغ الطفـل تفـوق دمـاغ الكبـار فـي المرونـة وأكثـر قـدرة علـى استيعاب المعلومـات سـريعًا، خاصـة عندمـا تُقَدَّم فـي رسـوم كرتونيـة كتلك الرسـوم التـي اعتدنـا أنـا وكنـدال الاطـلاع عليها صباح كل سـبت فـي شـيبمان كورنـرز.

وقـد قسّـم الكرتـون المهمـة إلـى سلسـلة مـن الخطـوات وهـي: الإصلاحـات الفنيـة الأساسـية، وإعـادة برمجـة الأنظمـة الملاحيـة، والأصعـب مـن ذلك كلـه: إعـادة ضبـط وضعيـة الشـراع الشمسـي الذي تحتـاج إليـه سـكاي لاب للحصـول علـى الطاقـة، وهـي مهمـة تسـتلزم المشـي فـي الفضـاء ممـا أثـار حماسـي كثيـرًا، وأخيـرًا؛ بعـد سـاعات أو أيام أو علـى حد علمي عمرًا، بدأت تترات النهاية تظهر على الشـاشـة، فوقـف جابرييـل مسـتقيمًا.

"لقد تعلمتما بالقدر الكافي، وهذا نوع مختصر من زرع الدماغ، وليس لديّ المهارات الكافية لذلك، والآن حان وقت القفز".

من داخل البار الجلدي، أخرج جابرييل بذلتان طيران وخوذات، ثم حقنتان من حقيبته.

عندما ارتدينا أنا وكندال بذلات الطيران سألت جابرييل: "أهو فيلم الرحلة الرائعة The Fantastic Voyage؟ هل تطلق مركبة فضائية صغيرة إلينا؟"

قال جابرييل: "ليس ببعيد"، وهو ينظف خلف ذراعي بقطنة واستطرد: "سأحقنك بدفاعات كَمّية متناهية الصغر، وهي روبوتات صغيرة تحول جسمك مؤقتًا إلى صاروخ عضوي، فالقفز عبر الزمان والمكان رحلة داخلية أكثر من خارجية يسميه رجال معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا "قطة شرودينجر المتأرجحة"، فأنتِ على وشك أن تكوني في مكانين في آن واحد؛ هنا وعلى سكاي لاب، سأفعل ذلك معكما ثم مع نفسي، وإذا وجدتما نفسكما بمفردكما في ورشة عمل سكاي لاب، لا تقلقا، سأكون في طريقي إليكما".

رقدنا أنا وكندال مرة أخرى على الفراش متشابكي الأيدي وأنا أراقب الحقنة وهي تخترق تحت جلدي بسلاسة إلى الوريد، مع وخزة ضئيلة من الخوف، ثم أدخلت ذراعي إلى بذلة الطيران وأغلقت السوستة.

أدار كندال وجهه إليّ مبتسمًا عندما أعطاه جابرييل الحقنة، وقال لي: "أحبك".

لم يكن لدينا وقت حتى للقبلة.

***

استيقظت لأجد نفسي مقيدة إلى كرسي، وأنا أحدق من خلال قبة خوذتي إلى إكليل الشمس التي بدأت تشرق فوق الأرض الكروية، وكأنك مِتَّ ثم فتحت عينيك لتجد العالم الآخر في السماء. كانت ورشة عمل سكاي لاب خالية، وقد عامت أجزاء وقطع من المختبر من حولي من فرجارٍ هنا ومشرط هناك وأطباق بتري المعلّقة في الجو كالصواني الزجاجية الصغيرة. كنت لوحدي في محطة فضائية في مدار متهالك حول الأرض ارتجف من الرعب أو الإثارة أو ربما من كليهما.

وبعد بضع ثوان، كان جبريل بجانبي، مثلما وعدني.

"أين كندال؟" سمعت صدى كلماتي في أذني عبر الراديو الذي بداخل خوذتي، وقد رأيت نصف وجه جابرييل مستلقيًا على الكرسي، وعين بنية واحدة مثبتة عليّ.

"لن يأتي، لقد كذبت عليكِ".

حاولت أن ألقي نفسي على جابرييل متناسية أنني مقيدة في مكاني، وقد لوحت بيداي في حركة بطيئة كأنني سأخنق جابرييل.

"أيها السافل اللعين، ماذا فعلت بكندال؟"

"اهدئي إنه آمنٌ سالمٌ على الأرض التي ينتمي إليها، ونائمٌ إثر المهدئ الذي أعطيته له، كي يتسنى لي إخراجه من بذلتي، فقط أنا وأنتِ من أخذا الدفاعات متناهية الصغر"، ثم فك قيوده وقيودي، فوجدتنا نعوم في ورشة العمل المنعدمة الوزن.

رفعت يدي لأمسح دموع الغضب التي انسابت من عيناي، وبدون تفكير ضربت خوذتي من الأمام، لم أرد شيئًا أكثر من توجيه لكمة مباشرة من خلال خوذة جابرييل إلى وجهه الملتوي. جذبني إلى ذراعيه مثل عناق الدببة الأخرق، كنا نعوم سويًا حينما اقتربت منه.

صرخت في سماعة رأسي حتى طارت خوذتي قليلاً أمام خوذته: "هل هذا بسبب تلك الليلة؟"

فزع جابرييل عندما ارتد صوتي حول خوذته: "لقد شدد رجال معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا على أن تلك الرحلة لاثنين فقط، أنا وأنتِ، لا شيء شخصي يا ديبي".

"لا شيء شخصي؟" وجهت لكمة إليه ولكنها لم تصله، فأمسكت فرجار عائمًا في المعمل وحاولت أقذفه إلى رأسه، لكن بذلة الطيران كانت مغلقة بإحكام، فأعاقتني عن رمي الفرجار بالقوة الكافية. ابتعد جابرييل سريعًا عن مسار القذيفة التي تتحرك ببطء.

"اهدئي، وتذكري أن لدينا مهمة علينا القيام بها وهي إنقاذ الأرض".

نظرت إلى حيث أشار جابرييل، نحو الكرة الأرضية الزرقاء التي تتلألأ بالأبيض والأزرق وسط ظلام الفضاء الدامس، حيث يعيش كندال هناك مع جميع من أحب.

أشار جابرييل: "إنه خطأ كندال؛ فقد كان يحرص عليكِ بعناد".

ظللت أبكي وألقي نفسي على جابرييل حتى أمسكني من معصمي وأردف: "انتبهي، وددت الاستمرار في الحديث عن حياتك العاطفية، ولكننا في محطة فضاء تحتضر، تتقدم بقوة نحو الأرض، ليس لدينا وقت".

حاولت أن أمسح المخاط الذي انساب من أنفي وضرب نفسي على الخوذة مرة أخرى، فأخرجت لساني ومررته على شفتي العليا وقلت: "حسنًا، دعونا نبدأ، سأقتلك لاحقًا".

من سكاي لاب: إذا نظرتم إلى صور ناسا القديمة التي التقطها رواد الفضاء الذين كانوا على متنها - كانوا جميعًا رجالاً، إلى أن جئتِ - بدوت قليلاً مثل سفينة تحت شراع- وقد وجدت شيئًا شبيهًا بالطاحونة على سطح المحطة الذي كان في حقيقة الأمر تلسكوبًا قويًا هائلاً.

كان الشراع الشمسي على سكاي لاب دائمًا يمثل مشكلة، حيث أذكر أنني سمعت عن تحطمه عندما أُرسِلَتْ المحطة الفضائية لأول مرة إلى المدار على صاروخ زحل الخامس الذي بُنِيَ أصلاً لبعثة أبولو١٨، وقد أرسِلَ رواد الفضاء في مهمة المشي في الفضاء غير المخطط لها لجعل ورشة عملهم صالحة للسكن، ومع كسر الدرع الحراري، استخدمت وكالة ناسا مظلة باراسول رديئة، حيث نشرها رواد الفضاء لخفض حرارة مختبرهم الداخلية إلى مائة درجة فهرنهايت صالحة للعيش، والآن سنقوم أنا وجابرييل بالمثل لإعادة برمجة المحطة لآخر انفجار يبعدها عن الأرض ويجعلها تخترق الفضاء أكثر كي تطفو في مدار دائم مع الأقمار الصناعية الأخرى الميتة، بما في ذلك تلك الأقمار التي شاهدتها من تلسكوبي من حديقة منزلي الخلفية مثل فانجارد وسبوتنيك وتيلستار الأول والثاني والكثير غيرهم، فهناك أسطول من الخردة الفضائية تطفو عاليًا فوق الأرض.

ولم تكن نظم دعم الحياة جاهزة للعمل في محطة الفضاء المعطلة، ولكن هذا لا يهم، فمعظم عملنا سيتم في الخارج وليس في الداخل.

تحمس كندال كثيرًا حينما سمع عن المشي في الفضاء. حاولت ألا أبكي في خوذتي عندما تجهزت للدخول إلى غرفة منفذ الهواء للعمل في المجموعة الشمسية وإرسال سكاي لاب لمكان أعمق في الفضاء، بعيدًا عن الأرض، وهكذا، شققنا طريقنا أنا وجابرييل ممسكين الدرابزين إلى الشراع الشمسي.

علقنا في العدم على بعد مائتين وسبعين ميلاً بحريًا فوق الأرض، وكأننا نبحر حقًا في الفضاء، وقد التصقت في الدرابزين ونظرت طويلًا إلى قارات الأرض، والقمر المعلق كالكرة المطاطية، وأضواء النجوم المحددة الدقيقة، حيث لم تكن تتلألأ هنا مثلما نراها على الأرض، بل يشرقون بكثافة رائعة.

همست قائلة: "لقد فعلتها يا كندال".

قال لي جابرييل مذكّرًا: "لدينا مهمة علينا تأديتها يا ديبي، أعرف أنه مدهش، لكن ليس لدينا وقت للمشاهدة"، ثم فتح بعدها علبة أدوات وأخرج منها ملف لولبي.

قال جابرييل: "تأتي البراعة حينما يكون لديكِ نظامًا يتعين عليكِ تجاوزه؛ إذ ظل داف يعمل على تطوير تكنولوجيا القرن العشرين القديمة لسنوات، والآن تعرفين السبب".

كان العمل أسهل مما توقعت، مثل إصلاح الشراع على متن قارب وأنت تعوم تحت الماء، أو ربما بدا الأمر سهلا لأنني أمضيت

فترة التحضير في الغرفة المطاطية أمارس الإجراءات حتى صارت جزءًا لا يتجزأ مني؛ أي صار ذاكرة عضلية، دلفنا أنا وجابريل إلى غرفة منفذ الهواء مرة أخرى ثم إلى المعمل الرئيسي لإعادة برمجة مدار سكاي لاب. وفي أثناء عملنا، نصحني جابرييل نصيحة مهمة تتعلق بالسلامة؛ وهي نظرًا لأنني لم أكن موجودة سابقًا في التوقيت القياسي الأرضي، أحتاج إلى توخي الحذر للحفاظ على كتلة الجسم نفسها وزيادة أو نقصان بعض الأونصات فقط.

"يندمج الناس الآخرون مع أجسامهم فقط في البعد الآخر، أما أنتِ فليس لديكِ فراغٌ لملئه، لذا بمجرد أن تقفزي إلى التوقيت القياسي الأرضي، تأكدي أنكِ لم تخسري أو تكتسبي وزنًا، وإلا ستضررين من ذلك".

"وكيف ذلك؟"، أردت معرفة السبب.

"إنه ضارٌ على أعضاء جسمك التي قد تذوب".

وأوضح جابرييل أيضًا أننا سنعود إلى الغرفة في نيويورك حيث بدأنا، وقد توقعت أن أجد كندال هناك، نائمًا على الفراش المخملي المستدير، أو جن جنونه حينما يعلم بفقدان مغامرة العمر، أو ربما جالس فحسب في حانة ستوديو ٥٤ يطلب نبيذ السكوتش، ولكنه سيتجاوز ذلك، وسننهي شهر العسل ونعود إلى كانوسا ونعيش معًا بقية حياتنا.

كانت العودة إلى زمني ومكاني أمرًا عسيرًا في اللاجاذبية، وعلى جابرييل أن يكون مبدعًا مع جعبة بذلة الطيران التي أرتديها، وعندما انتظرنا ليصبح نافذ المفعول قلت: "سيستاء كندال لدى سماعه أنني قد سرت في الفضاء بدونه".

أخفض جابرييل عينه من القناع الواقي في خوذته متجنبًا النظر إليّ، لم أطمئن لما قرأته حينها.

فسألته: "ما الخطب؟"

تطلع إليّ جابرييل وقال: "لقد خدعتك بشأن كندال".

بدأ قلبي يخفق بشدة: "ماذا فعلت؟ قل لي إنه حي بالأسفل".

طمأنني جابرييل في عجالة: "نعم نعم بالتأكيد، ماذا تظنين أني فعلت؟ فقط عندما سمعت كندال يقتبس من قصة المتزلج الفضي، علمت أنه لن يتخلى عنك، فبداخله روح مناضل؛ وهو يهتم بامرأة واحدة، ويثق بنفسه كثيرًا ويود إنقاذ العالم، وسيفعل ذلك بمجرد أن يرسو في التوقيت القياسي الأرضي، ولكن تكمن المشكلة في أنكِ أنتِ الشخص الوحيد الذي يجب أن ينقله إلى هناك، وكل ما سيفعله أنه سيعترض طريقك ويحاول حمايتك، ناهيك عن أنه مهم جدًا في عالم الغد ليكون في هذه الطفرة، فكندال مثل قطعة من لعبة كيربلانك؛ أخرجيه من اللعبة وكل شيء من حوله سينهار".

ازداد انفعالي، إذ شعرت أن هذا الكلام يخبئ شيئًا سيئًا؛ بل سيء للغاية فقاطعته: "ادخل بالموضوع"، حدقّ جابرييل إليّ من قناعه وقال: "بعد القفزة الزمنية، لن يعرف إن كنتِ موجودة أم لا".

حاولت أقبض على أكتافه ولكن يداي انزلقت من على بذلته فقلت له: "عندما نعود ستجعله يتذكرني ثانية".

لم أستطع رؤية وجهه الآن، لكنني سمعت صوته عبر سماعة الرأس، وهو يقول لي: "آسف يا ديبي لن أعود، فهذه صفقة المرة الواحدة كالليلة التي قضيناها معًا".

تأرجحت حول نفسي في المقصورة عديمة الوزن وأنا أنظر مباشرة إلى قناع خوذته وأقول: "ماذا؟"

قال لي عابسًا: "إنها مهمة انتحارية، وأنا استثنائي يا عزيزتي، ومع عدم وجود الماء اللازم لترطيب نفسي، لا يمكنني التعلق في هذا الشكل طويلاً، هذا هو الاستثناء لا أكثر ولا أقل، وهكذا لن أكون موجودًا في بضع ثوان. بالمناسبة أحبك".

ومن ثم رأيت ابتسامته ثم رأسه تتفتت إلى شرذمة من البذور داخل خوذته.

وهكذا بت بمفردي، أحوم في محطة الفضاء الهالكة كسمكة صغيرة خائفة احتجزت في بطن سمكة عملاقة على وشك أن يبتلعها الكون.

من نافذة مقصورة القيادة، ظهر كائن يلوح في الأفق؛ كانت كرة بيضاء باهتة في حجم كرة الشاطئ، فانتحبت من الرعب والدهشة حينما أدركت أنه تلستار الأول، قمر الاتصالات الرئيسي الذي كنت أتتبعه بتلسكوبي من حديقة منزلنا الخلفية في شيبمان كورنرز، لقد صار خردة في الفضاء الآن، وقد كان في مدارٍ بعيد دائمًا، وحينما اصطدم بصمت بسكاي لاب، تهشمت النافذة الزجاجية أمامي وطافت مثل قصاصات مايلر في انعدام الجاذبية.

ورغم خوذتي؛ إلا أني أغلقت عيني تلقائيًا، وعندما فتحتهما وجدتني أتشقلب في الجو وسط الظلام الحالك كأنني عمياء، فشعرت أنني لم أعد داخل حدود المحطة الفضائية، ولكن إذا كنت قد انجرفت عبر نافذة مكسورة إلى الفضاء الشاسع،

إذن أين حطام الاصطدام، ناهيك عن النجوم والأرض؟ كنت في الفراغ الأسود الحالك حتى ظننت أنني قد دُفِنتُ حية. تلك هي اللحظة التي أدركت فيها أنني كنت في الثقب الدودي أعبر من خلال المادة المظلمة التي تفصل كل بعد عن الآخر، لم أعد أشعر بالخوف؛ إذ تجاوزت الشعور بأي شيء سوى الرهبة.

ظهر الزمن حولي، مطاطيًا وسميكًا يضج بالتوتر الناتج عما فعلته؛ فقد جعلت سهم الزمن ينحرف وقدمته بشدة من وسط التاريخ، وسمعت عبر سماعة الرأس أنينًا ضعيفًا كنغمة خفيضة صادرة عن ملايين الآلات الموسيقية، حيث تمزق التوقيت الذري وتوقف، ربما كان ذلك صوت صرخات جماعية من مليارات البشر الذين يُسحَبون عبر الثقب الدودي معي ليمتزجوا بأنفسهم في التوقيت القياسي الأرضي، لا أعرف ما إذا كان أي شخص قد جرّب ما فعلته في قفزتي الأولى إلى عام ١٩٧١، عندما استيقظت عارية ارتجف في حديقة الكروم قبل اندماجي مع ذاتي القديمة، وأظن أن بعض الناس قد لاحظت نوبة دوخة قصيرة، أو ربما لمسة من دوار الحركة، وعندما ألحقهم إلى التوقيت القياسي الأرضي ذو أشعة الشمس القوية، سيخبرون أنفسهم بذلك فيما بعد، ولأقرب وقت ممكن، ستكون الحياة جميعها على الأرض ميتة وحية على حد السواء، حتى يبدأ الزمن مرة أخرى ويتدفق التاريخ بسلاسة، فيصطحب معه كل منا في تياره.

لم يعد هناك التوقيت الذري.

***

عدت إلى منتصف الغرفة المطاطية، ولا أزال في بذلة الطيران، وأول شيء فعلته هو أنني قد تقيأت في خوذتي؛ فالأمر لم يختلف عن الاستيقاظ من التخدير، وكان فستاني الذهبي مفروشًا بعناية على السرير المخملي منتظرًا عودتي، وقد نظفت نفسي عند بالوعة البار، فلاحظت شيئًا في يدي المضمومة؛ فتحت يدي ورأيت قلادة سيدة اللوردز في سلسالها الذهبي الأنيق، كان هذا كل ما تبقى من حياتي في التوقيت الذري، والآن عليّ اكتشاف ما حدث لزوجي وأختي وصديقي، فرغم ما قاله جابرييل لي إلا أنني كنت واثقة من أنهم جميعًا ينتظرونني في عالم التوقيت القياسي الأرضي الخالي من الأسلحة النووية.

لم أصدق أن كندال لن يعرفني، لربما كان يعاني من فقدان ذاكرة على المدى القصير، لكنه بالتأكيد لن ينسى إلى الأبد. كيف ذلك؟ فهناك قصاصات من حياتنا معًا، مثل تساؤلات كل الأصدقاء والعائلة عما كنا عليه، ناهيك عن الحساب المصرفي المشترك، وهدايا الزفاف، وملاحظات الشكر، ورغم أن الزواج لم يكن سهلاً عليّ، إلا أنني لم أستطع تقبل فكرة خروج كندال من حياتي، فاستعنت بجرعتي الشهرية للفاليوم والتي أتناولها كمهدئ، ولتخفيف نوبات الذعر، وحمايتي من الوقوع في القلق والشره المرضي.

ومثل مملكة نارنيا؛ تحول الباب مرة أخرى إلى الحائط المطاط، وفتحت مقبضه ثم خرجت من الغرفة.

كانت العاصفة تهب عبر الرواق الخالي كما لو فتحت نافذة كبيرة، ولميكروثانية تحول العالم إلى رمادي متدرج، فمددت يدي لأثبّت نفسي على الحائط لكن يدي لم تلمس إلا الهواء، كنت معلقة في الفراغ، ولكن لا بد أنه السقوط الحر، لا شيء صلب تقف عليه قدماي، لقد انزلقت من الغرفة.

مضى الزمان مثل دوران الأسطوانات مكررًا نفسه حتى قفزنا إلى الأمام، فقدت بضع ثوان، أو ربما دقائق، حتى رجع العالم مرة أخرى للخلف إلى مكانه، مثل الشبكة الكهربائية حينما تعود مرة أخرى بعد انقطاع التيار الكهربائي، فوجدتني مرة أخرى في حرارة قاعة الرقص من استوديو ٥٤ في صيف عام ١٩٧٩، أصطدم بالحشد وأنا في طريقي إلى مدخل النادي. كان الممشى يعج بالراقصين، ولا توجد أي علامة لرجل سقط منه ذاك المساء، وقد تم إصلاح الدرابزين، الذي كان قد كُسِرَ في الأساس، وتحولت السجادة الحمراء إلى اللون الأرجواني، وتلألأت الثريات الحديثة في السقف؛ ولا اعتقد أنهم كانوا كذلك حينما أتيت.

وفي الشارع، تغير اسم الحارس من جيمي إلى مارك، وكانت تصيح به نساء يقفن على الجانب المعاكس للحبل الأرجواني وهن يصحن فيه ويقلن: "مارك دعنا ندخل وإلا سندفن رأسك في الحمام".

نظرت إلى ساعتي، لم يتبق إلا دقيقتان على منتصف الليل، وهو الوقت الذي جئنا فيه إلى النادي، فرغم الوعد الذي وعدني به جابرييل، إلا أنني رجعت بالزمن للوراء ساعة، وقد انتابني إحساس

غريب؛ إذ شعرت أنني مريضة، وحلقي ملتهب، وأشعر بالغثيان والألم، وكأنني سقطت مع شيء ما، وبفضل المصل؛ لم ينتابني هذا الإعياء منذ نوبة التهاب اللوزتين عندما كنت في الثالثة عشر. وأتوق الآن أن أعود إلى الفندق وأنام على الفراش.

انتظرت طويلاً حتى جاءت الواحدة بعد منتصف الليل ثم الثانية ثم الثالثة: لم يأت كندال ولا بام بام ولا ليندا، فأوقفت سيارة أجرة لتقلني إلى فندق إكسلسيور، لكني لم أجد الدولارات القليلة التي كانت في حقيبتي، فقد اختفت مع بطاقة الهوية وكروت الائتمان، فأخبرت السائق أنه ليس معي مال، فأوقف السيارة وتركني على حافة شارع فيفث فينيو خارج تيفاني مباشرةً.

شعرت أنني مثل أودري هيبورن، بدون التاج.

إلى أن حل الفجر في التوقيت القياسي الأرضي، تكورت حول نفسي أمام واجهة محل، حيث كنت محمومة تبلغ درجة حرارتي ١٠٤ فهرنهايت، وفقًا للطبيب الذي فحصني ذاك الصباح في مستشفى سانت كلير في هيل كيتشن والتي نقلني إليها رجال الشرطة اللطفاء في نيويورك إلى هناك، كانوا كلهم مثل جدتي بيبي.

الفصل السادس
الإعياء الزمني
١٢ يوليو ١٩٧٩- التوقيت القياسي الأرضي

كنت احترق على النقالة في رواقٍ مفعم بالضجيج، وقد حفظت الممرضة متعلقاتي على عجالة في خزانة.

وقلت بصوت محتضر: "أرجوكِ اتصلي بزوجي، نحن من كانوسا"، فنظرت إليّ كأنني مجنونة وقالت لي: "أين كانوسا"، فأجبتها: "في الشمال على الحدود".

أجابتني دون النظر إليّ: "تقصدين كندا، ما رقم هاتف زوجك هنا في نيويورك؟"

"لا أعرف. في فندق يسمى إكسلسيور في قرية"، ثم انتابتني نوبة من السعال منعتني من مواصلة حديثي، كنت التقط أنفاسي في غاية الصعوبة وكأن صدري قد سحقه فيلاً، ولكني قد تمكنت من أن أقول لها مترجيةً إياها: "أرجوكِ أعطيني شيئًا".

قالت الممرضة في أثناء رحيلها: "لا بد أن يراكِ الطبيب أولاً"، ثم توجهت نحو خزانتها وتركتني. لم أكن حالة خاصة في تلك المشفى؛ إذ كانت بجانبي نقالتين ترقد على أحدهما امرأة مقيدة تصرخ بأن الصراصير تأكل وجهها.

وبعد ساعتين؛ بفضل سعالي وصراخها المرتعب انتبه لنا الطبيب، وبعد فحص سريع؛ شخّص الطبيب حالتي بأنها التهاب رئوي ومرض ذات الجنب في الرئتين، ومضاعفات من نوع من العدوى الفيروسية التي أبيدت في التوقيت الذري بفضل المصل الواقي؛ سميت بالإنفلونزا.

عادت الممرضة وقالت: "اتصلت بفندق إكسلسيور، كان الرقم خارج نطاق الخدمة وقال إحد الخفر أنه هدم لتطويره".

دارت في رأسي العديد من الأفكار، وحاولت التركيز في وجهها غير المبالي في محاولة مني لتكوين جملة متسقة فقلت: "ماذا جرى فجأة؟"، إلى أن نظرت إليّ أخيرًا وقالت: "لقد هدموه قبل ستة أشهر، زوجك ليس هناك يا عزيزتي"، ثم انصرفت وحذاؤها يُقبّل الأرض المشمعة.

***

مكثت في الجناح الخيري في مشفى سانت كلير لستة أسابيع، وحينما جاء يوم انصرافي، ظللت غير قادرة على الوقوف بمفردي، وعندما أصررت أنني تناولت اللقاح العالمي وأنني محصنة من جميع العدوى الفيروسية المعروفة، نُقلت إلى جناح الأمراض النفسية في مستشفى سيئة السمعة تسمى بيليفو، حيث شخصني الطبيب النفسي أنني مريضة ذهان، وأعاني من الصدمة؛ والذي نسميه الآن اضطراب ما بعد الصدمة، فخضعت للعلاج بالكهرباء. ولا أريد التحدث عن ذلك.

وأخيرا؛ قررت أخصائية اجتماعية طيبة القلب أن تكون مهمتها تجاهي هي العثور على شخص يعرفني ويعتني بي، لذلك أحضرت في صبرٍ الأسماء التي يمكن أن أتذكرها لعائلتي وأصدقائي في نيويورك وشيبمان كورنرز، فدعت مساعدة الدليل، وقدمت لي

قائمة من الأرقام غير المألوفة التي طلبتها من هاتف عمومي في القاعة، مطالبة عامل الهاتف بوضع رسوم المكالمات على هاتف الشخص المطلوب، ولكن لن يقبل أي منهم مكالماتي الجماعية؛ لا أقاربي في بروكلين، ولا ساندي هولوب أو بياتريس كندال. لم يكن يعرفني أحد.

حاولت الأخصائية الاجتماعية تتبع اسم جون كندال في شيبمان كورنرز وتورونتو ولكنها فشلت نظرًا لكثرة عدد الرجال المسماة بهذا الاسم، وحاوَلتْ أيضًا تتبع كل فتاة تحمل اسم ليندا بيوندي وباسكويال بيتشي في مدينة نيويورك من ممرضات وعاملات بناء ومحاسبات وأساتذة الأنثروبولوجيا في كولومبيا، لا أحد منهم أختي أو صديقتي.

والأسوأ من ذلك، عندما حاولت الاتصال بوالداي في شيبمان كورنرز، حيث انتابتني لحظة أمل عندما سمعت صوت والدتي توافق على قبول الرسوم.

قالت بصوت مرتجف: "ديبي! كيف؟"

"أنا حقًا يا أمي. أنا هنا في نيويورك. أريد العودة إلى المنزل".

تنهدت بحرقة تلاها صوت من الأصوات المكتومة، أعتقد أنني فهمتها، كانت الأصوات تقول: أعطني هذا الهاتف اللعين.

صار أبي الآن على الخط، وقال بحدة: "من بحق الجحيم؟"

"أنا ديبي.... ديبي"، ثم بدأت أبكي؛ إذ قال داف أنني غير موجودة في التوقيت القياسي الأرضي، ولكن واضح أنهما يعرفان من كنت أنا.

هتف أبي: "هل هذه نكتة حقيرة؟ ماذا تحاولين أن تفعلي بزوجتي المسكينة؟"، ثم أغلق الخط.

خرجت من مستشفى بيليفو بحقيبة تمتلئ بمضادات الذهان ولا أزال ضعيفة ومشوشة، ناهيك عن الإفلاس التام؛ إذ كنت بلا بطاقات ائتمان، ولا هوية من أي نوع، حتى التعليم الجامعي قد اختفى، وأي مستندات تبين أن ديبي بيوندي تخرجت وحصلت على بكالوريوس العلوم من جامعة تورونتو بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف قد اختفت كذلك، وكأن يد الله قد وضعت ممحاة سماوية على مستخرجاتي الرسمية.

كنت فتاة بلا هوية ولا ماضي ولا عائلة ولا أصدقاء ولا زوج ولا مناعة ضد قائمة طويلة من الأمراض البائسة التي هاجمتني على التوالي على مدى ستة أشهر رهيبة في الفضاء مثل الجديري المائي والحصبة والنكاف والسعال الديكي ونوبات متكررة من الإنفلونزا، وكنت ارتجف من الحمى لأسابيع في النهاية، حتى تساءلت عما إذا كانت الإنفلونزا أسوأ فعلاً من مرض الإشعاع.

هذا وقد اكتشفت أن الكثير من الأشياء الأخرى قد تغيرت أيضًا؛ ففي التوقيت القياسي الأرضي، كان كل شيء غير متزامن قليلاً مع التسلسل الزمني الذي خلفته ورائي، حيث فوجئت أن نيكسون على قيد الحياة وفي حالة جيدة ويكتب مذكراته في ولاية كاليفورنيا، في حين اغتيل اثنين من عائلة كينيدي في الستينيات، ولم يسبق لرئيس الوزراء روبرت ستانفيلد الذي ظل في الوزارة لمدة طويلة أن فاز بانتخابات واحدة، وأن زعيم الفترة الواحدة بيير ترودو،

كان رئيسًا للوزراء لمدة عشرين عامًا، ولم يتزوج شقيقة كاسترو، بل امرأة أخرى تدعى ماجي، التي تركته يحتفل في استوديو ٥٤ وفي جميع الأماكن بحرية، وقد ظهرت الأغاني الاحتجاجية من أمثال بوب ديلان ومارفن جاي؛ الذين كانوا مغنيين مهمشين على أفضل تقدير في التوقيت الذري، وقد صاروا نجومًا في التوقيت القياسي الأرضي، وبدلاً من أزمات الصواريخ الكوبية السنوية منذ طفولتي، كان التوقيت القياسي الأرضي قد شهدها مرة واحدة فقط، وعوضًا عن الهجوم على مجمع الكرملين أو الاندفاع والتعمق الفضائي، تحطمت سكاي لاب في أستراليا؛ في اليوم الذي تلا يوم التقائي بجابرييل الملتوي....معذرة؛ أقصد الاستثنائي، مما أسفر عن مقتل بقرة واحدة، أما التفكير في سقوط الخردة الفضائية التي ستشعل الحرب العالمية الثالثة فمبكر جدًا الحديث عنها.

بعد مضي أربعة أشهر؛ عشت في ملجأ للنساء في برونكس، وقد بلى جسدي من العدوى الفيروسية؛ فتشخيصي بالذهانية والواهمة جعلاني أنأى بنفسي.

وذات مساء؛ بينما كنت واقفة أمام واجهة محل أتقاسم سيجارة مع أحد البائسين، وأشاهد عرضًا ليلياً من المحتالين والعاهرات، إذا بي أرى شابًا جميلاً يرتدي سروال ملاكمة قصير ذهبي وقميص ضيق، ومن الواضح أنه ينتظر خدعة؛ لقد كان بام بام.

صُعِقت لرؤيته، وانهمرت الدموع على وجنتاي ولففت يداي حوله فعانقني بدوره وأردف: "هل أعرفك؟"

أجبته باكية: "نعم، نعرف بعض من عالم آخر، كنا أصدقاء".

وقف بام بام مقتربًا مني وعيناه السوداوان تتفحصان وجهي بدقة إلى أن قال ببطء: "أتذكرك من مسقط رأسي- شيبمان كورنرز، حتى في كندا، لقد كنا أصدقاء في المدرسة الإعدادية معًا".

هتفت من الفرح قائلة: "نعم مدرسة سانت ديسماس، كنا ندرس هناك".

"اسمك ديبي أليس كذلك؟ أقسم أن المعلمين قد أخبرونا أنكِ...."، ثم تردد.

"كنت ماذا؟"

صمت لبرهة ثم قال: "أنكِ متِ".

عانقني بام بام بشدة وهو يحملني لأعلى.

كان من الممكن أن يتركني على الرصيف أو يوصلني على سبيل الكياسة إلى المأوى، لكنه لم يفعل، ربما كانت الذاكرة المتبقية من صداقتنا في التوقيت الذري، أو ربما شيئًا أبسط، ألا وهو الشفقة، حيث يعرف بام بام كيف يبدو شعور الوصول إلى الحضيض.

تشبثت به بشدة، حيث استعصى عليّ ركوب سيارة الأجرة، وقد أخبرني أنه ترك شيبمان كورنرز من أجل نيويورك بعدما انقطع عن المدرسة الثانوية، وحينما ذكرت كندال، هز رأسه وقال إن عائلة كندال قد انتقلوا من المنزل المجاور منذ الستينيات.

"فقدت الاتصال به بعد ذلك، وقد تسكعنا مع أناس آخرين، ولكن كان كندال أذكاهم دائمًا".

أخذني بام بام إلى شقة ضيقة صغيرة يقطن فيها منذ سنوات، وقد قدم لي الحساء وآواني ورعاني في مرضي حتى استرددت عافيتي، واستمع إلى قصصي المجنونة عن إيقاف الحرب النووية، والأهم من ذلك كله؛ صدقني.

قال لي: "أشعر أنني حلمت بكل الأشياء التي حكيتها لي، إنها تبدو مألوفة جدًا، وعندما رأيتكِ في الشارع، شعرت وكأنني أعرفك، كأن كل ما حدث ذاك اليوم، قد حدث من قبل، بماذا تسمين ذلك؟"

أجبته:"ديجافو".

ولكن هناك أكثر من ذلك؛ فذات ليلة، عندما استلقينا بأريحية على أريكة نتقاسم سجائر بالحشيش، ونتناول الفشار ونحن نشاهد عرض السهرة ليت Late، نظر بام بام إليّ وقال: "أظن أنني كنت في حفلة كهذه معكِ".

من شريط أبيض ثلجي في أسود التقطه بام بام من سلة مهملات، يقدم فيلمًا مؤلفًا من عرض راقصين روس، ونجمات شقراوات، وامرأة سوداء في زي خادمة فرنسية وفيلاً صغيرًا يرقص عند حمام سباحة مع بيتر سيليرز، وكانت الموسيقى التصويرية موسيقى السيتار المخدرة. لم يبد ذلك منطقيًا؛ حيث لم أكن أعرف هذا النوع من التأرجح في الستينيات، وإذا كان هناك شيئًا بدا شبيهًا أكثر بالسبعينيات في التوقيت الذري.

غمغمت وفمي مليئًا بالفشار: "كانت حفلة هالووين. هل تتذكر أي شيء آخر؟"

مكتبة
t.me/t_pdf

فكر بام بام في ذلك وعينيه على الفيلم، والآن بيتر سيليرز ونجمة يمرحان برغوة الصابون، بينما تسقط امرأة بملابس السهرة من البلكونة إلى حمام السباحة، في حين كانت الخادمة الفرنسية ترقص رقصة الواتوسي.

قال بام بام: "هناك أحمق ارتدى مثل هذا الفتى اللعوب كان يلاحقك وقد سكبتي المشروب في وجهه".

"وأنت وروكو أنقذتموني".

"من؟"

"عشيقك في التوقيت الذري".

ضحك بام بام ضحكة بلا معنى وقال: "أعرف روكو يا ديبي، وقد كنا معًا في الوقت الحقيقي كذلك".

قلت له مذكّرة: "التوقيت الذري حقيقي أيضًا".

قال: " أعرف أعرف، لكنه لم يعد حقيقيًا أليس كذلك. على أي حال؛ انفصلنا أنا وروكو، حيث تزوج لأن عائلته لم تتقبل أن يكون ابنهم الأكبر لوطيًا، لذا أفضل محو تلك الهزة من ذاكرتي".

اقتربت منه ومسكت يده، ففي بعض الأحيان أركز جدًا على مشاكلي وانسى أن بام بام أيضًا يعاني من الحسرة، إلا أن معرفتي أنه يمكنه أن يتذكر شيء عن الماضي القديم أعطاني بصيصًا من الأمل، فإذا تذكرني، فهذا يعني أنه ربما يتذكرني الآخرون، كذلك، وأقصد بالآخرين كندال.

وأخيرًا؛ عندما صرت قوية بما يكفي، ذهبنا للبحث عن ليندا، وقد تبين أن العثور عليها أسهل مما توقعت؛ إذ رأيت وجهها على ملصقٍ عالقٍ على جانب الهاتف.

كانت تسكن في شقة علوية في جنوب مانهاتن، وتدفع ثمنها من عوائد التسجيلات التي تؤديها مع منتج ديلان، الرجل عينه الذي اكتشف فرقة سبرينجستين، وصارت تحمل اسم شهرة "ليندي بوند" في نادي سي بي جي بي CBGB كل ليلة، وبفضل قفزتي إلى التوقيت القياسي الأرضي، تغير تاريخها الشخصي إلى الأفضل.

عندما فتحت الباب ورأتنا أنا وبام بام واقفين أمامها، أستطيع أن أقول من خلال تعبيرات الصدمة التي ملأت وجهها أنها عرفتني على الفور؛ أنا شقيقتها الميتة، ديبي. وأظهرت لها قلادة سيدة اللوردز.

قالت وهي تحمل القلادة في يدها: "اعتقدت أن أمي وأبي دفنوكِ مع هذه، كيف يمكن أن تكوني على قيد الحياة؟"

حاولت أشرح لها قفزتي الزمنية مثلما فعلت مع بام بام، ولكن نظرة عينيها جعلتني أتوقف، حيث تحولت إلى بام بام وطلبت منه أن يدخل معها المطبخ ليساعدها في إعداد الشاي.

سمعتهم يتهامسان في المطبخ.

"ماذا دهاها؟ هل هي ذهانية؟ أم مريضة بالفصام؟"

ساد الصمت برهة إلى أن غمغم بام بام: "لقد مرت بكارثة كبيرة، فاستنتجت أنها هاربة".

"لا بد أن والداي قد أبعدوها، مثلما فعلوها معي ذات مرة، ولكنهما سمحا لي بالعودة مرة أخرى. لا عجب أنهما قد أبقيا التابوت مغلقًا، يا إلهي".

"أيريدون التخلص منها؟"

"لنقل فقط أنها صعبة المراس".

"لا بد أن تخبريهم".

"لا يمكن؛ فصحة أمي ليست على خير ما يرام، وتعاني من مشاكل في القلب. أفضل أن تعيش ديبي هنا في هدوء، ولكني سأغادر في جولة قريبًا. وقمت بالفعل بتأجير المكان".

قال بام بام: "لا أمانع أن تعيش ديبي معي".

ساد صمت قصير حينما جاء هذا الخبر السار الذي قاله بام بام؛ حيث تخيلت ليندا تتنفس الصعداء لدى تطوعه في تولي زمام أمري.

سألته: "هل تحتاج إلى المال".

أجابها: "لن يضر".

كانت ليندا في التوقيت الأرضي هي الابنة العطوف، بينما كنت أنا الابنة المفقودة منذ زمن طويل، فلماذا نفسد الأمور؟ وفي النهاية، ماتت أمي دون أن تعرف قط أنني أنا وليندا قد تلاقينا ثانية، أما أبي فقد بدأ يفقد ذاكرته بعد سنوات قليلة جراء أعراض مرض الخرف مثلما قال الأطباء، فبكيت لأيام عندما أبلغتني ليندا، ليس لأجل أبي فقط، بل لأجلي كذلك، حيث لمْ يعد هناك فرصة ليتذكرني في أي بعد زمني.

وبأموال ليندا، استطاع بام بام دفع إيجار شقة ضيقة لا تبعد عن شارع أورشارد الذي سكنت فيه جدتي بيبي، وكان يذهب إلى عمله بالحافلة للوصول إلى استوديو ٥٤، ولكنه كان يتعب من النوم مع العملاء الأغنياء للحصول على البقشيش، إذ كان الوضع

يزداد خطورة بسبب ظهور فيروسًا ارتداديًا جديدًا في نيويورك، أما في شقتنا؛ فقد كنت أقضي معظم وقتي في النوم والقراءة ومشاهدة مسلسلي المفضل (أوبرا الصالون)، وأتعرف على تاريخ التوقيت الأرضي الملتوي لأشفي عقلي وجسدي، وأتساءل ماذا سأفعل بحق الجحيم دون هوية.

حظى بام بام بمستوى معيشة جيد في نيويورك؛ إذ تبين أنه رجل ذكي ذو أفكار رائعة وغرائز رجل أعمال؛ ففي غضون عامين، بدأ بإدارة محل لبيع الكتب ومطبعة في القرية، وفي يوم من الأيام، أحضر إلى المنزل نسخة من قصة سرية طبعها بعنوان رو Raw.

قال لي بام بام: "نبيعها على الطاولة الأمامية، ستعجبك"، وأعطاني عددًا بعنوان: "رسومات كتاب طاولة القهوة للملجأ النووي"، جلست أقرأ القصة العميقة الواحدة تلو الأخرى، حيث كانت إحدى القصص عن عائلة من الفئران خلال محرقة يهود أوروبا (الهولوكوست)، وفي مقابلة إذاعية؛ سمعت المؤلف يقول إنها وسيلة لوضع قصص عائلية مؤلمة، للتعامل مع إرثٍ مروع بالطريقة التي يمكنه التعامل معها.

اعتقدت أنه يمكنني القيام بذلك أيضًا، من أجل سلامتي.

تعتبر الكتب المصورة من الأماكن التي يمكنك فيها تحويل ما أسماه الأطباء النفسيون في مستشفى سانت كلير بـ"الأوهام" إلى حقائق بديلة يتوق القراء بلا أمل للعيش فيها، وهي طريقة مقبولة طبيًا لتحويل الخيال إلى حقيقة. هذا وقد التقيت بمئات الأفراد المتعطشون لذلك في مهرجانات محبي القصص المصورة.

رأى بام بام إعلانًا في مجلة فيليدج فويس يطلب مصمم جرافيك ومدير فني لمجلة اللب بعنوان "عرافي الثروة" التي تقع في فورت لي في نيو جيرسي، وقد أقنعني بأن يأخذني إلى هناك، فاقترض سيارة لرحلة عبر جسر جورج واشنطن إلى حديقة صناعية خربة لمقابلة مديرتي المستقبلية، تدعى السيدة جينا، التي سألتني عما إذا كان لدي ملف بأوراقي الرسمية، وبطبيعة الحال كان الجواب لا، لذلك أثبت مهارات الرسم لديّ على الفور. فأعجبت بتفكيرها الواقعي، لكنها لم تكن متأكدة من أن لديّ الأشياء المطلوبة لمهنة سريعة الخطى مع مجلة العرافين الأولى في أمريكا.

قالت السيدة جينا وهي تأخذ بطاقات التاروت: "لنستعين بالخبراء".

ظهرت بطاقات الموت والشيطان والبرج وبطاقة السيوف العشرة والرجل المعلق، فامتقع وجه مدام جينا.

"لقد أحضرك القدر إلى هنا؛ فالبطاقات لا تكذب، أنتِ من الزمن الهالك القديم، أنتِ المطاردة، مدمرة العالم الشرير، منقذة الإنسانية".

"هل يعني ذلك أنني قُبلت؟"

عرفت الجواب بمصافحة السيدة جينا لي بقوة حتى أحدثت خواتمها الثقيلة كدمات أرجوانية عميقة على أصابعي ظلت حتى هذا اليوم.

وقد تبين أنها جزءًا من مجموعة الاستثنائيين الذين عاشوا في التوقيت الذري عام ١٩٧٩.

قالت السيدة جينا: "كنا نبحث عن الراحة من طفراتنا عبر الانتقال إلى الماضي، وبطبيعة الحال، لم ينجح ذلك"، ثم تنهدت على أكواب من الخمور اللاذعة الرائقة ذكرتني بخمر الفودكا بالبصل التي كانت السيدة كابيتاليسمو تصنعها في المنزل وتابعت: "عندما دمرتِ التوقيت الذري، لم نصدق حظنا؛ فقد انتقلنا معكِ إلى هذا الزمن، واختفت طفراتنا الجسدية، ولم يتبق سوى قدراتنا الروحانية"، ثم مالت نحوي ولمست جانب أنفها في شكل تآمري وقالت: "هذه هي الطريقة التي نقضي بها حياتنا في هذا الجدول الزمني دون هويات عن طريق طاولات المراهنات، واليانصيب، والمراهنات على الخيول، وهو ما ساعدنا على إنشاء المجلة، هذا ويمكننا التمتع بالحياة طالما نتبع القواعد: "لا تغييرات كبيرة في الوزن، لا أطفال، لا حيازة ممتلكات رسمية، والدفع نقدًا".

سألتها: "كيف تتذكرين انتقالك بينما لا أحد يتذكر ذلك؟"

لوحت السيدة جينا بيدها ذات الخاتم بازدراء قائلة: "أكثر مما تعتقدين، فالزمن القديم يتطلب بصيرة روحية، فأغلب الطبيعيين يصرفون انتباههم عن ملاحظة الأشياء فيما عدا مضيعة الوقت أمام التلفاز"، ثم ربتت على كف بام بام واستطردت: "فيما عدا أنتم بالطبع".

وقف بام بام وشعر فجأة بعدم ارتياح وقال: "سأذهب لشراء سجائر".

عندما مر بام بام عبر الستار المطرز لمكتب السيدة جينا، أومأت برأسها عندما اختفى وقالت: "يمكن لصديقك أن يتذكر كل

شيء عن الزمن القديم إذا سمح لنفسه، أما الشخص الطبيعي فهو في نظره رجل استثنائي من نواح كثيرة".

قلت لها: "إنه لطيفٌ للغايةً، إذا كان ذلك ما تقصدينه".

قالت السيدة جينا: "لقد أنقذك، وأنتِ أنقذت الجميع كذلك، وهو استثنائي حتى بين الاستثنائيين، تقبليه وليًا لكِ وناصحًا، فهو يعرف المزيد عن ماضيكِ ومستقبلكِ أكثر منكِ".

***

ساعد العمل في مجلة عرافي الثروة على إشعال الشرارة الإبداعية التي ماتت منذ زمن بداخلي، على حد تعبير مدرسة مراسلة الفنانين الأمريكيين المشهوريين في إعلاناتهم، وقد علمتني السيدة جينا كيف أستفيد من القدرات الروحانية المحدودة التي اكتسبتها خلال قفزتي الزمنية لتكوين ثروة فاحشة ولعب الروليت في مدينة جيرسي.

ثمة تبعات سارة غير مقصودة لكوني مطاردة الأيون، كانت إحداها هي شعوري أنني أستحق الثراء.

بعد بضع سنوات؛ وأنا متأثرة بقصص رو المصورة وتحطم صاروخ تشالنجر، كنت واثقة بما يكفي لرسم العدد الأول من "سبوتنيك تشيك: فتاة بلا ماضي"، وفي البداية طبعت قصتي المصورة الصغيرة السرية على آلة طباعة زيروكس الخاصة ببام بام وبعتها في مكتبته، ولكن بعد أن اتهمت قصتي بالبذاءة؛ تحولت السلسلة إلى ظاهرة عالمية وأصبحت مطبعة جراي ويزارد دارًا

للنشر، حتى أنني بعت حقوق الفيلم، رغم أنني ما زلت في انتظار التصديق على المشروع بواسطة الاستوديو؛ لأنهم أوغاد لا يعتمد عليهم في الأفلام؛ فهم إما أن يدعوا بنات أفكارك تتعثر حتى تموت موتة طبيعية أو يضغطوا عليك لإخراج جميع أفكارك لضمان أوسع نطاق ممكن بشأن النفاذ إلى السوق.

على الرغم من نجاحاتي؛ ظل هناك سؤال يداهمني كل يوم ألا وهو: ماذا حدث لكندال؟ لم أعرف شيئًا بالتأكيد إلى أن بزغ فجر عصر الإنترنت؛ ففي عام ١٩٩٥ وأنا أجلس أمام حاسوبي الشخصيّ علمت أنه كان في تورونتو، وتمكنت من متابعة مسار حياته المهنية؛ حيث عُيّن محامي في البداية، ثم رئيس لمنظمة بيئية، ثم نائب عمدة المدينة، ثم زعيم لحزب سياسي فيدرالي، أي أنه تخرج من كلية الحقوق منذ البداية.

وفي عام ١٩٨٦، تزوج كندال من امرأة عرفت في أرشيف صفحات نجوم المجتمع باسم أليكساندرا "أليكس" هولوب، وهو اسم ساندي في التوقيت القياسي الأرضي، وقد استوحت من والدها مهمة تعميم الطعام العرقي، فأطلقت سلسلة مطاعم للوجبات السريعة في أوروبا الشرقية باسم السيد يومتشوك.

بكيت عندما علمت بخبر زواج كندال بساندي، فحاولت التعامل مع غضبي وحزني عبر تأليف قصة تقوم فيها سبوتنيك بتتبع حبيبها السابق جوني كاي، وتتعقبه إلى منزل خطيبته، سيسي النادلة، ثم تتجسس عليهما سبوتنيك تشيك عبر النافذة وهما يمارسان الحب، وتعود بعد ذلك إلى المنزل وتثمل حتى تجد بعض الملتوين وتضربهم.

على الأقل أعيش في مدينة نيويورك، بعيدة كل البعد عن الأخبار المحلية للسي بي سي، أما في كندا، فقد كان كندال يظهر في كل مكان؛ على شاشة التلفاز والإذاعة وفي الصحف، أي في العيش في الولايات المتحدة أستطيع إدعاء أنه غير موجود، غير أن كل ذلك قد تغير بعد ستة سنوات حينما أرسلتني حاستي السادسة إلى نافذة شقتنا في جنوب مانهاتن، ورأيت الطائرة الأولى وهي تضرب البرج؛ كارثة تسرع لملء الفراغ، فملتُ على زجاج النافذة البالغة السخونة ودعوت ألا يكون هناك أحدًا بعينه.

عندما أغلقت الحدود وشدد الطلب على الهويات؛ ظهر جليًا عدم وجود الكارت الأخضر لدى بام بام وعدم امتلاكي هوية، فشكّل ذلك مشكلة، حتى جواز سفري المزور بإتقان، لن يبقى لمدة طويلة، وهكذا في عام ٢٠٠٢ عدنا سويًا إلى كندا- تورونتو، وعلى وجه الدقة إلى مكان فسيح بما يكفي لخسارة أنفسنا فيه.

لم أستقر قط في حي واحدٍ؛ فقد كنت أتنقل سريعًا من فندق لآخر، وهو نمط حياتي الذيٍ أحببته بما يكفي، أما بام بام فقد سكن في شقة علوية لطيفة يمكنني اقتحامها متى احتجت لأحدٍ أتقاسم معه زجاجة نبيذ بينوت نوير وأشاهد معه التلفاز وأتمتع برفقته في الحياة الطبيعية، هذا إن استطعنا وصف حياة بام بام بالطبيعية.

عندما شعرت أنني مستعدة، أوصلني بام بام إلى شيبمان كورنرز، حيث أردت أن أرى لنفسي ما إذا كان كل قصاصة من الماضي قد اختفت حقًا دون أن تترك أثرًا أم لا.

اكتسى منزل طفولتي على طريق فيرمي بطبقة خارجية من الألومنيوم، وقد أزيلت مزارع العنب وبُنِيَ بدلاً منها حمام سباحة.

هذا وقد هُدِمَ حطام متجر الحلوى لإفساح مكان لمتجر فالفولين لتغيير زيت السيارات، وعندما مررنا بمنزل هولوب، رأيت فتاتان صغيرتان محجبتان في الحديقة الخلفية الصغيرة تركلان كرة قدم ذهابًا وإيابًا، ومثل كل مكان آخر؛ كان الوافدون الجدد إلى الحي يحلون محل مجتمعات المهاجرين القديمة في مرحلة ما بعد الحرب.

أما حديقة الملك جورج؛ والتي عرفت باسم بلوتونيوم بارك في التوقيت الذري؛ فقد اختفت منها القنبلة الذرية التذكارية التي حُفِرَ عليها أسماء ضحايا الإشعاع، وكل ما تبقى هو تمثال الجندي الذي أغمي عليه بين ذراعيّ الملاك الذي تشكّل مع قائمة بجميع الصراعات التي عاشها سكان شيبمان كورنرز في حياتهم وهي الحربان العالميتان الأولى والثانية وكوريا وأفغانستان، أما الحرب الذرية الرادعة فلم تحدث قط على ما يبدو، رغم أنني قرأت في كتاب تاريخ أن هناك فكرة مماثلة طرحها تشرشل. وقد استعيض عن مقتنيات كريسويل بصالون وشم، وقُسّم مبنى البنك الملكي القديم إلى مكاتب سماسرة الرهن العقاري وشركات التحصيل، وقد لعب بي الديجافو مجددًا، فطلبت من بام بام أن يركن السيارة أمام الرصيف.

قال متذمرًا: "لماذا تريدين التوقف هنا؟"

"لا أعرف، انتظرني فحسب".

شاهدت على الرصيف قائمة الشركات المصطفة مكان مبنى البنك القديم، إلا واحدة تلك التي لفتت نظري تحمل اسم "الزعانف البيضاء المالية".

وجدت امرأة شقراء في حوالي الستين من عمرها ترتدي بلوزة بيضاء متموجة تعمل على جهاز حاسوب في مكتب الاستقبال، وعندما رأتني نظرت إليّ بابتسامة ذات ملمع شفاه بلون الشعاب المرجانية، كانت ترتدي عقدًا كُتِبَ على دلايته اسم دوتي. حسنًا إنها هي؛ الممرضة الشريرة دوتي من التوقيت الذري، وقد باتت سكرتيرة مسنة في التوقيت الأرضي.

"هل يمكنني المساعدة؟"، سألتني في صوتٍ رقيقٍ مما يدل على أنها لا تتذكرني وأنا أركلها بركبتي في صدرها وألقها في حمام المياه الباردة.

"أود شراء عقارًا تجاريًا، هل تعقدون رهونات تجارية؟"

أومأت دوتي برأسها وقالت: "بالتأكيد، لكن لاري معه عميل، يمكنكِ التفضل بالانتظار بضع دقائق، وحتمًا سيسعد بالتحدث معكِ".

رفعت حاجبي متسائلة: "لاري...؟"

أكملت قائلة: "كوالتشوك".

أديرت معزوفة مألوفة لي على نظام الصوت، وقد استغرق الأمر معي ثانية لأتذكر مقطوعة باري وايت وأوركسترا الحب غير المحدود Love Unlimited Orchesrta وهم يعزفون مقطوعة "موضوع الحب Love Theme"؛ لقد كانت أول رقصة في حفل زفافي على كندال في التوقيت الذري. جلست على المقعد وامسكت بصحيفة شيبمان كورنرز: "اقرأ المزيد عن تسريح العمال في سيارات شيبكو"، فقرأت الصفحة الأولى؛ كان الاقتصاد المحلي يتحول إلى وظائف قطاع الخدمات، حسبما قال بعض أعضاء البلدية الحمقى

وهم مطمئنين، كما لو كان مسح أرضيات مطاعم الوجبات السريعة وسيلة معقولة لملء الفراغ الذي خلفته وظائف المصنع المتلاشية، ولا عجب أن المدينة بأكملها ستسقط في بئر التعاسة.

عندما أغلقت الصحيفة، شعرت بوجود شخص أمامي، فإذا بي أرى القرش بشعره الأشقر الرقيق الذي مشطه للوراء فأظهر صلعة خفيفة، وقد حافظ على أناقة جسمه المتهرم، إلا أن بروز الأوعية الدموية الحمراء على أنفه كشف عن حبه للكوكتيلات، نظر إليّ من تحت نظارته الشمسية ماركة أفياتور غير العصرية.

مد يده ليصافحني قائلاً: "لاري كوالتشوك، سررت بمقابلتك".

صافحته وقدّمت له نفسي باسمي الحقيقي، ولكنه لم يتعرف عليّ. ذهبنا إلى مكتبه، حيث جلس على كرسي من الجلد عالي الظهر خلف مكتب من قشرة الخشب البلوطي.

سألني باسمًا: "والآن، أي نوع من الممتلكات التجارية تريدها سيدة جميلة مثلك؟"، شعرت فجأة أنني في غرفة معيشة السيدة دوناتو، أصد مناداته، حيث لم أستطع أن أكرهه أكثر؛ إذ تحوّل إلى مشهد مبتذل لرجل عجوز قذر غير مدرك مدى حقارته.

قلت له باسمة: "أود افتتاح منتجع فاخر في شيبمان كورنرز".

انحنى أمام المكتب وضحك ضحكة لافتة قائلاً: "منتجع؟ وكم ستحتاجين من المال لبنائه؟"

فكرت سريعًا وقلت: "خمسمائة ألف دولار بزيادة أو نقصان، اعتمادًا على الموقع بالطبع".

أصـدر القرش صفيـرًا منخفضًـا ومـال علـى كرسـيه للـوراء، وصرير الفينيل يتصاعد معه ثم قال: "نصف مليون؟ هل أنتِ مارثا ستيوارت أو ما شابه؟ يمكنكِ شراء معظم الشركات في هذا الشارع وبيعها بربع ذلك. وسيتعين عليكِ قص وحلق الكثير من الشعر لتحقيق الأرباح".

"لا أفكر في تسريحات الشعر فحسب، بل هناك أيضًا تشذيب الأظافر وطلائها والباديكير وتجميل الوجه وتدليكه، كل ذلك".

أجاب القرش: "آه آه آه آآآآآآه"، وهو يفكر في المتعة اللانهائية واستطرد: "بالنظر إلى تورونتو سنجد أن النساء على استعداد لدفع الكثير من الدولارات في صالونات التجميل لتجميل وجوههن، بينما في شيبمان كورنرز، فمعظم النساء هنا يعملن كل شيء بأنفسهن في المنزل، هل تفهمين قصدي؟"

وضعت ساقًا فوق ساق وقلت: "هل أبدأ مشروعي في مكانٍ آخر؟"

رفع القرش يديه في استسلام زائف وقال: "ماذا دهاكِ يا أوبرا، لا تكوني حساسة، أنا أصف لَكِ المشروع فقط. انظري، ما رأيكِ أن أغلق الشركة مبكرًا ونتناول العشاء معًا في حانة نبيذ سورينج سبارو؟ أو طعام يامتشوك الأوكراني؟ إن كنتِ تحبين الأكل العرقي لنناقش خطة مشروعنا".

وقفت وقلت له: "سأفكر في الأمر يا لاري، الواجب يناديني في تورونتو، ولكن إن أعطيتني بطاقة عملك سأرسل لك بريد إلكتروني في المرة القادمة، أنا في البلدة ويمكننا تناول الغداء معًا"، ثم مددت يدي له لمصافحته.

تمعن لاري فيّ من أول رأسي حتى أخمص قدماي وفوجئت بأنه يقبل يدي.

قال بابتسامة متكلفة: "سأعد الأيام".

عندما وجدت بام بام يحتسي قهوته في كافيتريا تيم هورتونز في آخر الشارع قال لي: "كيف كان الحال؟ هل اكتشفتِ شيئًا مهمًا؟"

هززت رأسي قائلة: "لا شيء على الإطلاق، لنذهب".

في طريق الخروج من المدينة، عندما اقتربنا من منحدر على طريق الملكة إليزابيث؛ لفتت نظري علامة على الطريق كُتِبَ عليها "مقبرة عشب إليزابيث".

قلت لبام بام: "لنرى إذا أمكننا العثور على مقبرة العائلة، انعطف هنا".

هز رأسه وانعطف يسارًا تجاه المنحدر.

"لا يهم ماذا سنجد، ستتمزقين إربًا إربًا وتكون مهمتي تجميعك ثانيةً، لقد تعبت من ذلك يا ديبي، عودي إلى المنزل ومارسي حياتك".

عندما مررنا بعلامة كُتِبَ عليها تورونتو ١٠٠ كم، تعجبت أن منزلنا قد صار هناك الآن.

***

قررت عام ٢٠٠٤ أن أعرف كيف حدث التوافق بين كندال وساندي - عفوًا أقصد "أليكس"- بدوني، وقد وجدت على جوجل أنهما كانا يعيشان في حي ريفرديل في تورونتو، وهي منطقة غنية

ولكن ليست فاحشة الثراء على الجانب الآخر من البلدة من شقة بام بام في الطرف الغربي في المنطقة النائية، وفي صباح إحدى أيام الأسبوع؛ تسكعت حول حديقة ويثرو التي تبعد عن المنزل الفيكتوري المجدد لعائلة كندال ببضعة محلات، وأخيرًا؛ خرج جون كندال من الباب الأمامي مع توأميه البالغين من العمر اثني عشر عامًا، نيلسون وماروشكا، كنت أعرف بالفعل وجوههما وأسمائهما من التغطية الإعلامية المستمرة عن حياتهم نظرًا لشعبية كندال بصفته محام بيئي وعضو حديث في البرلمان. كان البعض يأمل أن يتخطى السياسةً تمامًا ويصبح دبلوماسيًا، وقد كنت أشك أن داف يعرف ما كان يفعل حينما قال لي أنه إذا أنقذت كندال، فأسنقذ العالم.

تأنق كندال في بنطال جينز فاتح وسترة جلدية، وقد بدا وسيمًا أكثر من ذي قبل، هذا وقد سقطت عيني على يده اليسرى؛ كانت طبيعية، لم يحدث لها التشوه البشع من اللحام في التوقيت الأرضي، وكان توأمه جميلان، طوال القامة، ممشوقي القوام، ورثا من كندال الشعر الأسود المجعد والعينان الزرقاوان من زوجته. أي نصف زنج ونصف أوكرانيين. ماذا تتوقعون؟

ضحك كندال كما لو كان نيلسون وماروشكا قد حكيا له قصة عن معلمتهما الأولى، وكان قلبي ينفطر مع كل خطوة لهم. تابعت ثلاثتهم إلى مقهى عصري وأنا أتألم، وقد طلب كندال قهوة إسبريسو وشوكولاتة ساخنة للتوأم. كانت هناك منضدتان بعيدتان عنهما، حاولت التظاهر بالنظر إلى جهازي الماك بوك بينما كنت أتنصت عليهم في حقيقة الأمر؛ حيث عرفت أن ماروشكا تحب حلوى

المارشميللو في الشوكولاتة الساخنة، بينما تأخر نيلسون في تسليم مشروع تاريخي عن لويس ريل لأنه لم يجرى البحث المطلوب، فشعرت كأنني أقول له؛ اقرأ القصة المصوّرة يا صغيري.

وبينما كان الطفلان يتشاجران على بطاقات البوكيمون، لاحظت أن كندال بدأ يجول ببصره حول المكان، وقد تجاوزت عيناه جميع ما بداخل المقهى إلى أن التقت عينه بعيناي، فألقى إليّ نصف ابتسامة أعرفها جيدًا، حيث ظننت أنه سيتعرف عليّ فازدادت دقات قلبي؛ إذ تساءلت هل سيأتي إلى منضدتي وينظر إليّ قائلاً هل نعرف بعضنا؟ أو قد يقول أفضل من ذلك مثل "لقد ظللت أبحث عنكِ طوال حياتي".

ثم رأيت عينيه تتجاوزني وتحولت إلى امرأة شابة جميلة تجلس على الطاولة خلفي، تفتح دفترها- كانت مراسلة السي بي سي التي أجرت معه مقابلات عدة مرات، وقد عرفت من المحادثة التي تمت بينهما؛ أنه لم يبتسم إليّ لأنه عرفني؛ بل كانت مجرد نظرة الرجال المشهورين للنساء اللائي في منتصف العمر حينما يتعرفن عليه في المقاهي.

كانت مشاهدة حياة كندال المثالية وهو يجلس في المقهى المريح مع موسيقى الجاز والقهوة ذات الجودة العالية وأطفاله المعافين أشبه بتمزيق قشرة جرح لم يشفى بعد، ولم أتمكن من التوقف عن مراقبتهم- حيث كنت تقريبًا أتلذذ بخدش الجرح، وقد ظننت أن حياتي قد تكون هكذا؛ فامتعضت لدى رؤية الأطفال في حالٍ طبيعية وكرهت كندال لكونه سعيدًا. لا توجد كلمة تصف حالي؛ أيّ وحش أنا.

عدت إلى حي كندال، آملة أن ألقي نظرة على المرأة التي كانت تعرف بساندي، فطرقت الباب الأمامي ولا أعرف ماذا عساي أن أقول لها إذا فتحت الباب.

عندا فُتِحَ الباب؛ وجدت رجلاً طويلاً في السبعينيات من العمر يرتدي قميصًا من ميبل ليفس، ذو شعر رمادي ولحية، وبدا في صحة جيدة كشخص يمكنك رؤيته على متن قارب شراعي في إعلان التخطيط للتقاعد. كان من نوعية الرجال الذين يمكنك دعوتهم لتناول الجعة، ذو ابتسامة مائلة وأنف مزوي وعينين شبيهتين بشكل اللوز، كان النسخة الأكبر من كندال.

ولكنه ليس كندال بل ديف كيندال، الذي يبدو أنه لم يمت في التوقيت الأرضي في حادثة مصنع شيبكو حينما كان ابنه صغيرًا.

كان ديف يبتسم عندما فُتِحَ الباب ولكن عندما تلاقت أعيننا، تغيرت تعبيرات وجهه من الترحيب إلى الحيرة.

سألني قائلاً: "هل أساعدكِ؟"

حدقت في هذا الرجل المسن الذي لم يعش لرؤية عيد ميلاده الثلاثين في التوقيت الذري، وها هو ذا الآن يقف أمامي يتمتع بكامل الصحة والعافية، وقد خطر في بالي أن امتيازات المطارد الكلي قد تكون في الواقع هراء، وأنني ضحيت من أجل إعطاء عمرًا لديف كندال كي يؤدي دورًا لم يؤده في التوقيت الذري؛ ألا وهي تربية زعيم مستقبلي عالمي، فهل يعلم أنني تخليت عن هويتي من أجله؟ وأنني أُجبِرتَ على التخلي عن ابنه؟ وأن أحفاده كانا يجب أن يكونا مني وليس من تلك الحقيرة ساندي التي طعنتني في ظهري؟

قلت له: "ساعدني، إذا كان بإمكانك أن تعيد إليّ حياتي مرة أخرى".

ومن داخل المنزل نادى صوت امرأة مألوف: "من بالباب يا ديف؟"

كانت بي كندال، لابد أنها وداف يرعيان الأولاد بينما يحظى كندال وساندي بوقت خاص مع بعضهما على انفراد.....عظيم.

قال داف لزوجته: "لا أحد يا عزيزتي".

"إذن لماذا لا تزال تتحدث إليهم؟"

أسرعت من قلب المدخل إلى الباب، وقد كَبُرَت كثيرًا وملأ شعرها الشيب وقصته قصة أنيقة، إلا أنها تتمتع بجسدٍ ممشوقٍ وقوي، لا شك أنه ناتج عن العديد من تمارين اليوجا والبوت كامب، ولا أتذكر أنني رأيت خطوط القلق تعلو وجهها؛ فقد كانت امرأة تنعم بحياة مريحة، وزوج مخلص، وابن محبوب، يتوقع أنه سيكون أول رئيس وزراء أسود في كندا، ولم تُبلى بأي من مآسي العصر القديم؛ لا ترمّل في سن الشباب، ولا وظيفة من منزل إلى آخر في بلدة صغيرة تعمها الكراهية، ولم تنفي السلطات ابنها إلى مدرسة صناعية، والتي كنا نرى فيها الوجه الآخر للاستعباد.

وقفت عند الباب خلف زوجها الوسيم الذي صار على قيد الحياة تنظر إليّ في ثباتٍ، أو بمعنى أدق، تذكرتني، وقبل أن أفتح فمي لأقول شيئا من شأنه أن يجعلها تناديني باسمي، وقبل أن أفكر في أي شيء، تحركت بهدوء أمام زوجها ووقفت أمامه كأنها تحميه.

أستطيع أن أراها تتصارع في أختيار الكلمات المناسبة لتطردني من الحياة التي سُرِقْتَ منها، رغم أنه -وإحقاقًا للحق- كان المتسلل هو من ورطني، على افتراض أنه لهدفٍ سامٍ ألا وهو إنقاذ العالم.

قالت لي: "من فضلك، لا تزعجينا مرة ثانية، وداعًا".

وظلت عيناها مثبتة على عيني حتى أغلقت الباب الثقيل في وجهي.

جزيرة السيدة المجنونة

أكتوبر ٢٠١١- التوقيت القياسي الأرضي

وصلت بطائرة بحرية حاملة هدية عيد ميلاد أبي المتأخرة في حقيبة الهوكي؛ والذي كان تلسكوبي القديم، وقد وقف والدي مع ليندا ينتظراني على الرصيف، وقدّم أبي نفسه لي بأدب وكأننا زملاء عمل في اجتماع في مؤتمر للمرة الأولى. ظل وسيمًا رغم سنه، ولا شك أن السيدات كبيرات السن اللائي يخضعن للرعاية لمدة طويلة سيعجبن به، فمن غير المعتاد أن يعيش رجل أكثر من زوجته لسنواتٍ عديدة؛ فقد ماتت أمي المسكينة بالسكتة القلبية حينما كانت في المطبخ تستمع إلى أخبار السي بي سي على الراديو، ولم تكن قد أكملت عامها السبعين بعد.

قال أبي: "كارلو بيوندي. وأنتِ؟ "صافحني بيد قوية بينما كان الطيار يرفع أمتعتي من الطائرة، على الأقل قبضته قوية حتى لو كان عقله غير ذلك.

"اسمها ديبي"، قالتها ليندا سريعًا قبل أن تعطيني فرصة للإجابة.

قال أبي لليندا: "نعم بالطبع، إحدى بنات عم مادي في الريف القديم"، ثم تحول إليّ وقال: "وأنتِ؟"

صارت ليندا نسخة من أمي من حيث الشعر الرمادي الكثيف والوجه الأشبه بخارطة الطريق المضطربة ولكنها احتفظت بجمالها.

جلسنا سويًا حول المائدة الخشبية في مطبخها الكبير أراقب أبي في إمعانٍ وهو يفك الهدية التي أحضرتها له.

قال أبي: "رائع"، ثم أخرج التلسكوب وتابع كلامه: "أوريون، الدُب الأكبر".

قلت له: "هذا صحيح يا أبي، حيث اعتدنا أنا وأنت على رؤية النجوم معًا، أتذكر ذلك؟"

ابتسم أبي وهز رأسه نفيًا ولكنه قال: "نعم بالتأكيد".

عندما علقت على حالة أبي لليندا، حولت عيناها تجاهه وكأنها تقول لي، تحدثي معه وليس عنه- ولكنها تكلمت بعد ذلك نيابةً عنه؛ إذ قالت لي أن أبي يخضع لبرنامج يساعده على تحفيز خلايا مخه، وهو ليس علاج بالطبع، ولكن ثُبِتَ أن التمرين والعلاج بالموسيقى يحافظان على الوظيفة المعرفية، حتى في الأشخاص الذين يعانون من الخرف في حالته المتقدمة. بيت القصيد، يفيد التحفيز في تحسين حياة أبي، ومن ثم روحه على حد وصف ليندا.

علّقت قائلة: "أتمنى أن تُثري جزيرة السيدة المجنونة روحي أيضًا"، ثم صببت كوبًا آخر من شاي الرويبوس، الذي لا يخلو منزل ليندا منه؛ حيث كنت أفتقد الشاي الهندي الذي يبدو في نظر ليندا تقليدي جدًا، وأفتقد أيضًا فودكا المارتيني.

تنهدت ليندا وقالت: "أتمنى حقًا أن تكفي عن استخدام هذا الاسم الغبي- جزيرة السيدة المجنونة- ما الخطب في العجوز جابريولا القبيحة؟"

قلت لها: "السيدة المجنونة أكثر طرافة"، وبمعنى أدق؛ اخترع بام بام هذا اللقب حينما أخبرته عن عادات ليندا الغذائية ونظامها الصحي، إذ قال بام بام في هذا الشأن: "امرأة إيطالية كندية أقلعت عن القهوة، والخبز، والنبيذ، والجبن، والمعكرونة، والمثلجات، والشوكولاتة، والملح، وزيت الزيتون، والجلد، والجنس، أي كل حقوقها المشروعة وعادت إلى زمن ماركو بولو. إذن أختكِ سيدة مجنونة"، ومن هنا جاء مصطلح جزيرة السيدة المجنونة.

أذكركم؛ لست متأكدة من الجنس، بل هذا افتراض فقط، نظرًا لعدم وجود أي شخص سواء رجل أم أنثى يمكنني وصفه بأنه صديق لليندا، وعلى أي حال قالت لي ليندا الشيء ذاته، فأخبرتها بهروبي من دارين، ووجدتني بحاجة إلى نوع من التفسير لظهوري المفاجئ على عتبة بابها، حيث إن قول الحقيقة أقل إرهاقًا من اختراع كذبة يمكن تصديقها؛ إذ حكيت لها رحلتنا في سيارة الرحلات، دون أن أوضح لها أن دارين هو طفلها المفقود؛ حيث سيبدو ذلك أمرًا غاية في الغرابة، لذلك اكتفيت بأن أقول لها أننا انتهينا، وكان خطأي أنا وليس خطأه هو على أي حال، وبعد بضعة أيام في فندق فينلانديا بالقرب من واوا، توجهت إلى خليج ثاندر؛ ومن هناك، استقليت طائرة إلى فانكوفر ثم طائرة بحرية إلى غابريولا.

قالت ليندا: "يبدو أنكِ قمتِ بالكثير من القفزات كي تهربي من سرير شخص ما".

***

كان منزل أختي مثل بئرٍ من الحرمان العاطفي؛ إذ قضيت ثلاثة أشهر بدون جلوتين ولا كافيين ولا لحوم ولا كحول ولا جنس في غرفتها الإضافية.

كنا نتنزه ونجدف معًا ونزور أبي ثلاث مرات أسبوعيًا في نانايمو، وقد بدأت دروس اليوغا في منزل جاسمين صديقة ليندا، وهي الوحيدة التي التقيت بها في الجزيرة التي تبدو وكأنها صديقة خاصة محتملة لأختي.

ذات مساء؛ أتت جاسمين مع باقة من حديقة زهورها البرية وطبق كبير من شطائر كاليفورنيا المصنوعة في المنزل وسيجارتين ملفوفتين، حيث إن ليندا وصديقتها لم تستغرقان في الكحول أو التبغ، ولكن تدخين الحشيش أمر مقبول جدًا، فاستغربت ذلك ولكني ذكرت نفسي بأنه ليس بيتي. عندما جلسنا حول مائدة المطبخ نحتسي الشاي الذي لا مفر منه وندخن سجائر الحشيش، ألقت جاسمين خارطتنا التنجيمية، وأخبرتها تاريخ ميلادي وزمني فقالت: "الشمس في الميزان، والقمر في الجوزاء، والقوس يصعد، ماذا..".

قلت لها عابسة: "ماذا تقصدين بماذا؟".

قالت لي: "مثلما أرى؛ مثيرة للاهتمام ومبدعة وخيالية، ولكن ماذا؟... أعتقد أني لا أود الدخول في علاقة حب معكِ، فأنتِ متقلبة وربما عصبية ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتها"

قالت ليندا بتذمر: "هذا أقل ما يقال عنها؛ إذ كانت مثيرة

للمشاكل منذ البداية، حيث قضت حياتها ما بين رجال وخمر ومخدرات وجنس؛ سميها ما شئتِ، وهربت كذلك من المنزل حينما كانت في الثالثة عشر من العمر، وقد تظاهر والداي بأنها ماتت ووضعا شاهد القبر على أحد القبور كي يتقبل أجدادي أنها رحلت، ولم نلتقي أنا وديبي مرة أخرى إلى أن تعقبتني هنا في نيويورك قبل أن تحوّل حطام قطار حياتها إلى مادة لقصتها المصورة.

ذُهِلتُ من كلامها فقلت: "هل هذه هي القصة التي قمتِ باختراعها لتخلقي سببًا لوجودي؟ وأن أبي وأمي قد زيفا موتي؟ بحقك، حتى عندما أرسلوكِ بعيدًا بعدما حملتِ لم يؤلفوا قصة ليخفوا الحقيقة".

رمقتني ليندا بنظرة قاتلة وهي تدخن الحشيش وقالت في هدوء: "سُحقًا لكِ".

انزعجت جاسمين من هذا الحديث، وبت ممتنة لها عندما حاولت تغيير الموضوع وسألتها قائلة: "ماذا كنتِ تفعلين في نيويورك يا ليندا؟!"

"كنت أنمي مهنتي لأجد صوتي الموسيقي، وقد انتهى كل ذلك بعدما ماتت أمي وتعين على أحد تولي الدفة ليعتني بأبي الذي لم تُكَلّف ديبي نفسها عناء زيارته ما لم يناسبها ذلك"، ثم تنهدت طويلاً وأضافت: "يفضل أن نتصرف كالكبار".

تظاهرت ليندا بعدم ملاحظتها أنني قد بدأت أبكي، فاقتربت مني جاسمين لتمسك يدي حينما تعثرت وأنا أنهض من على الكرسي.

غمغمت قائلة: "معذرة"، ثم عدت إلى غرفتي أزيل غطاء السرير، وأقلب جيوب السترة، وأخدش باطن حقيبتي وحقيبة الظهر بأصابعي بحثًا عن اللوريزبام التائه يا لسوء الحظ، وفي الوقت نفسه تصاعدت أغنية جون ميتشيل من المطبخ، سحقًا لي، هؤلاء الهيبيون العجائز لا يعرفن متى يأخذن الراحة.

وأنا أرتعش غضبًا مع غياب اللوريزبام، رقدت على السرير وأنا أقبض على قلادة سيدة اللوردز في قبضتي.

استيقظت في صباح اليوم التالي مرتدية ملابسي كاملة أتضور جوعًا، كل ذلك بسبب دخان الحشيش الذي استنشقته بطريقة غير مباشرة، وعندما توجهت إلى المطبخ؛ كانت ليندا هناك، تعجبت لرؤيتها تحمص القهوة وتقلي البيض بالطريقة التي أحبها، ربما على سبيل التغيير، أو نوعًا من الاعتذار. شيء لا يصدق.

قالت لي: "هل استيقظتِ"، ثم عانقتني وقالت: "آسفة على ما حدث، لقد ذكرتني جاسمين أننا سنتغلب جميعًا على الصدمات بطريقتنا الخاصة، فقيام أبي وأمي بطردك أمرًا لا يُغتَفَر، أتفهم ذلك؛ نظرًا لكل شيء حدث لكِ، فلا عجب أنكِ قد سقطتِ في عالمك الخيالي، سامحيني".

كنت متوهمة في عالمها؛ حيث كانت واقعية بشدة، لكنها رغم ذلك تجنبت النظر إلى عيناي، ورأيت شيئًا ما غير طبيعي في وجهها؛ ألا وهو الشعور بالذنب.

حدقت في وجهها وسألتها: "ليندا هل تتذكرين داف؟"

تجاهلتني ونظرت إلى كوب القهوة ثم غمغمت قائلة: "نعم".

"وماذا عن بيلي والطفل الذي أخذوه منكِ؟"

رأيت ملعقة السكر البني في كوبها. منذ متى وهي تحلي قهوتها.

قالت وكأنها توجه سؤالًا لغطاء الطاولة: "لماذا أظن أنني ثملة؟ انظري ماذا أخذتِ مني؟"

قبضت بيداي على كلا جانبي مفرش الطاولة محاولةً تذكير نفسي بشدة أن أختي هي نموذج طبيعي من التوقيت الأرضي، متعجرفة وعمياء ومنغلقة العقل، ويعتمد ارتياحها على إنكار الحقائق التي تقلقها.

قلت لها مذكرة: "بسببي صار لديكِ صوتًا موسيقيًا، ومنزلاً، وجزيرة السيدة المجنونة. أنتِ أفضل حالاً في هذا الزمن، لا يهم من فقدتِ، ولكن انظري ماذا فقدت أنا؟"

ارتجفت يداها فأحدثت الملعقة قعقعة على حافة فنجانها.

قالت وعيناها على مفرش المائدة: "تبًا لكِ، تبًا لكِ، تبًا لكِ. أتمنى أن تكفي عن تذكيري بأشياء لم تحدث".

سألتها بهدوء: "مثل ماذا؟"

أجابت ولاتزال لا تنظر إليّ: "مثل أنني قد نشأت في....مكانٍ آخر، وبيلي، والطفل، وداف، وأراضي زي".

فتحت فمي لأقول شيئا مثل: قد لا تحبين التفكير في هذا العالم الآخر، ولكن على الأقل أنتِ جزء كامل من هذا العالم على العكس مني؛ فلديكِ منزل وماضي، حتى لو كنت تتذكرينه وهو يتكشف بطريقتين مختلفتين.

ولكن لا فائدة من الإلحاح على ليندا، فهي مثل الكثير من الناس؛ اختارت ببساطة نسيان الذكريات التي لا معنى لها. ولماذا ينبغي لها أن تتذكر؟ فالتوقيت الأرضي متخمٌ بأوصياء الماضي مثل المعلمين، وصناع الأفلام، ومنتجي التلفزيون، والروائيين، ومقدمي البرامج، والخطباء، والمدونين. حتى لو لم تكن ليندا موجودة في الجدول الزمني البديل، فالبعض الآخر سيُنقّب باستمرار عن خيوط ذكرياتها الممزقة في نسيج التاريخ المقبولة. حقًا إنه لرائع أن يثق الشخص في ذكرياته الخاصة بأي شيء.

وقد ذكرتها: "على الأقل لا زال لديكِ أب".

أجابتني: "لكنني فقدت أبي منذ زمن طويل، وصرت وحيدة مثلكِ".

استشعرت أنها لن تقول شيئًا آخر في هذا الشأن، فاحتسيت قهوتي وغادرت المطبخ.

***

في يوم السبت؛ جلست أنا وأبي معًا في طاولة مطبخ ليندا مع أقلام الرصاص ودفاتر الرسم، حيث كنت أعلمه طريقة والتر فوستر لرسم الخيول. لم يكن سيئًا في الرسم.

أخبرت ليندا أنني سأجد معالجًا بالرسم وجهًا لوجه بعدما أذهب، وقلت لها متطوعة: "سأتحمل أنا التكاليف".

أومأت برأسها وهي تغسل الأطباق وقالت بمنتهى الصرامة: "هذا لطفٌ منكِ"، فأدركت أنها غاضبة مني.

"معذرة، ماذا فعلت هذه المرة؟"

ثم ألقت القدر بقوة في رف التجفيف وقالت: "لا شيء، لا شيء مطلقًا، تلك هي المشكلة، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن أبي تقريبًا، ثم تظهرين فجأة وتتظاهرين بأنكِ اللطف ذاته". لمست في لمعة نظراتها التي تمتد على بعد عشرة آلاف قدم، نفس نظرة أمي الاستهجانية وقد عاد بي الزمن إلى الوراء إلى مطبخنا في شيبمان كورنرز.

ليس لديّ أي فكرة عما يجب أن أفعله الآن فقلت: "هل تريدينني أن أرحل؟"

عادت إلى غسيل الأطباق مرة أخرى، مثل أمي حينما تواجه صعوبات فتغسل شيئًا.

"كلا، سينزعج أبي من ذلك".

حقًا لا يمكنني قول شيء عن هذا.

ليندا لا تحبني ولا أنا. هناك فقط أولوية واحدة في حياتها وهي أبي.

***

ثمة شيء واحد جيد؛ وهو بينما كنت جالسة على طاولة الرسم في غرفة نومي، وجدت القصة الأصلية تكتب نفسها بنفسها، ولأول مرة؛ شعرت بالأمان وأنا أكتب من أين جاءت بطلة فتاة بلا ماضي؛ إذ إنها مجرد نسخة من الماضي الخاص بي، وعلى أي حال؛ فلن يصدق أحد ذلك.

وقبل عيد ميلادي بمدة قصيرة، اتصلت بالمحررة في مجلة جراي ويزارد للقصص المصورة في تورونتو، وقد سمعت الارتياح في نبرة صوتها الذي امتد من الخط الهاتف إلى طريق جزر الخليج Gulf Islands.

قالت لي: "راجعيها وأرسليها إليّ عبر البريد الإلكتروني، كي أحجز لكِ مكانًا في معرض مهرجان محبي الكتب المصورة التالي".

قلت -تقريبًا- أنني لن أعود، وقد جمعت أحباري وسأغادر جزيرة السيدة المجنونة، وفي الوقت نفسه، أدركت أن ذلك سيكون مثل الموت الحي، لذلك قررت ألا أفعل شيئًا سوى النوم معظم النهار، والرسم مع أبي، والقيام بتمارين اليوجا.

الشيء الثاني الجيد هو أنني تخلصت من اللورازيبام، ليس بنفسي، ولكن خمنوا ماذا!!؟؟

وجدت ليندا معالجة متخصصة في علاج إدمان المخدرات، كانت متقاعدة، بالطبع، وهي شخصية اعتادت على العمل في البر الرئيسي وقررت أن تفعل شيئًا فنيًا مثل أي شخص آخر يقطن هنا، كان اسمها سينثيا؛ وقد كانت ضئيلة الجسد، ذات وجه مجعد، وقد بدت مثل امرأة اليوجا، وعلى الرغم أن وجهها قد بدا عليه أنها تقضي الكثير من الوقت في الشمس، إلا أن هناك شيء طفولي لديها، شيء ما لم يكتمل، عندما ذكرت ذلك إلى ليندا أوضحت لي أن سينثيا تعاني من متلازمة تيرنر وقالت: "كانت تعاني من مشاكل طبية طيلة حياتها، مسكينة، لكنها كانت رائعة مع أبي".

باتت سينتيا تأتي إلى منزل ليندا كل يوم لتساعدني على التحرر من الإدمان بعد أكثر من ثلاثين عامًا على تناول هذا الدواء؛ حيث أدمنت بديل الفاليوم الأول في أواخر السبعينيات، وبفضل مساعدة سينتيا المهنية وتمارين التأمل مع جاسمين وتناول جرعات كبيرة من حبوب الميلاتونين الصحية وقضاء العديد من الليالي بلا نوم مع التعرّق، صرت أخيرًا أستعد لمواجهة الحياة كما هي حقًا، دون أن تنقيها العاطفة.

***

كنا في شهر نوفمبر عندما بدأت أفكر فقط أنه حان وقت العودة إلى نسختي الخاصة من الحياة الحقيقية في تورونتو؛ جاءنا زائر مفاجئ إلى جزيرة السيدة المجنونة أوصلته ليندا إلى غرفة نومي، وكأنه يتجول في منزلها كل يوم في السادسة صباحًا، فتحت عيني على صوت مقبض الباب، كان هو، بام بام.

قال لي: "مرحبًا يا شروق الشمس"، ثم جلس بجانبي على السرير.

ابتسمت إليه من وسادتي وقلت: "ماذا تفعل هنا يا بام بام؟"

دفع خصلة من شعري من فوق عيني وقال: "لما لا تناديني بيب مثل الجميع؟"

"لأنني أعرفك أكثر من أي شخص آخر"، ثم اقتربت منه ولمست وجهه.

"إن مؤخرة عنقك تتحول إلى الرمادي، كيف ذلك؟"

ابتسم إليّ بوجهه الجميل الطيب وقال: "لقد بدأت أشيخ في سلام".

جلسنا لبضع دقائق صامتين متشابكي الأيدي على ضوء الصباح، حيث كانت هذه من أكثر الأشياء التي أحببتها في بام بام، وهو أنه لا يهاب الصمت، فقط يحب أن يكون معي نتمتع بمرافقة بعضنا بعض، حتى أنني أحيانًا ما أفكر في كل الناس الذين أحببتهم في حياتي، وأرى أنه أكثر واحد أحببته في الجميع.

"أحضرت شخصًا يريد أن يراكِ، إنه رجل الصيانة في شركة مايتاج".

نهضت وقلت: "دارين؟ لماذا؟"

هز رأسه ضاحكًا وقال: تعطلت غسالة ميلي مرة ثانية، فاتصلت بالرقم المطبوع على الملصق على الباب إلى أن ظهر روميو، وبينما كان يصلح الماكينة حكى لي قصته الحزينة معكِ وكيف هربتِ منه دون تفسير في براري شمال أونتاريو، فقدمت له مشروبًا، ثم العشاء، يبدو أنه شابًا لطيفًا وفيلسوفًا نوعًا ما، وليس أحمقًا ويتمتع بحس فكاهي ومثقف ومن محبي الكتب المصورة وصغير في العمر قليلاً ، أرى أنه ربما يكون مثاليًا لكِ في حقيقة الأمر".

"كندال كان مثاليًا لي أيضًا، وانظر ماذا حدث".

تذمر بام قائلاً: "أتريدين حقًا أن تكوني سيدة كندا الأولى؟ ليس أمامكِ الكثير من الفرص لذلك، فلتكوني مؤلفة كتب مصورة ذات خبرة في الحياة".

هززت رأسي وقلت: "حسنًا، أفهم وجهة نظرك، ولكن لا

يجب أنا وداريـن أن نتقابل مرة أخرى يا بـام، فهنـاك روابط وراثية معقدة بيننا لا أريد أن أشرحها لـه".

أشار بام بام إليّ قائلاً: "ولم لا تشرحينها له؟"

"إنـه ابـن ليندا المفقـود مـن التوقيت الذري، أي أنـه ابن أختي، وهنـاك محظورات صارمة جدًا في هذا الشأن".

وضـع بـام بـام سـاقًا علـى سـاق وقـال: "حاسـتي السادسـة تخبرني، أنكِ ستخرجين هنا عن القاعدة قليلاً، حيث قلتِ لي بنفسكِ مئات المرات أن ما حدث في جدول زمنـي معين، لا يعنـي حدوثه في الآخر".

حدقت في وجهه وأنـا أشعر بشـيء من الديجافو لـم أفهمـه مثلما كنت في كثير من الأحيان، وقد تعلمت أن أستمع إلى أحاسيس بام بام، فهو استثناء الاستثنائيين، شخصٍ ما يمكنه في حقيقة الأمر أن يمتلك المال والممتلكات، إنـه مثل ملك الاستثنائيين.

قلت لبـام بـام: "حسنًـا، سأدعك تقوم بدور وسيط الزواج هذه المرة فقط".

تقابلنـا أنـا وداريـن في مكانٍ محايد، في حانـة محليـة في مطعم يسمى جريزلي، وبعد قبلة مهذبة؛ جلسنا ننظر إلى النافذة نشاهد عودة الطائرات البحرية، كان الجو بيننا متوترًا قليلاً.

قطعت الصمت أخيرًا وقلت لـه أنـه الطرف المظلوم، وأنني أعتذر عن اختفائي المفاجئ في بحيرة سوبيريور، وشرحت لـه مخاوفي من الخلل الوراثي النادر في دمه ودمي وابن أختي المفقود وتاريخ ميلاده حتى مظهره ومهاراته الفنية.

عاد دارين بظهره إلى الوراء على الكرسي وهز رأسه قائلاً: "يا لها من صدفة".

رشفت شراب فودكا المارتيني بنكهة الزيتون الرطب غير المقلّب على الطريقة التي أحبها؛ ياله من شعور عندما تتذوق الكحوليات مرة أخرى.

"لا توجد مصادفات، أنا وأنت بكل بساطة تربطنا صلة رحم قوية".

ساد الصمت بيننا مرة أخرى.

ابتلع دارين النبيذ وقال متذمرًا: "حسنًا من قال أنني أريد أن نكون معًا ثانية، لقد ظننت أنكِ مدينة لي بالتوضيح على الأقل، شكرًا جزيلاً".

شعرت بالإحراج والإحباط فجأة؛ إذ ظننت أنه جاء إلى جزيرة السيدة المجنونة ليرجعني ثانية، أي غباءٍ هذا؟

ولحسن الحظ غيّر دارين الموضوع وقال: "كيف حال قصتك الأصلية؟"

"انتهت أخيرًا، وقد تبين أنها قصة عن مأساة الانتقام، تمامًا مثلما قلت، تجتاحها الغيرة والخيانة والمشاعر المتضاربة، جميع ذلك؛ بالضبط كالحياة في جزيرة السيدة المجنونة".

رفع كأسه وقال: "تهانينا، انتهت قصتي أيضًا".

ثم أخرج من جيب سترته ورقة مطبوعة مطوية سلمها إليّ، كانت رسالة إلكترونية من أونتاريو لخدمات التبني، عندما قرأتها، قال لي ما كُتِبَ في الورقة:

"ماتت أمي البيولوجية منذ خمسة أعوام، كانت يونانية كندية، أما أبي فلا يزال غير معروف. ولدت في سارنيا في أونتاريو، والشذوذ الجيني شيء يسمى فرط الحرارة الخبيث وليس عندي، ماذا عنكِ؟"

غمغمت وأنا أفحص التقرير: "كولين استريز الكاذب"، لا يبدو أنه تزوير. نظرت إلى دارين فأدركت أنه لا يشبه أي أحد من أفراد عائلتي، فهذا الوجه النورديّ، والشعر الأشقر كالخليج الذهبي، وعيون كالليل الحالك، هي الشيء الوحيد من ملامح الإيطاليين، ولكن ما أكثر الناس الذين لديهم تلك الملامح؟ هناك الكثير من اليونانيين.

عندئذ أمسك يدي وابتسم: "انظري أنا وأنتِ نعرف أن بيننا رابط، لنحاول مرة أخرى، لنأخذ رحلة إلى فانكوفر، ونحجز سريرًا وإفطارًا، أو نأخذ سيارة رحلات ونتجه جنوبًا، لنرى إلي أين ستسير بنا عجلة القدر".

ملت فوق المائدة لآخذ قبلة وقلت: "انس أمر الفراش والإفطار وسيارات الرحلات.. فأنا أفضل الفنادق".

حينما تلاقت شفاهنا اعتقدت ربما.. وفقط ربما أن ليندا على حق وأنني قد تخيلت حياتنا في التوقيت الذري، ربما كان هذا من تأثير اللورازيبام، وقبل ذلك؛ الفاليوم والصدمات الكهربائية في نيويورك، وقلقي ورغبتي المحبطة في المغامرة، وخيالي المفرط. الآن حان الوقت لتنفس الصعداء وتقبل الحقيقة؛ حقيقة ليندا وحقيقة الجميع، أستطيع أن أغفر لنفسي وأمضي قدمًا في حياتي، وألا أكون سيدة مجنونة بعد الآن.

عندما قلّبت تلك الأفكار، شعرت بالخجل والارتياح في آن واحد فأخيرًا وجدتني أعيش في الواقع نفسه مثل أي شخص آخر، إلى أن ظهرت رأس شقراء صغيرة من النافذة، كانت معالجتي سينتيا التي جاءت وتعلو وجهها نظرة حازمة تقريبًا نظرة تنمر. لقد سبق ورأيت هذه النظرة من قبل.

عندما لمحت مائدتنا أسرعت إلينا وقالت: "إذن أنتِ هنا يا عزيزتي مع صديقك، أحتاج إليكِ أو بالأحرى أحتاج إلى صديقك"، ثم تحولت إلى دراين ومدت له يدها: "سينتيا مكلينتوك، لقد عرفت من ليندا أنك تعمل في الصيانة؟"

سألتها: "هل تعطلت غسالة الملابس أو غسالة الأطباق يا سينتيا؟"

ضحكت وهزت رأسها أسفًا: "أوه لا لا يا حبيبتي، شيء ما أصعب من ذلك".

لم أذهب قط إلى منزل سينتيا الذي كان عبارة عن منزلٍ من طابق واحد صغير يطل على مشهد خلاب وحديقة منسية أمام المنزل، وأراهن أنها ستكون من النفايات في فصل الصيف.

قالت لي: "لم تخبرني آن ماري حتى هذا الصباح"، وكأنها تعرف أنني أعرف آن ماري أو ما الذي ستقوله.

"معذرة يا سينتيا، من هي آن ماري؟"

قالت سينتيا ضاحكة: "أوه ماذا أظن؟ إنها شريكتي، وهي فنانة مثلكِ يا عزيزتي، وكلما كنت أعمل معكِ في منزل أختك، كان طلاب آن ماري معها في البيت دائمًا".

اصطحبتنا إلى الغرفة الشمسية المتخمة بالنباتات حيث كانت آن ماري ترسم فيها، كانت ذات شعر رمادي ممشط للخلف بطريقة أنيقة، وترقد ورأسها على الوسادة والفرشاة بين شفتاها ترسم برفق منظرًا بحريًا على لوحة زيتية مثبتة بإحكام فوق وجهها.

أزاحت سينتيا الفرشاة من فم آن ماري لتقديمنا إليها، فحاولت التصرف وكأنه ليس هناك شيء غريب حول الالتقاء بفنانٍ يرسم بفمه في جهاز تنفس صناعي لأكثر من خمسين سنة بعد وباء شلل الأطفال الأخير. عندما تكلمنا عن الطقس والبحر وآخر أعمال آن ماري، تساءلت في قرارة نفسي؛ كيف يمكن لاثنين أن يعيشا معًا بينما الآخر ملفوفًا في صندوقٍ حديدي.

وأخيرًا تطرقنا إلى موضوع الزيارة حيث قالت آن ماري: "أشعر أن جهاز التنفس الصناعي قد تعطل ثانية، آسفة على هذا الإزعاج".

وضعت سينتيا يداها على الجهاز المعدني لشريكتها وقالت: "لا مشكلة على الإطلاق يا عزيزتي"، ثم نظرت إلى دارين وقالت: "إنهم يريدون ثَقْب القصبة الهوائية وإدخال أنبوب فيها، ولكن ما الفائدة إذا كانت ستؤدي إلى مضاعفات كالعدوى وما شابه؟ لدينا متخصصين في الإصلاح يضبطون "ليزيت" حيث صار من المستحيل تقريبًا التخلي عنها".

أوضحت آن ماري: "ليزيت هو جهاز التنفس، على اسم حيواننا الأليف الألطف من الرئة الصناعية".

قال دارين ضاحكًا: "أطلق دائمًا أسماءً على الأجهزة، والآن أحتاج إلى إجراء بحث حول توافر قطع الغيار. هل لديكم واي فاي؟"

شاهدت هذا المشهد يتكشف أمامي بمزيج من الموضوعية والدهشة، كيف لم أتعرف على سينتيا من قبل؟ إنها الخادمة الشقراء لدوريس داي، والجسم ذو الشكل الغريب، والسلوك المتنمر؛ والتي لم أتحمل سوء نيتها تجاه سرقة قصصي المصورة للمرأة الخارقة، ولكن مثلما قال داف دومًا؛ لا توجد صدف.

بينما كان دارين يبحث في جوجل عن "استبدال قطع غيار الرئة الصناعية" على هاتفه الذكي، قلت لها: "لقد أدركت أننا أنا وأنتِ كنا في المشفى معًا حينما كنا أطفالًا، كان اسمك سيندي في تلك الأيام، وقد لعبنا لعبة الملجأ النووي تحت السرير، وسمحت لكِ إحدى الراهبات الممرضات بالاحتفاظ بقصصي المصورة عندما عدت إلى المنزل. أتذكرين؟"

ضحكت سينتيا وهزت رأسها قائلة: "أخشى أنها ذاكرة كاذبة يا عزيزتي؛ لقد التقيت بالفعل بفتاة صغيرة تدعى ديبي في المستشفى، كانت تحب القصص المصورة، لكنه كان اسمًا منتشرًا جدًا في تلك الأيام، وقد ماتت ديبي المسكينة من التهاب اللوزتين بسبب شيء ما يتعلق بالتخدير. ربما هناك سيندي أخرى- فثمة الملايين منا كذلك".

حدقت في وجهها لا أعرف ماذا أقول، إلى أن حولت انتباهها إلى آن ماري.

إذن ليندا مخطئة؛ أنا لست مجنونة، أنا فتاة بلا ماضي، حية وميتة في آن واحد.

دلفت إلى الشرفة أشاهد الأمواج المتلاطمة فشعرت أنني أغرق بين فيضٍ من الإحساس غير المألوف، ألا وهو الرضا، أو ربما السعادة، حيث يمكنني التوقف عن حجز غرف في الفنادق والعيش في منزل حقيقي، مع الأجهزة الراقية التي سيحافظ عليها دارين رغم ضمانات الشركات المصنعة وغرفة الضيوف الخاصة بليندا، التي ربما تحضر معها والدي للزيارة.

يمكنني أن أكبر مع دارين وأتقاعد في مزرعة أو جزيرة صغيرة مثل هذه، وعندما نشيخ ويمرض إحدانا، يمكننا الانتقال إلى دار للمسنين تطل على البحر، ونجلس في هدوء متشابكي الأيدي ننتظر غروب الشمس.

عندما سردت هذه الرواية في رأسي، سمعت صوتًا بعيدًا لتروس دراجة بخارية، استدرت وأنا متأكدة بما يكفي، أنه هناك، يشق الطريق عند نهاية عقار سينتيا.

وقد أحدث غشاوة بيضاء، بيضاء كالكوكايين، بيضاء كالملاك.

فكرت في الركض إلى داخل المنزل أو القفز في البحر، ولكن ما الفائدة؟ لا يمكنك الهروب من مصيرك، فأينما ذهبت سيعثر عليّ. تساءلت ماذا سيريد هذه المرة؟ لا شك سيحدثني عن تغير المناخ.

سيقول لم أتعرف عليك عند بحيرة سوبيريور، وحينما أخبرت أصدقائي عنكِ قالوا لي أيها الغبي لا بد أنها المطاردة، لهذا السبب فقدت وعيها تقريبًا عندما رأتك، اذهب وجِدها.

سأقول؛ أتمنى ألا تكون قد انزعجت، لقد قابلت شخصًا ما ولن أذهب إلى أي مكان آخر.

سيقول لي بجرأة؛ عشر سنوات من الآن ستكون تلك الجزيرة مغمورة تحت الماء.

أعتقد أن جميع النساء المجانين في هذه الجزيرة لن يستطعن الانتقال إلى اليابسة، وسأعود إلى الماضي.

إنها ليست مزحة يا ديبي، إننا نواجه كارثة بيئية عالمية، لذلك إن كنتِ قد وجدتِ رجلاً تمسكين يده في دار مسنين في حين كلاكما ستتضوران جوعًا حتى الموت جراء النقص الهائل في المحاصيل الزراعية، إنه لموضوع خطير، وقد حددنا طيفًا زمنيًا آمنًا ونظيفًا، فقط بقفزة قصيرة من هذا الجدول الزمني، إلى توقيت أرضي آخر. الآن كل شيء متروك لكِ.

سأقول له إنك تهذي.

قد ينجرح من كلامي أو ربما يبدو مستمتعًا ويسألني لماذا تقولين ذلك؟

لأنك متّ، وذبت من الإعياء الزمني.

سيهز كتفه ويقول: من الذي مات بعد الآن؟ إذا كنتِ تريدين التفاصيل؛ فهم قد حملوا وعيي إلى شبكة عصبية، ثم إلى جسد ميكانيكي حيوي، إذ يقوم معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بذلك في صمت منذ مدة.

هل أنت رجل آلي؟

سيهز كتفه ويقول بابتسامة واسعة: أسميها ما شئتِ، لقد تمكنت من القيام بالشيء نفسه لكِ، تمرّين بالإعياء الزمني ثم الموت، لنناقش ذلك بعد القفزة، هيا تحركي، لدينا كوكب يجب أن ننقذه.

انضم إلى مكتبة .. .. اضغط اللينك

سـأعود للنظـر إلـى المنـزل عبـر نافـذة الاسـتوديو، وسـأرى داريـن يتحـدث إلـى سينتيا، وسـتتلاقى أعيننـا وأنـا أرتـدي الخـوذة وأضبـط شـريط الذقـن وأعتلـي ظهـر دراجة الكاواسـكي، وأشـتم نفحة القرفـة علـى جلـد سـائق الدراجـة.

سـألاحظ ومضـة مـن المعـدن النحاسـي علـى سـاقي وملفًـا لولبيًا ملتحمًا بتروس الدفع، فقد جلسـت على محول كهرومغناطيسـي بعجـلات، وهـذا أفضـل مـن تزلـج المتزلـج الفضـي بيـن المجـرات.

سينظر داريـن عبـر النافـذة فاغـرًا فـاه من الدهشـة، سـتتلاقى أعيننـا، عندئذٍ سألوح له بيد واحدة وسيهز رأسـه لي وسأعمل بأصابعي حرف ال V.

السلام والعيش طويلاً والازدهار... الوداع.

سـيزيد راكـب الدراجـة السـرعة إلـى السـرعة الرابعـة ثـم الخامسـة، وسـتتحول جزيـرة السـيدة المجنونـة إلـى شـيء ضبابـي.

***

أو قـد لا يحـدث هـذا الشـيء، وربمـا كان راكـب الدراجـة قـد مـر بالقرب مني فقط.

***

وقفـت أتطلـع إلـى الطريـق وأنظـر إلـى السـماء وإلـى الضبـاب الأبيض للدراجـة البخاريـة وإلـى حبيبي وهو يتصفـح هـاتفه الذكي من نافـذة المنـزل وأنتظـر الذي سيحـدث بعد ذلك.

إهداء

أتوجه بالشكر إلى بروس جاي فريدمان من مدرسة همبر للكُتّاب، الذي وجهني وساندني من أجل أن يخرج عملي هذا إلى النور، والشكر موصول أيضًا إلى وكلائي كريس روشستين وكارولين سويزي؛ اللذان احتضنا هذا الكتاب في نسخته الأولى، ومحررتي جينيفر هيل، والمدير الإبداعي كريسي كالهون، والناشر جاك ديفيد والمؤمّنون الحقيقيون في صحيفة إي إس دبليو، ومجلس تورونتو للفنون، وبرنامج دعم الكتّاب التابع لمجلس أونتاريو للفنون، والمجلس الكندي للفنون من خلال جوائز سي بي سي الأدبية وكل الأعمال التمويلية التي وفرت لي وقتًا ثمينًا للكتابة، والشكر أيضًا لمجلة رووم، وأكشنتي، وريدل فانس و أونتيثرد على نشر قصص تعتمد على الإصدارات الأولى لعدة فصول.

شكرًا لكل من قرأ المسودات وقدم اقتراحات أو مشورات تتسم بالخبرة حول الأمور الطبية والفنية والإدارية وهم؛ ديان براكوك، وكريس كازويل، وليزا دي نيكوليتس، وجيك ادينغ، وجوي ادينغ، ويوفيميا فانتيتي، وريك فافرو، وإيزي فيرغسون، وكوم كانكيسان، والدكتور لورانس لي، وليسلي كيني، وهيذر مكولوتش، وماريا ميندل وسوزان ريناسكو، وليسيا كانتون وجايمي روبين، أشكرهم جميعًا على دعمهم لي في اللحظات الحرجة. ولمحة لأصدقائي من مدرسة لورا سيكورد الثانوية، وخاصة ديبي لوهوي، والراحلة كاثي هريب، وشلي سميث باسفيلد لتقاسم ذكريات اليوم الذي جعلنا فيه والدها نعتقد بأن العالم على وشك الانتهاء.

وأخيرًا أعرب عن شكري لزوجي وشريكي المبدع رون إيدين على الحب والمرح والإلهام.

نبذة عن المؤلف

نشأت تيري فافلو في منطقة نهر نياجرا خلال الحرب الباردة، وقد قيل لتيري فافلو: "إذا ألقوا القنبلة، سنكون أول من يذهب"، واليوم هي من المرشحين النهائيين للفوز بجائزة سي بي سي الأدبية، ومؤلفة رواية**The Proxy Bride** الحائزة على جائزة، وشريكة في سلسلة قصص بيلا المصورة. هذا وتعيش تيري في تورونتو بأونتاريو وتنشر مدونات على موقع **TerriFavro.ca** .

مكتبة
t.me/t_pdf

ONE OF THE 100 BEST BOOKS IN THE WORLD

تم اختيار رواية تيري فافرو "أطفال سبوتنيك" (ECW) كواحدة من أفضل 100 كتاب في العالم لعام 2017 ، و CBC Books أهم 10 كتب روايات كندية لعام 2017 ، و Quill & Quire Best Books لعام 2017. أحدث رواياتها هي "مرة واحدة على موعد في غرب تورونتو"(Inanna). كما تتعاون مع الفنان رونالد ايدنج في تورونتو في سلسلة "بيلا" للروايات المصورة (Gray Border Books). فازت روايتها "The Proxy Bride" بجائزة Quattro Ken Klonsky Novella لعام 2012. وهي المرشح النهائي لجائزة CBC الأدبية في الخيال .

نشأت تيري فافلو في منطقة نهر نياجرا خلال الحرب الباردة، وقد قيل لتيري فافلو: "إذا ألقوا القنبلة، سنكون أول من يذهب"، واليوم هي من المرشحين النهائيين للفوز بجائزة سي بي سي الأدبية، ومؤلفة روايةThe Proxy Bride الحائزة على جائزة، وشريكة في سلسلة قصص بيلا المصورة. هذا وتعيش تيري في تورونتو بأونتاريو وتنشر مدونات على موقع TerriFavro.ca.

t.me/t_pdf

جميع كتبنا متوفرة على موكابوك
mokabook.net
Google Play
App Store

ISBN 978-9948-39-547-8
9 789948 395478